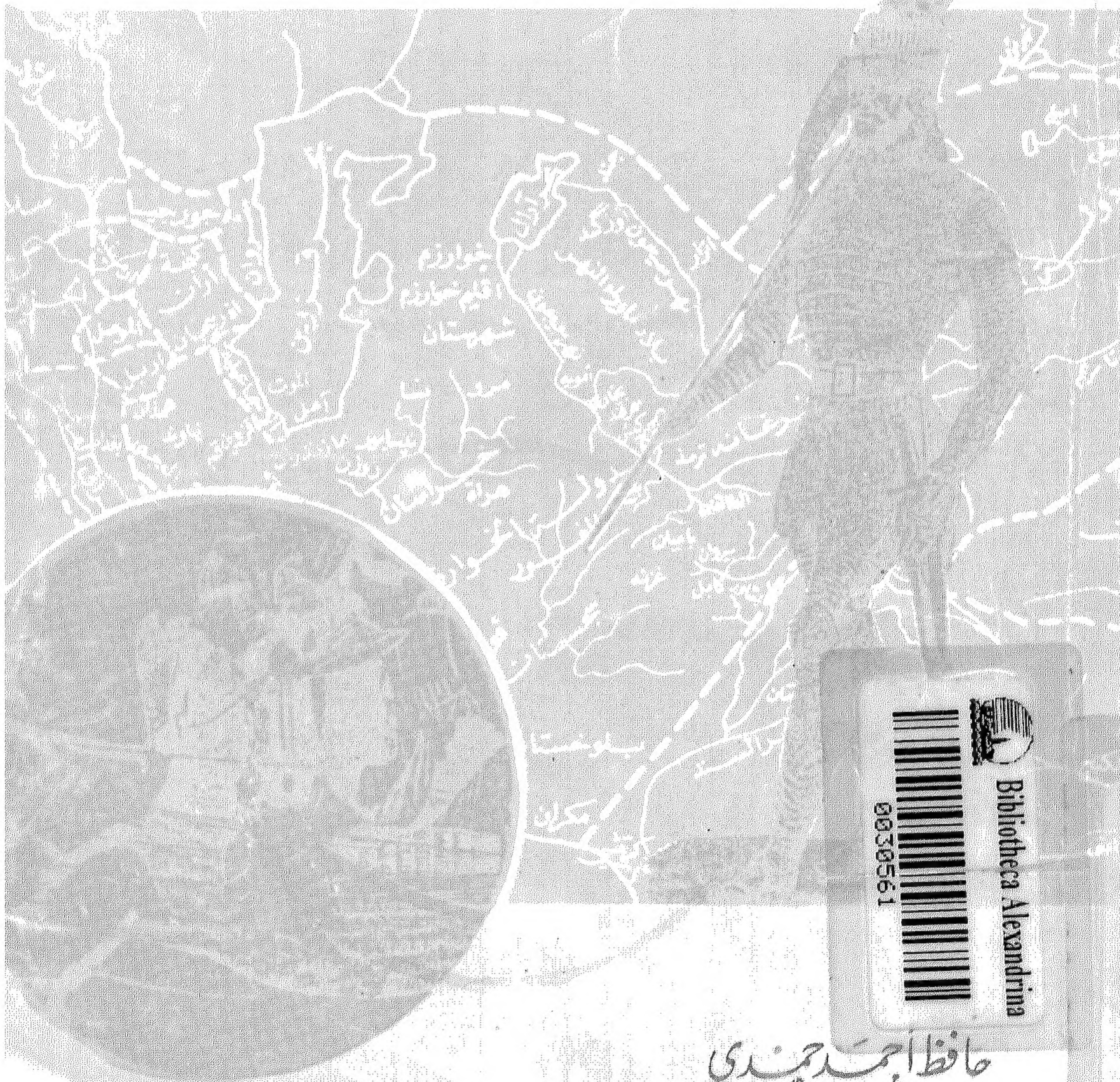


الدولة الخوارزمية والمغول

غزو چنگيز خان للعالم الإسلامي
وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية



حافظ أحمد حمدي

دار الفكر العربي

الدولة الخوارزمية والميغول

غزوچنكيزخان للعالم الإسلامى
وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية

تأليف

حافظ أحمد حميدى

ليسانس فى الآداب ، وماجستير فى الآداب بدرجة جيد جدا
ودبلوم معهد التربية العالى

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى

تقديم الكتاب

بقلم

الدكتور حسين إبراهيم عيسى

أستاذ التاريخ الإسلامى ، ورئيس قسم التاريخ
بكلية الآداب — جامعة فؤاد الأول

قدمت فى شهر نوفمبر الماضى رسالة تليذى الأستاذ الدكتور راشد البراوى عن « حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين » ، وأرجو مخلصاً أن تكون قد حازت الإعجاب والثناء . ويسرنى أن أقدم اليوم رسالة أخرى تتناول ناحية هامة من نواحي الشرق الإسلامى موضوعها : « الدولة الخوارزمية والمغول » ، لتليذى النابه الأستاذ حافظ أحمد حمدى . وهذه الناحية ميدان خصب للبحث والتحقيق لم يطره أحد من المؤرخين المحدثين بعد ، لأن مصادر تاريخ المغول والخوارزميين تكاد تكون فى جملتها مصادر أجنبية ، دوت بالفارسية والتركية والصينية .

وكان من حسن التوفيق أن يختار الأستاذ حافظ أحمد حمدى هذه الناحية من نواحي العصر العباسى الثانى موضوعاً لرسالته ، غير مبال بما يعترض الباحث فيها من صعوبات . وقد قسم رسالته إلى خمسة أبواب ، تكلم فى الباب الأول منها عن الدولة الخوارزمية من حيث نشأتها واتساع رقعة أملاكها ، كما تكلم عن سياستها الخارجية وصورت موقف هذه الدولة من القوى التى أحاطت بها ، ولا سيما دولة « الخيطة » التى كانت تجاورها من ناحية الشرق ، والخلافة العباسية التى كانت تجاورها من الغرب ، ولا سيما فى عهد الخليفة الناصر الذى لم يتردد فى الاستعانة بالمغول على أعدائه الخوارزميين ، حين تفاقم النزاع بينه وبينهم ، ومهد بذلك السيل لغزو چنكيزخان بلاد المشرق . ويظهر ما بذله المؤلف من جهد فيما كتبه عن حالة الدولة الخوارزمية الداخلية من النواحي الاجتماعية والثقافية ونظم الحكم .

أما الباب الثاني فقد صور فيه المؤلف حالة الشرق الإسلامي إبان غزوات المغول ، كما صور حالة المغول قبل الغزو ، ثم تكلم عن غزو چنكيزخان للدولة الخوارزمية ، وما أحدثه المغول من تخريب وتدمير ، وإزهاق للنفوس والأرواح ، ومحو لمعالم الحضارة والمدنية . وأفرد الباب الثالث لبحث حالة الدولة الخوارزمية بعد غزوات چنكيزخان ، فتكلم عن حالة هذه الدولة في عهد آخر سلاطينها جلال الدين منكبرتي الذي استطاع إلى حين أن يستعيد بعض ما كان للخوارزميين من نفوذ وسلطان ، ثم تتبع تاريخهم إلى أن غزا المغول بلادهم من جديد ، وقضوا عليهم وأدخلوهم تحت سلطانهم . وعالج في الباب الرابع العوامل التي أدت إلى زوال الدولة الخوارزمية على أيدي المغول ، فصور اضطراب حالتها الداخلية إبان غزوات المغول ، وبحث ما كان لضعف نظام الخوارزميين الحربي ، ولاضطراب أحوال دولتهم الداخلية من أثر ، فيما حل بهم من محن وخطوب على أيدي أعدائهم المغول الذين كانوا يتفوقون عليهم في النظم الحربية التي اقتبسوها عن الصينيين وغيرهم .

ولعل الباب الخامس والآخر أهم هذه الأبواب جميعا ؛ فقد بحث فيه الأستاذ حافظ أثر الغزو المغولي في الدولة الخوارزمية بوجه خاص ، وفي العالم الإسلامي بوجه عام من النواحي السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية . فوصف حالة الشرق الإسلامي تحت حكم المغول ، وما كان لزوال الدولة الخوارزمية من أثر في التوسع المغولي بقيادة هولاكو الذي تم على يده سقوط بغداد ، مما أدى إلى انتقال الخلافة العباسية إلى مصر . كذلك بحث الأثر الديني من حيث تنافس الديانات البوذية والمسيحية والإسلام ، وتسابق أتباعها إلى كسب قلوب المغول الوثنيين . كذلك تناول الكلام عن الأثر الاقتصادي من حيث فتح الطرق التجارية عبر القارة الآسيوية وتمهيد السبيل أمام التجار والرحالة الأوروبيين للوصول إلى شرق آسيا ، ووصف الطرق التجارية والبحرية التي وصلت طرفي القارة الآسيوية ، وربطت القارتين الآسيوية والأوربية بعضهما ببعض . وأخيرا تناول الكلام عن الأثر الثقافي لغزوات المغول ، وما كان للشرق الأقصى من أثر واضح في الفنون الإسلامية .

وتمتاز هذه الرسالة القيمة بتحرى الدقة فى أسلوب على مبنى على دراسة عميقة للمصادر الأصلية الكثيرة. وقد استطاع الأستاذ حافظ أحمد حمدى بذلك، أن يضيف حقائق علمية طريفة، تفيد العلم فائدة محققة، وتزير السبيل أمام الباحثين فى تاريخ المغول والشرق الإسلامى، حتى كان هذا البحث موضع ثناء الممتحنين وتقديرهم وإعجابهم.

لذلك يسرنى أن أقدم إلى قراء العربية هذا البحث الطريف الممتع، وأرجو أن يكون بداية لأبحاث أخرى فى تاريخ المغول، كما أرجو مخلصاً أن ينال هذا البحث التقدير الذى يتفق وما بذله المؤلف فى إعداد من جهود متصلة، وكفاية ممتازة، وطريقة علمية جديرة بالإعجاب. وإنى لعلى يقين بأنه سيسير على هذا النهج فى الرسالة التى أخذ فى إعدادها لدرجة الدكتوراه فى التاريخ الإسلامى.

عسى ابراهيم عيسى

أول يناير سنة ١٩٤٩ .

مقدمة

تعد الفترة التي سبقت سقوط بغداد على أيدي المغول من الفترات الجديرة بعناية الباحثين في تاريخ الدولة العباسية . وتعتبر الدولة الخوارزمية إحدى خلقات هذه الحقبة التاريخية التي لم تلق من عناية المؤرخين والباحثين ما هي جديرة به من بحث وتمحيص ..

وقد اتجه تفكيري إلى هذه الناحية من الدراسة ، منذ كنت طالبا بالسنة النهائية بكلية الآداب حين كتبت بحثاً متواضعاً في ناحية تتعلق بتاريخ الدولة الخوارزمية . على أنني أدركت منذ ذلك الحين مدى الصعاب التي تعترض الباحث في هذه الناحية من التاريخ ، وبدلاً من أن تكون هذه الصعاب سبباً في الإعراض عن الدراسة ، كانت على العكس من ذلك سبباً في الإقبال عليها ، فتقدمت بهذا البحث لدرجة الماجستير في الآداب .

توالى على حكم إقليم خوارزم — منذ بدأت الدولة العباسية في التفكك والانحلال — عدد من الحكام والأسرات ، استقل بعضهم بالحكم فيه ، نتيجة لما حل بالدولة العباسية من ضعف ووهن . ولست هنا في معرض التحدث عن هؤلاء الحكام ، ولكن المهم أن أذكر أن أهم هؤلاء جميعاً كانوا حكام أسرة «نوشتكين» ، فقد أبرزت الأحداث التاريخية تلك الأسرة وأظهرتها ، فابتلعت شهرتها تاريخ الأسرات التي سبقتها في حكم إقليم خوارزم . وربما تكون هذه الأسرة قد اكتسبت شهرتها من طول مدة حكمها واتساع رقعة أملاكها ، وقد تكون هذه الشهرة راجعة إلى ظهورها على حساب السلاجقة بل وعلى أنقاضهم — ولا يخفى ما كان للدور الذي قام به السلاجقة في تاريخ الدولة العباسية من أثر — ، وقد يكون ذلك الدور الذي قام به سلاطين هذه الدولة مع الخلافة العباسية ومع المغول هو سر انفرادها بهذه الشهرة ، وأخيراً قد تكون هذه الأحداث التاريخية مجتمعة السبب في أن هذه الأسرة قد طوت شهرتها حكام

تحوارزم السابقين . وتؤلف الحوادث التاريخية التي أحاطت ببلاد المشرق في عهد هذه الأمرة ، موضوع هذا البحث .

لست هنا في معرض التحدث عن فصول الكتاب ، ولكن يحق لي أن أذكر أن أهمية ما يضل إليه المشتغل بدراسة التاريخ ، تتوقف على دراسة الحوادث وأخذها من مصادرها الأولى . والمصادر الأولى التي استلزم هذا البحث دراستها كانت — بالإضافة إلى المصادر العربية — في مجملتها مصادر فارسية وتركية وصينية ، قرأت بعضها فيما نقله المستشرقون منها ، وقرأت البعض الآخر بمعاونة بعض المتقنين فيها والعارفين لأسوتها . وقد اقتضى هذا البحث أن أراجع الحقائق التاريخية المتنازعة وأن أقابل بين ما ورد في المراجع الصينية وما ورد في المراجع الأصلية الأخرى ، وكان هذا أهم ما صادفت من صعاب .

وكان من حسن التوفيق أن عاصر حوادث الغزو المغولي بعض مؤرخي المسلمين الذين كتبوا بالعربية ، نذكر منهم علي شليل الخليل ابن الأثير ، والنسوي . أما ابن الأثير فقد كان معاصراً لحوادث ذلك الغزو الذي بدأت حوادثه سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) . علي حين أنه توفي سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) . وإن السنوات الفارقة بين مقتل الغزو وبين موت ذلك المؤرخ لتفصح تمام الإفصاح عن أهميته التاريخية البالغة . ولا يخفى ما لأهمية رجل يتناول حوادث الغزو بنظرة الفاحصة ، وبحسب آلام المسلمين في هذه الأثناء ، ويصف ما هو واقع تحت حسه وبصره ، أضف إلى ذلك أن ابن الأثير عند المؤرخين طامة ، قديمهم وحديثهم ، حجة فيما دون ، وتحقيق فيما ألم به في كتابه الكامل في التاريخ .

أما النسوي ، ففضلاً عن أنه كان معاصراً لحوادث الغزو المغولي ، فقد انخرط في سلك وظائف الدولة الخوارزمية في عهد جلال الدين منكبرتي بوجه خاص . على أن أهميته لا تقف عند هذا الحد ، بل تتعداه إلى ما هو أخطر من هذا كله ، ألا وهو أنه كان رسول هذا السلطان في أكثر سفاراته إلى حكام المسلمين ، ولهذا الأمر أهميته من وجهة النظر التاريخية البحتة ، من حيث تعرف مجريات الأمور وأخذها عن مصادرها الأولى .

أما المؤرخون الذين دونوا حوادث الخوارزميين والمغول باللغة الفارسية، فأهمهم
اثنان : علاء الدين عطا ملك الجويني، وفضل الله رشيد الدين . ويُعتبر هذان المؤرخان
من أبرز الذين كتبوا عن حوادث المغول في العصر الذي تحدث عنه . وترجع
أهمية علاء الدين الجويني ^(١) إلى أنه كان سليل أسرة فارسية عريقة ، استعان المغول
بها في حكم فارس بعد غزوات چنگيزخان ، وكان علاء الدين الجويني نفسه من أولادهم
هو لا كو ثقتهم ، إذ وكل إليه حكم العراق العربي ، فظل في هذا المنصب طيلة عهده وعهد
ابنه أياقا خان . وعلاء الدين ، الذي يؤرخ للمغول ، في كتابه « تاريخ جهان كشاي » ،
منذ أغاروا على البلاد الإسلامية حتى عصر مانجوخان ، يعتبر حجة فيما كتب ، ولن
تكون هناك كتابة أحق بالاعتبار من تلك التي يكتبها رجل يعيش في كنف من
يؤرخ لهم .

أما فضل الله رشيد الدين ^(٢) ، فقد عاش في فارس وكان وزيراً لإيلخانات المغول
فيها في عهد كل من غازان وأولجايتو ، ويعتبر كتابه « جامع التواريخ » مكمل لما نقص
من كتاب الجويني . ولعل أبرز ما في كتابه ، ما دونه عن القبائل التركية في شرق آسيا
وعن چنگيزخان في سني حكمه الأولى ، وقد سرد ما كتبه مستعينا بوزير مغولي كان
أعرف رجال عصره بتاريخ الأتراك في شرق آسيا .

ومن المراجع الهامة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث ، كتاب « شجرة تركي » الذي
كتبه باللغة التركية أبو الغازي بهادر خان سليل چوچی بن چنگيزخان . وقد تناول
فيه تاريخ المغول منذ مستهل تاريخهم حتى العصر الذي عاش فيه المؤلف ^(٣) .

وكان من حسن التوفيق أن عثرت على بعض المراجع الصينية التي تصدت

(١) توفي الجويني سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٣ م) ، على أن كتابه « تاريخ جهان كشاي » ينتهي عند سنة
٦٥٥ هـ (١٢٥٨ م) . وقد أتم هذا الكتاب عبد الله بن فضل الله المعروف بوصاف الحضرة ، فتكلم عن
تاريخ المغول حتى سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧ م) .

(٢) ولد رشيد الدين في مدينة همدان سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) ، وقُتل بأمر من أوسعيد ، إيلخان
للمغول في فارس سنة ٧١٧ هـ (١٣١٨ م) . وقد كتب عن تاريخ المغول حتى وفاة غازان .

(٣) توفي أبو الغازي سنة ١٠٧٤ هـ (١٦٦٣ م) . ومما هو جدير بالذكر أن هذا الكتاب قد
نشره بالفرنسية M.Varenne de Mondesse وسماه باسم : Histoire Généalogique des Tatars .

لتاريخ المغول في الفترة التي تناولها البحث ، أذكر على سبيل المثال منها تلك المذكرات المعروفة باسم « سي يو كي » Si Yu Ki ، أي Travels to the West of K'iu Ch'ang Ch'un التي خلفها لنا Ch'ang Ch'un ، ذلك الأسقف الصيني الذي صحب چنكيزخان في بعض بلاد الشرق الإسلامي ، فدون أحد تلاميذه الذين كانوا في رفقته مذكرات عن هذه الرحلة . ويغلب أن يكون ذلك الأسقف هو الذي أملى هذه المذكرات أو على الأقل أو عزب كتابتها . والمهم أنه تكلم عن البلاد التي مر بها في رحلته ، ووصف كثيرا من المدن الإسلامية قبل الغزو المغولي وبعده .

ومن المراجع الصينية الهامة ، ذلك المرجع الذي يعرف باسم « سي يو لو » Si Yu Lu ، أي Account of a Journey to the West الذي كتبه « يي لوشوتساي » Ye-lu Ch'u ts'ai ، وزير چنكيزخان ورفيقه في حملته على غرب آسيا . وقد وصف في كتابه ، المدن والممالك التي مرت بها الجيوش المغولية . وترجع أهمية هذا المرجع إلى أنه يروي في إسهاب ما فات المراجع الفارسية تدوينه ، أو ما ذكرت القليل عنه : وكانت دولة « الخطا » التي تكلمنا عنها في الباب الأول ، من الدول التي كان لها شأنها في تاريخ الدولة العباسية في الفترة التي نتحدث عنها . وقد اعتمدنا فيما ذكرناه عنها على كثير من المراجع الأصلية ومن أهمها الصينية ، وفي طليعة هذه المراجع اثنان : أولهما يعرف باسم « لياوشى » Liao Shi ، أي Chinese History of the Liao (K'i-tan) Dynasty ، وثانيهما يعرف باسم « لياوكيوشى » Liao Kuo Shi ، أي History of the K'i-tan Nation . ويرجع إلى برتشneider فضل ترجمة أهم ما في هذين المرجعين إلى الإنجليزية .

وقد نقل لنا كل من Hirth و Rockhill بعض المؤلفات الصينية التي عالجت تجارة العرب والصينيين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي ، وهي الفترة التي تناولها بالبحث ، ومن أهمها Chau Ju-Kua : Chu- Fan- Chi ، وكان لهذه المؤلفات أثرها الملحوظ فيما كتبناه عن التجارة بين شرق آسيا وغربها قبل غزوات المغول وبعدها .

تعددت مصادر البحث على النحو الذى رأيناه ، وكان طبيعيا أن يختلف وجهات نظر المؤرخين الذين يختلف بعضهم عن البعض الآخر فى المجلس واللغة والدين والميول السياسية والدينية ، وخاصة إذا كانوا يؤرخون لحوادث واحدة ، وكان هذا مما زاد الأمر فى نظرى صغوبة وتعقيدا . فأسلوب الكتابة الذى يكتب به مؤرخ مسلم عن حوادث غزو المغول لبلاده ، لابد من أن يختلف عن ذلك الأسلوب الذى يكتب به مؤرخ صينى أو فارسى يعيش بين المغول وفى كنفهم ، ويختلف عن هذا وذلك مؤرخ مغولى يؤرخ لقومه وعشيرته .

وبعد ، فلا يسعنى إلا أن أتقدم بخزير العسكر لحضرة أستاذى الدكتور حسن إبراهيم حسن أستاذ التاريخ الإسلامى ورئيس قسم التاريخ بجامعة فؤاد الأول الذى أشرف على إعداد هذا البحث ، وإنى لأعترف بما له على من فضل التوجيه والإرشاد والتشجيع . كما أقدم شكرى لحضرة الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وأستاذ الفنون الإسلامية بها ، فقد تفضل بمراجعة بعض نواحي هذا البحث ، وأجانبى على اختيار كثير من اللوحات الفنية التى توضح معالم هذا العصر من مكتبته الخاصة النفيسة . ولا يفوتنى أن أشكر الزميل الأستاذ نظمى السيد قنصوه ، لتفضله بمعاوتى فى قراءة تجارب الكتاب . .

وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت فى هذا البحث المتواضع إلى إيضاح ما غمض من معالم هذا العصر ، وما توفيقى إلا بآله .

هاتف محمد محمدى

القاهرة ، أول فبراير سنة ١٩٤٩ .

محتويات الكتاب

صفحة	
١	الإهداء
٣	تقديم الكتاب
٦	مقدمة

الباب الأول

الدولة الخوارزمية قبل غزوات المغول

١٧	١ - نشأة الدولة الخوارزمية واتساعها
٣٠	٢ - موقف الدولة الخوارزمية من الخلافة العباسية
٤٦	٣ - علاقة الدولة الخوارزمية بدولة الخطا
٤٦	(أ) علاقة الدولة الخوارزمية بالخطا حتى نهاية عهد أتسرخوارزم شاه .
	(ب) علاقة الدولة الخوارزمية بالخطا منذ وفاة أتسرخ حتى
٥٤	ظهور چنكيزخان
٦٦	٤ - علاقة الدولة الخوارزمية بالمغول قبل الغزو المغولي
٧٤	٥ - بعض مظاهر الحياة الداخلية في الدولة الخوارزمية
٧٤	(أ) الحياة الاجتماعية
٨٠	(ب) نظام الحكم
٨٦	(ج) الحياة الثقافية

الباب الثاني

چنكيزخان وغزو الدولة الخوارزمية

٩٣	١ - الشوق الإسلامي إبان غزوات المغول
----	--------------------------------------

١٠٨	٢ - المغول قبل غزو الدولة الخوارزمية
١١٥	٣ - المغول في بلاد ما وراء النهر
١٢٧	٤ - خضوع الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية
١٣٦	٥ - المغول في إقليم خوارزم
١٤٤	٦ - المغول في خراسان
١٥٣	٧ - المغول في إقليم غزنة

الباب الثالث

الدولة الخوارزمية في عهد جلال الدين منكبرتي

١٦٧	١ - عودة جلال الدين منكبرتي إلى عرش الدولة الخوارزمية
١٧٤	٢ - اتساع نفوذ جلال الدين منكبرتي
١٩١	٣ - زوال الدولة الخوارزمية على أيدي المغول

الباب الرابع

عوامل زوال الدولة الخوارزمية

٢٠١	١ - اضطراب الحالة الداخلية في الدولة الخوارزمية
٢٠٦	٢ - ضعف النظام الحربي الخوارزمي
٢١٠	٣ - قوة النظم الاجتماعية والجبرية عند المغول

الباب الخامس

أثر الغزو المغولي في الدولة الخوارزمية والعالم الإسلامي

٢٢٥	١ - الأثر السياسي
٢٢٥	(أ) سياسة المغول الداخلية في الدولة الخوارزمية
٢٣٤	(ب) توسع المغول في غرب آسيا
٢٤٣	٢ - الأثر الديني
٢٥٣	٣ - الأثر الاقتصادي
٢٦٢	٤ - الأثر الثقافي

الجدول

صفحة

- ١ - الخوارزميون ٢٧٣
- ٢ - خلفاء الدولة العباسية منذ العصر السلجوقي حتى سقوط بغداد . ٢٧٤
- ٣ - سلاطين السلاجقة في العراق وفارس ٢٧٥
- ٤ - خانات المغول منذ چنكيزخان حتى كوبلايخان ٢٧٦
- ٥ - إيلخانات المغول في فارس حتى عصر أبي سعيد ٢٧٧

الخرائط

مقابل صفحة

- ١ - الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها ١٤
- ٢ - بلاد الصين في أوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ٤٩
- ٣ - الشرق الإسلامي بعد عصر ملكشاه مقابل ٩٦
- ٤ - الممتلكات الصليبية في بلاد الشام سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) . . . ١٠٧
- ٥ - الطرق التجارية عقب غزوات المغول مقابل ٢٦٠

اللوحات

مقابل صفحة

- ١ - چنكيزخان ، صورة يمتلكها أحد أحفاده ١٦
- ١ - كسوة جدار من الجص ذي الزخارف البارزة باسم طغرل بك . . . ٢٤
- ٣ - قطعة نسيج من الحرير ترجع إلى العصر السلجوقي ٣٢
- ٤ - مثال من الزخارف الكتابية ، على قطعة من النسيج الإيراني ترجع إلى القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) . . ٤٠
- ٥ - قبر مؤمنة خاتون نخجوان شمال غرب إيران ، مؤرخ سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) ٦٥
- ٦ - صحن من الخزف السلجوقي ذي الزخارف المحفورة والمتعددة الألوان ، من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) . . ٨٠
- ٧ - رسم يمثل اجتماع زعماء المغول للناداة بچنكيزخان خاقانا . . ١١٢
- ٨ - صورة تمثل فرسان چنكيزخان بعد غارة موفقة في آسيا الوسطى . . ١٢٠

- ٩ — منظر لهجوم الفرسان المغول في مخطوط من مخطوطات الشاهنامه . ١٣٦
- ١٠ — رسم يمثل جنكيز خان واقفا بباب خيمته ومن حولها خيام جاشيته . ١٤٤
- ١١ — منظر في مخطوط يمثل انتصار البطل رستم ١٥٢
- ١٢ — منظر قتال في مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين . . . ١٦٠
- ١٣ — منظر لمعركة لجيوش المغول في مخطوط من كتاب جامع
- التواريخ لرشيد الدين ٢١٦
- ١٤ — رسم الجبال في الطريق إلى التبت من كتاب جامع
- التواريخ لرشيد الدين ٢٢٢
- ١٥ — رسم على الطراز الصيني في مخطوط إيراني ، يبدو فيه التأثير
- بالأساليب الفنية الصينية ٢٤٠
- ١٦ — إناءان من الخزف ، يشبهان بعض أنواع الخزف
- الصيني في المادة وروح الزخرفة ٢٤٨
- ١٧ — قنيتان من الخزف الأبيض والأزرق تشبهان الخزف
- الصيني في المادة والشكل وروح الزخرفة ٢٥٦
- ١٨ — رسم في مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين
- يبدو فيه مبلغ تأثير الفن الإسلامي بالفن الصيني ، ولا سيما
- في ظهور السحنة الصينية ٢٦٤

المراجع

- المراجع العربية ٢٧٨
- المراجع الأجنبية ٢٨١

الكشاف

- ١ — أسماء الرجال والنساء ، والدول ، والقبائل ، والفرق الدينية . ٢٨٦
- ٢ — أسماء المدن ، والأقاليم ، والأنهار ، والبحار ٢٩٦
- ٣ — الوظائف ، والدواوين ٣٠٣

الباب الأول

الدولة الخوارزمية قبل غزوات المغول

- ١ - نشأة الدولة الخوارزمية واتساعها .
- ٢ - موقف الدولة الخوارزمية من الخلافة العباسية .
- ٣ - علاقة الدولة الخوارزمية بدولة الخِطّاء .
 - (أ) علاقة الدولة الخوارزمية بدولة الخِطّاء حتى نهاية عهد أتسرخوارزم شاه .
 - (ب) علاقة الدولة الخوارزمية بالخِطّاء منذ وفاة أتسرخ حتى ظهور چنكيز خان .
- ٤ - علاقة الدولة الخوارزمية بالمغول قبل الغزو المغولي .
 - (أ) الحياة الاجتماعية .
 - (ب) نظام الحكم .
 - (ج) الحياة الثقافية .
- ٥ - بعض مظاهر الحياة الداخلية في الدولة الخوارزمية .

لوحة ١



چنگیزخان

صورة يمتلكها أحد أحفاد چنگیزخان

(من كتاب Universal History of the World, vol. 5.)

الباب الأول

الدولة الخوارزمية قبل غزوات المغول

١ - نشأة الدولة الخوارزمية واتساعها

ظهرت الدولة الخوارزمية على مسرح التاريخ الإسلامى نتيجة حوادث تاريخية متعددة ، يلى بعضها البعض فى فترات متداخلة ، ظهرت مع الدولة العباسية منذ نشأتها ، كما ظهرت نتيجة للتيارات السياسية والاجتماعية فى شرق آسيا وغربها .

الثابت أن قادة الرأى من بنى العباس عندما فكروا فى إقامة خلافتهم العباسية ، اختطوا لأنفسهم خطة مغايرة لخطة الأمويين ، ولخطة الخلفاء الراشدين من قبلهم ؛ إذ تحولوا عن العنصر العربى إلى العنصر الفارسى وظنوا أنهم باعتمادهم على هذا العنصر الجديد فى إقامة دولتهم ، قد شيدوا لأنفسهم مجداً خالداً ؛ على أن نفوذ العباسيين مالت أن تضائل أمام هذا العنصر الخطر الذى كاد يقضى على صرح المدينية العربية . فلما وجد العباسيون أنهم ضعفوا أمام هذا العنصر الفارسى ، استعانوا عليه بعنصر أشد وأنكى ألا وهو العنصر التركى ، الذى لم يلبث أن أذل الخلفاء وبحكم فى دولتهم وأزال هيبتهم ، ولولا حاجة هؤلاء الأتراك إلى الاستناد إلى قوة شرعية تشد أزرهم لكان من المحقق أن تزول الخلافة العباسية من بغداد على أيديهم ولا اكتسبوا لأنفسهم نفعاً إزالتها ، ذلك الفخر الذى اكتسبه المغول فيما بعد (١) .

على أن الضعف الذى أصاب الخلفاء فى عقر دارهم ما لبث أن امتد إلى دولتهم الشاسعة فى الشرق والغرب ، وانقسمت دولتهم إلى دول ودويلات متعادية متنافرة ، ترتفع الواحدة على أكتاف الأخرى ، ولم تكن الدولة الخوارزمية إلا إحدى هذه الدول التى ظهرت فى فترة من فترات الانحلال .

المعروف أن الجزء الشمالى الشرقى من آسيا كان فى العصور التاريخية المختلفة بمثابة ينبوع تخرج منه العناصر البشرية التى تندفع فى شبه سيل إلى غرب آسيا ، لظروف منها

(١) يمثل النفوذ الفارسى فى أسرة البرامكة ، ويظهر النفوذ التركى منذ عصر المعتصم ، كما يمثل فى عهد البويهيين والسلاجقة من بعدهم .

ما يرجع إلى البيئته في وطنها الأصلي ، ومنها ما يرجع إلى عوامل سياسية في هذه البلاد ، مما يضطرها إلى الهجرة . قد تهاجر هذه العناصر بسبب جذب يصيب بلادها ، أو بسبب تكاثر عددها ، حتى إذا لم تتحملها بيئتها الأصلية اضطرت إلى البحث عن مأوى جديد ، حيث الفسحة من الرزق والعيش الوفير ؛ وقد تضطرها الأحداث السياسية في موطنها الأصلي إلى الهجرة قسرا بعد أن يستولى عدو غاصب على أراضيها فتضطر إلى البحث عن وطن جديد ، مكرهة على الهجرة ، إما في جماعات صغيرة متفرقة ، وإما في هجرات عامة تكتسح ما يقابلها من البلاد ، وكانت هذه العناصر تأوي إلى حيث تنبرها المدينيات ، أو تسكرها مواطن الثروة والرخاء .

استمالت الحضارة الإسلامية هذه العناصر فاندفعت إليها ، وجذبتها ثروة الدولة الإسلامية فسكنت على حدودها ، وأخذت تتطلع بشغف إلى نور يهديها الطريق إلى جوف الدولة الإسلامية . وتطلع الخلفاء والحكام من المسلمين إلى هؤلاء الأتراك ، فأعجبهم جمال خلقهم وقوة أجسامهم وميلهم إلى الحركة والنشاط ، فأكثروا من اقتنائهم ، فشجع ذلك تجار البشر الذين كثروا في أنحاء الدولة وأكثروا من شراء الأتراك وعرضهم كالسلع في الأسواق ، كما تشجع لصوص الطريق فاختطفوا الصغار من الأتراك من الأراضي المتاخمة لأراضي الدولة الإسلامية وقادوهم إلى حيث الربح الوفير في هذه الأسواق ، وحيث يجدون عملاء الخلفاء والأمراء في الانتظار . ويحدث بعد ذلك أن يتدرج هؤلاء الصغار في بلاط الأمراء من المسلمين فينشأوا نشأة إسلامية ، حتى إذا ما كبروا وترعرعوا ، تكون منهم حرس الخليفة أو الأمير وأسندت إليهم الوظائف العامة في الدولة^(١) .

كثرت الأتراك في الدولة الإسلامية وتكاثروا ، وكلما زاد عددهم ، زاد اعتماد الخلفاء عليهم وتوغل سلطانهم في جوف الدولة ، حتى قدر لهم في النهاية أن يستأثروا بكل شيء بعد أن سلبوا الخلفاء كل شيء . وقد زاد تحكم الأتراك في الدولة العباسية في عهد كل من بني بويه والسلاجقة ، ووصلت العناصر التركية السلجوقية إلى قمة مجدها في عهد ملكشاه ، ثم بدأت هذه الدولة تنهار تدريجيا ، وبدأت تظهر في أنحاء الشرق الإسلامي دول وإمارات مستقلة

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 176.

على أنقاض الدولة السلجوقية المضمحلة . ومن هذه الدول، الدولة الخوارزمية التركية الأصل التي بدأت في الظهور حينما بدأت شمس السلاجقة في الغروب، وإن تاريخ هذه الأسرة التركية لا قوى دليل على تغلغل العناصر التركية في جوف الدولة الإسلامية^(١). تنسب الدولة الخوارزمية إلى نوشتكين أحد الأتراك في بلاط ملكشاه^(٢) حيث كان يشغل وظيفة الساقى^(٣)، وهي إحدى وظائف البلاط الإسلامي المعروفة . وقد خدم نوشتكين السلطان ملكشاه ودرج في سلك الوظائف في أيامه^(٤). اشتهر قطب الدين محمد بن نوشتكين بالعلم والأدب، لذا عينه أحد قواد السلطان بركياروق السلجوقي حاكماً على إقليم خوارزم ولقبه خوارزم شاه^(٥).

وهكذا بدأ نجم الدولة الخوارزمية في الارتفاع على حساب القوى الموجودة في ذلك الوقت، وكان أهم هذه القوى، القوة السلجوقية التي بدأت في الانهيار بعد وفاة ملكشاه كما ذكرنا . ثم كان على الدولة الخوارزمية أن تتطلع إلى الدولة الغورية فتبتلعها، كما كان لابد لها من أن تصطدم مع دولة الخِطّاء، في الشرق ومع الخلافة العباسية في الغرب . كان عهد ملكشاه نهاية عهد تماسك القوة الإسلامية عامة والدولة السلجوقية خاصة، إذ بدأت الدولة الإسلامية من بعده في الانحلال والانقسام إلى دويلات وأتابكيات، وعلى الرغم من هذا الانقسام، كان كثير من هذه الأجزاء لا يزال يحتفظ بقوته وسلطته^(٦)؛ فاحتفظ السلاجقة بكيانهم وسلطانهم في عهد سنجر بن ملكشاه (٥٥٢+ = ١١٥٧ م) في خراسان وفارس، كما احتفظوا بقوتهم في العراق تحت إمرة أبناء ملكشاه وأحفاده حتى نهاية عهد السلطان مسعود (٥٤٧+ = ١١٥٢ م) الذي يعتبر آخر سلاطين سلاجقة العراق الأقوياء، وبوفاته بدأ البيت السلجوقي في العراق في الانحلال^(٧).

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 176.

(٢) يلاحظ أن نوشتكين كان عبداً لأحد الأمراء السلاجقة وهو بلاتاجين Billa-Tagin الذي حمله إلى بلاط ملكشاه. Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion, p. 323.

(٣) Curtin : The Mongols' History, p. 98.

(٤) Howorth ; History of the Mongols, part. i. p. 7.

(٥) من هذا نرى أن محمد بن نوشتكين هو المؤسس الحقيقي للدولة الخوارزمية وليس نوشتكين . وقد سمي بعض المؤرخين هذا الرجل باسم أنوشتكين ولكننا نميل مع النسوي إلى تسميته باسم نوشتكين .

(٦) Loewe, H.M.J : The seljuqs.

(Cambridge Medieval History, Vol. IV. p. 317)

(٧) أبو الحسن : النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ٣٠٣ . القريري : الملوك، ج ١ قسم ١ ص ٣٨ .

حتى قدر لدولتهم الزوال نهائيا بمقتل آخر سلاطينهم طغرلبك سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م). بدأت الدولة الخوارزمية بتحطيم صرح القوة السلجوقية في المشرق أيام السلطان سنجر الذي وجد نفسه أمام قوتين ، اجتماعتا على محاربتة ، ولم تكن هاتان القوتان سوى الدولة الخوارزمية من جهة والخطاء من جهة أخرى ، إذ عول أتسز بن محمد بن فوشتكين منذ آل إليه السلطان ، على أن يعمل على مد رقعة مملكته ، ولم يجد أمامه سوى دولة السلاجقة ليقطع منها لنفسه ، منتهزا فرصة تهديد الخطاء لدولة السلاجقة في فترات مختلفة ، وضعف سنجر أمامهم . فلما رأى سنجر بوادر الثورة التي بدأ أتسز يشنها عليه ، خاف أن يضيع إقليم خوارزم من يده ، فسار إليه معلنا الحرب عليه سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) ، ولم يستطع أتسز وقوته الناشئة أن يقف أمام سنجر وكثرة عدد جيوشه ، فانهزم أتسز وقتل عدد كبير من أتباعه وتفرق الباقون ؛ وقد وجدت جثة ابنه في ساحة القتال بين أشلاء القتلى ولما وطد سنجر نفوذه في خوارزم ، ولى عليها غياث الدين سليمان شاه بن أخيه محمد وأمه بوزير مخلص ، كما عين له أتابكا وجاجبا ، ثم عاد إلى عاصمته مرو . ولم يكن أتسز — وهو الطامع في السلطة — ليهذا أمام هذه الهزيمة ، كما لم يكن أهل هذه البلاد — وهم الذين يكونون كل بغض وكرامية للعسكر السنجري — لينخضوا لهذه الهزيمة ، لذلك سرعان ما مهدوا الطريق أمام أتسز ليعود إلى خوارزم ، وانتهى هذا الصراع فعلا بعودته إلى الأراضي الخوارزمية واستعادته نفوذه هناك ^(١) . وقد غادر غياث الدين هذه البلاد حال وصول أتسز وجنوده ، إذ لم يكن لديه من الجنود ما يمكنه من مقاومة أتسز ^(٢)

ولما كانت مآرب دولة الخطاء ، ومآرب أتسز خوارزم شاه قد اتحدتا ، فقد تحالف الفريقان وتزوج أتسز من هؤلاء القوم ، وبفضل هذا التحالف وتشجيع أتسز للخطاء انتقاما لنفسه ولولده المقتول ، أمكن الخطاء أن يوقعوا الهزيمة بسنجر وأتباعه سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) ، وأن يستولوا على بلاد ما وراء النهر ^(٣) مما سنفصله في موضعه ، بل يمكن القول إنه بينما كان سنجر مشغولا بمحاربة الخطاء ، تمكن أتسز من الاستيلاء على مرو ^(٤) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣١ .

(٢) Skrine & Ross : The Heart of Asia, p. 138.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣٧ — ٤٠ .

(٤) للفريري : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٣٧ .

ولقد دخل أتسز هذه المدينة عنوة وأعمل القتل في أهلها، وجلس على عرش سنجر، واستولى على أمواله وجواهره،^(١) ثم استولى أتسز على مدينة نيسابور في نفس السنة، أي في سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م)، ولم يشأ أن يصيب أهلها بسوء بعد أن استعطفه علماء المدينة وفقهاؤها، على أن ذلك لم يمنعه من البحث عن أملاك سنجر في هذه المدينة واغتصابها لنفسه. وما يسترعى النظر أن أتسز قطع الخطبة لسنجر في خراسان دون أن يجد أمامه مقاومة ما، إذ خاف الخراسانيون عاقبة عصيانه.

وقد استمرت خراسان تحت حكم الخوارزميين حتى استعاد سنجر نفوذه فيها في أوائل سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م)^(٢)، إذ عاد سنجر من حروبه مع «الخطا» وعلم بما فعله أتسز استعداد للقاءه، فلما سار إليه وجد أتسز نفسه مضطرا لقبول الصلح، وقبل أن ينزل عن كل مملكته من البلاد الخراسانية في غيبة سنجر، كما تعهد بارجاع ما استولى عليه من الأموال والجواهر من مدينة مرو^(٣)، ومن الغريب أن أتسز أعادها دون أن يمسا^(٤)، وهذا يدلنا على مدى خوف الخوارزميين من أسيادهم السلاجقة، كما يدلنا على أن الدولة الخوارزمية لم تصل بعد إلى درجة كافية من النضوج السياسي. وما يسترعى النظر أن سنجر فضل الصلح على الحرب خوفا من «الخطا» الذين زادت قوتهم في بلاد ما وراء النهر، والذين تآخمت أملاكهم أملاك حلفائهم الخوارزميين، وكل من الخطا والخوارزميين عدو للسلطان سنجر^(٥)، ومع ذلك فقد عاد سنجر إلى عاصمته مرو سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) بعد أن تعهد أتسز بأن يعود إلى سابق طاعته للسلاجقة^(٦).

ولم يستمر هذا الصلح طويلا، إذ لم يكن من المعقول أن يقنع أتسز بما حدث وأن تقف أطاعه عند هذا الحد، وهو الذي ركز سياسته في تحقيق استقلاله وتكوين دولة قوية له تصارع الدولة السلجوقية في أواخر أيامها، لذلك كان لا بد أن ينشب الصراع من جديد بين سنجر وأتسز، ذلك الصراع الذي استمر بين مد وجزر، حتى انتهى بانتهاء حياة الزعيمين الخوارزمي والسلجوقي.

(١) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٥٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤٠ .

(٣) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion, p. 327 .

(٤) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٥٧ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤٠ .

(٦) المرجع نفسه ، ج ١١ ص ٤٤ .

ولم يقتصر تراشق هاتين القوتين على الأسهم والنبال، بل تعداها إلى ميدان الشعر والأدب، فكان لكل فريق شاعره الخاص، إختص بمدح صاحبه وهجو عدوه. فكان شاعر أتسز رشيد الدين وطواط^(١) لا يني عن كيل المديح لصاحبه أتسز وذم عدوه سنجر، وكان الموقف متشابهاً تماماً بالنسبة للأتوري شاعر السلطان سنجر^(٢).

استمر النزاع بين القوتين السلجوقية والخوازرية، كما قلنا، طيلة عهد أتسز خوارزم شاه حتى توفي سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م)^(٣)، وشامت الظروف أن يلحق به سنجر في السنة التالية. وبوفاة سنجر انتهت القوة السلجوقية تماماً من بلاد فارس وخراسان ولم يجد الخوارزميون بعده منافساً يقف أمامهم ويعوق سبيل توسعهم، فخلا لهم الجو تماماً؛ إذ كان محمود خان الذي خلف سنجر لا قيمة له في نظر الخوارزميين. وليس أدل على ذلك، من أن أيل أرسلان بن أتسز كان يذيل رسائله إليه بعبارة «صديقك الأمين، علي حين أن أتسز كان يكتب لسنجر «عبدك»^(٤).

وهذا التحول في صيغة الرسائل المتبادلة بين الخوارزميين والسلجوقية إن دل على شيء، فإنما يدل على رجحان كفة الخوارزميين الذين تهيأت لهم الظروف لتحقيق أطماعهم الاستقلالية وفق سياستهم التي رسموها لأنفسهم منذ أيام أتسز، فسار خلفاؤه على نهجه بنفس المهارة وبنفس الحماس^(٥). لذلك لا نعجب إذا قلنا إن أيل أرسلان ابن أتسز استطاع أن يبسط سلطانه على غربي خراسان بعد وفاة سنجر، وأخذ يعمل على تقوية دولته دون أن يخشى القوة التي وقفت في وجه أسلافه من الخوارزميين. فالحقيقة أن دولة السلجوقية في فارس انتهت تماماً بوفاة سنجر، وانقرض خلفاؤه بعد أن عجزوا عن مقاومة دولة الخوارزميين الفتية. ولهذا لا نعجب إذا اعتبر المؤرخان سكرين وروس (Skrine & Ross) أيل أرسلان أول سلاطين الخوارزميين المستقلين^(٦).

(١) سمي وطواط نسبة إلى قصر قامته وبيع منظره.

(٢) مما هو جدير بالذكر أن براون قد ترجم هذه القصائد التي أشادت بالفارسية إلى شعر إنجليزي وسنذكر ترجمتها إلى العربية فيما بعد. Browne: A Literary History of Persia, Vol. ii. pp. 309 — 310.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ١١ ص ٩٤.

(٤) Barthold: Turkestan Down to the Mongol Invasion. p. 332.

(٥) Ibid, p. 331.

(٦) Skrine & Ross: The Heart of Asia, p. 140.

هكذا زال أكبر عائق في سبيل تقدم القوة الخوارزمية ، وإذا كان هناك منافس لهذه الدولة ، فقد جاءت هذه المنافسة من ناحية الخطأ كما سنفصله في موضعه .

مات أيل أرسلان سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) تاركا ولديه سلطان شاه محمود وعلاء الدين تكش . وقد استطاع الابن الأصغر سلطان شاه محمود أن يعتلي عرش الخوارزميين بمساعدة أمة التي دبرت أمور المملكة وأمدته بالجنود الذين التفوا حوله . ولم يسكت الأخ الأكبر علاء الدين تكش طبعاً على هذا الوضع الشاذ ، فاستعان على أخيه بعدو خطر وفضل أن يلجأ إلى الخطأ ، كي يصل إلى العرش بعد أن أطمعهم وأغرامهم بالمال الوفير . وقد أرسل الخطاء معه جيشاً ، استطاع في النهاية أن يجلسه على عرش أبيه (١) . أما الأخ الأصغر فقد هاله أن يضيع منه السلطان ، لذلك أخذ يتنقل شريداً بين حكام البلاد المختلفة مستعيناً بهم على أخيه ، فاستجار أحياناً بالخطاء محاولاً أن يجذبهم إلى جانبه واستجار أحياناً أخرى بملوك الدولة الغورية ، إلى أن تلقفته أخيراً يد الموت فمات سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٢ م) (٢) . ولما كان تكش يدين بالسلطنة للخطاء فقد ظل خاضعاً لهم طيلة عهده رغم محاولته التخلص من هذه التبعية أكثر من مرة (٣) .

وبما يستحق الاهتمام في حياة تكش خوارزم شاه ، أن الدولة الخوارزمية استطاعت بفضل جهوده أن تتوسع غرباً ، كما استطاع هو أن يجعل دولته مسموعة الكلمة بين أمراء العراق وحكامه ، وأصبح الخليفة الناصر لدين الله العباسي ينظر إلى هذه الدولة بمنظار آخر يخالف منظار من سبقه من الخلفاء ، حتى أننا نجد أن هذا الخليفة الذي كان يعمل منذ توليته عرش الخلافة على تثبيت ملكه وغسل الإهانة التي وصم السلاجقة الخلفاء بها ، نجد هذا الخليفة يلجأ إلى خوارزم شاه تكش ويستعين به ضد آخر سلجوقي في العراق وهو طغرل بك ، ويعدّه إن هو تمكن من القضاء عليه أن يوليّه ما كان بيد هذا السلجوقي من بلاد . وكانت هذه فرصة نادرة وجد فيها تكش كل ما اشتهى ، إذ تهيأت له الظروف لمد نفوذ دولته غرباً ، كما وجد أمامه فرصة نادرة لتحقيق سياسة أجداده وتكوين دولة ذات كيان سياسي معلوم . وعلى كل حال فقد التقى العسكران الخوارزمي

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١١ ص ١٦٩ — ١٧٢ .

(٣) Barthold . Turkestan Down to the Mongol Invasion, p. 339.

والسلجوقي قريبا من الرى سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) ، وكان نصراً مبنياً أحرزه الخوارزميون ، إذ استشهد طغرل بك في الموقعة . وكانما أراد تكش أن يسجل هذا النصر للخليفة ، فأرسل برأس غريمة إلى بغداد ، حيث علق عدة أيام على أبواب الحاضرة الإسلامية الكبرى (١) .

أما عن الدولة الخوارزمية بعد هزيمة طغرل بك ، فنجد أنها قد شملت كل ما كان بيد السلاجقة في العراق من مدن وقرى وقلاع ، فاستطاع تكش بعد هذا النصر أن يحتل همذان عاصمة سلاجقة العراق سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) كما استطاع أن يحتل أصفهان والرى . وقد منح هذه البلاد والأقاليم لاتباعه من المخلصين ليحكموها باسمه . وبعد أن اطمأن على أملاكه الجديدة عاد إلى خوارزم (٢) .

قضى خوارزم شاه تكش البقية الباقية من عمره في توطيد نفوذه في البلاد التي فتحها ، كما حاول أن يكسب لدولته كسباً جديداً من البلاد الإسلامية ، ويغنم غنائم جديداً يزيد مجداً فوق مجده ، لذلك لا نعجب إذا رأينا اصطدم بقوى ثلاث ، ويحاول أن يكسب لنفسه ولدولته على حسابها . فحارب الخطا واستولى على إحدى مدنها الهامة وهي مدينة بخارى سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٧ م) (٣) . وفي الغرب نجده أمام قوتين لا يستهان بهما ، أما القوة الأولى فكانت طائفة الإسماعيلية التي اصطدم بها أثناء توسعه غرباً ؛ وإن مبادئ هذه الطائفة التي تقوم على الفداء وتضحية النفس والنفس جعلت تكش يخشى بأسهم ، فقتل عدداً كبيراً منهم سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٦ م) حين حاصر أم قلاعهم «الموت» ، فأذعنوا له وقبلوا ما فرضه عليهم ابنه قطب الدين (علاء الدين محمد فيما بعد) من أموال ، إذ لم يترك حصار قلاعهم إلا بعد أن تعهدوا بدفع مائة ألف دينار (٤) .

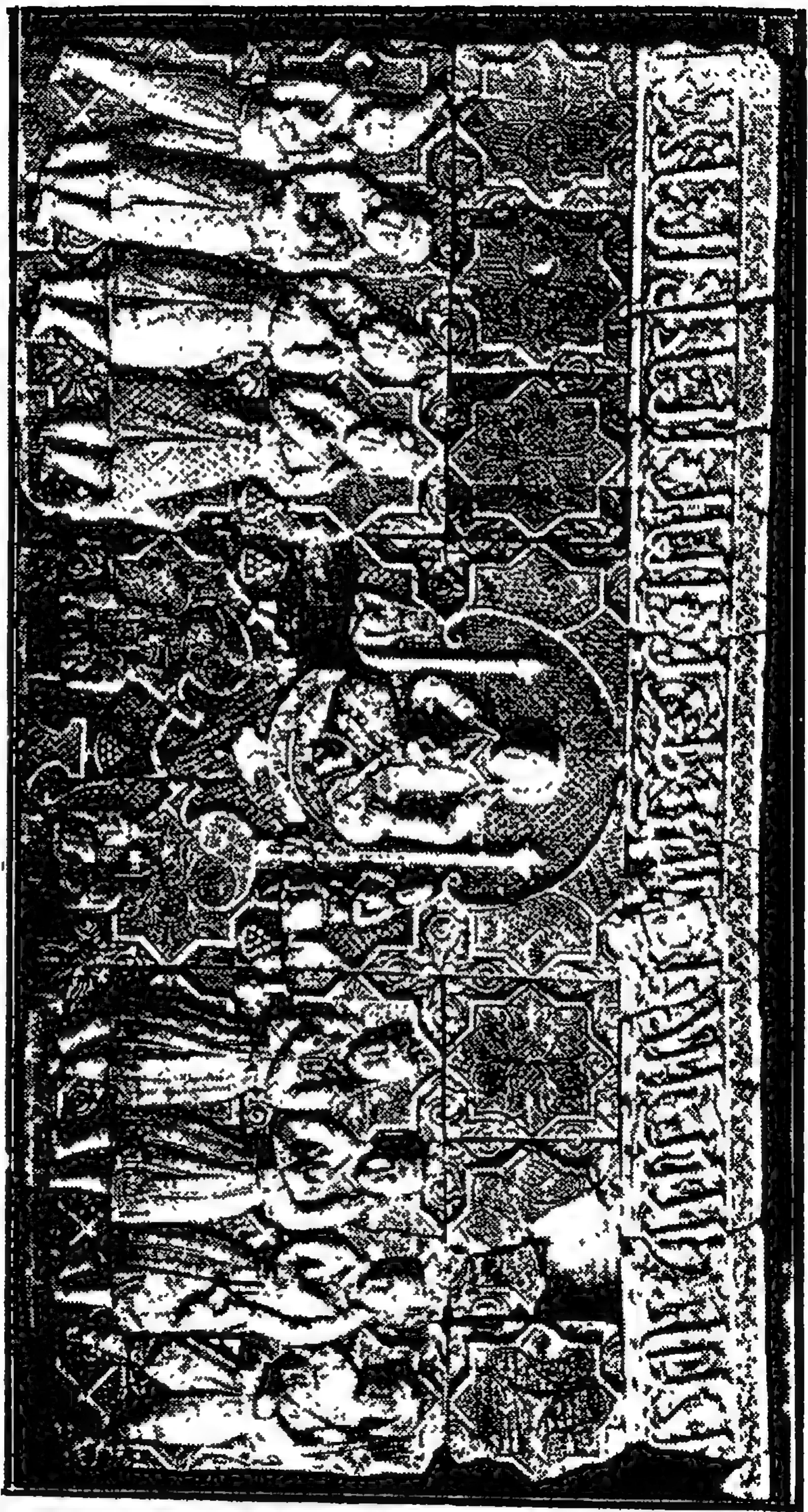
أما القوة الثانية التي اصطدم بها تكش في الغرب فكانت قوة الخلافة العباسية ، فقد تعرضت سياسة الخوارزميين الذين كانوا يؤسسون لأنفسهم جاهاً عريضاً ، مع سياسة الخلفاء العباسيين الذين تنفسوا الصعداء بعد زوال آخر سلجوقي عن أرضهم

(١) ابن الأثير: الكامل ، ج ١٢ ص ٥٠ .

(٢) Browne : An Account of a Rare Manuscript History of Seljuqs , p. 74.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٦٤ .

(٤) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ٧١ .



كسوة جدار من الجص ذي الزخارف البارزة باسم طغر بك من إيران في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)
 (عن كتاب فنون الإسلام للدكتور زكي محمد حسن)

الدولة العباسية . وهكذا نشأ ذلك الصراع الذي أورثه تكش لخلفائه من الخوارزميين ، ولم ينته إلا بانتهاء الدولة الخوارزمية - كما سنرى

ولم تمهل الأيام علاء الدين تكش خوارزم شاه طويلاً حتى يحقق ما كان يدور بخلفه من مشروعات ، فقد مات سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) إثر مرض ألم به وهو في طريقه لتوسيع رقعة بلاده في خراسان ^(١) ، تاركاً لابنه قطب الدين محمد ، الذي اتخذ لنفسه لقب أبيه وتسمى علاء الدين محمد ^(٢) ، دولة عريضة تضم إقليم خوارزم وبعض البلاد الخراسانية والرى وغيرها من بلاد العراق العجمي . وقد أورث تكش إنه فوق ذلك عبء كبيراً ، إذ كان عليه أن يواجه أعداءه المحيطين بدولته ، الذين كانوا يحاولون جاهدين أن يحدوا من أطماع الخوارزميين ، فكان على علاء الدين خوارزم شاه أن يواجه كل هذه الصعاب التي خلفها له أبوه ، كما كان عليه أن يحافظ على هذا التراث الذي أورثه أبوه إياه ، بل يزيد من قوة بلاده ويوسع من رقعتها .

سار علاء الدين محمد خوارزم شاه على نهج أبيه من حيث التوسع والفتح ، فاستطاع أن يزيد دولته قوة فوق قوتها . على أن وفاة تكش كان لها أكبر الأثر في طمع حكام البلاد المجاورة في أراضي الدولة الخوارزمية ، فرى شهاب الدين ملك الدولة الغورية يستولى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) على الأقاليم الخراسانية في الدولة الخوارزمية ، ويقتطع لنفسه مدناً تعتبر من صلب الدولة الخوارزمية ، من بينها مرو ونيسابور ؛ وبعد أن اغتصب هذه البلاد الخوارزمية أقطعها بعض أتباعه ثم رحل إلى أملاكه في بلاد الهند ^(٣) فلما تخلص علاء الدين خوارزم شاه من متاعبه التي لحقت به عقب وفاة أبيه ، أرسل سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠١ م) إلى غياث الدين أخى شهاب الدين وحاكم أملاك الدولة الغورية في فارس كتاباً يعتب فيه عليه ويؤنبه ، وقد جاء في هذا الكتاب :

« كنت أعتقد أن تخلف على بعد أبى وأن تنصرتنى على الخطأ ، وتردهم ،

« عن بلادى ، فحيث لم تفعل فلا أقل من أن لا تؤذينى وتأخذ بلادى . والذى ،

« أريده أن تعيد ما أخذته منى إلى وإلا انصرت عليك بالخطأ وغيرهم من الأتراك ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٧٣ .

(٢) ابن حلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٩٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٧٦ - ٧٨ .

« إن عجزت عن أخذ بلادى . فإنتى إنما شغلنى عن منعمك عنها الاشتغال ،
« بعزاء والدى وتقرير أمر بلادى وإلا فأنا بعاجز عنكم وعن أخذ بلادك ،
« خراسان وغيرها ، » (١) .

وقد أتبع علاء الدين خوارزم شاه كتابه هذا بعدة حملات عسكرية على
البلاد الخراسانية وأملاك الدولة الغورية ، حتى استطاع أن يستولى على ما سلبه حكام
هذه الدولة من خراسان ، بل اقتطع مدينتى بلخ وهراة . وهما من أملاك الدولة الغورية ،
عام ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) (٢) واستطاع بعد ذلك أن يستولى على إقليم مازندران فى
جنوب بحر قزوين وأن يضمه إلى دولته (٣) .

وكان علاء الدين خوارزم شاه يعمل وفق خطة رسمها لنفسه وأخذ ينفذها بحذق
ومهارة ، وترى هذه السياسة إلى الإجهاز على قلب الدولة الغورية بالاستيلاء على
حاضرتها غزنة فى النهاية . لذلك نراه منذ استيلائه على معظم خراسان يؤمن سلطانه
فيها ويرaug الخطا ، يعاديهم تارة ويصادقهم تارة أخرى ، ليسكسب لنفسه ما يستطيع
كسبه من البلاد حتى استطاع أن ينزل بهم هزيمة منكرة سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) ،
تلك الهزيمة التى كان من نتيجتها أن وضع يده على بلاد ما وراء النهر كما سنفصله .

واصل علاء الدين سياسة التوسع ، فتراه يمد نفوذه وسلطانه سنة ٦١١ هـ
(١٢١٤ م) (٤) على إقليم كرمان وإقليم مكران بما فى ذلك الساحل المطل على المحيط
الهندي والذى يضم ميناء هرمز التجارى ، ويستولى على الأقاليم الواقعة غرب نهر السند .
وإن نظرة إلى الخريطة ، ترينا أن علاء الدين خوارزم شاه باستيلائه على هذه
البلاد ، قد أحاط بغزنة حاضرة الدولة الغورية إحاطة تامة ، وضيق الخناق على من بها ،
حتى إن حكام هذه المدينة لم يترددوا فى أن يخطبوا لعلاء الدين خوارزم شاه ويضربوا
السكة باسمه عند ما طلب منهم ذلك سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) وهو على وشك دخول
المدينة . ولما دخل علاء الدين هذه المدينة دخول الظافر ، أعمل القتل فى رقاب جنود

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٨١ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ١٠٥ — ١٠٧ .

(٣) Curtin : The Mongols' History, p. 94.

(٤) لا يستطيع ابن الأثير وهو حجتنا فى هذه الناحية أن يحدد 'سنة' التى استولى فيها علاء الدين على
هذه البلاد والراجع أن ذلك استغرق الفترة ما بين سنين ٦١٠ و ٦١٢ هـ (١٢١٣ و ١٢١٥ م) .

الدولة الغورية ، وأجهز على حاكمها (قتلغ تكين) ، ونهب المدينة ، وحمل ما استطاع حمله من الأموال إلى بلاده ^(١) . وقد استطاع علاء الدين خوارزم شاه أن يمد حدود بلاده بعد ذلك إلى مدينة كابل على نهر السند ^(٢) .

والأمر الذى يستحق الاهتمام فى استيلاء الخوارزميين على مدينة غزنة ، أن علاء الدين خوارزم شاه وجد بين ما وجد من مخلفات الدولة الغورية فى هذه المدينة ، كتباً كثيرة أرسلها الخليفة الناصر إلى حكام هذه الدولة ، يحثهم فيها على التحالف مع الخطأ ومهاجمة الدولة الخوارزمية ووقف توسع الخوارزميين . وكانت هذه الكتب السبب فى الحملة التى شنّها شهاب الدين الغورى على الدولة الخوارزمية فى أوائل عهد علاء الدين خوارزم شاه ، واقتطاعه الأملاك الخرسانية من الدولة الخوارزمية كما ذكرنا ^(٣) ، وكان لها أثر كبير فى ازدياد العداوة بين الخوارزميين والخلافة ، كما كانت أيضاً من العوامل الأساسية التى حملت الخوارزميين على محاولة غزو بغداد ولما وطد علاء الدين نفوذه فى مدينة غزنة ، نصب ابنه جلال الدين منكبرى عليها ثم فكر فى توسيع أملاكه فى الأقاليم الغربية . كان الغرض الذى يرمى إليه علاء الدين خوارزم شاه من توجيه حملاته نحو الغرب أن ينتقم من الخلافة فى بغداد ، إذ لم يرق له أن يكون أقل من السلاجقة سلطنة وهيبة فى أراضي الدولة العباسية ، بل فى حاضرهم بغداد نفسها ؛ لذلك سار علاء الدين جهة الغرب سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) على رأس حملة وجهتها بغداد . ومهما تكن النتيجة التى وصل إليها من حملته هذه ، فقد استطاع فى أثناء سيره نحو الغرب أن يوطد نفوذه فى العراق العجمى وأن يستولى على كثير من البلاد الواقعة فى هذه الجهات ومن أهمها الرى وهمدان وقزوین وقم وساوة وغيرها ^(٤) .

ومما يسترعى النظر أن علاء الدين خوارزم شاه جعل دولته مرهوبة الجانب ، يخشاها كبار الأتابكة فى هذه البلاد ، لذلك لم يتردد الأتابك سعد صاحب أتابكية فارس فى أن يستظل بالراية الخوارزمية ، وأن يتخذ من علاء الدين حامياً له وتصييراً ، فقبل عن طيب خاطر

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ١٠٨ .

(٢) Bretschneider : Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources, Vol. ii. p. 68.

(٣) D'ohason : Histoire Des Mongols, Tom i. p. 185.

(٤) ابن الوردي : تمة المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٣٤ . وتراجع خريطة الدولة الخوارزمية فى أقصى اتساعها .

أن يسلم له جزءا من بلاده سمح للخوارزميين باحتلاله ، كما خطب لعلاء الدين على منابر هذه البلاد وضرب السكة باسمه وفق ما جرى به العرف عند المنتصرين من المسلمين^(١) . ثم إن توغل علاء الدين خوارزم شاه في العراق العجمي جعل أوزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأرآن يحنو حذو الأتاك سعد ، فدخل في طاعة الخوارزميين وخطب لهم على منابر بلاده^(٢) .

على أن الخوارزميين لم يستطيعوا تحقيق الهدف الأساسي من حملتهم على الأقاليم الغربية ؛ وهو الاستيلاء على بغداد وفرض سلطانهم هناك ، إذ أخفقوا إخفاقا ذريعا بعد أن ثارت الطبيعة في وجوههم وأبادت جيوشهم في بعض الأقاليم الجبلية من العراق العجمي^(٣) . وقد أثر علاء الدين خوارزم شاه بعد هذا الفشل أن يسرع في العودة إلى بلاده ، إذ بدأ يهدد كيان الدولة الخوارزمية خاصة والعالم الإسلامي عامة ، ذلك الخطر المغول على يد جنكيز خان ، وأخذ الخوارزميون يفكرون فيما سيؤول إليه مصيرهم ومصير بلادهم .

هكذا نجد أن الدولة الخوارزمية قد بلغت أقصى اتساعها في عهد علاء الدين خوارزم شاه ، إذ امتدت من حدود العراق العربي غربا إلى حدود الهند شرقا ، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالا إلى الخليج الفارسي والمحيط الهندي جنوبا . وقد ضمت هذه الدولة مدنا من أمهات المدن الإسلامية ، نخص بالذكر منها مدينة بخارى التي اشتهرت بطلانها وفقائها ، وسمرقند التي اشتهرت بأسوارها وحدثاتها . ونجد أن الدولة الخوارزمية فوق ذلك تضم ثغورا تجارية هامة في الجنوب كـ شهر هُرمز عند مدخل الخليج الفارسي ، وهو من أكبر الثغور التجارية في البحار الجنوبية ، إذ كانت تمر به تجارة الهند والصين من ناحية ، وتجارة اليمن ومصر من ناحية أخرى . وما يدل على عظم أهمية هذا الثغر أن حكام بعض مدن عمان خطبوا على منابرهم لعلاء الدين خوارزم شاه بعد استيلائه على هذا الثغر تقربا منهم للخوارزميين ، وصونا لمصالحهم التجارية في

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٦ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ١٤٥ .

(٣) Howorth : History of the Mongols, part. i. p. 8.

أراضيهم (١) . وكذلك نجد أن الدولة الخوارزمية كانت بموقعها الجغرافي وحدودها السياسية التي عرفناها تسيطر على مفاتيح الطرق البرية للتجارة الآسيوية .

ولم يكن من اليسير أن يتمكن علاء الدين خوارزم شاه من السيطرة على كل هذه الأراضي ويضمن بقاءها على ولائها لأسرته ، لذلك قسمها بين أبنائه الأربعة ، يحكم كل منهم جزءاً منها ويتولى تصريف أمور الإقليم الذي كان من نصيبه ، على أن يكون الأب هو المرجع الأول لكل من هؤلاء الأبناء إذا ما صادفه عائق أو وقف في سبيله حائل ؛ لذلك انقسمت الدولة إلى الأقاليم الأربعة الآتية :

١ - الركن الشرقى من الدولة الخوارزمية حيث مدينة غزنة حاضرة الدولة الغورية ومدينة باميان الواقعة في أعالي نهر جيحون ، فضلاً عن بعض البلاد الغربية من حوض نهر السند التي اقتطعها الخوارزميون من أملاك الدولة الغورية - كان كل هذا الجزء من نصيب الإبن الأكبر جلال الدين منكبرتي .

٢ - الأقاليم الشمالية من الدولة الخوارزمية وهي خوارزم وخراسان ومازندران ، وكانت من نصيب ابنه قطب الدين أزلاغ شاه .

٣ - الأقاليم الجنوبية من الدولة الخوارزمية وتشمل كرمان ومكران ، وكانت من نصيب غياث الدين شير شاه .

٤ - الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية وهي العراق العجمي ، وكانت من نصيب ركن الدين غور شاه (٢) .

وبما تجب الإشارة إليه أن علاء الدين خوارزم شاه أوصى بالملك من بعده لابنه الأصغر أزلاغ شاه تحت تأثير أمه (أم السلطان علاء الدين) تركان خاتون التي كانت تفضله على سائر إخوته (٣) . على أن علاء الدين ما لبث أن عدل عن وصيته وولى عهده ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي (٤) . على أن ولاية العهد كانت مشاعاً شديداً بين هؤلاء الأبناء بعد الغزو المغولي كما سنرى .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٠ .

(٢) ابن الوردي : تمة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٥٤ .

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 195 .

(٤) ابن الوردي : تمة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٥٤ .

ولم تشأ الحوادث أن تمهل الدولة الخوارزمية طويلا، فسرعان ما ظهر الخطر المغولي ماثلا للعيان، فلم يستطع علاء الدين أن ينصرف إلى شئون دولته الداخلية، إذ ما كاد يستقر على عرش مملكته بعد مجهود حربي عنيف، حتى اتضح له أن دولته مهددة بالزوال، فلم ينعم بشمرة انتصاراته لأن الفترة التي تلت عودته من البلاد الغربية حتى الغزو المغولي سنة ٦١٧ هـ (١٢١٩ م)، كانت من القصر بحيث لم تتح له الفرصة لإصلاح أحوال دولته الداخلية وتنظيمها، ومواجهة قوة المغول الحربية، ووقف سيل جيوشهم المنهمر على الأراضي الإسلامية، ولهذا نرى الخوارزميين في هذه الفترة حيارى أمام تلك الأخطار التي أوشكت أن تقضى عليهم. وكأنما تكاثرت الأهوال على الخوارزميين، فوقفوا مشدوهين ينتظرون غير مصدقين ماسيؤول إليه مصيرهم. واجتاح المغول الدولة الخوارزمية البلد تلو الآخر، واستولوا على قلاعها واحدة بعد أخرى، حتى أجهزوا على ذلك الملك العريض الذي كونه الخوارزميون ولم يمهلمهم الوقت ليجنوا ثمار ما غرسوا.

٢ - موقف الدولة الخوارزمية من الخلافة العباسية

رأينا كيف أن الخوارزميين قد وسعوا بلادهم على حساب الدولة السلجوقية في فارس، حتى إذا ما قدر لهم أن يزيلوا عرشهم ويؤسسوا لأنفسهم دولة على أنقاضهم، أخذوا بعد ذلك يوسعون سلطانهم على حساب القوى المجاورة لهم، وهي دولة الخطا في الشرق، والدولة الغورية في الجنوب، والدولة العباسية في الغرب. وكانت للخوارزميين سياسة معلومة رسموها لأنفسهم وأورثها السلف للخلف؛ وكانت هذه السياسة ترمي في النهاية إلى تكوين إمبراطورية عظيمة على أشلاء القوى الإسلامية المتناثرة، التي كانت سبباً في تفكك العالم الإسلامي وانحلاله، لذلك كان لا بد أن تعارض هذه السياسة مع سياسة القوى الموجودة في ذلك الوقت، على أن هذه القوى كانت جميعها في دور الاحتضار، تنتزع أنفاسها انتزاعاً، فاستطاع الخوارزميون أن ينفذوا سياستهم. ولو أن الحوادث أمهلت الخوارزميين قليلاً لاستطاعوا أن يسيطروا على عاصمة الخلافة، وأن يتخذوا لأنفسهم ذلك المركز الذي اتخذته البويهيون والسلاجقة من قبل، إلا أن الحوادث تعجلتهم، فصرعهم المغول في ميدان حرب لم يعرفها المسلمون من قبل.

كان الخلفاء العباسيون في ذلك الوقت تحت سيطرة الفرع الساجوقي في العراق ، إذ بالرغم من زوال سلاجقة فارس بعد وفاة السلطان سنجر كما ذكرنا ، فقد استمر سلاجقة العراق يكيلون الضربات للخلفاء الذين كانوا يتوقنون إلى إزالة ذلك الكابوس الذي فرض سلطانه عليهم ردحا طويلا من الزمن . وكانت الخلافة العباسية قد أخذت تفيق وتقوى بنسبة ما كان يصيب السلاجقة في العراق من ضعف .

كان السلاجقة في أواخر عهدهم لا يزالون يسيطرون على العراق العجمي ، فضلا عما كان لهم من نفوذ في العراق العربي ، وما كان لهم من نفوذ في بغداد نفسها . وقد أراد الخليفة الناصر لدين الله أن يجهز علي بقايا السلاجقة ويزيل سلطانهم من هذه البلاد نهائياً ، غير أن مركز الخلافة العباسية لم يكن من القوة بحيث يستطيع الخليفة الناصر أن يأخذ هذه المهمة على عاتقه وحده ، لذلك لم يتردد في الاستعانة بالخوارزميين - وهم القوة الوحيدة التي يمكن الإعتماد عليها في تحقيق هذا الهدف - فأرسل إلى علاء الدين تكش خوارزم شاه ، يشكو طغرل بك ، آخر سلاطين السلاجقة في العراق ويحثه على قتاله ، ويعدده أن يقطعه ما بيده من البلاد إذا أنجز هذا الأمر ^(١) . وكانت هذه الدعوة هي كل ما انتهى الخوارزميون وابتغوا ، إذ وجدوا فيها فرصة نادرة لتحقيق أمانهم وأطماعهم التوسعية ، لذلك لبى تكش خوارزم شاه الدعوة سريعا ، وركب متن الريح في سيره نحو الغرب ، لنجدة الخليفة في الظاهر وتحقيق أمانه وتوسيع رقعة بلاده في الباطن ، وانتهى الأمر بأن التقى العسكر الخوارزمي بقيادة خوارزم شاه تكش بالعسكر السلجوقي بقيادة طغرل بك قرب مدينة الري سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) في معركة دامية أحاط فيها الخوارزميون بشخص طغرل بك الذي ألقى بنفسه وسط المعركة ، فغذبه أعداؤه الخوارزميون عن فرسه وارتزعوا رأسه من جسده ، وأرسلوه إلى خوارزم شاه فأهداه بدوره إلى الخليفة في بغداد إشادة بما أحرزه من نصر ^(٢) . وقد فرح الخليفة برأس طغرل بك فرحا شديدا وأمر بأن يعلق على أحد أبواب بغداد عدة أيام .

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المتدا والخبر ، ج ٥ ص ٩٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٥٠ . القرطبي : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٤٠ .

كان من أثر انتصار الخوارزميين على السلاجقة ، أن زال كابوسهم المميت الذى سيطر على الخلافة العباسية ردحا طويلا من الزمن ؛ إذ أن نفوذ البيت السلجوقي الذى زال من فارس تماما بموت السلطان سنجر ، انتهى من العراق أيضاً بموت طغرل بك^(١) . ومن أغرب المصادفات أن يكون اسم «طغرل بك» هو اسم أول سلاطين السلاجقة واسم آخرهم فى بغداد ، بمعنى أن الدولة السلجوقية ابتدأت بطغرل وانتهت بطغرل^(٢) .

وكان من أثر انتصار الخوارزميين على السلاجقة سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) ، أن سيطروا على العراق العجمي ، وتقلدوا حكم هذه البلاد رسمياً من الخليفة^(٣) ؛ كما كان من أثر ذلك أيضاً أن تاخت أملاكهم أملاك الخليفة العباسي ، الذى لم يعد يمتلك سوى العراق العربي وخوزستان . وليس معنى تقلد الخوارزميين السلطة من الخلافة ، أن الخليفة العباسي كان يتمتع بأى نفوذ فى البلاد الخوارزمية ، أو أن الخوارزميين كانوا فى حاجة إلى الاستناد إلى قوته المادية ، فكلنا يعرف أن الخلفاء فى هذا العصر لم يكن لهم من حول أو قوة ، وأنهم كانوا أمواتا لبسوا أثواب الأحياء ، ولكن الخوارزميين حرصوا على أن يقلدوا أملاكهم الجديدة من قبل الخليفة مباشرة ، كي يستندوا فى حكم هذه البلاد إلى سلطة الخليفة الشرعية ، ويكسبوا بذلك صفة شرعية فى البلاد التى آلت اليهم بحد السيف ، شأنهم فى ذلك شأن حكام الدول المستقلة فى الدولة الإسلامية الكبرى^(٤) . ولم تقف أطماع الخوارزميين عند هذا الحد ، وهم الذين اعتبروا أنفسهم وارثى عرش السلاجقة ، بعد أن أزالوا هذا العرش بموت سنجر فى فارس ومقتل طغرل بك فى العراق ، بخادعوا أحقيتهم بما كان يتمتع به السلاجقة من حقوق لدى الخلافة ، فطلبوا السيطرة على بغداد وإحلال أسمهم محل أسلافهم السلاجقة فى خطبة الجمعة ، ونقش أسمهم إلى جوار اسم الخليفة على السكة ؛ وأكثر من ذلك فقد طلب خوارزم شاه تكش من الخليفة الناصر أن يعيد دار السلطنة فى بغداد إلى ما كانت عليه أيام السلاجقة ، حتى إذا ما

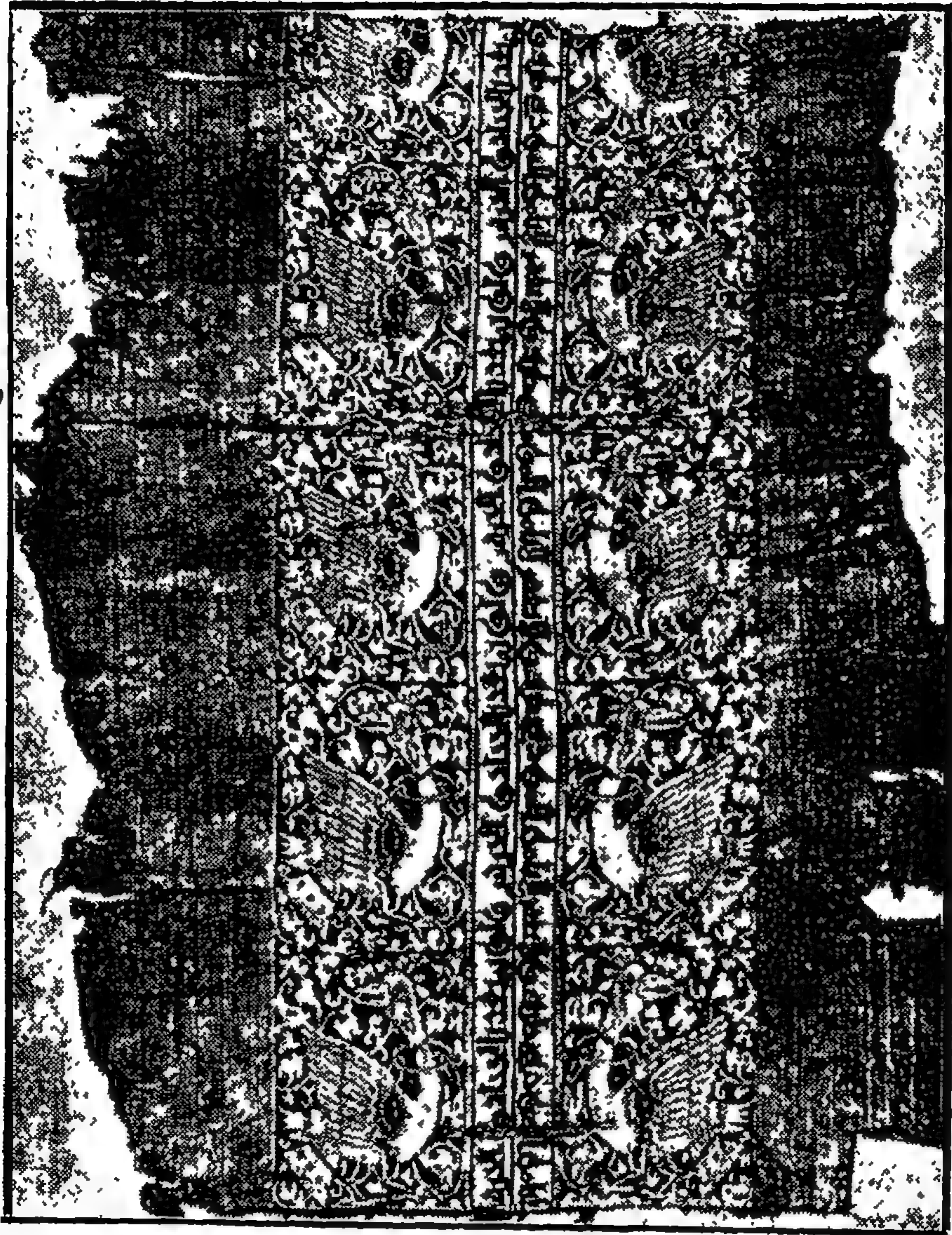
(١) Howorth : History of the Mongols, part. i. p. 7.

(٢) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٣) Curtin : The Mongols' History, p. 94.

(٤) الدكتور حسن ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

لوحة ٣



قطعة نسيج من الحرير ترجع إلى العصر الساساني .

(عن كتاب الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي للدكتور زكي محمد حسن)

حضر إلى بغداد ، وخلعت عليه السلطنة ، أقام في هذه الدار وأصبح ، الخليفة من تحت يده^(١) .

وهكذا نرى أن تكش إذا كان قد لبى دعوة الخليفة لمحاربة طغرل بك والقضاء عليه فإنه لم يفعل ذلك عطفاً على الخليفة ، أو رعاية لمصالح بني العباس ، بل الواقع أن تكش كان يبني لنفسه ولدولته على حساب السلاجقة والخلافة معا ، كما كان يرمى إلى توسيع رقعة بلاده حتى يستطيع أن يقوى بما يفتحه من البلاد ، ويحشد ما يستطيع تجنيده منها حتى إذا تم له ما أراد استطاع أن يحمل الخلافة العباسية على الإذعان لمطالبه . وكان يجب على الخوارزميين منذ أن استظلوا بسلطة الخليفة الشرعية ، أن يحترموا هذا الخليفة ولا يعملوا إلا بمشورته ، على أن ذلك كان معناه الحد من آمال الخوارزميين وأطماعهم في الأقاليم الغربية ، وهذا مما يتنافى طبعاً مع ما رسمه الخوارزميون لأنفسهم من سياسة متوارثة ، شجع الخوارزميين على السير فيها ما لمسوه من ضعف الخلفاء الذين لم يستطيعوا القضاء على أعدائهم السلاجقة رغم ما اعتورهم من ضعف في آخر أيامهم ، فاستعانوا بالخوارزميين عليهم ، كما شجع الخوارزميين على المضى في هذه السياسة ، متاخمة أملاكهم التي اكتسبوها بعد مقتل طغرل بك ، لأملاك الخليفة في العراق العربي .

على أن الخليفة الناصر وهو الذي تنفس الصعداء بعد زوال كابوس السلاجقة من بغداد ، لم يقبل أن يخضع لسلطة أخرى لا تقل إن لم تزد في قوتها على قوة السلاجقة ، ولا سيما أن الخليفة الناصر قد وهب نفسه وجهوده لاستعادة سلطان خلفاء الدولة العباسية القديم^(٢) . لذلك لم يتردد الخليفة الناصر في رفض طلب علاء الدين تكش ،^(٣) بل نجده على العكس يهدم دار السلطنة في بغداد ويرد الرسول الخوارزمي بغير جواب^(٤)

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٠٢ .

(٢) ذكر السيوطي في هذه المناسبة أن جهود الخليفة العباسي الناصر لمدين الله في هذا السبيل كان نصيبها التوفيق . وقد بلغ من عظم نفوذه وسلطانه أنه استطاع أن يقيم الخطبة لنفسه بين سائر البلاد والجزايات الإسلامية من حدود الصين إلى بلاد الأندلس . ومن الواضح أن هذه العبارة قد بولغ فيها إلى حد كبير ، على أنها إن دلت على شيء فإنما تدل على ازدياد نفوذ الخليفة الناصر بنسبة نفوذ نفوذ من سبقه من الخلفاء . انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٩ .

(٣) Vambery : History of Bokhara, p. 116.

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٠٢ .

ولندع جانباً تلك المناوشات التي حدثت بين الخوارزميين في عهد تكش ، وبين جيوش الخليفة الناصر العباسي ، فليس من المهم أن نتتبع حوادث استيلاء أحد الطرفين على بعض المدن واستعادة الطرف الآخر لها ، ولكن المهم أن نذكر أن الخليفة الناصر لم يجد ما يدفع به عن نفسه سوى الاستعانة على الخوارزميين بأعدائهم وتآليبهم عليهم ، فتراه يبعث إلى غياث الدين ملك الدولة الغورية يحثه على مهاجمة الخوارزميين من الشرق حتى يرغمهم على الانصراف عن سياستهم العدائية في الغرب ؛ فلما أرسل غياث الدين إلى خوارزم شاه تكش « يقبح له فعله ويتهدده بقصد بلاده وأخذها » (١) ، لم ير الخوارزميون مخرجا سوى الالتجاء إلى الخطأ يحرضونهم على الدولة الغورية ، ويحذرونهم تمادي الغوريين وازدياد سلطانهم ، ويدينون لهم ما ينطوي عليه ذلك من خطر يهدد دولة الخطأ نفسها .

وهكذا هاجم كل من الخوارزميين والخطأ سنة ٥٩٤هـ (١١٩٧م) أملاك الدولة الغورية كل من جهة ، على أنه كان من سوء حظ الخوارزميين أن هُزم الخطأ ، فالتى هؤلاء تبعه هذه الهزيمة على الخوارزميين لأنهم أصحاب فكرة هذه الحرب التي سببت لهم خسائر فادحة . وقد طالب الخطأ الخوارزميين بتعويضهم عشرة آلاف دينار عن كل قتيل (٢) . واضطر الخوارزميون إزاء هذا التهديد والوعيد أن يعودوا فيميلوا بسياستهم إلى الدولة الغورية ويضعوا أيديهم في أيدي ملوكها ليقف الطرفان صفاً واحداً أمام الخطأ ، غير أن الغوريين اشترطوا لعقد هذا الحلف أن يطيع الخوارزميون الخليفة وأن يكفوا عن أعمالهم العدائية ضده (٣) .

وهكذا اضطر الخوارزميون إلى تحسين علاقاتهم مع الخلافة العباسية والعدول عن سياستهم العدائية التقليدية مؤقتاً ، وانصرف تكش في المدة الباقية من حكمه إلى معالجة مشاكله في الشرق ، مع دولة الخطأ . وكان من أثر تحسن العلاقة بين الخليفة الناصر وعلاء الدين تكش أن أرسل إليه الخليفة الهدايا والخلع ، واعترف له بسيادته على ما

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٦٣ . ابن خلدون : المبر وديوان البتدا والخبر ، ج ٥ ص ٩٥ .

(٢) ذكر ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٦٤ ، أن عدد القتلى كان حوالي ١٢,٠٠٠ قتيل فإذا أخذنا بهذا القول ، وصل المبلغ لدى طالب به الخطأ ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وهذا يدلنا على أن هذا العول مبالغ فيه إلى حد كبير .

(٣) ابن خلدون : المبر وديوان البتدا والخبر ، ج ٥ ص ٩٦ .

بيده من البلاد الإسلامية^(١). على أن هذا السلام لم يدم طويلا، فقد توفي تسكش بعد سنة من هذه الحوادث، أي سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م)، وكان هذا نذيرا باستئناف سياسة العداء بين الخوارزميين والخلافة العباسية.

. رأينا في مكان آخر أن علاء الدين محمد خوارزم شاه أخذ يعمل، بعد أن تولى عرش أبيه تسكش، على توسيع رقعة بلاده، حتى بلغت أقصى ما بلغت في هذا العهد؛ كما أنه سار على نهج آباءه ووفق سياستهم إزاء الخلافة العباسية، رغبة منه في الوصول إلى المكانة التي كانت للسلاجقة في قلب الدولة العباسية^(٢)، لذلك لم يدخر علاء الدين خوارزم شاه وسعا في تحقيق هذه السياسة بكل وسيلة ممكنة، ولم يتردد في العمل على غزو بغداد عند ما فشل في تحقيق هذه السياسة بالطرق السلمية، ونستطيع أن نلخص أسباب هذا الغزو فيما يلي :

١ - أراد علاء الدين محمد خوارزم شاه أن يحقق سياسة آباءه وأجداده وهي إقامة الخطبة للخوارزميين على منابر بغداد، لذلك لانعجب إذا علمنا أن علاء الدين أرسل أحد رجاله المقربين، وهو القاضي مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمي، إلى بغداد غير مرة، يطالب بحق الخوارزميين في إقامة الخطبة لهم ببغداد، فأبى العباسيون ذلك وأنكروه، وقالوا إن الظروف هي التي أدت إلى تحكم السلاجقة في بغداد وقت أن كانت الخلافة في حاجة إلى مساعدتهم، وأعلنوا أن الخلافة لن تقبل أن يتحكم فيها المتحكمون. ثم قال الخليفة لمجير الدين :

« أو ليس فيما أنعم عليه به من الممالك الواسعة الأقاليم، المتباعدة المتشاسعة، »

« غنية عن الطمع في دار ملك أمير المؤمنين ومشاهد آباءه الراشدين ؟ »^(٣)

وقد عاد مجير الدين الخوارزمي يصحبه شهاب الدين السهروردي، رسولا من قبل الخليفة، ليثنى علاء الدين عن محاولة غزو بغداد^(٤). وفي الرسائل التي تبودلت بين

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٧٢ .

(٢) Vambery : History of Bukhara, p. 116.

(٣) الذسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١١ — ١٢ .

(٤) قابل السهروردي علاء الدين خوارزم شاه في مدينة همدان وهو في طريقه إلى غزو بغداد ، ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن السهروردي ينتسب إلى قرية سهرورد بإقليم زنجان ، وقد أقام معظم =

الخليفة الناصر وعلاء الدين خوارزم شاه، حاول الخليفة أن يمنع الخوارزميين عن فكرة غزو العراق العربي، ولكن على غير جدوى. وعما هو جدير بالملاحظة أن الخليفة العباسي إذا كان قد امتنع عن إجابة مطالب علاء الدين فإنما فعل ذلك، لا لثقلته من نفسه ومن قوته، بل لأنه كان يدرك تمام الإدراك أن علاء الدين كان في شغل شاغل عنه بمشاكله الداخلية والخارجية، إذ فضلاً عن اضطراب أحوال دولته في الداخل، فإن مشاكله في بلاد ما وراء النهر وحروبه هناك، كانت كفيلاً بأن تغل يده إلى حد كبير عن العمل في الأقاليم الغربية.

٢ — أما السبب الثاني الذي حمل الخوارزميين على غزو بغداد، فهو أن علاء الدين خوارزم شاه، اكتشف عند ما استولى على مدينة غزنة حاضرة الدولة الغورية سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م)، في دار المحفوظات في هذه المدينة، كثيراً من الكتب التي أرسلها الخليفة الناصر إلى ملوك الدولة الغورية، يحثهم فيها على إيقاف توسع الخوارزميين بمهاجمتهم من الخلف. وكان من أثر وصول هذه الكتب، أن حارب ملوك الدولة الغورية علاء الدين خوارزم شاه في بداية حكمه، واقتطعوا الأقاليم الخراسانية من الدولة الخوارزمية^(١).

٣ — أخذ الخليفة الناصر منذ بداية حكمه، يكيد للخوارزميين بشتى الوسائل، فإذا تركنا جانباً تلك الرسائل التي أرسلها إلى ملوك الدولة الغورية، يحثهم فيها على مهاجمة الخوارزميين، نجد أنه يتبع نفس هذه السياسة مع الخطأ، فتراه يحرضهم على مهاجمة الخوارزميين، بل ويعدم بتأييد سلطانهم على البلاد الإسلامية التي يقتطعونها لأنفسهم من البلاد الخوارزمية، كما أرسل إليهم الهدايا والخلع عربوناً لصداقته، وليس أدل على ذلك من الكتاب الذي أرسله جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين خوارزم شاه إلى المعظم عيسى صاحب دمشق، يحرضه فيه على غزو أملاك الخلافة، فقد جاء في هذا الكتاب ما يلي:

« تحضر أنت ومن عاهدي فتتفق حتى نقصد الخليفة، فإنه كان السبب في،

== أيام حياته في بغداد وتمتع بثقة الخليفة الناصر لدين الله العباسي. وكان هذا الرجل من كبار رجال الصوفية في عصره، وألف في التصوف كتاباً سمي باسم «عوارف المعارف». وقد توفي سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م). انظر كتاب الدكتور رضا زاده شفق «تاريخ الأدب الفارسي»، ص ١٩٧.

(١) D'chsson: Histoire Des Mongols, tom. i. p.185.

« هلاك المسلمين ، وفي هلاك أبي ، وفي مجيء الكفار إلى البلاد ، ووجدنا كتبه ،
« إلى الخطا ، وتواقيعه لهم بالبلاد والخلع والخيال ، »^(١) .

ولم تقتصر دسائس الخليفة الناصر التي دبرها ضد الخوارزميين على تحريض
الدولة الغورية ودولة الخطا ، بل إنه سارع على هذه السياسة نفسها مع كل من أتابكي فارس
وأذربيجان ، فخرضهما على الاستيلاء على العراق العجمي من الخوارزميين ، بل نجد
الخليفة يتحالف مع الإسماعيلية لهذا الغرض نفسه . وقد سارت هذه القوى المعادية
لاستخلاص العراق العجمي من أيدي الخوارزميين ، ونجحت إلى حد كبير في السيطرة
على الجزء الأكبر منه سنة ١٦١٢ هـ (١٢١٥ م)^(٢) ، وخاصة بعد أن تمكن الفدائيون
من طائفة الإسماعيلية من قتل « أغلش » نائب الخوارزميين في العراق العجمي^(٣) ، « إيايعاز
من الخليفة »^(٤) . لذلك لا نعجب إذا رأينا علاء الدين خوارزم شاه يسارع إلى الغرب ،
لينقذ هذه البلاد قبل أن تخرج عن طاعته ، وقد تمكن فعلا من هزيمة كل من الأتابك
سعد صاحب أتابكية فارس ، وأوزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان ، وتعهد كل منهما
بأن يخطب للخوارزميين على منابر بلاده^(٥) . ولما كان الخليفة هو الذي أثار كل هذه
المتاعب ، لم يتردد علاء الدين خوارزم شاه — بعد أن تم له إخضاع العراق العجمي —
في أن يواصل السير سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) نحو الغرب ، لتحقيق هدفه الأول وهو
السيطرة على حاضرة الخلافة العباسية ، انتقاما من الخليفة .

٤ — ومن الأسباب الرئيسية في غزو بغداد ، أن علاء الدين خوارزم شاه اعتنق
المذهب الشيعي ، وعمل على إزالة الخلافة العباسية من بغداد وإحلال خلافة علوية
مكانها . وإذا كانت فكرة إقامة خليفة علوي في بغداد قد جالت بذهن علاء الدين ،
فإنه قبل أن يتوجه إلى بغداد ، أراد أن يكسب عمله هذا صبغة شرعية ، حتى يأمن

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤١ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ١٩٠ .

(٤) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٣ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٥ . D'ohsson : Histoire Des Mongols , tom. i . p . 191 .

معارضة المعارضين من رجال دولته ، لذلك جمع رجال الدين في بلاده في مجمع عام ، واستطاع في هذا الاجتماع أن ينتزع منهم قراراً بشرعية عزل الخليفة العباسي ، بعد أن حملهم على إثبات عدم صلاحيته للخلافة ، بل استطاع أن يحمل المجتمعين على الاعتراف بأن العباسيين ليسوا أصحاب الحق الشرعي في الخلافة ، وأنهم اغتصبوها من العلويين أصحاب الحق الشرعي فيها ^(١) . وقد أجمع المجتمعون على أن الخليفة الناصر غير أهل للخلافة ، بل لقد وصفوه بأنه قاتل ^(٢) ، وربما كان ذلك راجعاً إلى أن الخليفة هو الذي أوعز إلى الإسماعيلية بقتل «أغلمش» نائب الخوارزميين بالعراق العجمي ، فضلاً عن أنه ألب الفدائيين من الإسماعيلية على الخوارزميين دون استثناء . وكانت الخطوة التالية أن انتخب علاء الدين خوارزم شاه رجلاً علويًا من مدينة «ترمذ» يدعى علاء الملك ، وخطب له على منابر الدولة الخوارزمية ، وصك اسمه على السكة بعد أن قطع الخطبة للخليفة الناصر في أنحاء الدولة الخوارزمية ^(٣) ، وقد سرّ الشيعة في بلاد فارس أيما سرور بهذا النصر المبين الذي أحرزوه ، وظنوا أن الوقت قد حان لقلب الخلافة السنية وإقامة خلافة علوية بعد ستة قرون من وفاة الرسول ، قضوها في جهاد مستمر ومحاولات يائسة لتحقيق هذا الغرض .

هـ — ويجب أن نضيف عاملاً هاماً إلى العوامل التي دفعت الخوارزميين دفعاً إلى غزو بغداد ، ألا وهو الظروف الطبيعية والعوامل التاريخية المتلاحقة ، التي لا يمكن إهمال أثرها . فإذا نظرنا إلى الدولة الخوارزمية في ذلك الوقت ، نجد أنها قد اتسعت في عهد علاء الدين خوارزم شاه اتساعاً كبيراً ، فامتدت من حدود الهند إلى حدود بغداد ، ومن بحر آرال إلى الخليج الفارسي ، وأصبح سلطانه لا يعلوه سلطان آخر في العالم الإسلامي ، ولا غرو فقد تخلص علاء الدين خوارزم شاه من سلطان الخِطَا ، الذي فرضه على آبائه ، بل إنه قد نكل بهم تنكيلاً ، كما أتى على البقية الباقية من الدولة الغورية ، باستيلائه على حاضرتها غزنة ، ثم إنه أذل طائفة الإسماعيلية وأثار مخاوف أتباعها ، وجعلهم ينكشون داخل حصونهم . فبعد أن وصل علاء الدين إلى هذه القوة وأحاط

D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 189. (١)

Muir : The Caliphate, Its Rise, Decline & Fall, p. 588. (٢)

Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion, p. 375. (٣)

بالخلافة العباسية من الشمال، وكذا من الشرق باستيلائه على أتابكية فارس وهو في طريقه إلى بغداد، بحيث لم يعد للخلافة بعد ذلك إلا العراق العربي وخوزستان، لم يكن من المعقول بعد أن وصلت الدولة الخوارزمية إلى هذه الدرجة من الاتساع، ألا يحاول حكامها الاستيلاء على البقية الباقية من الدولة العباسية، ولم تكن هذه البقية إلا بغداد نفسها. وهكذا نشأت فكرة الغزو الخوارزمي لأراضي الدولة العباسية التي بدأ علاء الدين خوارزم شاه في تنفيذها سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م)^(١). ولكن هل وقف الخليفة العباسي الناصر مكتوف اليدين حيال هذا الخطر الدائم؟ وهل نقض يده من كل شيء، واستسلم للقدر بحركة كيفها شاء؟

رأينا فيما سبق أن الخليفة الناصر حاول أن يوقف ازدياد القوة الخوارزمية بشتي الوسائل، فلم يترك باباً إلا طرقه، ولم يجد طريقاً يوصله إلى غايته إلا حاول أن يسلكه؛ لذلك رأيناه يحبك للخوارزميين سلسلة من المكائد والدسائس، ولم يترك عدواً لهم إلا ألبه عليهم، فحرض عليهم ملوك الدولة الغورية كما رأينا، وتحالف مع الخطا وحرضهم على مهاجمتهم من الشرق ليشغلهم عن الاتجاه نحو الغرب، ثم رأيناه يحرض طائفة الإسماعيلية لاغتيال رجال الدولة الخوارزمية، وأخيراً رأيناه يلجأ إلى كل من أتابكي فارس وأذربيجان، يستعين بهما على اكتساح العراق العجمي.

وإذا نظرنا إلى خريطة الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها، وجدنا أن هذه العناصر التي حرضها الخليفة على الخوارزميين كانت تحيط بدولتهم من كل جهة، فالدولة الغورية في الجنوب الشرقي، والخطا في الشرق، والإسماعيلية وأتابكية أذربيجان في الشمال الغربي، وأتابكية فارس في الجنوب الغربي — فإذا كان الخليفة قد أثار هذه العناصر على الخوارزميين، فقد كان من الطبيعي أن يخلق هذا لهم ألواناً شتى من المتاعب؛ ورغم ذلك كله، استطاع علاء الدين خوارزم شاه بما أوتي من قوة وعزم، أن يحد من سلطان الخطا بإحلال الهزيمة بهم في سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م)، وأن يقضى على الدولة الغورية شيئاً فشيئاً، حتى أتى على رأسها سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) بالاستيلاء على حاضرتها غزنة، بل أرغم أتابكي فارس وأذربيجان على أن يستظلا بالراية الخوارزمية سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م).

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٢ ص ١٤٥.

ووسط كل هذه المتاعب ، كان الخوارزميون مرهوبى الجانب لدى طائفة الإسماعيلية ،
إذ انكشروا فى قلاعهم جنوبى بحر قزوين .

وعلى هذا الأساس نكل علاء الدين خوارزم شاه بكل أعدائه المحيطين به ، والذين
استعان بهم الخليفة عليه ؛ ولم يجد الخليفة بعد ذلك من ينصره على عدوه الخوارزمى
الذى عقد العزم على الاستيلاء على بغداد ، وأخيراً هداه تفكيره إلى الاستعانة بعدو
من نوع جديد يخالف كل تلك القوى التى رأيناها ، عدو وثنى جاء من أقصى الشرق
ليرتشف من دماء المسلمين فى أقصى الغرب ، ولم يكن هذا العدو سوى چنكيزخان
خاقان المغول . وهكذا نرى الخليفة بعد اجتماعات عدة عقدها فى بغداد - يقرر بحكمته
أن چنكيزخان الذى ذاع صيته فى شرق آسيا وغربها ، هو الرجل الوحيد الذى يستطيع
أن يرد السلطان الثائر إلى صوابه ، فلم يتردد فى أن يستعين به على عدوه الخوارزمى^(١).

وقد أيد ابن الأثير هذه الرواية وهو فى معرض كلامه عن الغزو المغولى بقوله :
« وقيل فى سبب خروجهم (خروج المغول) إلى بلاد الإسلام غير ذلك بما ،
لا يذكر فى بطون الدفاتر ، فكان ما كان مما لست أذكره ، فظن خيراً ولا ،
تسأل عن الخبر ، »^(٢) .

والظاهر أن ابن الأثير ، وهو مر لمعاصرين للغزو المغولى والخليفة الناصر ، لم
يجرؤ على المجاهرة باستدعاء الخليفة للمغول ، ولم يقل ذلك فى صراحة ووضوح إلا
عندما توفى الخليفة الناصر ، فذكر هذه الحقيقة فى جلاء وجراحة وهو فى معرض كلامه
عن شخصية الخليفة الناصر حين قال :

« وكان سبب ما ينسبه العجم إليه (إلى الخليفة الناصر) صحيحاً من أنه هو الذى ،
أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك ، فهو الطامة الكبرى التى يصغر ،
عندها كل ذنب عظيم ، »^(٣) .

وقد أيد أبو الفدا هذه الرواية أيضاً^(٤) ، كما أيدها المقرئى بقوله :
« وفى خلافته (الناصر) خرب التتر بلاد المشرق حتى وصلوا إلى همدان ، »

(١) Curtin: The Mongols' History, p. 99.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٩ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ٢٠٢ .

(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٤٣ .



مثال من الزخارف الكتابية ، على قطعة من النسيج الإيراني ترجع إلى القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)
 ونص الدجاجة المكتوبة : و في القبر وحدق وفي اللحن وحشني ،

(عن كتاب فنون الإسلام لـدكتور زكي محمد حسن)

« وكان هو السبب في ذلك ، فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد خوفاً من ،
« السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه ، لما هم بالاستيلاء على بغداد ، ،
« وأن يجعلها دار ملكه كما كانت السلجوقية ^(١) .
وقد جاءت هذه الرواية أيضاً في بطون كثيرة من الكتب الأوربية التي عالجت
هذا الموضوع ، فأيدها كل من دوسون ، وهورث ، وبراون ، وكيرتن ، وميور ،
وجرينار ، وهارولد لام ، على أن الأخير انفرد بذكر الحقيقة التالية ، وهي أن الخليفة
عرض على چنكيزخان استعداده لمهاجمة الدولة الخوارزمية من الغرب ، إذا هو هاجمها
من الشرق . وأما طريقة إرسال هذه الرسالة فهي من الطرافة بمكان ، إذ أنه لما كان
لا بد لرسول الخليفة من أن يمر في البلاد الخوارزمية قبل أن يصل إلى حضرة
چنكيزخان ، فقد كان على الخليفة أن يحتاط للأمر ، لذلك يقال إن هذه الرسالة وُثِّبت
على رأس الرسول بعد أن حلق شعر رأسه ، وبعد كتابتها ترك الشعر حتى نما ،
وفضلاً عن ذلك استظهر الرسول الرسالة ، ولما وصل إلى حضرة چنكيزخان ردها ،
وابكى برهن على أن ما قاله صحيح أخبرهم بقصته ، فحلق رأسه ، وقرئت الرسالة على
الحاضرين ^(٢) .

ولا يسعنا إلا أن نصدق فكرة استدعاء الخليفة للغول ، بعد أن علمنا أن سلطان
الخليفة كان قاب قوسين أو أدنى من الزوال ، وأن الخليفة لم يجد طريقاً يوصله إلى الحد
من نفوذ الخوارزميين إلا سلكه ، فحاك حولهم سلسلة من الدسائس والفتن ، وألب
عليهم أعداءهم من العناصر المحيطة بدولتهم ، وأثار كل ذلك متاعب جمة للخوارزميين ،
ولولا انشغال علاء الدين خوارزم شاه بتلك المتاعب لاستطاع الخوارزميون حتماً
أن يسقطوا الخلافة العباسية ، ولكن تلك المشاكل الخارجية ، من حروب مع الخطاطوم مع
الدولة الغورية في الشرق ، ومع كل من أتا بكي فارس وأذربيجان فضلاً عن طائفة الإسماعيلية
في الغرب ، كل هذا أدى بلا شك إلى ضعف الدولة الخوارزمية وانحلالها . وإن موقف

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ قسم ١ ص ٢١٨ .

(٢) Curtin: The Mongols' History, p. 99. & Lamb: Genghis Khan; (٢)

The Emperor of All Men, p. 116.

ويبدو أن كلا من كيرتن وهارولد لام قد سار ، عند سرد هذه القصة ، على وتيرة أسطورة يونانية
معروفة ، ولذا فإننا نشك في صحتها ، وخاصة أننا نتمنى إلى ما يؤيدها في بطون المراجع العربية والتركية
والفارسية والصينية التي اعتمدنا عليها .

الخلافة العباسية في هذا الوقت وما يشوبه من ضعف ووهن ، واستنجاها بالعناصر السابقة يجعلنا لا نستبعد فكرة استنجاها بالمغول أيضا .

ثم إن فكرة استعانة الخلافة العباسية بالعناصر الخارجية لتثبيت أقدامها في الدولة ، وتثبيت الخلفاء فوق عروشهم ، فكرة نهج عليها الخلفاء العباسيون في ظروف كثيرة ، فقد استدعى الخلفاء بنى بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، واستنجدوا بظفر بلك السلجوقي على البساسيري ، بل استعانوا بالخوارزميين في القضاء على سلاجقة العراق ^(١) . ففكرة الاستعانة بالمغول لم تكن بالفكرة الجديدة على خلفاء الدولة العباسية ، رغم الاختلاف الديني بين البويهيين والسلاجقة والخوارزميين المسلمين ، وبين المغول الوثنيين . ولم يكن هذا الفارق مما يهيم الخليفة الناصر كثيراً أو قليلاً ، فقد استعان الخليفة الناصر نفسه بالخطا الوثنيين كما رأينا . لذلك لا يسعنا إلا أن نسلم بصحة فكرة استنجاها الخليفة الناصر بالمغول ، ولكن الذى يجب أن نعلمه ونؤكد أنه رغم وصول هذه الرسالة إلى المغول ، فإنها لم تكن وحدها السبب في غزو چنكيزخان للدولة الخوارزمية ، ففي الوقت الذى وصلت فيه رسالة الخليفة الناصر إلى المغول ، كان چنكيزخان قد توسع في فتوحاته جهة الغرب حتى تآخمت بلاده حدود الدولة الخوارزمية ، واستطاع بعد ذلك أن يعقد معاهدة تجارية مع الخوارزميين ، ولذلك لم يعر چنكيزخان هذه الرسالة التفاتا ^(٢) .

وقد ذكر جرينار Grenard ، أن چنكيزخان رد على الخليفة الناصر رداً لطيفاً ، معتذراً بوجود معاهدة صداقة بينه وبين علاء الدين خوارزم شاه ^(٣) على أنه إذا كان هناك ثمة أثر لهذه الرسالة ، فهو أنها نبهت أذهان چنكيزخان على الأقل ، إلى انحلال القوة الإسلامية وتفككها ، وانقسامها بعضها على بعض ، وصورت له ما كان عليه العالم الإسلامى من ضعف ؛ ولذلك لم يتردد چنكيزخان وخلفاؤه من بعده ، في غزو الدولة الخوارزمية خاصة ، والبلاد الإسلامية عامة عند ما تغير مجرى الحوادث التاريخية .

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ١٠٤ .

(٢) Curta: The Mongols' History, p. 99.

(٣) Grenard: Gengis-Khan, p. 134.

ولنعد الآن إلى الحديث عن علاء الدين خوارزم شاه ، وقد رأينا أنه حاول أن يشغل بالطرق السلية نفس المركز الذي كان يشغله السلاجقة في بغداد ، ولسكن جهوده السلية في هذا السبيل ذهبت أدراج الرياح ، فإذا كان علاء الدين قد أفلح في شيء ، فقد أفلح في أن يوغر صدر الخليفة الناصر عليه وعلى دولته ، كما أفلح في حمل الخليفة الناصر على تأليب العناصر المحيطة بالدولة الخوارزمية عليها .

ولما كان علاء الدين خوارزم شاه قد أخفق في تحقيق أطاعه بالطرق السلية ، فقد عمد إلى تحقيقها بطريق العنف ، فلم يتردد في السير إلى بغداد بعد أن أخضع العراق العجمي لسلطانه ، إذ أن هذا الإقليم كان قد صاع من الخوارزميين ، بعد أن أوعز الخليفة العباسي إلى الإسماعيلية بقتل أغلش ، نائب الخوارزميين هناك كما رأينا (١) . ولما كان علاء الدين قد عزم على إقامة خلافة علوية في بغداد بدلا من الخلافة السنية القائمة ، فقد ظن العلويون في فارس — وكان عددهم كبيرا — أنهم سيصلون إلى الحكم (٢) ، فساعد ذلك علاء الدين بلا شك على أن يجمع جيشا كبيرا يحارب به الخليفة الناصر ، وسيره أولا إلى العراق العجمي ، لاستخلاص هذا الإقليم من أتابكي فارس وأذربيجان اللذين طمعا فيه ، بل استوليا على بعض المدن هناك بعد مقتل أغلش (٣) . وبناء على دعوة الخليفة ، صمم كل من أتابكي فارس وأذربيجان على صد هجوم علاء الدين وقد أدى هذا الصراع إلى هزيمة الأتابك سعد صاحب أتابكية فارس ، بعد أن تفرق عنه أصحابه ، وأتى به أسيرا بين يدي علاء الدين خوارزم شاه الذي أمر بأن يظل في محبس أمين ، مكبلا في أغلاله ، حتى يرى فيه أمرا (٤) . وبعد أن اطمأن علاء الدين خوارزم شاه إلى طاعة الأتابك سعد ، الذي تعهد بأن يسلم إليه بعض بلاده ويخطب للخوارزميين على منابر أتابكية فارس بأسرها (٥) ، وأن يبعث إلى الخوارزميين بثلاث خراج هذه الأتابكية سنويا (٦) ، بعد ذلك كله ، أطلق سراحه ، وسيره إلى بلاده

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٣ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 190.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٥ و ١٩٠ . النسوي ، ص ١٣ — ١٤ .

(٤) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٤ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٥ .

(٦) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٨ .

معززا مكرما ، محملا بالخلع والتشريفات ، كما حمله بزوجته من أهل بيت والدته تركان خاتون^(١) . ولما وصل الأتابك سعد إلى حاضرة ملكه شيراز ، نشأ صراع طويل بينه وبين ابنه ، الذي كان قد استولى على ملكة أبيه في غيبته ، وانتهى بأن سجن الابن واستعاد الأتابك سعد نفوذه هناك^(٢) . وغلبت هذه البلاد تدين بالطاعة للخوارزميين حتى خضعت لحكم المغول في عهد چنگيزخان^(٣) .

ولم يكن الأتابك أوزبك بن البهلوان أتابك أذربيجان أحسن حالا من الأتابك سعد ، فقد هزم شر هزيمة وعاد إلى بلاده هارباً ، بعد أن فقد جيشه بأ كمله بين أسر وتشريد . وقد أرسل علاء الدين خوارزم شاه يطلب منه أن يقيم الخطبة له على منابر بلاده ، وأن ينقش اسمه على السكة ويبحث إليه ياناوة سنوية معينة . وقد أجابه أوزبك إلى المطلبين الأولين وسط أفراح أقامها ببلاده أذربيجان وأران ، واعتذر عن إجابة المطلب الثالث لضيق ذات اليد من جهة ، وبسبب استيلاء العناصر المتاخمة لبلاده في الشمال على بعض أملاكه من جهة أخرى ، فقبل الخوارزميون عذره^(٤) . وهكذا وصل نفوذ الخوارزميين إلى هذه البلاد النائية في الشمال .

وبعد أن تخلص علاء الدين من متاعبه في هذه البلاد النائية ، جمع قواته لتحقيق هدفه الأول وهو الاستيلاء على بغداد . وسار في سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ، من بلد إلى آخر ، وعلى مقربة من مدينة همذان ، تقابل مع الشيخ شهاب الدين الشهروردي الذي جاء من قبل الخليفة الناصر العباسي ليكون رسول سلام بين الفريقين . ولما دخل الشيخ الشهروردي على علاء الدين خوارزم شاه لم يحترمه ، بل أوقفه في حضرته دون أن يأذن له بالجلوس . وقد وصف الشهروردي مقابلته لعلاء الدين بقوله^(٥) :

« استدعاني فأتيت إلى خيمة عظيمة لها دهليز لم أر في الدنيا مثله وفي »
« الدهليز ملوك العجم على اختلاف طبقاتهم : صاحب همذان وأصبهان والري ،

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٨ . ويلاحظ أن « خاتون » لفظ تركي معناه زوجة .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٣) Malcolm: The History of Persia, vol. i. p. 235.

(٤) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٦ — ١٧ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

« وغيرهم ، فدخلنا إلى خيمة أخرى وفي دهليزها ملوك خراسان : مرو ،
« ونيسابور وبلخ وغيرهم . ثم دخلنا خيمة أخرى وملوك ما وراء النهر في ،
« دهليزها ، كذلك ثلاث خيام ، ثم استورد شهاب الدين في وصف علاء الدين ،
« فقال : هو صبي له شعرات ، قاعد على تخت ساذج وعليه قباء بخاري يساري ،
« خمسة دراهم ، وعلى رأسه قطعة من جلد تساوي درهما ، فسلمت عليه فلم يرد ،
« ولا أمرني بالجلوس . فشرعت فخطبت خطبة بليغة ذكرت فيها فضل بني العباس ،
« ووصفت الخليفة بالزهد والورع والتقى والدين ، والترجمان يعيد عليه قولي ، ،
« فلما فرغت قال للترجمان : قل لهذا الذي وصفته ما هو في بغداد؟ قلت : نعم ،
« قال : أنا أجيب وأقيم خليفة يكون بهذه الأوصاف ، ثم ردنا بغير جواب . .
ومهما يكن من شيء فقد عاد السُّهروردي من سفارته دون أن يفوز بالنتيجة التي
كان يرجوها . ولما فقد الخليفة كل أمل في السلام ، حوّل حاضرة بلاده إلى منطقة
سحرية استعداداً للدفاع ، بينما ركز علاء الدين نفوذه وسلطانه في مدينة همذان ، ثم
سار منها إلى حلوان وهناك أخذ يعمل على زيادة عدد جيوشه .
ولما كانت الجيوش الخوارزمية تتقدم في شهر الخريف ، فقد هبت عليها العواصف
الثلجية على مسيرة يومين من مدينة همذان ، بينما كانت تعبر إحدى المناطق الجبلية
في العراق المعجمي ، وكان من أثر هبوب هذه العواصف ، أن أهلك البرد كثيراً من
الرجال والدواب ؛ وأما من بقي من الخوارزميين فقد تخطفهم قبائل الأتراك والأكراد
في هذه البقاع . وهكذا قدر للجيش الخوارزمي أن يباد وألا يعود منه إلى خوارزم إلا
لهة قليلة من الرجال^(١) ، ولا سيما أن هذه الرياح الباردة والعواصف الثلجية ، استمرت
بها عشرين يوماً^(٢) . وقد وصف « الشاشي القفال » الشاعر هذه الرياح العانية بقوله :
نثر السحاب من السماء دراهما وكسا الجبال من الخواصل ما لبسا
والرياح باردة الهبوب كأنها أنفاس من عشق الحسان وأفلسا^(٣)
وقال النسوي في هذه المناسبة :

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٦ . D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 193.

(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٨ .
(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٢٠ .

« فعظم إذ ذاك البلاء ، وأعضل الداء ، وصارت الأرض كأنها بياضها ،
« سوداء ، وشمل الهلاك خلقا كثيرا من الرجال ، ^(١) .
وكانت هذه الكوارث التي نزلت بالخوارزميين عامة ، وبلاء الدين خوارزم شاه
خاصة ، سبباً في الاعتقاد بأن ما حدث لم يكن إلا غضباً من الله سلطه على علاء الدين
لمحاولته إزالة بيت بني العباس ، الذي يؤيده الله بملائكة سمائه ضد من يناصبه الغداء ^(٢) .
وقد قال له بعض خواصه : « إن ذلك غضب من الله حيث قصدت بيت الخلافة » ^(٣) .
ومهما يكن من تلك الكوارث التي حلت بالجيش الخوارزمي في ذلك الوقت فقد
وجد علاء الدين خوارزم شاه نفسه مضطراً إلى العودة بمن بقي من رجاله إلى خراسان ،
استعداداً لمواجهة الخطر المغولي ، إذ أن چنگيز خان كان ينتظر الفرصة الملائمة للانقضاض
على الدولة الخوارزمية وإبادتها ، فإن الحوادث التاريخية في هذه الأثناء كانت قد
بدلت علاقة الصداقة بين المغول والخوارزميين إلى علاقة عداوة سلبية ، تطور فيما بعد إلى
هجوم حربي غاطف على البلاد الإسلامية . وهكذا ابتعد خطر التخريب عن بغداد إلى حين .

٣ - علاقة الدولة الخوارزمية بدولة الخطا ^(٤)

(١) علاقة الدولة الخوارزمية بالخطا حتى نهاية

أتسز خوارزم شاه .

٥١٩ - ٥٥١ هـ (١١٢٥ - ١١٥٦ م)

قسمنا تاريخ العلاقات بين الخوارزميين وبين دولة الخطا إلى دورين : الدور الأول
من سنة ٥١٩ إلى ٥٥١ هـ (١١٢٥ - ١١٥٦ م) أي منذ ظهور قبائل الخطا وتأسيس
دولتهم في إقليم التركستان ، وتنصيب زعيمهم إمبراطوراً على ما اغتصبه من البلاد هناك ،
حتى وفاة أتسز خوارزم شاه . وتمتاز هذه الفترة من تاريخ العلاقات بين الفريقين بطابع

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٢٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢١ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٨ .

(٤) « الخطا » بكسر الخاء وفتح الطاء . القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج ٤ ص

٤٨٣ . انظر أيضا الحاشية ٢ ص ٤٨ .

خاص من ناحية الدولة الخوارزمية نفسها، إذ كانت هذه الدولة في بداية تكوينها ولم تكن قد تخلصت بعد من النير الساجوقي، ولذلك نرى أن الدولة السلجوقية في هذه الفترة تلعب دورا كبيرا في العلاقات بين الفريقين، كما نجد أن الدولة الخوارزمية الناشئة تستعين بالخطا على السلاجقة. ويفضل سلاطين الخوارزميين التحالف مع أعدائهم في الدين — ذلك التحالف الذي كان يقوم على نوع من التبعية — على الاعتراف بالتبعية للسلاجقة، أسيادهم بالأمس القريب.

والدور الثاني من تاريخ العلاقات بين الخوارزميين والخطا، يبدأ منذ وفاة السلطان أتسز خوارزم شاه كما قلنا، وينتهي سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) أي بانتهاء دولة الخطا على يد المغول. وتتميز هذه الفترة من تاريخ العلاقات بين الدولتين، بمخلوها من السياسة السلجوقية؛ إذ أن القوة السلجوقية في بلاد المشرق، كانت قد زالت تماما بوفاة السلطان سنجر في السنة التالية لوفاة السلطان أتسز خوارزم شاه، وأصبح الخوارزميون والخطا وجها لوجه. وبعد أن كان الخطا يتدخلون في الدور الأول في الصراع القائم بين الخوارزميين والسلاجقة، أصبحوا في هذا الدور يتدخلون في الصراع الداخلي الذي قام بين الحكام والأمراء من الخوارزميين وآخر ذلك من تبعية الخوارزميين للخطا، إلى أن قدر لهذه التبعية أن تزول في عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه. وقد انتهى هذا الدور بانتهاء دولة الخطا نفسها على يد المغول في هجومهم العام على غرب آسيا.

يرجع الأصل في هجرة القبائل والشعوب المعروفة في التاريخ وانتقالها من مكان إلى آخر، إلى عوامل كثيرة متعددة. فقد تحدث الهجرة بسبب جذب وقحط يصيب الموطن الذي تسكنه هذه القبائل، فتهاجر إلى مكان أكثر خصبا وأوفر ثروة. وقد يزدحم إقليم بساكنيه فلا يعود يقوى على احتمال هذا العدد الكبير من سكانه. فيضطرون إلى البحث عن مكان آخر يطيب لهم المقام فيه؛ وقد تكون العوامل السياسية في إقليم ما سببا في هجرة بعض القبائل من مكان إلى آخر، كأن يغتصب مغتصب أملاك دولة أخرى فيضطر قادة الدولة المهزومة — وقد ضاق أمامهم سبيل العيش في بلدهم الأصلي — إلى البحث عن مكان أكثر أمنا وطمأنينة، ويتبع هؤلاء القادة طبعا أنصارهم المخلصون. ولا بد أن يتوافر في الإقليم الذي ينزح إليه هؤلاء ما يجذبهم إليه ويشجعهم على الإقامة

فيه ، كأن يكون هذا الإقليم على شيء كبير من الثروة ووفرة العيش ، أو يكون ذا تاريخ وحضارة تهر أبصار المهاجرين فيلذ لهم المقام فيه .

كانت الحالة السياسية في شرق آسيا في النصف الأول من القرن السادس الهجري ، (الثاني عشر الميلادي) من الاضطراب بمكان ، مما أدى إلى هجرة قبائل الخطا من موطنهم الأصلي في شمال بلاد الصين إلى أن هبطوا على غرب إقليم التركستان . فقد تداول حكم البلاد الصينية عدة أسر متعاقبة ، ترتفع الواحدة على أكتاف سابقتها بعد متعتها ، وبعد انقضاء فترة من فترات الانحلال . ومن أمثلة هذه الفترات ما حدث في تاريخ هذه البلاد بين سنتي ٢٩٥ و ٣٤٩ هـ (٩٠٧ و ٩٦٠ م) فقد كانت فترة أشبه ما تكون بالعصر الإقطاعي في أوربا في العصور الوسطى ، ثم توحدت هذه الدولة على يد إحدى الأسرات القوية وهي أسرة « سونج » Sung (٣٤٩ - ٥٢١ هـ = ٩٦٠ - ١١٢٧ م) . وكانت تجاورها في الشمال قبائل الخطا في جنوب منشوريا في الإقليم المعروف باسم إقليم دلياو Liao . وكان هؤلاء الخطا من القوة بحيث استطاعوا أن يفرضوا على أسرة سونج جزية سنوية ، واضطر قادة هذه الدولة إلى دفعها دفعا لشرم^(١) وفضلا عن ذلك كانت هذه الأسرة التي تسمت باسم أسرة لياو ، نسبة إلى الإقليم الذي يعيش فيه الخطا ، تسيطر بنفوذها على شمالي بلاد الصين^(٢) . وقد حدث لهذه الأسرة ما حدث لكل شعب محارب بطبيعته ينغمس في تيارات المدنية وما فيها من مفاسد ، إذ بهرت المدنية والحضارة الصينية هؤلاء البدائيين فأفقدتهم زوحم الحربية ، فاعتورهم ضعف تدريجي وكان من أثر هذا الضعف أن ظهر عليهم عدو كان بالأمس القريب تابعا لهم ، وهم جماعة « كين » Kin الذين كانوا يسكنون أحد أقاليم منشوريا ، فخارب هؤلاء أسيادهم الخطا ، الذين لم يستطيعوا مقاومتهم ، وأدى هذا في النهاية إلى انهيار دولة الخطا سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) .

(١) Fitzgerald : China, A Short Cultural History, pp. 373 — 380.

(٢) ورد اسم قبائل الخطا في المراجع الصينية منذ القرن الرابع الميلادي أي قبل ظهور الإسلام بزمان طويل ، وهم خليط من التتول والتانجوت . وقد حدث في بداية القرن الرابع الهجري « العاشر الميلادي » أن ظهر بين هذه القبائل زعيم قوي أخضع هذه القبائل لسلطته ونصب نفسه إمبراطورا عليها من سنة ٣٠٤ إلى ٣١٥ هـ (٩١٦ - ٩٢٧ م) وسمى نفسه تاي تسو T'ai tsu ، واستطاع خله أن يخضع شمال بلاد الصين ، ثم منح أسرته لقب لياو نسبة إلى الإقليم المسمى بهذا الاسم ، واستمرت هذه الأسرة حوالي مائتي عام (٣٠٤ - ٥١٩ هـ = ٩١٦ - ١١٢٥ م) . Bretschneider : Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. pp. 208—9.

بلاد الصين في أوائل القرن السادس الهجري
(الثاني عشر الميلادي)



خريطة ٢

وقد قبلت أسرة سونج الخضوع لأسرة كين فسمحت لأتباعها بالسكنى داخل سور الصين العظيم ، بل دفعت لهم من الضرائب ما كانت تدفعه للخطا من قبلهم ^(١) . على أنه قبيل سقوط دولة الخطا من أقصى الشرق ، فر أحد أمرائها وهو « يي لوتا شي » Ye-lu-ta-shi نحو الغرب ^(٢) ، باحثا عن ملجأ جديد ؛ فسار هذا الرجل بين عامي ٥١٦ و ٥١٧ هـ (١١٢٢ و ١١٢٣ م) يصحبه نحو مائتين من رجاله المخلصين إلى الأراضي الواقعة في الشمال الغربي من إقليم « شن سي » Shen-Si ، حيث كانت تقيم بعض القبائل التركية التي كانت تضمهم إمبراطورية الخطا في أيام سطوتها . وقد وجد « يي لوتا شي » من رعايا دولته القدامى كل ترحيب بمقدمه ، فساعده على تكوين جيش كبير استطاع أن يسير به إلى إقليم التركستان ^(٣) .

وإذا نظرنا إلى خريطة بلاد الصين في أوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ^(٤) ، نجد ما توضح الحالة السياسية في بلاد الصين عندما انهارت دولة الخطا وحلت محلها أسرة كين ، في الأقاليم الشمالية من هذه البلاد التي كان يحتلها الخطا من قبل . كذلك يتبين إقليم « لياو » Liao ، وهو الموطن الأصلي لقبائل الخطا ، والذي تسمت هذه الأسرة باسمه ، كما يتضح لنا الأقاليم التي كانت تحتلها أسرة سونج التي كانت في فترة من فترات الانحلال . وليس أدل على انحلالها من أنها سمحت للخطا أولا ، ولقبائل كين ثانيا ، بالسكنى جنوب سور الصين .

كان إقليم التركستان الذي هاجر إليه الخطا إقليما ضعيفا ، ظل حقة من الزمن عرضة لهجمات بربرية من جانب القبائل البدوية الهمجية في الشمال وفي الجنوب ، بل استطاعت هذه القبائل أن تخضع لسلطانها أكبر مدن هذا الإقليم ، ومن بينها كاشغر وخوتان ^(٥) . وعلى هذا الأساس نجد سكان هذا الإقليم في حالة اضطراب سياسي

(١) Fitzgerald : China, A Short Cultural History, pp. 386 — 7

(٢) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 209

هلا عن المصدر الصيني المعروف باسم « لياو شي » Liao Shi .

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 163.

(٤) الخريطة رقم « ٢ » ص ٤٩ .

(٥) تراجع خريطة « الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها » .

كبير ، وفوضى إجتماعية أودت بحياة هذا الجزء من القارة الآسيوية . وكانت هذه الظروف خير عون لهذا الطريد الآتي من أقصى الشرق ، إذ أن خانات التركستان استدعوه لبلادهم مستنصرين به على أعدائهم ، فسار إلى هناك ، واستطاع بسرعة فائقة أن يستولى على عاصمتهم المسماه « بلاساغون » ، شمالى مدينة كاشغر ، ثم استطاع أن يضم إلى حوزته مدينتى كاشغر وخوتان ، كما نجح فى أن يرد عن هذه البلاد عادية المغيرين من رجال القبائل التركية ^(١) . وقد تمكن « بي لوتاشى » ، تدريجيا من أن يحل نفوذه محل نفوذ أصحاب البلاد الأصليين ، وأن يوسع مملكته الجديدة شرقا وغربا حتى وصلت حدودها من صحراء جوبي إلى نهر سيحون ، ومن هضبة انتبت إلى سيديريا . وأخيرا اجتمع قواد الخطا ونصبوا هذا الغاصب إمبراطورا على ما بيده من البلاد ، فاختر هذا الرجل لنفسه من بين الألقاب المعروفة فى ذلك الوقت ، لقب « غورخان » أى ملك الملوك ^(٢) ، كما اتخذ من الديانة البوذية ديانة رسمية لدولته ^(٣) ؛ على أن هذه البلاد كانت باستمرار عرضة لتأثير الديانة البوذية ، لمناخه هذه البلاد بلاد الهند . وعلى الرغم من ذلك فقد وجدت الديانة المسيحية لنفسها مجالا للانتشار هناك بفضل مجرودات المبشرين ، فانتشرت إلى حد ما بين السكان ^(٤) .

وكان تأسيس هذه الدولة ومناختها لأملأك المسلمين ، من الأمور التى شلغت أذهان القوى الإسلامية فى ذلك الوقت ، لأن وجود هؤلاء قد أثار كثيرا من المتاعب للمسلمين فى الدولة السلجوقية ، والدولة الخوارزمية الناشئة . ولا غرو فقد كان لامتداد دولة الخطا ومناختها للبلاد الإسلامية ، أكبر الأثر فى اتجاه أنظار المسئولين فى هذه الدولة الحديثة العهد ، إلى محاولة توسيع سلطانهم على حساب القوى الإسلامية . وليس أدل على أن سياسة الخطا كانت تتجه إلى هذه الناحية ، من أن « بي لوتاشى » نفسه ،

(١) Howorth : History of the Mongols, part. i. p . 6.

(٢) Skrine & Ross : The Heart of Asia, p. 137.

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom i. p. 165.

(٤) أضاف المغول لفظ « قرة » Kara إلى اسم الخطا فأصبحوا يسمىون Kara Khitai ؛ ولفظ « قرة » لفظ مغولى أو تركى . معناه أسود . أما سبب إطلاق المغول لون الدواد عليهم فغير معروف ، ولعل ذلك يرجع إلى عداوتهم وكرهيتهم لهم .

Bretschneider: Mediaeval Researches. From Eastern Asiatic Sources, Vol. i p. 210.

بلا عن المصدر الصينى المعروف باسم « لياو شى » Liao Shi .

انتقل من «بلاساغون» حاضرتة القديمة، إلى حاضرة تكون أقرب إلى البلاد الإسلامية، ومن ثم وقع اختياره على مدينة كاشغر^(١).

وقد وافق قيام دولة الخطا عصر تدهور وانحلال في القوة الإسلامية، وذلك بعد وفاة ملكشاه السلجوقي، إذ ساد الانقسام والتنازع بين أفراد الأسرة السلجوقية، وتبع ذلك انقسام سياسي في أقاليم الدولة فتناثرت أجزاؤها واختص كل فريق بنصيب، وكان للسلطان سنجر بن ملكشاه أكبر نصيب وأوفره، إذ سيطر على القسم الشرقي من الإمبراطورية السلجوقية. وقد اجتمعت القوى المختلفة التي أوجدتها الظروف في هذا المسرح التاريخي على إضعاف هذه القوة السلجوقية في بلاد المشرق، ومن بين هذه القوى، الدولة الخوارزمية الناشئة.

وقد ساعد على هذا الصراع الذي قام بين هذه القوى الإسلامية، إستفحال شأن جماعة الخطا الذين بدأوا يكونون دولة لأنفسهم، في الوقت الذي كانت فيه الدولة الخوارزمية لا تزال في مهدها، ففي أواخر عهد قطب الدين محمد خوارزم شاه وسع «بي لوتاشي» أملاكه في بعض بلاد ما وراء النهر، ولذا خشي الخوارزميون توسع الخطا هناك، حتى لا توجه الضربة التالية إليهم، فسار قطب الدين محمد في مائة ألف رجل، ظنانه أنه يستطيع بذلك أن يقضي على الخطا دفعة واحدة، ولكن الهزيمة لم تلبث أن حلت به، واضطر أن يدفع لهم جزية سنوية^(٢).

كان النزاع على أشده طيلة عهد السلطان سنجر السلجوقي والسلطان أتسز خوارزم شاه، إذ كان الأول يعمل جهده للحفاظ على ما ورثه من أملاك، وكان الثاني يسعى ليقوى نفسه ويكسب له ولدولته ما يستطيع كسبه من أملاك السلاجقة. وبسبب هاتين السياستين المتعارضتين، نشأ الصراع بين الطرفين. والمهم في هذا النزاع أن أتسز خوارزم شاه لما لم يجد في نفسه القدرة على مقاومة عدوه السلجوقي منفردا، لم يجد بدا من الاستعانة عليه بعدو قوى الشكيمة وهو قبائل الخطا. لذلك لانعجب إذا رأينا أتسز خوارزم شاه يحرضهم على الاستيلاء على كل بلاد ما وراء النهر، ويطعمهم في مخازنة السلطان سنجر، ويهون عليهم الأمر، حتى إذا ما قبل الخطا، اندفعوا في سنة

(١) Skrine & Ross : The Heart of Asia, p. 138.

(٢) Ibid, pp. 137 — 8.

٥٣٦ هـ (١١٤١ م)، وهي السنة التي توفي فيها «بي لوتاشي»^(١) إلى بلاد ماوراء النهر، في ثلاثمائة ألف فارس واستطاعوا أن يوقعوا بالسلطان سنجر وجنوده هزيمة منكرة لم يرها سلطان سلجوقي من قبل، إذ بلغ عدد القتلى مائة ألف فارس ولحق العار بالسلطان السلجوقي حين أسرت زوجته^(٢). على أن هذه الهزيمة التي حلت بالسلطان سنجر، كان لها أكبر الأثر في سياسة كل من الخوارزميين والسلاجقة والخطا في السنوات التالية؛ فقد تمكن الخطا من أن يسيطر على كل بلاد ماوراء النهر^(٣)، بحيث لم يعد للمسلمين في هذه الأقاليم أي نفوذ زهاء نصف قرن، بل نجد أن هذه القوة قد أصبحت بسيطرتها على بلاد ماوراء النهر، تثير مخاوف الخوارزميين والسلاجقة معا. كما أن هذه الهزيمة التي لحقت بالسلطان سنجر على يد الخطا، كان لها أكبر الأثر في إضعاف هيبة السلاجقة ونفوذهم في فارس وخراسان، مما ساعد على تقوية نفوذ الخوارزميين هناك. ولا يفوتنا أن نذكر أن تلك الهزيمة التي يرجع السبب فيها إلى أنسز لم تحسم النزاع بين السلاجقة والخوارزميين، بل على العكس أدت إلى إطالة النزاع بين الطرفين، ذلك النزاع الذي لم ينته إلا بانتهاء حياة كل من أنسز وسنجر، رغم ما كان يسود هذا النزاع من فترات تهدأ فيها الطرفان. وقد نهج الخطا الوثنيون في حكم بلاد ماوراء النهر، حيث يدين السكان بالدين الإسلامي، على سياسة استطاعوا بها إلى حد ما أن يكسبوا الأهالي إلى جانبهم، فاستمالوا كبار رجال الدين في البلاد الإسلامية واستعانوا بهم في حكم هذه البلاد، مستغلين ما هو لاء من نفوذ ديني في بلادهم؛ ومن أقرب الأمثلة على ذلك، أحمد بن عبد العزيز إمام مدينة بخارى؛ إذ لما كانت له الكلمة النافذة في عصره، نصه الخطا إماما لهذه المدينة وحاكما عليها، فاستطاعوا بفضل ما كان يتمتع به هذا الرجل من احترام بين الأهالي بسبب علمه وتقواه، أن تكون لهم الكلمة المسموعة في هذه البلاد^(٤).

ولما كانت أملاك الخوارزميين تجاور أملاك الخطا، فقد طمع هؤلاء في امتلاك

(١) يلاحظ أن «بي لوتاشي» إمبراطور الخطا توفي سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) دون أن يترك خلفا ذكره فورث دولته أميران ما شقيقته وابنته. Skrine & Ross : The Heart of Asia, p. 139.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ١٢ ص ٣٧. ويظهر أن عدد القتلى الذي ذكره ابن الأثير مبالغ فيه إلى حد كبير.

(٣) Nidhami-i-Arudi-i-Samarquandi : The Chahâr Maqala, p. 38.

(٤) Ibid , p. 39.

الأراضي الخوارزمية غربى نهر جيحون ، إذ بعد هزيمة سنجر وسيطرة الخطا على بلاد ماوراء النهر ، نجد هؤلاء يندفعون فى سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) إلى الأقاليم الخوارزمية غربى نهر جيحون ، ويستولون على بعض البلاد هناك ، منها سرخس ومرو ونيسابور ، ولكن يظهر أنهم أدركوا خطر هذا التوسع فعادوا أدراجهم من حيث أتوا ، مكتفين بأن يكون نهر جيحون الحد الفاصل بينهم وبين الخوارزميين^(١) .

ويظهر أن الخطا لم يعودوا إلى بلادهم إلا بعد أن خضع أتسز واعترف لهم بتبعيته ، وبعد أن تعهد بدفع ضريبة كبيرة^(٢) ، بل لأنهم لم يرحلوا إلى بلادهم إلا بعد أن أعطاهم الكثير من منتجات البلاد الخوارزمية^(٣) ، ووعدهم بالمزيد .

مات أتسز خوارزم شاه كما قلنا سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) ، ولحق به سنجر بن ملكشاه فى السنة التالية ، وانتهى هذا الصراع الطويل بين الخوارزميين والسلاجقة لسبب واحد ، هو وفاة السلطان سنجر آخر شخصية سلجوقية قوية فى هذه البلاد . وباختفاء هاتين الشخصيتين الخوارزمية والسلاجوقية ، يبدأ عصر جديد فى العلاقات بين الخطا والدولة الخوارزمية ، واجهت فيه كل من هاتين القوتين القوة الأخرى وجهاً لوجه ، دون تدخل من القوة الثالثة وهى قوة السلاجقة ، كما حدث فى عصر السلطان سنجر . وهنا تنتقل إلى الدور الثانى من تاريخ العلاقات بين الخطا والخوارزميين الذى انتهى بظهور چنگيزخان .

(ب) علاقة الدولة الخوارزمية بالخطا منذ وفاة أتسز

حتى ظهور چنگيزخان

٥٥١ - ٦١٥ هـ (١١٥٦ - ١٢١٨ م)

تمتاز هذه الفترة كما ذكرنا بطابع جديد يختلف عن ذلك الذى عهدناه فى الفترة السابقة من تاريخ العلاقات بين الدولة الخوارزمية والخطا ، إذ زالت الدولة السلجوقية

(١) Skre & Ross : The Heart of Asia, p. 139.

Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, (٢) vol. i. p. 229.

تقلا عن كتاب جهان كشای Djihan Kashaى مؤلفه علاء الدين الجوبى .
(٢) Ibid, vol. i. p. 215.

تقلا عن المرجع الصينى المعروف باسم لياوشى Liao Shi .

من بلاد فارس كما قلنا ، بعد موت السلطان سنجر سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) ، أى فى السنة التالية لوفاة أتسز خوارزم شاه . وقد ورثت الدولة الخوارزمية ما كان للدولة السلجوقية من ممتلكات فى فارس وخراسان ، ولذلك لا نعجب إذا اعتبر المؤرخون أن أيل أرسلان بن أتسز (٥٥١ - ٥٦٨ هـ = ١١٥٦ - ١١٧٢ م) أول سلاطين الدولة الخوارزمية المستقلين ^(١) . وفى هذه الفترة لا نجد ذلك الأثر الهام الذى كان يحدثه السلاجقة فى تاريخ العلاقات بين الخطا والخوارزميين .

قضى أيل أرسلان بن أتسز السنوات الأولى من حكمه ، فى تثبيت ملكه والقضاء على البقية الباقية من السلاجقة فى فارس وخراسان ، وقد نجح فعلا فى إقامة الخطبة له فى بعض البلاد الخراسانية ، التى كانت لا تزال على ولائها للسلاجقة ^(٢) .

والظاهر أن الخطا لم يكونوا راضين عن ترك الخوارزميين يقوون أنفسهم ، ويشدون من ساعد دولتهم ، حتى لا تكون النتيجة أن توجه هذه القوة إليهم بعد ذلك ؛ لهذا لا نعجب إذا بادر الخطا الخوارزميين بالعدوان ، فعبروا نهر جيحون سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) قاصدين خوارزم ؛ وإذا علم أيل أرسلان بهذا الهجوم ، سارع إليهم بجيش كبير . وقد مرض السلطان الخوارزمى وهو بمعسكره بمدينة «أموية» إحدى المدن الواقعة على نهر جيحون ، ولكن المرض لم يثنه عن الدفاع عن بلاده رغم أن الإخفاق كان حليفه فى النهاية . عاد السلطان المنهزم المريض إلى بلاده كسيرا ، وتوفى سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) حزنا على هزيمته ^(٣) ، ثم عاد الخطا إلى بلاد ما وراء النهر ، مكتفين بما أحدثوه فى نفوس الخوارزميين من ذعر .

ولما مات أيل أرسلان كما قلنا ، إغتصب ابنه الأصغر «سلطان شاه محمود» عرش الخوارزميين بمساعدة أمه ومعونة بعض الموالين من الجنود الخوارزمية ؛ كما كان من حسن حظ هذا الابن الصغير ، أن كان أخوه الأكبر صاحب الحق الشرعى فى العرش وهو «علاء الدين تكش» بعيدا عن خوارزم فى مدينة «جند» إحدى مدن بلاد ما وراء النهر ، وكانت بأيدى الخوارزميين ، إذ أن تكش كان قد تولى حكم هذه المدينة بتفويض من أبيه ^(٤) . وإذا نظرنا إلى موقع هذه المدينة ، يتبين لنا أنها كانت تتاخم أملاك الخطا ،

(١) Skrine & Ross : The Heart of Asia, p. 140.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٣٠ — ١٣١ .

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٧٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦٨ .

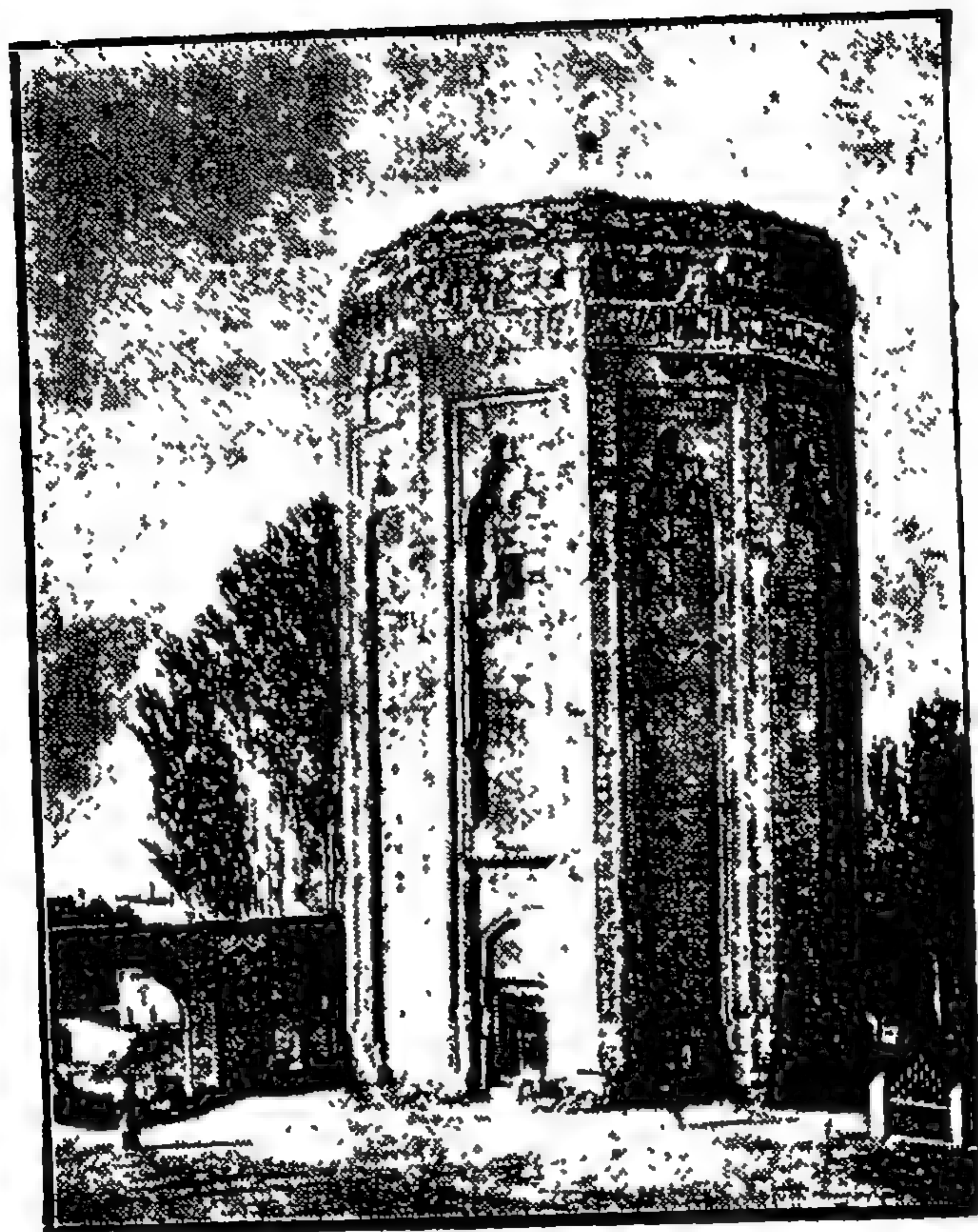
وربما عيّن أيل أرسلان ابنه الراشد عليها ليكون عينا له على الخطا ، وليستطيع الوقوف على خطواتهم وأطماعهم في الدولة الخوارزمية .

ولم يرض الإبن الأكبر علاء الدين تكش طبعاً عن تولي أخيه الأصغر عرش الخوارزميين ، فلما أعيته الحيلة ، لم يجد وسيلة لانتزاع هذا العرش من أخيه المقتصب سوى الاستعانة عليه بالخطا ، ففر إليهم وهو في مدينة جَسند ، القرية منهم كما قلنا ، مستنجدا بهم على أخيه الغاصب ، وزين لهم ما سيجنونه من مال ومتاع إذا تم لهم الانتصار ، وتعهد لهم بأن يكون مخلصاً ونصيراً ، إذا مكنوه من عرش الخوارزميين ، كما تعهد أن يمدّهم بما يطلبونه من ذهب وفضة .

أمام كل هذه العروض السخية ، وأمام أطماع الخطا في التوسع ، سير هؤلاء جيشاً إلى خوارزم ، يقوده قائد من قوادهم يدعى « كرما » K.rama وصحب تكش هذا الجيش ، إذ كان أعرف بمسالك بلاده . وقد استطاع تكش بمساعدة هذا الجيش أن يوقع الهزيمة بأخيه في النهاية وأن يتبوأ عرش آبائه ، ثم انتقم تكش من أم أخيه — وكانت قد ساعدت هذا الإبن الصغير على اعتلاء عرش الخوارزميين — فقتلها . أما الأخ الصغير الذي حلت به الهزيمة ، فقد هَام على وجهه بين البلاد المختلفة مستعيناً بحكامها على أخيه ، منتهزا الفرصة السانحة التي تمسكته من أن يثار لنفسه ويعتلى العرش من جديد . وقد أتبعته له فرصة ظنّها مواتية ، وذلك حينما بعث الخطا برسلهم إلى علاء الدين تكش خوارزم شاه يطالبون بتنفيذ ما وعدهم به ، من خضوع تام لسيطرته ، ومال وفير يبعث به إليهم ؛ وكان تكش بعد أن تولى العرش قد نسي تماماً — أو تناسى — ما وعد به الخطا ، وعزّ عليه أن يخضع لأعدائه ، كما عزّ عليه أن يبعث إليهم بخلاصة ما تنتجه بلاده ، فقتل رسلهم شر قتلة بأن أعطى كل رسول خوارزمي ليقتله ويمثل به . فلما عاد الخطا بأخبار هذه المجزرة البشرية ، غضبوا وثاروا ، وأقسموا أن يضحوا بكل عزيز لديهم في سبيل الانتقام .

وانتهز سلطان شاه هذه الفرصة وسارع إليهم ، واستطاع أن يزين لهم طريق النصر على أخيه تكش ، كما استطاع أن يقنعهم بحب الخوارزميين له وكراهيتهم لأخيه ، وأكد لهم أن النصر سيكون حليفه وحليفهم إن هم سيروا معه جيشاً يشدون به أزره ، وسار

لوحة هـ



قبر مؤمنة خاتون في نخچوان شمال غرب إيران مؤرخ سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م)

(عن كتاب فنون الإسلام للدكتور زكي محمد حسن)

الخطا في سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) في جيش كبير بقيادة كرمات نفسه ، قاصدين البلاد الخوارزمية ولئن كان هذا الجيش هزم شر هزيمة ، بعد أن قطع الخوارزميون مياه نهر جيحون التي أغرقت الجيوش الخطائية (١) .

أما سلطان شاه فإنه أخذ يتنقل بين البلاد الإسلامية ، يكيد المكائد لأخيه ؛ ثم أخذ كل من الأخوين يحاول القضاء على الآخر ، غير أن أحدا منهما لم يستطع أن يظفر بخصمه ؛ ولم ينته هذا النزاع إلا بوفاة سلطان شاه سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ، واستراح تكش خوارزم شاه من شر وييل كان يشغل باله (٢) .

رأينا أن تكش أخذ يوسع نفوذه ودولته على حساب القوى الإسلامية الموجودة في ذلك الوقت ؛ وقد أتاحت له فرصة للتدخل في ذلك الصراع الذي كان محتتما بين الخليفة الناصر لدين الله العباسي ، وبين طغرل بك آخر سلاطين السلاجقة في العراق ، إذ وعد الخليفة علاء الدين تكش أن يقلده ما بيد السلاجقة من أملاك ، إن هو تمكن من القضاء على طغرل بك ، وقد تمكن تكش ، كما رأينا ، من إلحاق الهزيمة بطغرل بك وإرسال رأسه هدية إلى الخليفة ؛ غير أن تكش طمع ، كما ذكرنا ، في أن يمد نفوذه على بغداد نفسها ، وأن يحل اسمه محل سلاطين السلاجقة في الخطبة . وكانت هذه الرغبة مما يتعارض طبعاً مع رغبات الخليفة العباسي ، الذي تنفس الصعداء بزوال الكابوس السلجوقي . ولما أعيته الحيلة وعجز عن أن يثنى تكش عن رغبته ، لم يجد بداً من أن يستنجد بغيث الدين ، ملك الدولة الغورية وأن يحرضه على مهاجمة الخوارزميين من جهة الشرق ، فينشغلون عن الطمع في أملاك الخليفة في الغرب . فلما استجاب الغوريون لنداء الخليفة ، ووجد الخوارزميون الشرر يتطاير في أعينهم بعد أن هددوا بتخريب المدن الخوارزمية ، لم يجد علاء الدين تكش مفراً من أن يضع يده في أيدي الخطا ويحرضهم على الغوريين ، بل زين لهم الطريق لمهاجمة أملاك الدولة الغورية ، وحذرهم عاقبة تأخرهم عن مهاجمة هذه الدولة . وهكذا سارت جموع الخطا لمهاجمة الدولة الغورية ، إستجابة لدعوة علاء الدين تكش ، ولكن كان من سوء طالعه أن هزم الخطا شر هزيمة .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١١ ص ١٧٢ . Skrine & Ross : The Heart of Asia, p. 146.

ولما كان علاء الدين تكش هو السبب في نشوب هذه الحرب التي دارت على الخطا فقد طلب هؤلاء من الخوارزميين أن يدفعوا لهم عشرة آلاف دينار عن كل قتيل من قتلاهم الذين بلغ عددهم اثني عشر ألفاً^(١) ، كما طلبوا من تكش أن يحضر إلى بلادهم ويؤدي فروض الولاء والطاعة^(٢) .

وقد وجد تكش أن الخطا كانوا متطرفين في مطالبهم ، وأن في الاستجابة لها معنى الإذلال لدولته ، لذلك فضل أن يعود إلى الدولة الغورية ويضع يده في أيدي حكامها ، وأثر التحالف مع أقرانه في الدين على التحالف مع الخطا الوثنيين ، وعلم أنه باتفاقه مع الخطا لن يصيبه هو ودولته إلا كل أذى . وقد قبل علاء الدين تكش في سبيل إبعاد الخطا عن بلادهم ما عرضه عليه غياث الدين الغوري ، وهو أن يكف عن عداوته للخلافة . ولما اطمأن تكش إلى تحالفه مع الدولة الغورية ، بعث إلى ملك الخطا برسالة جافية ، رفض فيها أن يجيبه إلى مطالبه التي أشرنا إليها ؛ وقد ورد في هذه الرسالة :
« إن عسكريك ، إنما قصد انتزاع بلخ^(٣) ، ولم يأتوا إلى نصرتي ، ولا اجتمعت بهم ، ولا أمرتهم بالعبور (عبور نهر جيحون) وإن كنت فعلت ذلك فأنا ، مقيم بالمسال المطلوب مني ، ولكن حيث عجزتم أنتم عن الغورية ، عدتم ، على بهذا القول وهذا الطلب ، وأما أنا فقد صالحت (اصطلحت في الأصل) ، الغورية ودخلت في طاعتهم ولا طاعة لكم عندي ،^(٤) .

وكان من أثر هذه السياسة العدائية ، أن جمر الخطا جيشا كبيرا عبروا به إلى البلاد الخوارزمية ، ولكن خوارزم شاه تكش استطاع أن يصدّه عن طريق حرب أشبه ما تكون بحرب العصابات ، فكان لا يهاجم عدوه إلا ليلا ، وساعده على ذلك فريق من المتطوعين الخوارزميين . وقد نتج عن هذه الحرب الههجية أن قتل أكثر جنود الخطا الذين عبروا الأراضي الخوارزمية ، وتقهقر من بقي منهم إلى بلادهم ، تتبعهم الجيوش

(١) ذكرنا في موضع آخر أن هذا الخبر مبالغ فيه إلى حد كبير . انظر صفحة ٣٤ حاشية ٢ .

(٢) ابن خلدون : البر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٩٥ .

(٣) كانت مدينة بلخ تخضع للخطا ، وكان حكامها يدفعون لهم جزية سنوية ، واستمر ذلك حتى سنة ٥٦٤ هـ .

(٤) (١١٦٨ م) حين انتقل حكمها إلى أيدي الدولة الغورية ، لذلك عمل الخطا في هذه الحرب على استرجاع هذه المدينة . ابن الأثير : السكامل ، ج ١٢ ص ٦٣ .

(٤) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ٦٤ .

الخوارزمية المنتصرة سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٧ م) ، تريد انتزاع مدينة بخارى من أيديهم .
ومن طريف ما يروى في هذا الصدد ، أن أهالي مدينة بخارى كانوا يفضلون حكم
الخطا على حكم الخوارزميين ، لذلك شاركوا الخطا في الدفاع عن المدينة ، وفي أثناء
حصار الخوارزميين لها أحضر الأهالي كلبا أعور ، وألبسوه قباء وقلنسوة ، وأخذوا
يصيحون بقولهم « هذا خوارزم شاه » (وكان تكش أعور) ، وقد استمروا يطوفون
بهذا الكلب على سور المدينة ، وأخيرا قذفوا به بواسطة متجنيق على الجنود الخوارزمية
وهم يصيحون « هذا سلطانكم » . ومع ذلك فإن تكش لما استولى على هذه المدينة عفا
عن أهلها وأحسن إليهم^(١) .

أمضى تكش البقية الباقية من حياته في توطيد نفوذه في البلاد التي تحت يده ،
واضطر إلى تحسين علاقته بالخلافة العباسية ، كما اضطر أن يتناسى — بعد أن
عجز أمام قوة الدولة الغورية — عداوته القديمة مع هذه الدولة ، تاركا لولده مهمة
تنفيذ سياسة الخوارزميين التقليدية في التوسع والفتح كلها استطاع إلى ذلك سبيلا .
كذلك نرى علاء الدين تكش يقوى علاقاته مع دولة الخطا ، ويعمل على المحافظة على
هذه الدولة في شرق بلاده ، رغم عداوته لها ، فتناسى هذه العداوة ، بل اتفق في معاهدة
عقدها مع المستوليين في هذه الدولة على دفع جزية معينة ، وأكثر من ذلك أوصى ابنه باتباع
هذه السياسة ، بعد أن تبين له أن دولة الخطا كانت بمثابة حصن قوى بين الدولة
الخوارزمية والقبائل الهمجية في الشرق^(٢) . ويرى المؤرخان سكرين وروس
(Skrine & Ross) ، أن تكش وجد من مصلحته المحافظة على دولة الخطا ، لأنها كانت بمثابة
حاجز بين الخوارزميين والمغول^(٣) . ولا عجب في ذلك إذا علمنا أن القبائل المغولية في
ذلك الوقت كانت قد تجمعت في شرق آسيا تحت سيطرة چنكيزخان ، وأن الخطر
المغولي قد بدا ظاهرا للدولة الإسلامية في غرب آسيا .

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٩١ — ٣٩٢ .

(٢) Bretschneider : Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 229.

هنا عن كتاب جهان كشاي لعلاء الدين الجويني . ولعل القبائل التي يشير إليها هذا المؤلف هي قبائل الكارلوك
Karluk و كانكال Kankalis والترغيز Kurghises ، التي كانت تغير دائما على إقليم التركستان
انظر كتاب Howorth : History of the Mongols, part. i. p.6.
Skri oss : The Heart of Asia, p. 147. (٣)

تولى علاء الدين خوارزم شاه العرش بعد وفاة أبيه تكش، وقد ورث عن أبيه تركة محملة بالمصاعب، إذ كان عليه أن يقوى دولته في الداخل، ليستطيع أن يواجه أعداءه آمنا في الخارج، كما كان عليه أن يواجه الدولة الغورية والخلافة العباسية، ويسيطر بقوة جيوشه على الأولى، ويحاول على الأقل فرض نفوذه الأدبي على الثانية. وقد وجد أن سياسة التحالف والمسالمة مع هاتين القوتين — وهي السياسة التي نهج عليها أبوه في أواخر أيامه — تتعارض تماما مع ما رسمه لنفسه من سياسة قوامها التوسع ما أمكن على حساب القوى المجاورة، واكتساب ما يمكن اكتسابه من أملاكها. وقد رأينا كيف نجح علاء الدين خوارزم شاه في الاستيلاء على بعض أملاك الدولة الغورية في غرب نهر السند، كما رأينا كيف فشل في السيطرة على بغداد.

كذلك كان على علاء الدين خوارزم شاه أن يواجه قوة ثالثة، أهم من القوتين السابقتين وهي قوة الخطا، فقد وجد من العار أن تدفع دولته جزية سنوية لأعدائه في الدين، لذلك عوّل منذ البداية على التخلص من هذه التبعية، واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من الأراضي الإسلامية التي كان يظلمها الخطا برايتهم، وبدأ يعمل على تنفيذ هذه السياسة منذ بداية حكمه، وظل يترقب الفرص، ويقوى من شأن جيشه في جميع أقاليم الدولة الخوارزمية، مترقبا الفرصة لتنفيذ سياسته.

حدث في سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) أن أرسل عثمان سلطان سمرقند وبخارى^(١) — وكان تابعا للخطا ويدفع لهم جزية سنوية — إلى علاء الدين خوارزم شاه رسالة يعرب له فيها عن أسفه لخصوع المسلمين لأعدائهم في الدين، ويظهر آلامه وتضجره من هذه التبعية. وقد عرض عليه في هذه الرسالة، أن ينقض الطرفان يدهما من التبعية للخطا، ويعلنا عصيانهما عليهم. وبما يدل على أن تبعية المسلمين للخطا قد أثقلت كاهل المسلمين لدرجة باتوا معها يتوقون إلى الخلاص منها، أن سلطان سمرقند وبخارى لم يكن في نيته الاستقلال ببلاده عن كل تبعية، بل عرض على علاء الدين خوارزم شاه أن يكون له حليفا آمنا وتابعا مخلصا، كما تعهد أن يدفع إليه ما كان يدفعه للخطا، بل يصك السكة باسمه ويدعو له على منابر سمرقند وبخارى، كما يتبين ذلك من هذه الرسالة:

(١) كان يلقب هذا السلطان باسم «خان خانان» أي سلطان السلاطين. ابن الأثير: الكامل، ج ١٢ ص ١٢١.

« إن الله عز وجل ، قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك وكثرة ،
 « الجنود ، أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفار ، وتخلصهم مما يجري ،
 « عليهم من التحكم في الأموال والأبشار ^(١) . ونحن نتفق معك على محاربة ،
 « الخطأ ، ونحمل إليك ما نحمله إليهم ، ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة ^(٢) . »
 ولسكى يزيد سلطان سمرقند من ثقة الخوارزميين به ، أرسل إلى علاء الدين
 خوارزم شاه بعض أعيان بخارى وسمرقند ، ليكونوا رهينة لديه ، ودليلاً حسياً ملبوساً
 على صدق نواياه . وإزاء هذا التشجيع من جانب حكام بلاد ما وراء النهر ، لم ير
 علاء الدين خوارزم شاه بداً من أن يقتبز هذه الفرصة ليتخلص من تبعية الخطأ ،
 تلك التبعية التي ألزمته كما ألزمت آباءه الثلاثة السابقين ، أن يدفعوا هذه الضريبة
 السنوية ^(٣) ، وكان عليه قبل أن يبدأ هجومه على الخطأ ، أن يثبت أقدامه في الدولة
 الخوارزمية ، فولى على أقاليمها المختلفة ومدنها العديدة ، أشخاصاً من أقاربه وأقارب أمه ،
 وزوّد كل حاكم من هؤلاء الحكام بقوة عسكرية كافية ، حتى يضمن طاعة هذه المدن
 له في غيبته ، وإذا ما تحقق من استقرار أموره في داخل دولته ، شرع في تنفيذ خطته
 الهجومية على أعدائه ، معلناً الجهاد في سبيل الله ^(٤) .
 إزاء هذه الرغبة في الجهاد أعلن علاء الدين العصيان على الخطأ ، حتى إذا ما أرسلوا
 رسولهم سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) في طلب الجزية السنوية ، قتله شرقتة ، بأن شطر جسده
 شطرين ، وهكذا أعلن الخوارزميون العداوة ، وجأهروا به . وكانت الخطوة التالية ، أن سار
 علاء الدين خوارزم شاه بما اجتمع لديه من جيوش وعبر نهر جيحون ، حتى إذا
 ما انضم إلى حليفة السمرقندي ، سارت هذه الجموع لمقاتلة العدو المشترك ^(٥) . وبعد
 أن التحم الجيشان دارت الدائرة على الجيوش الإسلامية فهزمت شرهزيمة ، وكان علاء
 الدين خوارزم شاه نفسه بين الأسرى ، على أنه استطاع أن يهرب بحيلة طريفة ، ذلك
 بأن ادعى أنه خادم لأمير خوارزمي وقع أيضاً في الأسر ، وكان الإثنان في حراسة
 رجل خطائي ؛ وقد استطاع هذا الأمير الخوارزمي ^(٦) أن يقنع الحارس الخطائي بأنه

(١) أبشار جمع بشر (٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٢١ .
 (٣) Curtin : The Mongol's History, p. 94.
 (٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٢١ . (٥) المرجع السابق والصفحة .
 (٦) يدعى هذا الأمير الخوارزمي ، شهاب الدين مشغود .

يملك في بلدة خوارزم ذهباً وفضة ، وأنه يسره أن يسمح لغلامه (علاء الدين خوارزم شاه) بالذهاب إلى بلده لإحضار ما يملكه منها . ودخلت الحيلة على الخطائي وسمح للسلطان الخادم بالرحيل ؛ وهكذا عاد خوارزم شاه سالماً إلى بلاده^(١) .

لم يعبأ علاء الدين خوارزم شاه بالهزيمة ، ولم يثنه هذا الإنكسار عن تحقيق غرضه الأساسي وهو القضاء على دولة الخطا ، فخرج إليهم في العام التالي (٦٠٥ هـ = ١٢٠٨ م)^(٢) . ولما التقى الجمعان سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) دارت الدائرة هذه المرة على الخطا وقتل وأسر منهم عدد كبير ، وكان ملكهم « طائسكوه » — وهو شيخ جاوز المائة — ضمن الأسرى ، غير أنه كان موضع عناية الخوارزميين وتكريمهم^(٣) .

وكان من أثر هذا الانتصار ، أن وضع الخوارزميون أيديهم على كل بلاد ما وراء النهر بعد أن استولوا على مدنها المدينة تلوا الأخرى ، ووصلت حدود الدولة الخوارزمية بعد ذلك حتى مدينة « أوزكند » على نهر سيحون . ولما فرغ علاء الدين خوارزم شاه من توطيد قفوزه في البلاد المفتوحة ، عاد إلى خوارزم يصحبه حليفه السمرقندي . وقد وطد علاء الدين علاقته مع هذا السلطان الحليف بأن زوجه من ابنته^(٤) ، ثم أعاده إلى بلاده محملاً بكثير من الهدايا ، على أنه لم ينس أن يرسل معه إلى سمرقند جنود الاحتلال من الخوارزميين^(٥) .

وقد وصل علاء الدين بهذا الانتصار إلى قمة مجده ، واعتقد أتباعه أنه ظل الله على الأرض ، كما اتخذ هو لنفسه لقب « سنجر » تيمناً باسم السلطان سنجر السلجوقي ، وتفاؤلاً بطول مدة حكمه^(٦) .

ويظهر أن الخوارزميين أساءوا بحكم بلاد ما وراء النهر ولم يقيموا وزناً لحكام البلاد الأصليين ، كما لم يحترموا شعور المواطنين مما حدا بصاحب سمرقند إلى أن يعود ثانية فيميل إلى الخطا ويستصرخهم ليخلصوه من النير الخوارزمي . وأكثر من ذلك أمر بقتل من

(١) الديار بكري : تاريخ الختيس في أحوال أفس نيس ، ج ٢ ص ٣٦٧ .

(٢) المرجع السابق والصفحة .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٢٤ .

(٤) يقول ابن خلدون (العبر ، ج ٥ ص ١٠٦) أن هذه الزوجة كانت شقيقة علاء الدين .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٢٤ — ١٢٥ .

(٦) Curtin : The Mongols' History, p.95.

كان بسمرقند من الخوارزميين ، ومثّل بمندوبى علاء الدين خوارزم شاه ، إذ كان يأمر بشطر الرجل شطرين ، ويعلق جثته بعد ذلك فى الأسواق ؛ كما نراه يشرع فى قتل زوجته الخوارزمية ابنة علاء الدين ، ولولا أنها استغاثت بضعفها لكان نصيبها الهلاك كما حدث لباقي الخوارزميين . كل هذه الحوادث أثارت الخوارزميين الذين ثاروا لكرامتهم وأعلنوا النضال فى وجه هذا السفاح السمرقندى ، وسار علاء الدين على رأس جيشه ليثار لكرامته التى اعتدى عليها صاحب سمرقند فى شخص ابنته وجنوده هناك (١) .

انتصرت الجيوش الخوارزمية فى هذا النضال ، وترك علاء الدين مدينة سمرقند بعد أن فتحها للجيوش الخوارزمية ثلاثة أيام بلياليها ، فاعملوا فيها النهب والسلب والصل ، كما أمر خوارزم شاه بقتل صاحب سمرقند نفسه . وهكذا عادت هذه المدينة ، بسائر بلاد ما وراء النهر فدانت بالطاعة للخوارزميين الذين أقاموا حاكما خوارزميا على كل مدينة ، وضمنوا بذلك ولاء هذه البلاد لهم (٢) .

ذكرنا أن أقاليم آسيا الشرقية فى هذه الفترة من التاريخ ، كانت أشبه ما تكون بخلية النحل من حيث تعدد قبائلها ، وكثرة حركاتها وتنقلاتها من مكان إلى مكان ، سعيا وراء غنم سياسى أو ثروة مادية على حساب بعضها البعض . ولم يكن هناك من طريقة لإنهاء هذه الفوضى إلا على يد زعيم قوى يظهر من بين هذه القبائل ، فيستطيع أن يلم شملها ، ولم يكن هذا الزعيم إلا تيموجين (چنگيزخان فيما بعد) الذى ركز جهوده لتوحيد هذه القوى المتعادية المتنافرة حتى تخضع لسلطانه .

جاء فى المصادر الصينية أن چنگيزخان بعد أن أخضع قبائل Naimans فرده كُشلو ، — خان هذه القبيلة — إلى دولة الخطا فى الغرب . وقد سمح له خان الخطا بأن يجمع بقايا جنوده التى تفرقت على أيدي چنگيزخان ، واستطاع هذا الزعيم الفار أن أن يكون لنفسه قوة هناك ، بل ويعتلى عرش الخطا بعد سلسلة من المؤامرات والفتن وانتهاز للفرص ، وكان أول ما عمله للوصول إلى غرضه ، أن عرض تحالفه مع

(١) يروى فى هذا الصدد أن صاحب سمرقند — توطيدا لعلاقته الجديدة مع الخطا — تزوج من ابنة خان الخطا ، وامعانا فى إذلال الزوجة الخوارزمية ، أجبرها على أن تخدم فى حفل زواجه الجديد .

Skrine & Ross : The Heart of Asia, P. 95.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٢٥ .

الخوارزميين ، منتهزاً فرصة العداوة التي قامت إذ ذاك بين الخوارزميين والخطا (١) .
وقد تظاهر علاء الدين خوارزم شاه بقبول هذا التحالف وتعهّد بمساعدة «كشلو»
في حربه ضد الخطا ؛ ونرى في نفس الوقت أن «غورخان» الخطا يرسل إلى
الخوارزميين يعرض عليهم تناسي العداوة القائمة والاتحاد على «كشلو» عدوهما المشترك .
ولم يرفض علاء الدين خوارزم شاه هذا العرض أيضاً ، بل تظاهر بالقبول بعد أن وعد
هؤلاء بالمساعدة ضد «كشلو» . وسارت القوتان المتعاديتان بعد ذلك كل لمحاربة الأخرى ،
وكل منهما يظن أن الجيوش الخوارزمية في جانبه . أما علاء الدين خوارزم شاه فقد
وقف من هاتين القوتين موقف المتفرج ، ينتظر رجحان كفة إحداهما على الأخرى
لينضم إلى القوة المنتصرة . فلما التقى الجمعان ، انهزمت جيوش الخطا هزيمة منكرة على
يد جيوش «كشلو» ، وشردت الجيوش الخطائية وفر ملكهم . ولما رأى علاء الدين
خوارزم شاه ذلك ، أعمل السيف في رقاب البقية الباقية من الجيوش الخطائية (٢) .
وقد أدت هذه الحرب إلى نتيجة هامة وهي اعتلاء «كشلو» عرش دولة الخطا وأدى
هذا بدوره إلى أمرين : الأمر الأول أن أملاك «كشلو» أصبحت تجاور أملاك الدولة
الخوارزمية مما جعل الخوارزميين في موقف لا يحسدون عليه ؛ والأمر الثاني أن «كشلو»
بعدائه القديمة لجنكيزخان ، وجه أنظار هذا الطاغية نحو الأقاليم الغربية من آسيا ، رغبة
منه في الانتقام من عدوه القديم ، وأدى هذا إلى الكوارث التي حلت بالدولة الخوارزمية
خاصة والعالم الإسلامي عامة ، على أيدي المغول .

وبعد أن اعتلى «كشلو» عرش الخطا ، أخذ يقوى نفوذه على حساب القوى المتناثرة
هناك ، فأخضع عدداً كبيراً من القبائل في هذه الأقاليم — وكان بعضها تابعا للمغول —
فوسع أملاكه حتى شملت الأقاليم الممتدة من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية (٣) .
ولم يحترم كشلوخان الشعور الديني للسكان في دولته ، إذ حاولت زوجته المسيحية
نشر دينها ، كما أخذ هو يعمل على نشر الديانة البوذية التي كان يعتنقها ، كل ذلك كان

(١) Douglas : The Life of Jenghis-Khan, p. 12.

(٢) ابن الأثير: التكملة ، ج ١٢ ص ١٢٦ . Lamb : Genghis Khan, p. 110 .

(٣) كانت القبائل التي خضعت لكشلوخان تسمى قبائل الأوغز Ughats والمالينك Almalyk والركيت Merkits .

على حساب الأهلالي من المسلمين ، فلا يجب إذا جلبت له هذه السياسة عداوتهم (١) .
ثم إن كُشَلُو عندما أراد إخضاع بعض المدن العاصية في دولة الخطا ، ومن بينها
كاشغروخوتان ، صادف أن هاجمهما في موسم حصاد القمح واستولى على المحصول .
وأدى ذلك إلى حدوث المجاعات في هذه الأقاليم مما أثار كراهة الأهالي لحكمه (٢) .

أما عن موقف الدولة الخوارزمية من دولة الخطا في عهدها الجديد ، أى في عهد
كشَلُوخان ، فقد ادعى علاء الدين خوارزم شاه أحقيته لنصف أملاك دولة الخطا ،
بحجة مساعدته لكشَلُوخان على إزالة هذه الدولة وثمنا لاعتلائه العرش ، وقد أرسل إلى
كشَلُوخان رسالة بهذا المعنى . على أن كشَلُوخان رفض إجابة الخوارزميين إلى طلبهم ،
بل هدد علاء الدين بشن حرب ضروس على الدولة الخوارزمية ، إذا لم يكف يده عن
العمل على حساب دولة الخطا . ولم يجد علاء الدين في نفسه وفي جيشه من القدرة
ما يمكنه من إعلان الحرب على كشَلُوخان ، لذا اقتصر عداوته له على شن عدة هجمات
خاطفة على أراضي دولة الخطا ، تلك الهجمات التي لا تخرج عن أعمال السطو على
بعض المدن في غفلة من جنود كُشَلُوخان . ولم يمنع كشَلُوخان من التوجه إلى
عدوه الخوارزمي - رغم تفوقه عليه في العدد والعدة - إلا اشتغاله بمحاربة المغول الذين
بدأوا يندفعون نحو الغرب (٣) .

لم يكن چنكيزخان بالرجل الذي يستطيع أن يسكت على عدوه القديم كشَلُوخان ،
فسير جيوشه - بعد أن وطد سلطانه في شرق آسيا - لإخضاع القبائل العاصية التي
دخلت في نطاق دولة كشَلُوخان ، ومن ثم أرسل قائده سو بوتاي Suboutai لإخضاع
قبائل المركيت Merkits التي انضمت إلى بلاد كشَلُوخان ، كما أرسل قائده شي Chepé
للبحث عنه وإحضاره حيا أو ميتا (٤) .

سار «شي» في سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) على رأس جيش مؤلف من عشرين ألف
مقاتل ، واستطاع هذا القائد أن يثير شعور السكان الديني ضد كشَلُوخان بأن أعلن الحرية

(١) Vambery : History of Bokhara, p. 121.

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 169.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٢٦ .

(٤) Lamb : Genghis Khan ; Emperor of All Men, p. 110.

الدينية في كل مكان، فثار الأهالي في وجه حكامهم، واستقبلوا المغول كمحررين لهذه البلاد^(١). وقد نعم المسلمون بهذه الحرية الدينية كما نعم بها البوذيون، بعد أن فتحت معابدهم التي كانت قد أغلقت بسبب تلك الحروب الطاحنة التي نشبت في هذه الأقاليم. وأخيرا استطاع المغول أن يقبضوا على عدوهم كشلوخان وبيعشوا برأسه هدية إلى چنكيزخان في حضرته «قره قورم».

وكان لهذا الفوز المغولي نتائج هامة كثيرة، منها أن جميع القبائل التركية في ذلك الوقت دخلت في حوزة الحكم المغولي؛ ثم إن خضوع دولة الخطا للمغول جعل الخوارزميين يجاورون عدوا أقوى من عدوهم القديم قوة وشكيمة. وقد ساد علاقة الجوار بين المغول والخوارزميين طابع السلام في بادئ الأمر، ثم تطورت الأمور فيما بعد وحلت تلك الكارثة العظمى، لا للدولة الخوارزمية وحدها، بل للعالم الإسلامي أجمع، حينما تدفقت سيول الجيوش المغولية على هذا المسرح التاريخي كما سنرى.

٤ — علاقة الدولة الخوارزمية بالمغول قبل الغزو المغولي

ذكرنا من قبل، كيف أن المغول بسطوا نفوذهم على أملاك دولة الخطا، وأنهم جاوروا الدولة الخوارزمية من جهة الشرق بامتلاكهم هذه البلاد. وكانت الدولة الخوارزمية دولة عسكرية في نشأتها، عمدت في تكوينها إلى الاعتماد على عنصر القوة دون سواه، ويرجع هذا إلى اضطراب الأحوال الداخلية في وسط آسيا في هذه الفترة من التاريخ الوسيط. لذلك لم تعمل الدولة الخوارزمية في تكوينها على تقوية نفسها بروابط الصداقة مع القوى المجاورة لها، بل اعتمدت على عنصر القوة وحده، فسادتها الفوضى السياسية والاجتماعية.

وكان الحال لا يختلف عن ذلك فيما يتعلق بالمغول، فترى أن چنكيزخان قد أسس دولته على أساس تحطيم كل القوى القبلية الموجودة في شرق آسيا، محاربا تكوينين صرح قوى على أشلاء هذه القوى مجتمعة. وهكذا كانت الدولة المغولية كالدولة

(١) Skrine & Ross : The Heart of Asia, p. 157.

الخوارزمية من حيث نشأتها واعتمادها على القوة العسكرية وحدها .
وقد جاورت هاتان القوتان العسكريتان كل منهما الأخرى على ما تقدم، ولم يعد خافياً على كلا الدولتين ما تسكنه كل دولة للأخرى ، وبات كل منهما ينتظر الفرصة المواتية للوثوب على الآخر . وقد حدث فعلاً بعض المناوشات الحربية في أوائل احتلال المغول لدولة الخطا ، وانتهت بحمل الخوارزميين على عقد معاهدة صداقة بقصد التبادل التجاري بين الدولتين . عل أننا سنرى أن هذه المعاهدة قد قبلها الخوارزميون مضطرين، تحت تأثير ما عرفوه عن قوة المغول.

لم يشأ چنكيزخان ، وقد جاور الدولة الخوارزمية ، أن تكون علاقته بـجيرانه الخوارزميين مستندة إلى حق السيف وحده ، ولكنه رأى أن مشاكلكه في شرق آسيا واضطراره إلى توطيد نفوذه في الأقاليم الصينية، تمنعه من أن يشغل جيوشه في البلاد الخوارزمية أيضاً ، لذلك هداه تفكيره إلى عقد معاهدة تجارية مع الدولة الخوارزمية ، يملئها على الخوارزميين ، وتتضمن بعض نصوصها معاني التبعية لدولة المغول .

وقد حدث أن استقبل علاء الدين خوارزم شاه في سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) ، أى بعد عودته من الأقاليم العراقية، وبعد أن حلت به الهزيمة وهو يحاول إخضاع الخلافة العباسية ، حدث في هذه السنة أن استقبل علاء الدين في مدينة بخارى ثلاثة من تجار المسلمين من أتباعه قادمين من قبل چنكيزخان، وهم محمود الخوارزمي، وعلى خواجه البخارى ، ويوسف كنكا الأترارى . وقد حملهم چنكيزخان بكثير من الهدايا مما تنتجه آسيا الوسطى ، منها سبائك من الفضة وبعض العطور الثمينة والأحجار الكريمة ، كما أرسل إليه بعض المنسوجات الصوفية . وحمل هؤلاء الرسل معهم رسالة وجهها چنكيزخان إلى علاء الدين خوارزم شاه جاء فيها :

« ليس يخفى على عظيم شأنك وما بلغت من سلطانك وقد علمت بسطة ملكك ،
« وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض . وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات ،
« وأنت عندي مثل أعز أولادى ، وغير خاف عليك أيضاً أتى ملكك الصين ،
« وما يليها من بلاد الترك ، وقد أذعنت لى قبائلهم ، وأنت أخبر الناس بأن بلادى ،
« مشارات العساكر ومعادن الفضة، وأن فيها الغنية عن طلب غيرها، فإن رأيت أن ،

« تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد ، عمت المنافع وشملت الفوائد ، ^(١) .
إذا نظرنا إلى هذه الرسالة ، وجدناها تحمل في طياتها معاني التهديد والوعيد في أكثر
من موضع ، فقول چنكيزخان إن علاء الدين خوارزم شاه في منزلة الابن معناه التبعية
لچنكيزخان ، إذ أن العلاقة بين الابن وأبيه وبين الأخ الصغير والأخ الكبير وبين
العم وابن الأخ ، كل هذه العلاقات تدل على أنواع مختلفة من التبعية التي كانت تكتب
في المعاهدات بين أمراء آسيا ، الذين كانوا لا يعرفون معنى للعلاقات السياسية التي تقوم
على المساواة بين الطرفين المتحالفين ^(٢) .

وإذا علمنا فوق ذلك أن چنكيزخان تعمّد أن يخبر علاء الدين خوارزم شاه أنه
أخضع العناصر التركية ، فإن هذا القول أيضاً يحمل معاني التهديد والوعيد ، ولا سيما
إذا علمنا أن علاء الدين كان تركي الأصل .

قرأ علاء الدين هذه الرسالة فاشتشاط غيظاً ، إذ كانت هذه الرسالة أول صدمة
حقيقية صدمت سياسته الخارجية ، فبعد أن كان صوته يجلجل ويدوي كالرعد بين
أمراء المسلمين وحكامهم ، أصبح بين يوم وليلة هدفاً لأطماع هذا الطاغية في أقصى
الشرق ، فأهانته وأمعن في إهائته ، وهدده وأمعن في التهديد .

استدعى السلطان الخوارزمي الشارد الذهن أول هؤلاء التجار وهو محمود الخوارزمي ،
فهو رجل خوارزمي قبل كل شيء ، ووعدته بالأحسان ، ومنه بالوعد ، بل أعطاه جوهرة
ثمينة عربونا لصدافته ، ثم طلب منه أن يكون عيناً للخوارزميين في بلاد المغول ، ولم
يستطع محمود الخوارزمي أن يرفض هذا الطلب طبعاً وهو في حضرة سلطان ثائر ، فوعده
بأن يواتيه بالأخبار وأن يعمل ما من شأنه صلاح الدولة الخوارزمية . ثم دار الحديث
بين السلطان والتاجر فأخذ أولهما يستوضح الثاني عن بعض ما جاء في رسالة چنكيزخان
ليعلم مدى صحة ما قال ، فقال علاء الدين : « أصدقني فيما يقول چنكيزخان إنه ملك
الصين . » ، فقال التاجر : « ومثل هذا الأمر المعظم ليس يخفى حاله وعن قريب يتحقق
السلطان ذلك » ، فقال : « أنت تعرف عالمي وبسطتها وعساكري وكثرتها ، فمن هذا

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٣ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 202 — 3.

اللعيبي حتى يخاطبني بالولد ؟ ما مقدار ما معه من العساكر ؟ ، فلما وجد محمود الخوارزمي علامات الغيظ قد ظهرت على السلطان خاف عاقبة الاسترسال في ذكر أخبار المغول وقال : « ليس عسكره بالنسبة إلى هذه الأمم والجيش العرمرم إلا كفارس في خيل أو دخان في جنيح ليل ، » (١) .

وبعد أن عرف علاء الدين خوارزم شاه حقيقة موقفه أسقط في يده ، ولم يبدأ من الإذعان لرغبة چنكيزخان ، وعقد معه هذه المعاهدة التجارية التي لم تقم كما قلنا على أساس المساواة بين الفريقين ، بل قامت تحت تأثير التهديد والوعيد ، ولم يجد علاء الدين خوارزم شاه في نفسه من الشجاعة ما يكفي لرفض عقد هذه المعاهدة التي قامت على الأساس سالف الذكر ، بل لم نجد بين بطون السكتب ما يشير إلى أي احتجاج على ما جاء في رسالة چنكيزخان من عبارات جافية . وكل ما حدث أن علاء الدين كظم غيظه ، وأعاد الرسل إلى بلاط چنكيزخان يحملون الرد بقبول الاتفاق . تبودلت التجارة بين الدولتين ، واخترقت جموع التجار من المسلمين والصينيين الطرق التجارية في أواسط آسيا . ولما كانت هذه الطرق في أيدي القبائل المختلفة المنتشرة في أواسط آسيا ، فقد عمل چنكيزخان أولاً على إخضاع هذه القبائل والضرب على أيدي المعتدين من قطاع الطرق . ولكي تكون التجارة في مأمن من هؤلاء اللصوص ، زود الطرق الرئيسية بحراس من قبله ، وكلفهم بأن يرافقوا كل أجنبي يحمل تجارة إلى معسكرات المغول (٢) ، وكان هؤلاء الحراس يسمون (قراقجية) أي مستحفظين (٣) . غير أن الإطماع السياسية في دولتي المغول والخوارزميين ، وخوف كل دولة من الأخرى ولا سيما خوف الدولة الخوارزمية من ناحية المغول — كل ذلك مالبث أن بدل هذه العلاقات الطيبة بعلاقات عدائية . وقد حدث أن سار ثلاثة من التجار من أهل مدينة بخارى إلى أقصى الشرق حيث بلاط چنكيزخان ، يحملون معهم البضائع من الثياب المذهبة والسكر باس (٤) ، وغير ذلك . وقد خفرهم حراس الطرق (المستحفظون)

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٣ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 204 .

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٠ .

(٤) السكر باس لفظ فارسي معرب ومعناه الثوب الحسن .

وقادوم إلى بلاط چنكيزخان بعد أن وثقوا على ما معهم من السلع، وعرفوا أن مع أحدهم ويدعى «أحمد» من الثياب ما يليق بمقام چنكيزخان نفسه . فلما مثل هذا الرجل بين يدي الخان المغولي طلب أثمانا باهظة لبضاعته، فحق عليه واغتصب بضاعته وجعلها حلالا لأفراد حاشيته ، ثم قبض على التاجر الشره . ولما مثل التاجران الآخران أمام چنكيزخان لم يجرؤ أحدهما على طلب ثمن لبضاعته ، وتظاهرا بأنهما إنما جاءا بها هدية للخان . وأخيرا أمطر چنكيزخان هذين التاجرين بالذهب والفضة وأخذته الشفقة بالتاجر الثالث فعفا عنه^(١) .

أقام هؤلاء التجار الثلاثة في أراضى الدولة المغولية فترة كانوا فيها موضع التكريم، وعاملهم المغول معاملة ممتازة ، فأعطوهم على سبيل المثال خياما جديدة من نسيج أبيض يقيمون فيها مدة ضيافتهم . ولما هم هؤلاء بالرحيل أمر چنكيزخان بأن يرسل كل أمير في دولته ، وكل قائد من قواده العسكريين ، رجلا أو رجلين من أتباعه يحملون سلعا مغولية إلى غرب آسيا لبيعها في الأسواق الخوارزمية، وشراء ما يحتاج إليه المغول من منتجات هذه البلاد . وقد تكوّن هذا الوفد بسرعة وبلغ عدد هؤلاء المبعوثين كما ذكر الجوينى أربعمئة وخمسين رجلا كلهم من المسلمين^(٢) ؛ ويرى ابن العبرى أن عددهم بلغ مائة وخمسين فقط ومن جميع الأديان دون تفریق^(٣) . وقد زوّد چنكيزخان هذه الجماعة برفیق مغولى حمّله رسالة إلى علاء الدين خوارزم شاه جاء فيها :

« إن التجار وصلوا إلينا وقد أعدناهم إلى ما منهم سالمين غانمين ، وقد سیرنا ، معهم جماعة من غلماننا ، ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف ، فينبغى أن يعودوا ، إلينا آمين ليتأكد الوفاق بين الجانبين ، وتنحسم مواد النفاق في ذات الين ،^(٤) .

ويرى النسوى أن عدد التجار كانوا أربعة فقط ، وهم عمر خواجه الأتقارارى والحمال المراغى، وفخر الدين الدنزكى البخارى، وأمين الدين الهرورى^(٥) . ونحن نستطيع أن نأخذ بما جاء في رواية النسوى وإن كان هذا لا يمنعنا من القول بأن هؤلاء التجار

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٠ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 204.

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٠ . (٤) المرجع نفسه ، ص ٤٠٠ — ٤٠١ .

(٥) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٣٤ . ومما هو جدير بالملاحظة أن هؤلاء

التجار ينسبون إلى مدن أترار ومراغه وبخارى وهراة على التوالي .

الأربعة كانوا بصحبة جمع غفير من رسل چنكيز خان ، يؤيد هذا ما ذكره «ني لوشو تساي» ، Ye-Lu Ch'u ts'ai ، وزير چنكيز خان والذي صحبه في أثناء غزواته للبلاد الإسلامية^(١) .
سار هذا الجمع الغفير قاصدا البلاد الخوارزمية ، ووصلت القافلة في النهاية إلى مدينة أترار على نهر سيحون التي كانت تعد مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربها . وكان يحكم هذه المدينة في الوقت الذي وصلت فيه القافلة «ينال خان» ابن خال السلطان علاء الدين خوارزم شاه^(٢) يؤيده عشرون ألف فارس .

هال هذا الأمير ، هذا الجمع الحاشد من التجار ومن تبعهم من الرجال العسكريين ، تخشى الأمر وأدرك أن هؤلاء لم يقصدوا بلاد خوارزم للتجارة ، وإنما كان غرضهم التجسس واستطلاع قوة الخوارزميين ، تمهيدا لإغارة المغول على البلاد الخوارزمية . وقد كتب هذا الحاكم إلى خوارزم شاه يخبره بأمر هؤلاء التجار حتى يرى فيهم رأيه . ولا نعجب إذا رأينا خوارزم شاه يأمر بمراقبة هؤلاء التجار حتى ، يرى فيهم أمرا^(٣) ؛ ثم أمر بعد ذلك بمصادرة أموالهم وإرسالها إليه كما أمر بقتل جميع أفراد القافلة . أما السلع فقد باعها علاء الدين لتجار بخارى وسمرقند^(٤) ، ولا بد أنها درت عليه أرباحا طائلة ولا سيما إذا عرفنا أن القافلة كانت تتكون من خمسمائة رجل^(٥) .

ويرى النسوي أن أفراد هذه القافلة كانوا تجارا حقا وينتفعونهم صفة الجاهلونسية ويؤكد الغرض التجاري الذي جاءوا من أجله ، بل يقترح ما فعله حاكم أترار بشأنهم

(١) ألف دي لوشو تساي ، كتابا وصف فيه حملات چنكيز خان على البلاد الإسلامية عرف باسم سي پولو Si Yu Lu أي : Account of a journey to the west : Bretschneider : Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 10 & Seq.

(٢) يرى السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء ص ٣١١ ، والديار بكري في كتابه تاريخ الخميس في الأحوال أنفس نفيس ، ج ٢ ص ٣٦٨ ، أن حاكم هذه المدينة هو خال السلطان علاء الدين خوارزم شاه وليس ابن خاله كما ذكر النسوي (ص ٣٤) . على أننا نميل إلى تصديق النسوي ، إذ أنه فضلا عن كونه من المؤرخين المعاصرين ، فإنه كان يعمل في بلاط الخوارزميين في وظيفة حامل أختام السلطان (مهر دار) وهذا فضلا عن أنه تدرج بعد ذلك في وظائف الخوارزميين حتى آخر سلطان من سلاطينهم ، وهو جلال الدين منكبرتي .
(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٦ .

(٥) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion, p. 398 .

هلا عن كتاب تاريخ جهان كشاي لعلاء الدين الجويني .

إلا أننا نخالفه في هذا الرأي ، إذ لا نستبعد أن يكون هؤلاء قد جاءوا من أجل التجسس في أراضي الدولة الخوارزمية ؛ فإذا كانوا قد قصدوا الاتجار فقط فسلم وجد بينهم الكثيرون من الرجال العسكريين على ما ذكرنا ؟ وليس من المعقول البتة أن يطمع حاكم أترار في أموال هؤلاء التجار فيسعى إلى قتلهم ؛ فإذا كان الغرض من قتلهم هو سلب أموالهم كما ذكر النسوي ، فلم لم تسلب هذه الأموال دون أن يقتل أصحابها ، مع العلم بأن قتلهم لابد أن يحدث أثرا بين المغول أعظم مما يحدثه خبر السطو عليهم فقط ؟ وإذا كان حاكم هذه المدينة يعرف أن هذه الأموال لن تؤول إليه في النهاية بل ستذهب إلى خوارزم شاه نفسه ، فما هي الفائدة التي ستعود عليه من الوشاية بهؤلاء التجار ؟ فالحقيقة التي يقرها المنطق ، هي أن هؤلاء الرجال كانوا عيوننا حقا للمغول في جوف الدولة الخوارزمية ، وأن علاء الدين خوارزم شاه وحاكم أترار قد عاملاهم بما يقضى به العرف السائد وهو إعدام الخونة والجواسيس . ويجب ألا ننسى هنا أن علاقة الصداقة التي قامت بين المغول والخوارزميين ، كانت قائمة على أساس التهديد من ناحية المغول كما ذكرنا .

ولما وصلت أخبار هذه المذبحة البشرية إلى علم چنكيز خان ، استشاط غضبا وهاله الأمر ، فهجره النوم ، وقضى وقته يفكر فيما يفعل . وقد روى ابن العبري قصة طريفة في هذا الصدد ، مؤداها أن چنكيز خان صعد إلى رأس تل عال وكشف رأسه ودعا الله أن ينصره على عدوه الخوارزمي ، ووقف على هذا التل ثلاثة أيام لم يذق فيها طعاما ما . وفي الليلة الثالثة برأى في منامه راهبا في أثوابه السواء ويده عصاه يقول :

« لا تخف ، إفعل ما شئت فإنك مؤيد ،

فانتبه چنكيز خان مذعورا ذعرا مقرونا بالفرح ، وعاد إلى منزله وقص قصته على زوجته ، فطمأنته بأن مجي هذا الأسقف إليه بداية لسعادته . وقد استدعى چنكيز خان أحد الأساقفة إلى حضرته ، ففسر له حلمه بأن يسن له أن من رآه في منامه لم يكن إلا قديسا من القديسين ثم زين له رؤيته . ولهذا كان چنكيز خان يكرم المسيحيين ويميل اليهم^(١) .

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠١ .

ورغم ما حدث ، فقد رغب چنكيزخان في أن يسوى حسابة مع الخوارزميين بطريق سلى ، فأرسل إلى علاء الدين رسولا مسلماً يدعى « ابن كفرج » ، كان أبوه أميراً من أمراء السلطان تبتكش ، فسار هذا الرسول مع رسولين آخرين من المغول ، يحملون رسالة من چنكيزخان كلها تهديد ووعد ، ويطلب فيها تسليم خاكم أترار ، تكفيراً عما حدث . وقد ذكر لنا النسوى نص هذه الرسالة التي جاء فيها :

« إنك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار ، وأن لا تعرض إلى ،
« أحد منهم ، فقدرت ونكشت ، والغدر قبيح ، ومن سلطان الإسلام أقبح . ،
« فإن كنت تزعم أن الذى ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك ، ،
« فسلم ينال خان إلى لا جازيه على ما فعل ، حقنا للدماء وتسكيناً للدهماء ، وإلا ،
« فأذن بحرب ترخص فيها غوالى الأرواح ، (١) .

قلنا إن ينال خان كان ابن خال السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، أى من عشيرة أمه ؛ وقد رأينا فى موضع آخر أن معظم رجال الجيوش الخوارزمية كانوا من عشيرة أم السلطان ، ولذلك كان نفوذها لا يقل عن نفوذ علاء الدين نفسه ، بفضل تعضيد هذه الجيوش لها . أضف إلى ذلك أن كثيرين من رجال الدولة كانوا من أقربائها ، يتفانون فى خدمتها ويأتمرون بأوامرها (٢) . وهكذا نرى أنه ليس من السهل على علاء الدين خوارزم شاه أن يجيب چنكيزخان إلى طلبه فيسلم ينال خان إليه ، إذ أن ذلك سيؤدى بلا شك إلى ثورة عسكرية من جانب رجال الجيش ، فضلاً عما سيؤدى إليه من اختلال فى الدولة ، بعد أن ينفض رجال الجيش من حول خوارزم شاه ؛ وكيف يجرؤ خوارزم شاه على تنفيذ هذا الأمر وكبار رجال الدولة من أقرباء ينال خان ؟ ثم إن علاء الدين وجد أنه إذا سلم ينال خان للمغول ، فإن ذلك يعتبر بلا شك تسليماً منه بضعفه أمامهم . ومن ثم لم يتردد فى قتل ابن كفرج وزميلييه ، سنة ٦١٥هـ (١٢١٨ م) ،

ونلاحظ أن هذه القصة على ما فيها من طرافة ، إنما هى فى الغالب من نسج خيال ابن العبري ، إذ أنه كان من كبار رجال الدين المسيحيين الذين عاصروا الغزو المغولي . وربما يكون غرضه من وضع هذه القصة الإيهام بميل المغول عامة وچنكيزخان خاصة ، للديانة المسيحية دون سواها من الديانات .

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٢٤ — ٣٥ .

(٢) كانت ترخان خاتون أم السلطان تنتمى إلى إحدى القبائل الساكنة شمالى بحر قزوين ، ولهذا هاجر كثيرون من أفراد عشيرتها إلى أراضي الدولة الخوارزمية ، وتحكموا فى الدولة ووظائفها ، بل أفرد لهم الخوارزميون إقطاعات خاصة فى قلب الدولة .

» فبالها من قتاة ما كان أقبحها، أجرت كل قطرة من دماء الرسل سيلا من الدماء « (١) .
وقد ذكر دوجلاس Douglas ، أن علاء الدين لم يقتل الرسل الثلاثة بل قتل
زعيمهم « ابن كفرج » وأطلق سراح الاثنين الآخرين بعد أن حلفت لحيتهما ، حتى يرويا
قصة مصرع الرسول المغولي لچنكيزخان كما شاهدها (٢) . وهكذا نجد أن علاء الدين
قد أجاب على رسالة چنكيزخان إجابة عملية ، وتحدثت بعد ذلك سياسة المغول تجاه
الخوارزميين ، بحيث لم يبق هناك من أمل في تجنب الاصطدام بين القوتين .

وقد أخذ الخوارزميون والمغول بعد ذلك في الاستعداد كل لمواجهة الآخر ، فرى علاء
الدين خوارزم شاه يستطلع أخبار المغول ويجهز الجيوش ويبنى الأسوار حول المدن ، ويرسم
خططه الحربية . أما چنكيزخان فقد انصرف بدوره إلى الاستعداد للهمة الشاقة التي
أخذها على عاتقه ، فنظم دولته في الداخل وجهز جيوشه كما جهز معدات القتال ، حتى
إذا أمن أعدائه في داخل دولته ، وأمن شر القبائل التي كانت تتوق إلى التخلص من
النير المغول ، قرر سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) التوجه إلى عدوه الخوارزمي .

وهكذا نرى أن مذبحه أترار جرت على المسلمين أكبر المصائب التي عرفوها في
تاريخهم ، حتى أن الجويني علق على هذه المذبحة بقوله ، إن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار
قد كُفّر المسلمون عنها بسيل من الدماء ، كما كلفتهم كل شعرة من رءوسهم مائة ألف
من أرواحهم (٣) .

وهكذا حلت بالعالم الإسلامي تلك الكارثة الكبرى ، إذ حطم المغول حضارة
المسلمين ، وأعملوا فيهم القتل والتعذيب والتشريد ، وأصبحت مدنهم أثرا بعد عين

٥ - بعض مظاهر الحياة الداخلية في الدولة الخوارزمية

(١) الحياة الاجتماعية

نشأت الدولة الخوارزمية كما رأينا ، على أكتاف القوى التي كانت موجودة في

(١) الديار بكري : تاريخ الخميس في أحوال أفس نيس ، ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٢) Douglas : The Life of Jenghiz Khan, p. 15.

(٣) Vambery : History of Bokhara, p. 117.

ذلك الوقت بعد أن قضت عليها قضاء تدريجيا ، فابتلع الخوارزميون أملاك السلاجقة في فارس ، وأجهزوا على الدولة الغورية بعد الاستيلاء على عاصمتها غزنه ، كما استولوا على بلاد ما وراء النهر . وكان طبيعيا أن تراث الدولة الخوارزمية ما وجدته في هذه الأقاليم ، من نظم وحضارات وثقافات متباينة أوجدتها العناصر الحاكمة المختلفة التي توالى على حكم هذه الأقاليم ، فضلا عما جلبته العناصر المحكومة المختلفة الأجناس التي نزحت إلى هذا المسرح الجغرافي ، في أوقات وظروف مختلفة .

نعلم أن سكان الأقاليم التي شغلها الدولة الخوارزمية والتي كانت جزءا رئيسيا من أملاك الدولة العباسية ، كانوا مزيجا من الفرس والعرب والآثراك ، الذين تجمعوا نتيجة للأحداث التاريخية المختلفة التي دفعت بكل عنصر من هذه العناصر إلى هذه البلاد ، فقد فتح العرب بلاد فارس وسلبوها من أيدي حكامها الفرس ثم استوطنوا أقاليمها المختلفة ، وحاولوا أن يطبعوها بطابع عربي صميم ، رغم أن العناصر الفارسية أخذت تعمل منذ البداية على استرجاع نفوذها القديم ، فتعددت حركات الفرس السياسية والدينية التي امتلأ بها العصر العباسي الأول .

وفي الوقت الذي كانت العناصر الفارسية تحاول استرجاع نفوذها القديم ، كانت العناصر التركية تتسلل إلى جوف الدولة العباسية حتى عظم نفوذها وأصبحت تتحكم في الدولة ، وجاءت أوقات اندفعت فيها هذه العناصر إلى الدولة العباسية اندفاعا في شكل هجرات عامة ، ومن أقوى الأمثلة على ذلك ، الآثراك الغز ، الذين تفرع عنهم السلاجقة ، وهم من أقوى الأمثلة على تحكم العناصر التركية في الدولة العباسية . ظهرت الدولة الخوارزمية على المسرح التاريخي ، وكانت في بداية أمرها لا تعدو أن تكون إحدى الأتابكيات التي ظهرت نتيجة لانحلال الدولة السلجوقية . وأخذت تتوسع على حساب هذه الدولة نفسها بقدر ما كان يصيبها من ضعف ، حتى قدر للدولة السلاجقة في فارس والعراق أن تزول على أيديهم . وهكذا نرى أن الدولة الخوارزمية باتساع رقعتها ، قد شملت عناصر السكان الذين ضمتهم الدولة السلجوقية وهي العناصر الفارسية والعربية والتركية ، على أن الغلبة كانت للعنصر الأخير بعد أن لبس العنصران الآخران ثوب المغلوب على أمره .

وكانت سياسة الدولة الخوارزمية نحو العناصر التركية خير مشجع لهذه العناصر على النزوح إلى أراضيها والإستيكان فيها ، فقد نزح إلى أراضي هذه الدولة عدد كبير من رجال القبائل التركية المرابطة على حدودها في الشمال ، ومنها قبائل كانكالي Cancalis ، وخاصة بعد أن ارتبط علاء الدين تكش خوارزم شاه بأحد قروع هذه القبائل برباط المصاهرة ، فكان من أثر هذه الرابطة أن نزح عدد كبير من رجالها إلى قلب الدولة ، وتكونت منهم جالية قوية أخذت تتحكم بالتدريج في وظائف الدولة المختلفة ، كما أخذت تسيطر على أقاليمها المتعددة ، وانتهى الأمر بهؤلاء الحكام إلى أن نافسوا سلاطين الخوارزميين أنفسهم^(١) ، بل نراهم في كثير من الأحيان يعمدون إلى إرهاب الأهالي المغلوبين على أمرهم ، وإعمال السلب والنهب في أموال المسلمين منهم حتى اضطرب الأمن في البلاد ، وعجزت الدولة كما عجز الأهالي عن رد عادية المعتدين منهم .

وقد امتلأت الدولة الخوارزمية أيضا بالأتراك الذين ينتمون إلى قبائل القفجاق في شمال البحر الأسود ، فقد نزح عدد كبير من أفراد هذه القبائل إلى قلب الدولة نتيجة لارتباط الخوارزميين بهم بروابط المصاهرة^(٢) كما حدث مع قبائل كانكالي ، ومن الطبيعي أن تزيد هذه العناصر الجديدة من متاعب الخوارزميين ، إذ فضلا عما تسببه من اضطراب سياسي في قلب الدولة ، كان من الصعب عليها أن تخضع للقوانين الاجتماعية التي تجدها في البلاد ، إذ لا بد لها من أن تحافظ على نظمها وتقاليدها الاجتماعية التي عرفت في بلادها الأصلية ، مما جعلها تقف موقفا أقرب إلى الشذوذ منه إلى الحياة العادية ، بالنسبة لأهالي البلاد الأصليين .

وقد توغل نفوذ الأتراك في الدولة الخوارزمية لدرجة عجز معها سلاطين هذه الدولة عن كبح جماحهم ، فاضطروا إلى إرضائهم بشتى الوسائل والأساليب . تارة بمنحهم الخلع والهبات والاعطيات ، وتارة أخرى بإسناد حكم أقاليم الدولة إليهم . ولما أفلس الخوارزميون من هذا وذاك ، لم يجدوا أمامهم إلا ألقاب الشرف فأسرفوا في إعطائهم إياها ، كما حدث في عهد كل من علاء الدين خوارزم شاه وجلال الدين منكبرتي .

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٠ — ٣٢ ، ص ٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

ومن الثابت أن الحروب المستمرة التي سادت عصر الخوارزميين ، كان لها أثرها في حياتهم العامة في مدنهم المختلفة ، فتراهم يحيطون هذه المدن بالأسوار المنيعة ، ويشيدون قصورهم ومبانيهم داخل هذه الأسوار ، وفضلا عن ذلك شيدوا القلاع داخل المدن ليلجأ إليها السكان المدنيون والعسكريون إذا ما هدد المدينة خطر خارجي ، ولذلك لم يقتصر الأهالي على تشييد الشكنات العسكرية فيها ، بل امتلأت هذه القلاع بالمنازل التي أعدت خصيصا لإيواء الأهالي إذا مادعا الداعي ، وكان غالبية السكان من أثرياء المدينة وفقرائها ، يملكون المنازل في هذه القلاع ، واحتفظ السلطان لنفسه بقصر جميل في كثير منها (١) .

إذا انتقلنا إلى قصور سلاطين الدولة الخوارزمية ، نرى أنهم رغم انشغالهم بالحروب في الداخل والخارج ، لم ينسوا أن يحيطوا أنفسهم بأنواع من الأبهة والعظمة ، كما لم ينسوا أن يملئوا قصورهم بكل مباهج الحياة ومسراتها ، كما ملئوا قصورهم بالأدباء والشعراء من الفرس والعرب ، وكان لهؤلاء نصيب كبير من عنايتهم وتشجيعهم رغم أن سلاطين الدولة الخوارزمية كانوا لا يعرفون من اللغات إلا اللغة التركية ، وإن كان بعضهم يعرف من اللغتين العربية والفارسية النذر اليسير (٢) . ولم ينس الخوارزميون أن يملئوا قصورهم أيضا بالأعداد الكبيرة من الممالك الذين اشتروهم من أسواق النخاسة ، وكان أكثرهم من الأتراك ممن اشتهروا بجمال الخلقة ، وكان يقوم بالإشراف على هؤلاء رجل سمي « مشرف الممالك » ، يتولى النظر في الأمور المتعلقة بهم ، وينظر في مشاكلهم ، ويتولى الحكم فيهم (٣) ومن الوظائف الهامة في قصور الخوارزميين وظيفة « مقدم الفراشية » (٤) ، وهو الذي يشرف على « بيت الفراش » الذي يحوى البسط العديدة والخيام التي كانت من مستلزمات الحياة عند الخوارزميين . ومن وظائف قصور الخوارزميين أيضا « الطشت دار » (٥) ، وهو أحد الموظفين الذين

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٥٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣ ، ٢٤٧ .

(٣) الفلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج ٤ ص ٢١ والنسوي : ص ١٤٣ .

(٤) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٩٢ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

يعملون في « الطشت خاناه » أي المكان الذي يحوى الطشت الذي تغسل فيه الأيدي ، والطشت الذي تغسل فيه الأقمشة (١) .

وقد حرص الخوارزميون على أن يلحقوا بقصورهم بيوتا عرف كل منها باسم « بيت الركاب » ، ويحوى خيل السلطان وحاشيته ، والعربات التي كان يستعملها هؤلاء السلاطين في تنقلاتهم . وعما هو جدير بالذكر هنا أن السلطان الخوارزمي كان يحرص ، إذا انتقل من مكان إلى مكان ، على أن يحيط نفسه بمظاهر الأبهة والعظمة ، فيركب عربته يتقدمها حرسه الخاص كما يتقدمه رجل يدعى « مقدم الجاويشية » (٢) مهمته ، إفساح الطريق أمام عربة السلطان ، وتنبية الناس إلى شخصية رايكها ، ولم يفت سلاطين الخوارزميين أن يقيموا الأسمطة والولائم في مختلف المناسبات ، يدعون إليها وزراءهم وكبار رجال دولتهم ، وكانت هذه الأسمطة تمتد غالبا في المواسم والأعياد وعند استقبال سفراء الملوك ، وفي هذه الحالة كان « الساقى » هو الذي يشرف على مد السماط وتقطيع اللحوم وتقديم الماء والمشروبات أثناء الطعام وبعده (٣) . أما أموال السلطان فكان يشرف عليها رجل يعرف باسم « أستاذ الدار » أو « الأستاذار » ، ترد إليه الأموال من خزانة الدولة ومن ولاياتها المتعددة ، فيتولى هو الصرف على المخازن والمطابخ والاصطبلات وجرايات الحاشية (٤) ، وبمعنى آخر كان هذا الرجل يتصرف في كل ما يحتاجه بيت السلطان من النفقات والكساوى إلى غير ذلك (٥) .

(١) كان « الطشت خاناه » يحوى ملابس السلطان وكذا المقاعد والمخاد والسجاد الذي يصل على السلطان ؛ ويُعرف الصبيان الذين يعملون في هذا المكان بالطشت دارية ، ويعرف بعضهم بالرختوانية .

القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٠ - ١١ .

(٢) النسوى : ص ١٣٣ . والجاويش أو الشاويش أو الجاوش لفظ تركى وجمه جاويشية . والجاويش أيضا جندي من رتبة بسيطة يكلفه مخدومه بحمل الرسائل وتبليغها .

أنظر الفريرى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٨٧٠ حاشية ٢ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج ٤ ص ٤٦٩ . وعما هو جدير بالذكر أنه كانت توجد هناك وظيفة أخرى تتعلق بطعام السلطان وهي وظيفة « الجاشنكير » ، وهو الذى يقوم بذوق أصناف الطعام والشراب المختلفة قبل أن يأكل منها السلطان ، خوفا من أن يكون هذا الطعام أو الشراب مسموما . وتركب هذه الكلمة من لفظين فارسيتين « جاشنا » ومعناه الذوق والثانى « كير » ومعناه المتعاطى .

القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج ٥ ص ٤٦٠ .

(٤) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج ٤ ص ٢١ .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الحجابة كانت من أهم مميزات السلطنة عند الخوارزميين ، وخاصة في أواخر أيامهم ^(١) فقد كان للخوارزميين حجاب مهمتهم حجب السلطان عن العامة وغلق بابهم أو فتحه لهم في الأوقات المناسبة ، وليس هناك من شك في أن ذلك من أكبر الأدلة على ضعفهم .

وإن ما نراه في قصور سلاطين الخوارزميين من مظاهر الأبهة والترف ، وما نراه فيها من وظائف اقتبسوها عن البلاد التي آلت إليهم بعد اتساع رقعة دولتهم ، كل ذلك نراه ظاهراً واضحاً ولكن بصورة مصغرة في قصور الوزراء وحكام المقاطعات في الدولة الخوارزمية ، إذ لم يتردد هؤلاء الوزراء والحكام في أن يسيروا سيرة سلاطينهم ، وخاصة بعد أن تبينوا ضعفهم ، وأصبحت سلطتهم في أقاليم الدولة لا تكاد تعدو السلطة الاسمية ، وكان هؤلاء الوزراء والحكام في الأقاليم يتحكمون في موارد الدولة ، ولا يبعثون إلى خزانة السلطان إلا ما يجودون به . وقد أسس كل حاكم في ولاية أو مدينة دواوين متعددة ، ولكن على نماذج مصغرة ، تحاكي دواوين السلطان نفسه .

وبما هو جدير بالذكر أن سلاطين الدولة الخوارزمية لم يستقروا في بلد واحد يشرفون منه على شئون دولتهم المتباعدة الأطراف ، ولكن على العكس من ذلك اتخذوا لأنفسهم أكثر من عاصمة ، قراهم تارة في مرو عاصمة خراسان ، وتارة أخرى في سمرقند عاصمة بلاد ما وراء النهر ، وتارة ثالثة قراهم بقيقون في أصفهان كبرى مدن العراق العجمي . وكانت تنقلاتهم الكثيرة من الضروريات التي أملت عليها سياستهم الخارجية وحروبهم المتواصلة .

وبما هو جدير بالذكر أيضاً ، أن سلاطين الخوارزميين كانوا في حاجة إلى أن يوطدوا علاقاتهم السياسية مع أمراء دولتهم ومع الحكام المجاورين لهم ، بكثير من الروابط التي تضمن لهم ولائهم ، وكانت أهم هذه الروابط هي رابطة الزواج من بنات هؤلاء الحكام ، وسنرى أن جلال الدين منكبرتي قد رحب بالزواج من بنات أتابكة كرمان وفارس ويزد وغيرهم ، توطيداً لأواصر الصداقة بينه وبين هؤلاء الحكام ، وتعزيزاً للروابط السياسية بينه وبينهم .

(١) الندوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٦٥ .

(ب) نظام الحكم

على الرغم من أن العصر الذي قامت فيه الدولة الخوارزمية ، كان عصرا سادت فيه الحروب كما سادت فيه القلاقل والثورات في قلب الدولة ، فإن ذلك لم يمنع الخوارزميين من أن يحاولوا إصلاح شئون دولتهم في الداخل ، فأخذوا تلك النظم التي وجدوها في البلاد التي آلت إلى حكمهم ، واقتبسوا الكثير من نظم السلاجقة بوجه خاص .

علمنا أن السلاجقة دخلوا بغداد لينقذوا الخلفاء العباسيين من تلك الآلام التي قاسوها على أيدي البويهيين ، واستطاعوا فعلا أن يزيلوا سلطانهم وأن يفكوا تلك الأغلال التي وضعها البويهيون في أيدي الخلفاء ، على أن السلاجقة بعد أن استقر لهم الأمر في العراق وفارس ، أخذوا هم بدورهم يلعبون مع الخلفاء نفس الدور الذي لعبه البويهيون معهم ، ومن ثم أصبح الخلفاء العويبة في أيديهم ، يُعزلون ويُشردون إذا حاولوا الحد من سلطة آل سلاجوق ، بل استطاع السلاجقة أن يقتلوا أو يوعزوا بقتل من يحاول أن يرفع من شأن الخلافة . وعلى الرغم من ذلك فمن الثابت أن البويهيين والسلاجقة ، مع عظم نفوذهم في الدولة العباسية ، لم يحاولوا أن يزيلوا الخلافة ، بل على العكس حرصوا على بقائها ، كما حرصوا على أن يتقلدوا السلطة بتفويض من الخلفاء باعتبار الخليفة مصدر قوة المسلمين ، وبذلك يمكنهم أن يكسبوا حكمهم صفة شرعية في نظر الشعوب المحكومة ^(١) . وعلى هذا الأساس كان الخليفة العباسي يمثل الساطة الدينية في الدولة ، وكان البويهيون والسلاجقة يمثلون السلطة الزمنية ، وهذا يشبه من بعض الوجوه ما حدث في أوروبا في العصور الوسطى ، حين كان الباباوة يمثلون السلطة الزمنية وكان البابوات يمثلون السلطة الروحية . ويشبه النزاع الذي قام بين الباباوة وبين البابوات في أوروبا ، النزاع الذي قام بين الخلفاء العباسيين من جهة وبين البويهيين والسلاجقة من جهة أخرى .

ورث الخوارزميون أملاك السلاجقة كما رأينا ، وورثوا أيضا ذلك النزاع التقليدي بين السلطتين الزمنية والدينية حين نشأ الصراع بينهم وبين الخلافة العباسية ، على أن

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : العلم الإسلامية ، ص ١٠٠ .

لوحة ٦



صحن من الخزف السلجوقي ذي الزخارف المحفورة والمتعددة الألوان ، من
القرن الخامس الهجري (الحادى عشر الميلادى)
فى متحف كليفلاند

(عن كتاب الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى للدكتور زكى محمد حسن)

الخوارزميين كانوا يحرصون في كل دور من أدوار النزاع على بقاء الخلافة ، وأكثر من ذلك نراهم يحرصون على أن يعترف الخلفاء بسيادتهم على الأملاك التي تؤول إليهم بحمد السيف ^(١) . وإذا كان الخلاف قد استفحل بين الخوارزميين أيام علاء الدين خوارزم شاه ، وبين الخليفة الناصر لدين الله العباسي ، وحاول الخوارزميون إزالة الخلافة العباسية من بغداد ، فانهم لم يشرعوا في تنفيذ هذه الفكرة إلا بعد أن أقادوا خليفة من صنائعهم ، استندوا إلى شرعية سلطته ، على الرغم من أن هذا الخليفة كان شيعياً . وبعد أن استند الخوارزميون إلى ذلك التفويض الذي منحهم الخليفة الجديد إياه ، شرعوا في تنفيذ خطتهم التي ترى إلى إزالة الخلافة العباسية من بغداد . على أن الخوارزميين أصيبوا في ذلك بفشل ذريع كما رأينا ، فاضطروا بعد ذلك إلى الاعتراف بسلطان الخليفة العباسي الشرعي على دولتهم ، كما حرصوا على إرسال الهدايا إلى بلاط بغداد ، كيما يبعث إليهم الخلفاء الخلع والهدايا في شتى المناسبات .

من كل ما سبق نرى أن الخوارزميين وجدوا ألا سبيل إلى استقرار الحكم في دولتهم إلا بالاستناد إلى سلطة دينية شرعية ، تقوى من مركزهم في نظر الشعوب التي حكموها ، هذا على الرغم من تجدد النزاع بين الطرفين كما سنرى .

وقد سار الخوارزميون في حكم دولتهم ، وفق النظم التي وجدوها في البلاد التي دخلت تحت أيديهم ، والتي تعاقبت الأسرات الإسلامية المختلفة على حكمها ، منذ قيام الدولة العباسية ؛ فلا عجب إذا رأينا بعض نظمهم مقتبساً عن السلاجقة ، والبعض الآخر كان نتيجة لتطور هذه النظم في الدولة الإسلامية . فنظام السلطنة كان نظاماً وراثياً كما كان الحال في عصر السلاجقة ؛ وقد احترم الخوارزميون هذا النظام ، وحرصوا على ألا يرث السلطنة إلا الأرشيد من أبناء السلطان الراحل ، ولم يشذ الخوارزميون على هذه القاعدة إلا في عهد علاء الدين خوارزم شاه ، حين اضطر هذا السلطان أن يعهد بالملك من بعده لابنه أرلاخ شاه متخطياً ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي ، وكان في ذلك مدفوعاً بنفوذ أمه تركان خاتون ، ومع ذلك عاد علاء الدين خوارزم شاه إلى

صوابه وهو على فراش الموت ، وعهد بولاية العهد لابنه جلال الدين منكبرتي حرصاً منه على مصلحة دولته (١) .

ولم يظهر السلطان الخوارزمي بمظهر الحاكم المستبد في دولته ، لذلك استعان بالوزراء في تصريف الأمور . وقد أحاط الخوارزميون وظيفه الوزارة بكل مظاهر الهيبة والجلال ، وليس أدل على هبة هذا المنصب عندهم من أنهم كانوا يعظمون وزراءهم ويجلسونهم على يمينهم في المجالس العامة ؛ هذا فضلاً عن أن الوزير كان لا يقف لمن يدخل عليه وهو في دست الوزارة مهبطاً منزله (٢) .

وقد عهد الخوارزميون بحكم أقاليم دولتهم إلى رجال أطلقوا على الكثيرين منهم لقب «وزير» ، فكان لكل مدينة أو مقاطعة حاكم يُلقب في غالب الأحيان بهذا اللقب . وكان الوزراء يعيشون في الأقاليم التي تسند إليهم الوزارة فيها ، من إقطاعات خاصة يمنحهم السلطان إياها ، فيستولون على دخلها ، وتكون لهم بمثابة ضيعات خاصة ، هذا إلى جانب مرتباتهم بحكم الوخيفة (٣) ؛ أما ما يدفعه الوزير لخزانة الدولة بنحوها فكان في العادة عشر خراج الإقليم الذي يحكمه (٤) .

وكان منصب الوزارة أكبر عون للخوارزميين طالما كان السلطان الخوارزمي مهتماً على شئون الدولة ، ولكن لما ازداد نفوذ الأتراك وتحكمت تركان غاتون وعشيرتها في الدولة بحيث أصبحت تنافس نفوذ السلطان نفسه ، صار هذا المنصب من أكبر عوامل إضعاف الدولة الخوارزمية ، إذ خرج الوزراء على طاعة السلطان واستبدوا بموارد الدولة وثرواتها ، وأصبحوا لا يرسلون إلى خزانة الدولة إلا ما يتصدقون به على السلطان . وبما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن علاء الدين خوارزم شاه لما انعدمت ثقته في وزرائه ، أمر بتشكيل مجلس يتكون من ستة من كبار رجال الدولة ، وأسند إليهم تصريف شئونها ، ولكن شرط عليهم ألا يبتوا في أمر إلا بإجماع الآراء (٥) .

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٥٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٤ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٤٩ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٥٣ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٣٢ .

ولا شك أن هذا يدلنا على عدم ثقة الخوارزميين في وزراء الدولة ، عندما اتسعت رقعتها وتدخل الأتراك في الحكم .

اتسعت الدولة الخوارزمية على نحو ما رأينا ، وأصبح الخوارزميون بحكم موقع دولتهم ومجاورتهم لكثير من الدول والإمارات والأتابكيات ، في حاجة إلى تنظيم علاقاتهم الخارجية ، إما بإرسال مبعوثيهم وسفرائهم إلى هذه القوى ، وإما بتبادل المعاهدات معها . وقد أوجد الخوارزميون ديوان الإنشاء ^(١) ليكون وسيلتهم في تنظيم هذه العلاقات وكان رئيسه عندهم يعرف ، كما يقول النسوي ، بصاحب ديوان الإنشاء ، أما من كان يتولى الكتابة في هذا الديوان فكان يلقب بكاتب الإنشاء ^(٢) .

وقد رأينا كم من معاهدة عقدها الخوارزميون مع الدولة الغورية ودولة السلاجقة ودولة الخطا قبل زوالها ، ومع أتابكيتي فارس وأذربيجان فضلاً عن الخلافة العباسية وطائفة الإسماعيلية ، بل ومع المغول أنفسهم قيل أن يكتسحوا هذه الدولة . ومن أشهر السفراء الذين عرفناهم في الدولة الخوارزمية ، محمد النسوي مؤرخ حياة السلطان جلال الدين منكبرتي ، والذي كان سفيراً له لدى الخلافة العباسية وطائفة الإسماعيلية وغيرهما .

أما نظام الدولة المالي فقد أفرد الخوارزميون له ديواناً خاصاً ^(٣) يشرف عليه

(١) كان ديوان الإنشاء أول ديوان وضع في الإسلام ، إذ كان النبي في حاجة إلى أن يكتب أمراءه وأصحاب سراياه ، كما كان في حاجة إلى الكتابة إلى الملوك المديدين بنية دعوتهم إلى الإسلام ، وكان يقوم بالكتابة في عهد النبي أبو بكر الصديق ، وعلى بن أبي طالب . على أن الكتابة فوضت إلى كاتب يختص في عهد الأمويين ، ومن أشهرهم عبد الحميد الكاتب . فلما جاءت الدولة العباسية كان ديوان الإنشاء يُضاف تارة إلى الوزارة وتارة يعهد إلى كاتب يختص به ، وفي الحالة الأولى أضيف لقب الكتابة إلى الوزارة ، أما في الحالة الثانية ، فقد عرف هذا الديوان بديوان الرسائل ، وكان من يتولاه يسمى صاحب ديوان الرسائل أو متولى ديوان الرسائل ، وربما قيل صاحب ديوان المكاتبات أو متولى ديوان المكاتبات ؟ وقد عرف هذا الديوان في أحيان أخرى بديوان الإنشاء ، وفي هذه الحالة لقب من يتولاه بصاحب ديوان الإنشاء ، ومن أشهر كتّاب العباسيين ووزرائهم ، يحيى بن خالد البرمكي ، وابن المقفع مترجم كتاب كليله ودمنة .

القفقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج ١ ص ٩١ — ١٠٤ ، ج ٣ ص ٤٩٠ — ٤٩٢ ، ج ٥ ص ٤٦٤ — ٤٦٥ . والمقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ قسم ١ ص ٢٤٥ حاشية ٢ .

(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٣ .

(٣) الديوان كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر ، ثم تطور استعمال هذا اللفظ فأطلق من باب المجاز على =

رجل عرف بالخازن^(١) أو الخازندار ، يساعد موظفون محتصون يقومون بتسجيل الوارد والمنصرف من الأموال. أما موارد الدولة فكانت في العادة عبارة عن الضرائب التي يفرضها السلطان على أقاليم الدولة المختلفة ، وكانت هذه الضرائب تختلف باختلاف ثروة الأقاليم . ويجب أن نذكر ، من باب إحقاق الحق ، أن الجزء الأكبر من الضرائب المفروضة على أقاليم الدولة كان يذهب إلى جيوب الحكام ولا يصل منه إلى خزانة الدولة إلا النذر اليسير ، وخاصة بعد أن زالت هيئة سلاطين الدولة الخوارزمية ، وأصبح حكام الأقاليم شبه مستقلين عن السلطان ، ولا يعثون إلى سيد الدولة إلا ما يجودون به ، وكان السلطان لا يملك إلا أن يوافق مجبراً . فضلاً عن هذا المورد الضئيل ، كان الخوارزميون يجمعون بعض المال من البلاد التي تدخل تحت أيديهم بحد السيف ، سواء أكانت هذه البلاد من التي دخلت تحت حكم الخوارزميين المباشر ، أو التي ترك الخوارزميون حكامها في مناصبهم نظير جزية سنوية ، كأتابكيتي فارس وأذربيجان . وكان كل ما يتجمع لدى الخوارزميين يصرف في العادة إما في قصور السلاطين على نحو ما ذكرنا ، وإما على شئون الدولة العامة وعلى الأخص على الجيوش ، بسبب استمرار الحروب مع القوى المختلفة المحيطة بالدولة الخوارزمية .

وكان « ديوان الجيش » من أهم دواوين الدولة الخوارزمية ، ففيه يدبر كل ما يلزم الجيش من أسلحة وذخائر وعتاد وأموال ، ويتبع هذا الديوان « بيت السلاح » الذي تحفظ فيه الأسلحة المختلفة ، ويقوم بالعمل فيه عدد كبير من الصناع يشتغلون في إصلاح الأسلحة^(٢) ، ويشرف على هذا البيت رجل عرف « بالسلاح دار »^(٣) . أما جيوش الدولة فكان ينظر في شأنها رجل عرف « بصاحب الجيش »^(٤) ، فيعرض

لللكان الذي تحفظ فيه السجلات الخاصة بأمور الدولة المختلفة. وقد اقتبس عمر بن الخطاب نظام الدواوين في الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت الفتوحات في عهده ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى ضبط أمور الدولة ، فأنشأ ديوان الجند لكتابة أسماء الجند ، وديوان الخراج لتدوين ما يرد إلى بيت المال من أموال . ثم اتسعت هذه الدواوين وتعددت في عصر الدولتين الأموية والعباسية .

الدكتور حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ٢١٥ — ٢٢٣ .

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٤٨ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج ٤ ص ١٢ .

(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٤٤ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٠١ .

الاجناد وخيولهم إذا ما خرجوا للقتال . ويجب ألا نفهم من هذه الصورة أن الخوارزميين كان لهم جيش ثابت قوى ، فالحقيقة أن جيشهم كان يتكون كما ذكرت في مواضع أخرى من عناصر متباينة لا يربطها رابط ، فلم يستطع الخوارزميون أن يثقوا بجيوشهم كل الثقة ؛ وكان السلطان في الغالب يقود الجيوش بنفسه ويلازمه حرسه الخاص .

وكان النظام القضائي في عصر الدولة الخوارزمية من الأمور التي أولاها سلاطينهم عناية كبيرة ، فعينوا لكل مدينة قاضياً يحكم في الناس حسب الشريعة الإسلامية (١) . وفي المدن الكبرى التي يبدو فيها الاختلاف المذهبي بين السكان واضحاً ، كان الخوارزميون يعينون فيها أكثر من قاض لينظر كل فيما يعرض عليه من قضايا ويحكم فيها وفق مذهبه . وكان القضاة ، إلى جوار النظر في القضايا ، يقومون بتدريس العلوم الدينية في المدارس والمساجد (٢) .

وكان نظام الحسبة عند الخوارزميين من المسائل التي ترتبط بنظامهم القضائي (٣) ، وكان المحتسب يقوم بمراقبة حركة البيع والشراء ، فكان يسير في صحبة بعض رجال الشرطة في الأسواق ، يراقب المكايل والموازين ويضبط من يحاول الغش فيها ، كذلك كان يراقب المأكولات المختلفة ويوقع العقوبات على من يبيع طعاماً فاسداً ؛ وفضلاً عن ذلك كان عليه أن يحافظ على النظام في الأسواق ، وأن يحول دون بروز الحوانيت في طرقاتها ، مما يعوق نظام المرور (٤) . ونلاحظ أن المحتسب كان ينظر في القضايا التي تتعلق بالنظام العام والجنايات أحياناً ، مما يحتاج الفصل فيها إلى السرعة وهذا يخالف اختصاصات القضاة الذين كانوا يقومون بنقض المنازعات التي ترتبط بالدين بوجه عام (٥) .

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٢٩ .

(٢) للرجع ههنا ، ص ٤٩ . (٣) للرجع ههنا ، ص ٩٤ .

(٤) كانت وظيفة المحتسب من الوظائف ذات الشأن عند المسلمين بوجه عام وعند الفاطميين بوجه خاص ، « إذ كان للمحتسب نواب يطوفون في الأسواق فيفتشون القدور والأحوم وأعمال الطهارة ويلتزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع ، ويعتصرون على السقاين لضمان تنظيهم القرب ، ولبس السراويل بما لا ينافي الآداب العامة ، ويمنعون مملئ الكتائب من ضرب الصغار ضرباً مبرحاً ... واتسعت سلطته حتى ألزم رجال الشرطة أن يقوموا بتنفيذ أحكامه » . الدكتور حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٣٥٥ .

(٥) الدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٣ ص ٥٠٠ .

وقد أدخل الخوارزميون في نظمهم « ديوان المظالم »^(١) وهو هيئة قضائية عليا تشبه محكمة الاستئناف في الوقت الحاضر ، ويسمى رئيس هذا الديوان « صاحب المظالم » ، وكانت سلطته أعلى بكثير من سلطة القاضي^(٢) . أما القضايا الكبرى التي يكون لها أهمية خاصة ، فكان السلطان في الغالب ينظر فيها بنفسه ، إذ يعرضها عليه رجل يدعى « القصه دار » ، في ليلة الجمعة من كل أسبوع .

وليس معنى ما تقدم أن نظام الحكم عند الخوارزميين كان نظاماً مستقراً ، فإن انصراف الخوارزميين إلى الحروب الداخلية والخارجية كان له أكبر الأثر في انصرافهم عن الاهتمام بحالة الدولة الداخلية وأدى ذلك إلى اضطراب نظم الحكم في دولتهم .

(ج) الحياة الثقافية

وسط الحروب الدامية التي سادت الشطر الأكبر من حكم الخوارزميين ، نرى كثيرين من الأدباء والشعراء والكتاب يبرزون في عهود سلاطينهم المختلفة ، بفضل تشجيع الخوارزميين أنفسهم ، وبفضل الحروب نفسها التي تكون في كثير من الأحيان من أكبر العوامل وأقواها في نشاط الشعراء والأدباء ، إذ يكثر في أثنائها الشعر الحماسي ، كما يكثر مديح الانصار وهجاء الأعداء .

وعلى هذا الأساس نرى الخوارزميين على الرغم من انشغالهم بتلك الحروب المتواصلة ، يولون العلم والأدب شطراً من عنايتهم ، فبرز كثيرون ممن كتبوا باللغة الفارسية في شتى النواحي ؛ وكان عدد كبير منهم قد نزح إلى أقاليم هذه الدولة بدعوة من سلاطين الخوارزميين أنفسهم ، ومن هؤلاء ، زين الدين أبو إبراهيم اسماعيل بن حسن الجرجاني ، الذي قصد خوارزم سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠ م) ، بغية الإقامة فيها ، على أثر دعوة وجهها إليه قطب الدين محمد خوارزم شاه (٤٩٠ - ٥٢١ هـ = ١٠٩٦ - ١١٢٧ م) . وقد عاش هذا الرجل في كنف الخوارزميين ردحاً طويلاً من الوقت ، إلى أن توفي سنة ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) ، وألف كتاباً عرف باسم « ذخيرة خوارزم شاه » ، وهو من كتب الطب الشهيرة ويبحث في الأمراض المختلفة وتشخيصها ، كما يبحث في

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٦٧ .

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٣ ص ٤٩٨ .

الأدوية والسموم وغيرها^(١). ومن الكتاب البارزين أيضا رشيد الدين محمد عبد الجليل البلخي، الذي لقب بالوطواط بسبب قصر قامته وقبح منظره^(٢)، وقد دخل هذا الرجل في خدمة الخوارزميين منذ أيام السلطان أتسز خوارزم شاه (٥٢١-٥٥١ هـ = ١١٢٧ - ١١٥٦ م)، فاتخذ منه رفيقا خاصا، كما جعله شاعرا للبلاط في أيامه^(٣). وقد عمل الوطواط منذ دخل في خدمة الخوارزميين على أن يكيل المديح للسلطان أتسز في بعض المناسبات، ويكيل الهجاء لأعدائه في بعض المناسبات الأخرى. ومن أبرز هذه المناسبات، ما حدث في أثناء الصراع الطويل الذي قام بين الخوارزميين وعلى رأسهم السلطان أتسز من جهة، وبين السلاجقة وعلى رأسهم السلطان سنجر من جهة أخرى؛ ففي ذلك النزاع الذي أفضنا الكلام عنه، لم يقتصر الطرفان المتحاربان على تبادل التراشق بالسهام والنبال، بل تعديا ذلك الميدان إلى ميدان الشعر، فاتخذ كل فريق شاعرا اختص بمديح صاحبه وهجو عدوه، فكان رشيد الدين الوطواط شاعر الخوارزميين، لا يني عن كيل المديح لصاحبه أتسز وذم عدوه سنجر؛ ولم يختلف الموقف بالنسبة للأنوري شاعر السلطان سنجر^(٤).

ومن المناسبات التي ظهرت فيها المباريات الشعرية واضحة جلية، ما حدث في خريف عام ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) حين ذهب السلطان سنجر لمحاربة عدوه السلطان أتسز خوارزم شاه وحاصر إحدى قلاعته المسماة هزاراسب^(٥)، إذ نظم الأنوري، شاعر سنجر، قصيدة ألقاها في سهم على القلعة المحاصرة جاء فيها:

أيها ذا المليك ذو التاج يامن	كل مُلْكك بالأرض في راحتك
قدّر الله أن تسود بني الدنيا	بمجد ألقى الزمام إليك
فانتزع في الهجوم حصن هزاراسب	بجيش يموج في جانبيك

(١) الدكتور رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ١٢٤.

(٢) Browne: A Literary History of Persia, Vol. ii. p. 309.

(٣) Ibid, p. 309.

(٤) ولد أوحده الدين محمد الأنوري في قرية من قرى خراسان، وذاع صيته في أيام السلطان سنجر. وقد تنقل الأنوري في أغلب مدن خراسان وأقام في كثير منها وخاصة في مدينة بلخ. وكان فضلا عن أنه من أعظم الشعراء في ذلك العصر، واسع الاطلاع في علوم الفلك. الدكتور رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ٩١ - ٩٣.

(٥) هزاراسب قلعة حصينة بخوارزم غربي نهر جيحون. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج ٤ ص ٤٥٥.

مئة ألف من مهاري خوارزم أراها الغداة بين يديكا (١)
ولما أرسلت هذه القصيدة ، رد عليها الوطواط بقصيدة قذفها في سهم على عسكر
الخوارزميين جاء فيها :

إذا كان رستم (٢) ياذا المليك : أهاج لحربك نقما (٣) مئارا
فدون هزاراسب شم الجبال : وصيد السكواكب دون المهاري
أبحلم في ألفك الصافات (٤) : ويعجز، لورام منها حمارا (٥) ١١٩

اغتاظ السلطان سنجر لسماعه هذه الآيات ، وأقسم إلا أن يقتل هذا الشاعر
إن هو وقع في يده ، فلما ساعده الحظ وتمكن من أسره ، أمر بقتله والتبكيل به ،
وذلك بأن يقطع إلى سبعة أجزاء ، على أن السلطان سنجر ما لبث أن عفا عنه حينما
قال له أحد خواصه مازحاً ، إن الوطواط طائر صغير لا يحتمل أن يقطع إلى سبع ، فر
أن يقطع إلى قطعتين فقط . فلما سمع سنجر هذا القول ابتسم وصفح عنه (٦) .

وعما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن تشجيع السلطان أتبسز خوارزم شاه
لرشيد الدين الوطواط ، كان أكبر حافز له على تأليف كتابه المسمى « حدائق السحر
في دقائق الشعر » ، وهو من أقدم المؤلفات الفارسية المعروفة التي تعالج صناعة
الشعر (٧) . ويجب أن نذكر هنا أن الوطواط لم يكتب بالفارسية فحسب ، بل كتب
باللغة العربية أيضاً ، وله في ذلك رسائل معروفة (٨) . وقد استمر الوطواط في خدمة

(١) نلاحظ أن هذه القصيدة ألقت بالفارسية وترجمها براون Browne إلى الإنجليزية ، وقد حاولت
قدر الإمكان أن أهملها إلى شعر عربي لا يختلف في معناه عن الشعر الفارسي ؛ أما الأصل الفارسي لهذه
الآيات فهو :

أي شاه ! هم ملك زمين حسب تراست وز دولت وإقبال جهان كسب تراست
أمروز يك حمله هزاراسب بكير فردا خوارزم وصد هزاراسب تراست
(٢) رستم ، من أشهر أبطال الفرس ، وكان الشعراء يكثر من ذكره في أشعارهم ويضربون
الأمثال ببطولته . أنظر مقال الدكتور عبد الوهاب عزام عن « الصلات بين العرب والفرس وآدابهما
في الجاهلية والإسلام » في عدد أكتوبر سنة ١٩٣٨ من مجلة المقتطف ص ١٦٠ .

(٣) النقم = التراب (٤) الصافات = الخيول . (٥) الأصل الفارسي لهذه الآيات هو :

كرخهم تو ، أي شاه ، شود رستم كرد يك خرز هزاراسب تو نتواند برد

(٦) Browne : A Literary History of Persia vol. ii, pp. 309-310.

(٧) الدكتور رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي ، ص ١٢٤ .

(٨) أنظر مقال الدكتور عبد الوهاب عزام عن « الصلات بين العرب والفرس وآدابهما في الجاهلية
والإسلام » في عدد أكتوبر سنة ١٩٣٨ من مجلة المقتطف ص ١٥٩ .

الخوارزميين في عهد كل من السلطانين أيل أرسلان (٥٥١ - ٥٦٨ هـ = ١١٥٦ - ١١٧٢ م)، وابنه علاء الدين تكش (٥٦٨ - ٥٩٦ هـ = ١١٧٢ - ١١٩٩ م)، ونراه يمدح تكش بكثير من أشعاره عند توليه السلطنة . وعلى الرغم من تلك الحروب المتواصلة التي استغرقت عهد السلطان تكش ، فقد طرق بابه كثيرون من الشعراء والأدباء والعلماء .

أما في عهد علاء الدين خوارزم شاه (٥٩٦ - ٦١٧ هـ = ١١٩٩ - ١٢١٩ م)، فقد برز كثيرون من الشعراء والأدباء وعلى رأسهم محمد بن قيس الذي كتب كتاب « المعجم في معايير أشعار العجم » ، وهو من أهم الكتب الفارسية التي تبحث في العروض والقوافي ونقد الشعر . وقد ذكر المؤلف كثيرين من الشعراء المعاصرين له ، كما ذكر الكثير من أشعارهم ؛ وقد كتبت هذا الكتاب بالعربية ثم ترجم إلى الفارسية (١) .

وبما يدل على اهتمام علاء الدين خوارزم شاه وابنه جلال الدين منكبرتي بالعلم والأدب ، أنهما كانا يقدان من يبرز من العلماء والأدباء والشعراء بعض مناصب الدولة المهمة ، ومن هؤلاء نصرة الدين حمزة بن محمد ، الذي تقلب في مناصب الدولة المختلفة ومن بينها حكم مدينة « نيسابور » . وكان هذا الرجل يجيد نظم الشعر العربي والفارسي ؛ فمن أشعاره تلك القصيدة التي نظمها عندما ألفت به المقادير في أحد السجون (٢) :

ولاني لني قيد هذا الزمان لكالدراذبات حشو الصدف
تحلى بقدرى جيد العلى ونظم فضلى عقد الشرف
ولاني على الرغم من حسدى لأسلافى الصيد نعم الخلف
وإن كان أنكر قدرى الزمان قذا نهوة صدرت عن حرف

(١) كان محمد بن قيس من أهالي مدينة الري ، وعاش روحا من الزمن في خدمة علاء الدين محمد خوارزم شاه . ولما هاجم المغول بلاد الدولة الخوارزمية أخذ ينتقل من مدينة إلى أخرى إلى أن استقر في أتابكية فارس ودخل في خدمة الأتابك سعد بن زكي سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٥ م) ، وفي خدمة ابنه أبي بكر من بعده . الدكتور رضا زاده شفيق : تاريخ الأدب الفارسي ، ص ١٩٥ .
(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٠٥ . ولم يذكر هذا المؤلف مع الأسماء الطروف التي أحاطت بهذا الشاعر والتي كانت سببا في سجنه .

فمن أمم تنجلي غمتي كبر الدجى بعد ما قد خسف
وتأق المقادير منقادا يقولون عفوك عما سلف

وليس أدل على احترام الخوارزميين لذوى المكانة العلمية ، من رعايتهم لأسرة الجوينى ، التى عظم نفوذ أفرادها فى عهدهم ، ووصل كثيرون منهم إلى أرقى مناصب الدولة فى عهد علاء الدين خوارزم شاه وجلال الدين منكبرتى^(١) . ولا يفوتنا أن نشير هنا أن محمد النسوى الذى كتب عن الدولة الخوارزمية فى عهد جلال الدين منكبرتى كان ممن شملهم هذا السلطان برعايته ، كما ذكرت فى مواضع أخرى .

ولم يقتصر تشجيع الخوارزميين على كبار رجال الأدب والعلم ، بل زاهم يهتمون بتثقيف الطبقات الدنيا من الشعب ، فأسسوا المدارس فى مدن الدولة المختلفة ، أو على الأقل فى أمهات مدنها . وكان يقوم بالتدريس فيها كبار الفقهاء والأدباء فى الدولة ، ومن هؤلاء شهاب الدين أبو سعد بن عمران ، الذى برز فى عهد كل من علاء الدين خوارزم شاه وجلال الدين منكبرتى ، وكان من المتضلعين فى أصول المذهب الشافعى ، كما كان أيضا من المتضلعين فى اللغة والطب ؛ ولعلوا منزلته فى الدولة ، عهد إليه بالتدريس فى خمس مدارس بمدينة خوارزم ؛ وفضلا عما تقدم كان لهذا الرجل فضل كبير فى تأسيس دار للكتب فى هذه المدينة^(٢) .

من كل ما سبق يتضح لنا أن الخوارزميين على الرغم من انشغالهم بمشاكلهم الحربية مع القوى المختلفة المتعددة فى داخل دولتهم وخارجها ، لم ينسوا أن يوجهوا طرفا من عنايتهم إلى العلم والعلماء .

(١) تنسب أسرة الجوينى إلى مقاطعة جوين من نواحي خراسان . وكان لهذه الأسرة من المكانة فى فارس ما كان لأسرة البرامكة فى بغداد فى عهد هارون الرشيد . وعقب غزوات چنكيزخان استعان حكام المغول فى فارس بأفراد هذه الأسرة فى حكم البلاد الإسلامية ، ومن هؤلاء بهاء الدين الجوينى الذى تولى تصريف شئون المغول المالية فى فارس فى عهد مانجوخان ، ومن المحتمل أن يكون ابنه علاء الدين عطا ملك الجوينى مؤلف كتاب « جهان كشاي » قد تولى هذا المنصب بعد وفاة أبيه ، واستمر يشغله إلى أن توجه هولاكو بحملته إلى غرب آسيا فراقته فى هذه الحملة . وكان عطف هولاكو على هذه الأسرة عظيما ، فعين شمس الدين محمد — أخا علاء الدين عطا ملك — وزيرا له كما عين علاء الدين نفسه حاكما على العراق العربى وخوزستان ، واستمر فى حكم هاتين المقاطعتين طيلة عهد كل من هولاكو وابنه أباقاخان من بعده ، حتى توفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٣ م) . أنظر D'ohsson : Histoire des Mongols ,

Tom. 1. L'exposition, pp. 15. — 20.

(٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٤٨ — ٤٩ .

البَابُ الثَّانِي

جنگیزخان و غزو الدولة الخوارزمية

- ١ — الشرق الإسلامي إبان غزوات المغول .
- ٢ — المغول قبل غزو الدولة الخوارزمية .
- ٣ — المغول في بلاد ما وراء النهر .
- ٤ — خضوع الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية .
- ٥ — المغول في إقليم خوارزم .
- ٦ — المغول في خراسان
- ٧ — المغول في إقليم غزنه .

الباب الثاني

جنگیزخان وغزو الدولة الخوارزمية

١ - الشرق الإسلامي إبان غزوات المغول

كان العالم الإسلامي وما أصابه من تدهور تدريجي ببطء ، من أكبر العوامل التي ساعدت المغول على نجاحهم عندما هم جنگیزخان بغزو الدولة الخوارزمية . لذلك كان لزاما علينا أن نصور حالة الشرق الإسلامي في ذلك الوقت لنرى كيف مهدت الحوادث التاريخية في الدولة الإسلامية لهذا الغزو . وأقصد بالشرق الإسلامي هنا ، بلاد العراق وفارس ، ومصر وبلاد الشام . ورغم أن الحوادث التاريخية في هذه الفترة التي تعيننا في هذا المسرح الجغرافي متشابهة بعضها ببعض ، فقد حاولنا أن نميز أبرز الحوادث التاريخية كلا على حدة . فتكلمنا عن الخلافة العباسية وما أصابها من ضعف ، ثم تكلمنا عن انحلال الدولة الإسلامية في داخل نطاق النظام السلجوقي ، كما تكلمنا عن مصر وبلاد الشام .

نشأت الدولة العباسية كما نعلم نشأة فارسية ، إذ اعتمد الخلفاء العباسيون على العنصر الفارسي في تصريف شئون دولتهم ، ووصل هذا العنصر إلى ذروة المجد في عهد الرشيد حينما تحكمت أسرة البرامكة في الدولة ، ثم بدأ الخلفاء ينحرفون عن العناصر الفارسية عندما أدركوا أن زمام الأمور قد أفلت من أيديهم . على أن الخلفاء بدلا من أن يعودوا إلى العنصر العربي ، سلبوا مقاليد الأمور في دولتهم إلى العنصر التركي الذي أخذ يتغلغل في الدولة . ويعتبر الخليفة المعتصم أول من ألقى بهؤلاء الأتراك في ميدان السياسة ، وربما كان في ذلك متأثراً بأمة التركية الأصل ^(١) . وقد تفاقم أمر الأتراك في بغداد في عهد المعتصم نفسه ، وأصبح هؤلاء يدوسون النساء

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٢ ص ١٧١ .

والأطفال بغيو لهم . فلما شكوا أهل بغداد للمعتصم بنى لهم مدينة سامرا سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) وأسكنهم فيها ^(١) . ولما استفحل أمر الأتراك ، استعان الخلفاء عليهم بالبويهيين الذين استولوا على بغداد سنة ٨٣٤ هـ (٩٤٥ م) ، وكان الخلفاء في ذلك كمن استجار من الرمضاء بالنار . وإذا تتبعنا تاريخ بني العباس في عهد البويهيين وجدناه عبارة عن سلسلة من المنازعات لا تنتهى بين هؤلاء وأولئك . على أن نتائج هذه المنازعات كانت واحدة دائماً ، وهى الفوز للبويهيين يؤازرهم الأتراك ، والذلة للخلفاء . وكان الخليفة فى ذلك العهد لا يملك إلا ذكر اسمه فى الخطبة ونقشة على السكة . وفضلاً عن ذلك كان البويهيون يتحكمون فى الخلفاء أنفسهم فيضعون فى كرمى الخلافة من يأنسون فيه الضعف ، ويخلمون منها من يحاول الخروج على طاعتهم ، هذا فضلاً عما كان يلاقىه الخلفاء المعزولون من قتل وتعذيب وتشريد .

ولم يكن الخلفاء أحسن حالاً فى عهد سلاطين السلاجقة الذين دخلوا بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) . وعلى الرغم من أن نفوذ الخلفاء العباسيين قد ضعف أمام نفوذ السلاجقة الذين استبدوا بالسلطة ، فإن الفترة الواقعة بين دخولهم بغداد ووفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، كانت من أزهى العصور الإسلامية ، إذ استطاع السلاجقة أن يوحّدوا عالماً إسلامياً لم يكن بالأمس غير أجزاء متناثرة متعادلة ، بل إنهم أخذوا يوسعون أملاك المسلمين تدريجياً ، فاستطاع طغرل بك أن يمد نفوذه على بلاد الجزيرة وأرمينية ، كما استطاع خلفه ألب أرسلان أن يمد نفوذه على حساب الدولة الرومانية الشرقية ، حتى امتدت الدولة السلجوقية إلى بحر مرمرة بعد أن أوقع الهزيمة بالإمبراطور البيزنطى رومانوس Romanus وتمكن من أسره فى موقعة ملازكرد ^(٢) . ثم تمكن ملكشاه من أن يخضع سوريا وجورجيا فى الغرب ، وبخارى وسمرقند وخوارزم فى الشرق . ومن الحق أن نعتزف بأن السلاجقة إذا كان لهم من فضل على العالم الإسلامى ، فهو أنهم أزالوا الدويلات الصغيرة القائمة فى ذلك الوقت ، وأوجدوا عالماً موحداً ياتمر بأمرة حاكم واحد دفعوا به البيزنطيين إلى الوراء

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٠٠ — ٢٠٦ .

Defremery : Histoire des Seldjoukides. p. 437.

(٢)

(Journal Asiatique, Avril - Mai. 1848.)

كما أنهم أوجدوا جماعة من المحاربين المسلمين يرجع إليهم إخفاق الصليبيين ، وهذا ما جعل للسلاجقة أهمية كبرى في التاريخ الإسلامي ^(١) .

وفي وسط هذه الظروف والأحوال التي تمتع فيها السلاجقة بمنزلة كبرى في العالم الإسلامي ، نرى الخلفاء العباسيين في المرتبة الثانية من الأهمية ، ذلك أن حالة هؤلاء الخلفاء في ذلك العصر لم تختلف اختلافا كبيرا عما كانت عليه في أيام البويهيين ، فإذا كان البويهيون قد استبدوا بالسلطة ، وغلوا أيدي الخلفاء ، فإن هذه السلطة انتقلت إلى أيدي السلاجقة ففعلوا بهؤلاء الخلفاء ما فعله البويهيون والأتراك بهم من قبل . وبما يدل على ضعف الخلفاء العباسيين في هذا العصر ، أنهم كانوا يعيشون من إقطاعات مقرررة يستولون على دخلها ^(٢) ؛ ولم يبق لهم من سلطانهم القديم سوى ذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة . كما نلاحظ أن الخلفاء قد انصرفوا إلى الترف وحياة الدعة حتى قبل دخول السلاجقة بغداد ، فبنوا القصور الفخمة واحتجبوا عن الناس ^(٣) ؛ وليس هناك من شك في أن مغالاتهم في اتخاذ الحجاب تعد من أقوى مظاهر ضعفهم . ويرجع ضعف الخلفاء العباسيين في هذا العصر إلى السلاجقة أنفسهم ، فإن هؤلاء لم يحاولوا منذ دخلوا بغداد أن يأخذوا بأيدي الخلفاء ، بل على العكس وضعوا نصب أعينهم أن يسيروا في سياستهم مع الخلفاء على غرار البويهيين ، فحذروا من نفوذهم ، حتى إذا ما حاول أحد الخلفاء استعادة نفوذ أجداده ، سلطوا عليه جام غضبهم ، فمزلوه أو طردوه من بغداد ، ودسوا إليه من يقاتله . وهكذا نرى أن السلاجقة إذا كانوا قد حطموا تلك الأغلال التي وضعها البويهيون في أيدي الخلفاء ، فإنهم صنعوا من الأغلال القديمة أغلالا جديدة قيدوا بها الخلافة من جديد .

هلى أن ذلك ليس معناه أن الخلفاء العباسيين ركنوا إلى الذلة والمسكنة ، بل إنهم أخذوا منذ أيام الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ = ١١١٨ - ١١٣٥ م) بثورون لكرامتهم التي سلبت ، فانتهر الخلفاء منذ ذلك الحين ما آل إليه السلاجقة من ضعف

(١) Browne : A Literary History of Persia, Vol. ii. p. 165.

(٢) ابن الأثير : تاريخ دول الأتابكة ؛ ملوك الموصل ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٣) Le Strange : Baghdad During The Abbasid Caliphate, p. 327.

وما آت إليه دولتهم من انحلال ، وأخذوا يعملون لأنفسهم غير مباين بما يترتب على ذلك من نتائج . وقد أثر عن الخليفة المسترشد أنه قال :

« فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق فبرزوا علينا ، فطال عليهم ،
والأمس ، فقسست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » (١) .

لذلك لا نعجب إذا وجدنا الخليفة المسترشد يعمل منذ البداية وفق الخطة التي رسمها لنفسه ، فتجراً على محاربة السلطان محمود السلجوقي في سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) (٢) . وعلى هذا النحو ، استمر الخلفاء العباسيون فيما بعد في صراعهم حتى نجحوا في إزالة نفوذ السلاجقة من العراق نهائياً بالقضاء على طغرل بك آخر سلاطينهم هناك في سنة ٥٩٠هـ (١١٩٣م) .

على أن السلاجقة أنفسهم كانوا قد أخذوا في الضعف منذ وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) لأسباب متعددة ، فإذا تركنا جانباً ذلك الصراع الذي نشب بين أبناء ملكشاه وأحفاده من جهة وبين الخلفاء العباسيين من جهة أخرى ، نرى أن هذه الدولة قد انهارت نتيجة عوامل ثلاثة :

١ - النزاع بين أفراد البيت السلجوقي .

٢ - استفحال شأن طائفة الإسماعيلية التي كان رائدها هدم جميع القوى الموجودة في ذلك الوقت .

٣ - اتساع نطاق النزعة الإستقلالية بين دول الأتابكة ؛ إذ أن الضعف السياسي الذي أصاب دولة السلاجقة ، ولد حركة انفصالية كان لها أكبر الأثر في زيادة ضعف الدولة السلجوقية خاصة والعالم الإسلامي عامة . ويجب ألا يغيب عن بالنا أثر العوامل الخارجية التي شغلت أذهان سلاطين السلاجقة ومن أهمها الحروب الصليبية وظهور الدولة الخوارزمية الفتية ، التي بدأت تعمل لمصلحتها على حساب الدولة السلجوقية .

أورث السلطان ملكشاه لابنائه إمبراطورية كبيرة ، كما أورث للعالم الإسلامي

(١) Nidhami - i - Arudi - i - Samarqandi : The ⁴Chahār Maqāl, p. 38.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٠ - ٢٧٢ .

أبناء لم يستطيعوا أن يحافظوا على هذه الإمبراطورية ، فقد أعمتهم المصلحة الشخصية فأسكرتهم فانشقوا على أنفسهم ، واستهوتهم الحروب الداخلية حتى أعمتهم عن النظر في مصالح تلك الإمبراطورية التي تعب الأولون في تكوينها . ففي فارس والعراق ، نرى أبناء ملكشاه يتنازعون فيما بينهم كل يريد السلطة لنفسه ، وفي بلاد الشام طمع تنش بن ملكشاه في مد نفوذه على ملكة أبيه ، وأدى ذلك إلى قيام حروب داخلية طال أمدها . وكان من أثر استمرار النزاع بين أبناء ملكشاه أن تفككت القوى الإسلامية وتحطمت ، وساعد ذلك على نجاح القوى الخارجية الطامعة في اغتصاب ما تستطيع اغتصابه من العالم الإسلامي .

أما العامل الثاني الذي أدى إلى اضمحلال الدولة السلاجوقية فهو طائفة الإسماعيلية (١) . فنذ أن استتب الأمر للفاطميين في مصر أخذوا يروجون للذهب الشيعي في بلاد المشرق ، وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى إضعاف الخلافة العباسية إذا لم يتمكنوا من القضاء عليها . غير أنه حدث أن انقسم أنصار هذه الدعوة منذ أيام الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م) ، فادعى بعض أنه أوصى بالخلافة من بعده لابنه نزار ، وادعى بعض آخر أنه أوصى بها لابنه المستعلي ، واتخذت الفرقة الأولى من بلاد المشرق مهدا لها برعامة الحسن بن الصباح ، أما الفرقة الثانية فقد ظل أتباعها في مصر . ولا يعنينا من تتبع تاريخ هذه الجماعة أن نتحدث عن دعوتهم الدينية إلا بالقدر الذي يعيننا على إيضاح هدفنا الأول ، وهو تأثير هذه الطائفة فيما أصاب بلاد المشرق من ضعف .

لم يأت الحسن بن الصباح إلى بلاد المشرق ليضعف العالم الإسلامي ولكنه استطاع أن يفتز فرصة ما كان عليه هذا العالم من ضعف ، ليقوى هو بمذهبه ، فكانت النتيجة أن نشأ عامل جديد من عوامل إضعاف المسلمين ، عامل عنيف أدى إلى زيادة التفكك والانحلال ، إذ كانت السياسة المرسومة لنجاح هذه الطائفة تهدف إلى تقويتها على حساب

(١) سميت هذه الطائفة بالإسماعيلية لأن أتباعها كانوا يدينون بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق ؛ كما عرفوا بالباطنية لأنهم كانوا يطنون خلاف ما يظهرون ؛ وسما بالملاحدة لأن مذهبهم يقوم على الاتحاد .
الطغشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٢٤٥ ؛ وقد سما أيضا بالحشيشية لاعتقادهم على مادة مخدرة في نشر مذهبهم .

الإقسام الذى حدث فى قلب الدولة إذ ذاك ، سواء أكان ذلك الإقسام دينياً أم عنصرياً^(١). وكان لمدارس الدعوة الشيعية فى القاهرة الأثر الأكبر فى نجاح الدعوة لأنها كانت ترسل دعايتها إلى بلاد فارس رغم أنهم كانوا موضع اضطهاد العباسيين ، وعرضة للهلاك أنى وجدوا ، وهذا أدى إلى تماسك هذه الفئة وتكاتفها ، شأنها فى ذلك شأن كل أقلية مضطهدة . وكان البطل الذى استغل كل هذه الظروف لمصلحته ومصلحة جماعته ، هو الحسن بن الصباح الذى استطاع أن يكون قوة لم يستطع المسلمون أن يقفوا فى تيارها . ويعتبر السلطان ألب أرسلان السلاجوقى مسئولاً إلى حد كبير عن نجاح هذه الدعوة ، لأنه ألغى نظام البريد الذى كان سائداً فى الدولة الإسلامية ، فلم يتمكن السلاجقة من استقصاء أخبار دولتهم . وقد اتخذ الحسن بن الصباح من قلعة الموت ، التى بناها ملكشاه مركزاً لنشر مذهبه ، ومنها كان يرسل الدعاة للدعوة للخليفة المستنصر الفاطمى ، ولابنه نزار من بعده^(٢) . ومن ذلك الوقت شرع الحسن بن الصباح فى الاستيلاء على كثير من البلاد والقلاع المجاورة فى قوهستان وخوزستان ، مستعملاً اللين تارة والعنف تارة أخرى ، كما أكثر من بناء القلاع فوق الجبال ، وأصبح يهدد منها البلاد الإسلامية فى غرب آسيا^(٣) .

وسواء أكان الحسن بن الصباح يعمل لنفسه كما يقول فون هامر Von Hammer^(٤) ، أم كان يعمل للخليفة المستنصر ثم لابنه نزار من بعده ، فإنه كان هو وأتباعه يهدفون إلى إسقاط الخلافة العباسية بطرق القتل والإرهاب وسفك الدماء فى كل ناحية من نواحي البلاد الإسلامية ، وساعده على ذلك جماعة الفدائيين الذين اختارهم من الشبان المتحمسين والذين كانوا لا يترددون فى التضحية بأنفسهم فى سبيل طاعة رئيسهم طاعة عمياء . وقد أصبح هؤلاء أداة للانتقام ، فأوقعوا الرعب فى قلوب السكان مما جعل لهذه الطائفة قوة ونفوذاً فى بلاد المشرق^(٥) . وقد مهر الفدائيون فى فن التخفى واستعمال

(١) يتجلى الإقسام العنصرى فى النزاع بين الأتراك والفرس والعرب .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ١٣ ص ٢٣٧ و ٢٤٤ .

Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, (٣) vol. i. p. 116.

Von Hammer : Histoire de L'ordre des Assassins, p. 84. (٤)

Sykes : A History of Persia, p. 55. (٥)

السلاح، كما مهرروا في معرفة اللغات الأجنبية، وكانوا يقتلون المسلمين أيام الجمع في المساجد، كما كانوا يقتلون الأمراء المسيحيين في الكنائس علناً^(١).

على أن شر طائفة الإسماعيلية لم يستفحل إلا بعد وفاة ملكشاه، نتيجة لانصراف أبنائه إلى الحروب الأهلية^(٢)؛ فانتهز زعماء الإسماعيلية هذه الفرصة وأخذوا يروجون لمذهبهم بطرق فوضوية قاسية، منها خطف من يخالف مذهبهم وقتله. وعلى الرغم من انصراف السلاجقة إلى مشاكلهم الداخلية والخارجية، فإننا نلاحظ أن سلاطينهم المتعاقبين لم يتوانوا عن التمسك بأفراد هذه الطائفة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وأدى هذا الاضطهاد من جانب السلاجقة إلى تماسك طائفة الإسماعيلية، وتفاقم أتباعها في خدمة مذهبهم.

ولما نشب ذلك الصراع الطويل بين السلاجقة والخلفاء، نتيجة لرغبة الخلفاء العباسيين في استعادة نفوذهم الذي سلبهم السلاجقة إياه، بدأ السلاجقة أنفسهم - وقد ضعفت قوتهم في ذلك الوقت - يستعينون بطائفة الإسماعيلية على خصومهم الخلفاء، من ذلك أنه لما دب الخلاف بين الخليفة المسترشد والسلطان مسعود، أوعز الأخير إلى الإسماعيلية بقتل الخليفة، وتم له ذلك سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م)^(٣)، ومثلوا به بأن قطعوا أنفه وأذنيه^(٤). ويدلنا مقتل الخليفة المسترشد على مبالغ استهتار الإسماعيلية بأكبر رأس في قلب الدولة الإسلامية. ولما حاول الخليفة الراشد أن يثار لمقتل أبيه قتلوه أيضاً في سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) في مدينة أصفهان^(٥).

وكثيراً ما كان يقوم أفراد جماعة الإسماعيلية بحروب أشبه ما تكون بحروب العصابات على المدن والقرى، بغية إثارة الذعر والرعب في قلوب المسلمين، فحدث مثلاً سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨ م) أن أغاروا على البلاد القريبة من قلاعهم في قوهستان؛ بقصد السلب والنهب، وسبي النساء، وأسر الأطفال، واحرقوا ما لا يستطيعون حمله. وقد نجحوا في مهمتهم إلى حد كبير^(٦) كما نراهم لا يدخرون وسعاً في مهاجمة التجار والحجاج^(٧)،

(١) Browne : Literary History of Persia, vol. ii. p. 209.

(٢) Browne : Account of a Rare Manuscript History of Seljuqs, p 39.

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٩ .

(٤) الديار بكري : تاريخ الخميس في أحوال أئمة غيس ، ج ٢ ص ٣٦٢ .

(٥) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ؛ ملوك الموصل ، ص ٩٨ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٩٧ .

(٧) المرجع السابق ، ج ١٠ ص ١٦٤ و ج ١١ ص ١١٣ .

وأصبحوا بذلك لا يختلفون عن قطاع الطرق ، فانتشر الذعر في البلاد ، ولم يعد التاجر يأمن على بضاعته ، ولا الفرد العادي يأمن على حياته . وإذا كانت الدولة السلجوقية قد زالت من بلاد المشرق بعد وفاة السلطان سنجر سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) وقامت الدولة الخوارزمية على أكتافها ، فإن عداوة سلاطين الخوارزميين لهذه الطائفة لم تقل عن عداوة أسلافهم السلاجقة ، كما لم يتوان زعماء الإسماعيلية في محاربة الدولة الخوارزمية الفتية ومناهضتها ، فتراهم يتقربون إلى المغول الذين بدأوا يظهرون على المسرح التاريخي . وهكذا نرى من هذه العجالة ، أن طائفة الإسماعيلية كانت من أقوى العوامل التي أضعفت الدولة السلجوقية خاصة والشرق الإسلامي عامة ، مما سهل على المغول مهمتهم عندما شرعوا في اكتساح الدولة الخوارزمية .

ومن أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة السلجوقية ، وبالتالي إلى ضعف الشرق الإسلامي ، نظام الأتابكة الذي ابتدعه السلاجقة أنفسهم .

ذكرنا من قبل ، أن الخلفاء والأمراء المسلمين وكذا سلاطين السلاجقة قد أكثروا في بلاطهم من الأتراك الذين اشتروهم من أسواق النخاسة ، وأسندوا إليهم الوظائف الرئيسية في قصورهم ، منها رئاسة الخدم . ومن الأتراك من كان يلتحق بحرس الخليفة أو السلطان ، فإذا أظهر أحدهم كفاءة خاصة أو صفة حرية ممتازة وصل إلى أعلى المراتب في الجيش وفي البلاط . وقد يسعد الحظ أحد هؤلاء فيُسند إليه حكم إقليم من أقاليم الدولة ، ومن أقرب الأمثلة على ذلك نوشتكين الذي ينتسب إليه حكام الدولة الخوارزمية ، فقد كان يشغل وظيفة الساقى^(١) في بلاط ملكشاه السلجوقي . وليس من المعقول أن يظل هذا الحاكم خاملاً في مدينته ، بل يعمل على أن يتوسع على حساب جيرانه ، وقد ينجح فيؤسس لنفسه دولة ، وإذا فشل فيكون قد نجح في إلقاء بذور الفوضى والانقسام في جزء من أجزاء الدولة .

كان نظام الأتابكة عنصراً هاماً من عناصر النظم الاجتماعية والسياسية عند السلاجقة . أما لفظ أتابك فعناه الأمير الوالد^(٢) . والأصل في ذلك أن سلاطين

(١) أنظر ما كتبناه عن وظيفة « الساقى » في ص ٧٨ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٧٩ . ويلاحظ أن لفظ أتابك مكون من مقطعين « بك » ومعناه أمير و « آتا » ومعناه أب . وقد ذكر نظام الملك في كتابه « سياسة نامه » أن الأتابكة كانوا

السلاجقة كانوا يعهدون في تربية الأمراء من أبنائهم إلى المقربين إليهم من الأتراك الذين ترعرعوا في كنفهم ، فإذا عين السلطان أحد أبنائه على مدينة من المدن ، ذهب معه هذا التركي (الوالد) ليعينه بما أوتي من حكمه على حكم هذه المدينة ، ويسدى إلى هذا الأمير الصغير ما يراه من النصائح . على أن السلاجقة توسعوا بعد ذلك في معنى هذا اللقب ، بحيث أصبح يمنح كلقب من ألقاب الشرف لكبار رجال الدولة وقواد الجيوش ^(١) . والمهم أن الحكام من الأتابكة ، سواء أكانوا مربين للأمراء من السلاجقة ، أم من قواد جيوش الدولة السلجوقية ، فقد جاء وقت أصبحوا فيه أصحاب النفوذ الفعلي في البلاد التي يحكمونها ، وكانوا يعملون مستقلين عن سلاطين السلاجقة في بغداد ، كما اتخذوا لأنفسهم الألقاب التي استحسوها ^(٢) ، وأحاطوا بأنفسهم بكل مظاهر الأبهة والعظمة .

ولم يكن هناك من خوف على الدولة السلجوقية خاصة والعراق الإسلامي عامة من نظام الأتابكة ، ~~ساحم سلاطين السلاجقة من القوة بحيث يستطيعون فرض~~ سيطرتهم ونفوذهم على هؤلاء الحكام ، وما دام في الدولة جيش قوى تسيطر عليه قوة واحدة . ولكن الخوف كل الخوف أن يضعف سلاطين السلاجقة فتضعف دولتهم ، وينفرد كل حاكم من هؤلاء الحكام بحكم ما بيده من البلاد . وهذا ما حدث فعلا ، إذ أنه لما ضعفت الدولة السلجوقية بعد وفاة السلطان ملكشاه للأسباب التي بينهاها ، استقل كل أمير بما في يده سواء أكان مقاطعة بأسرها أم مدينة صغيرة ، بل لقد تسابق الأتابكة في توسيع رقعة البلاد التي كانت تحت أيديهم ، كل على حساب جاره ، ولذلك قام الصراع بين هؤلاء الحكام ، في الوقت الذي قام فيه الصراع بين أفراد البيت السلجوقي . وهكذا أصبحت أقاليم فارس والعراق مفككة الأوصال ، لا تأتمر بإمرة حاكم واحد . وإن نظرة واحدة إلى خريطة الشرق الإسلامي بعد عصر

== لا يختارون من بين أفراد البيت السلجوقي ، إذ أن كل سلجوقي كان يعتبر نفسه مساويا لسلطان نفسه ولا يقل عنه . وعلى هذا الأساس كان سلاطين السلاجقة يختارون الأتابكة من بين رعايا دولتهم المخلصين .

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٤٣ .

(٢) ابن الفلاهي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤ . ومن الألقاب التي اتخذوها لقب « شاه » كما حدث في بلاد خوارزم

ملكشاه ، ترينا كيف تجزأ الشرق الإسلامى بين هؤلاء الأتابكة فى الوقت الذى قامت فيه الإمارات الصليبية فى بلاد الشام^(١) ، كما نستطيع أن تبين من هذه الخريطة أيضاً كيف انكشيت أملاك الخلفاء العباسيين وأصبحت مقصورة على العراق العربى وخوزستان .

إذا تركنا أقاليم العراق وفارس ، وانتقلنا إلى مصر وبلاد الشام ، نرى أن هذا الجزء من العالم الإسلامى قد أعملت فيه الأحداث التاريخية وحطمت قوته ، حتى إذا ما جاء العصر المغولى نرى حكمه لا يستطيعون أن يمدوا يد المساعدة إلى إخوانهم فى الشرق ، كما نرى هذا الجزء من العالم الإسلامى لا يقوى على الوقوف فى وجه هولاكو عندما عزم على غزوه . ولولا تطور الأحداث التاريخية فى بلاد المغول نفسها ، تلك الأحداث التى اضطرت هولاكو إلى العودة إلى بلاده ، لحل بمصر ما حل بسائر بلاد الشرق الإسلامى فى ذلك الوقت .

انفصلت مصر عن الدولة العباسية منذ أيام الطولونيين ، واستطاع أحمد بن طولون أن يستولى على البلاد الشامية سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٧ م) . ثم زالت الدولة الطولونية وحلت محلها الدولة الإخشيدية ، فسار محمد بن طغج الإخشيد على منوال

(١) الأتابكيات التى قامت على مسرح الشرق الإسلامى هى :

- أتابكية دمشق : ٤٩٧ — ٥٤٩ هـ = ١١٠٣ — ١١٥٤ م .
- أتابكية حلب : ٥٤١ — ٥٧٧ هـ = ١١٤٦ — ١١٨١ م .
- أتابكية الجزيرة : ٥٧٦ — ٦٤٨ هـ = ١١٨٠ — ١٢٥٠ م .
- أتابكية الموصل : ٥٢١ — ٦٦٠ هـ = ١١٢٧ — ١٢٦٢ م .
- أتابكية سنجار : ٥٦٦ — ٦١٧ هـ = ١١٧١ — ١٢١٩ م .
- أتابكية إربل : ٥٣٩ — ٦٣٠ هـ = ١١٤٤ — ١٢٣٢ م .
- أتابكية ذيار بكر : ٤٩٥ — ٨١١ هـ = ١١٠١ — ١٤٠٨ م .
- أتابكية أرمينية : ٤٩٣ — ٦٠٤ هـ = ١١٠٠ — ١٢٠٧ م .
- أتابكية أذربيجان : ٥٣١ — ٦٢٢ هـ = ١١٣٦ — ٢٢٢٥ م .
- أتابكية فارس : ٥٤٣ — ٦٨٦ هـ = ١١٤٨ — ١٢٨٧ م .
- أتابكية لورستان : ٥٤٣ — ٨٢٧ هـ = ١١٤٨ — ١٤٢٣ م .
- أتابكية كرمان : ٦١٩ — ٧٠٣ هـ = ١٢٢٢ — ١٣٠٣ م .

أنظر كتابي Zambour : Manuel de Généalogie et de Chronologie.
Lane - Poole: The Mohammadan Dynasties.

الطولونيين ، فوطد نفوذه في مصر ، ثم مد هذا النفوذ على سوريا وفلسطين ومكة والمدينة ، ولم يكن هناك من منافس لهذه الدولة سوى الدولة الحمدانية ، التي استطاع أحد أمرائها وهو سيف الدولة الحمداني أن يستولي على حلب من الإخشيد سنة ٢٣٣ هـ (٩٤٢ م) . ثم ورث الفاطميون أملاك أسلافهم الإخشيديين في مصر وفي بلاد الشام وفي مكة والمدينة ، وأصبح الفاطميون ينافسون بغداد ، بل طمعوا في السيطرة عليها . على أن الضعف الذي أصاب الدولة الفاطمية منذ عهد الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ = ١٠٢٥ - ١٠٩٤ م) ، نتيجة للثورات التي قام بها الأتراك الذين أتلفوا قصور الخلفاء وخرّبوا كل ما وصل إلى أيديهم ، ونتيجة لانتشار المجاعات والأوبئة ، كل ذلك أدى إلى انتقال الأملاك الحجازية والشامية من أيدي الفاطميين إلى أيدي العباسيين ، وذلك بفضل مساعدة السلاجقة ، الذين عملوا منذ دخولوا بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) على توسيع أملاكهم شرقا وغربا وكان التوفيق حليفهم . ففي سنة ٤٦٤ هـ (١٠٦٩ م) ، أرسل أمير مكة إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقي يخبره بقطع الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمي في بلاده وإقامتها للخليفة العباسي القائم ^(١) ؛ وفي السنة التالية تمكن العباسيون من فرض سلطانهم على حلب وإقامة الخطبة للخليفة القائم العباسي وللسلطان ألب أرسلان ^(٢) ؛ وفي سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م) استولى السلاجقة على دمشق في عهد الخليفة المقتدى ، وأبطلت عبارة الفاطميين المشهورة « حي على خير العمل » من الأذان . ^(٣)

وهكذا أدى ضعف الفاطميين وما قابله من قوة السلاجقة إلى ضياع البلاد الشامية من أيديهم . وما هو جدير بالذكر أن السلطان ملكشاه أقطع بلاد الشام أخاه تنش في سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) ، فاستطاع أن يوطد نفوذه في حلب ودمشق ^(٤) . على أن الدولة السلجوقية نفسها أخذت في الضعف بعد وفاة ملكشاه كما ذكرنا ، وكان من المنتظر أن يعود الهدوء إلى بلاد الشام بعد مقتل تنش سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) .

(١) السيوطي . تاريخ الخلفاء ، ص ٢٢٩ .

(٢) ابن الأثير الكامل ، ج ١٠ ص ٢٦ .

(٣) السيوطي . تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٠ .

(٤) ابن الأثير الكامل . ح ١ ص ٤٥ .

ولكن الصراع عاد بين ابنه رضوان ودقاق ، واستولى أولها على حلب ، وخطب للخليفة المستعلي الفاطمي في بلاده، بغية اجتذاب المصريين إليه في نزاعه ضد أخيه الذي حكم في دمشق^(١).

وفي وسط هذا الاضطراب الذي انتشر في قلب الدولة السلجوقية في العراق وفارس وشمل بلاد الشام ، وفي الوقت الذي أخذت فيه الدولة الفاطمية في التدهور ، ظهر عدو أشد خطراً وهو الصليبيون . فقد استجاب البابا لاستغاثة الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين Alexius Comnenus ، الذي استصرخه لإنقاذه من السلاجقة الذين أوقعوا به الهزيمة وأصبحوا يهددون القسطنطينية بعد موقعة ملازجرد ، وانتهى الأمر بغزو الصليبيين بلاد الشام ، ومجيء الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) . وكان من أثر هذه الحملة أن تسكّونت الإمارات الصليبية الأربع ، وهي بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس والرها ، كما ضاعت المدن الساحلية من أيدي المسلمين ، ولم يبق في أيديهم إلا بعض المدن الداخلية كدمشق وحلب^(٢) . ومنذ ذلك الوقت طمع الصليبيون في الاستيلاء على مصر ذاتها ، ولو لا ظهور عماد الدين زنكي في الميدان ، لسهل على الصليبيين تحقيق ما رنوا إليه .

وقد أخذ عماد الدين زنكي يقاوم نفوذ الصليبيين ، وكان استيلاؤه على الرها سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ضربة أصابت الصليبيين ، مما أدى إلى قيام الحملة الصليبية الثانية (٥٤٢ - ٥٤٤ هـ = ١١٤٧ - ١١٤٩ م) ، في عهد نور الدين محمود بن زنكي . ولكن هذه الحملة فشلت لانحراف زعمائها عن غرضهم الأصلي وهو استرداد الرها ، إلى محاولة الاستيلاء على دمشق ، مع أن هذه المدينة كانت الحليف الوحيد للصليبيين في بلاد الشام ، ولم يكسب زعماء هذه الحملة أكثر من الاساءة إلى سمعة الصليبيين^(٣) . وكان نور الدين محمود ، منذ آل إليه القسم الغربي من مملكة أبيه ، قد أخذ يوسع نفوذه في بلاد الشام ، فاستولى على دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، كما طمع في الاستيلاء

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ١١١ - ١١٢ .

(٢) Barker : The Crusades, pp. 25-32.

Ibid, p. 54. (٣)

على مصر ، ووجد في ضعف الخلفاء الفاطميين فرصة للاستيلاء عليها ، وقد تم له ذلك في سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) بمساعدة أسد الدين شيركوه .

وقد أدت الحوادث التاريخية بعد ذلك إلى استقلال صلاح الدين الأيوبي بمصر ، وكانت سياسته ترمي إلى توطيد نفوذه في مصر أولاً ، ثم توحيد جميع القوى الإسلامية في مصر والشام ثانياً ، لتوجيهها ضد الصليبيين . وقد نجح صلاح الدين في النهاية في الاستيلاء على دمشق وحلب وبلاد ما بين النهرين بما في ذلك مدينة الموصل ، كما نجح في توجيه هذه القوى مجتمعة لمحاربة الصليبيين . وقد أدت هزيمة الصليبيين في حطين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، إلى دخول صلاح الدين بيت المقدس وهذا أدى بدوره إلى قيام الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٥ - ٥٨٨ هـ = ١١٨٩ - ١١٩٢ م) ، بقيادة فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا . ولم يكسب الصليبيون من وراء هذه الحملة أكثر من بعض المدن الساحلية .

ترك صلاح الدين بعد وفاته سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) إمبراطورية موحدة الأركان يخشاها المسلمون كما يخشاها المسيحيون ، ولكن سرعان ما أصبحت هذه الإمبراطورية المتناسكة الموحدة تهددها عوامل التفكك والانحلال ، لأسباب يرجع أكثرها إلى الأيوبيين أنفسهم ، فقد أراد أبناء صلاح الدين وأخوته أن يفتسموا أملاكه ، وأصبح كل يريد نصيباً فيها حسب نظام الوراثة في الشريعة الإسلامية ، على أن أحداً من هؤلاء لم يرث عن صلاح الدين عبقريته . ومهما يكن من شيء ، فإنه لما مات صلاح الدين كان ابنه « الأفضل » حاكماً على دمشق وأواسط سوريا ، وابن « العزيز » في مصر ، كما كان « الظاهر » يحكم حلب . وعلى هذا المنوال وزع بقية أعضاء البيت الأيوبي أنفسهم على حماه وحمص وبعبك وبلاد ما بين النهرين . وكان النزاع على أشده بين أعضاء الأسرة الأيوبية ، مما هدد الدولة بالضياع ، ولا سيما أن بيت المال في مصر كان قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الإفلاس^(١) .

لما رأى العادل آخر صلاح الدين ما آلت إليه الدولة الأيوبية من انحلال ، عوّل على توحيدها تحت إمرة رجل واحد ، واختار نفسه ليكون هذا الرجل . وقد سلك

(١) Marcel : Egypte Depuis la Conquête des Arabes Jusqu'à la Domination Française, p. 145.

العادل في سبيل هذا الغرض مسالك مشروعة وغير مشروعة، ولم يبال بشيء ما دامت هذه الأساليب المشروعة وغير المشروعة ستوصله إلى غايته . من ذلك أنه أخذ يوقع بين أبناء صلاح الدين ويوغر صدور بعضهم على البعض حتى يضعف الجميع فيرتفع هو على أشلائهم . وفي النهاية استطاع أن يفرض سيادته على مصر (٥٩٧ - ٦١٥ هـ = ١٢٠٠ - ١٢١٨ م) بالإضافة إلى أملاكه في البلاد الشامية وبلاد ما بين النهرين ، وبذلك أصبح يسيطر على معظم أملاك صلاح الدين .

وقد أدى العادل بتوحيد هذه الأملاك للعالم الإسلامي أجل الخدمات ، إذ أنه انتقل بلاد الشام ومصر من الانقسام ، ولولا له لحل بهما ما حل بالدولة السلجوقية في أواخر أيامها ، عندما انقسمت إلى الدويلات الأتابكية التي رأيناها . وليس معنى ذلك أن العادل وخلفاءه^(١) كانوا يهيمنون على كل ما تركه صلاح الدين من أملاك ، بل نرى أن الدولة الأيوبية ظلت منقسمة إلى أقسام سبعة رئيسية^(٢) .

وهكذا نرى أن مصر وبلاد الشام كانتا في الفترة السابقة للغزو المغولي على يد چنكيزخان ، بل وفي أثناء هذا الغزو ، في حالة ضعف شديد نتيجة لقيام الشقاق بين حكام هذا الجزء من العالم الإسلامي ؛ وقد زاد هذه الحالة سوءاً ما أحدثه الصليبيون من تأثير سيء من الناحيتين السياسية والاقتصادية في هذا المسرح التاريخي ، مما جعله يشارك بلاد العراق وفارس فيما أصابهما من ضعف ووهن ، فلم يستطع حكام مصر والشام أن يمدوا يد المساعدة للدولة الخوارزمية خاصة والشرق الإسلامي عامة عند ما زحف المغول إلى الغرب ، بل وقف حكام مصر كما وقف الخلفاء العباسيون ينتظرون ما سيحل بهم على يد هؤلاء الطغاة .

(١) الكامل : ٦١٦ - ٦٣٥ هـ = ١٢١٩ - ١٢٣٨ م .

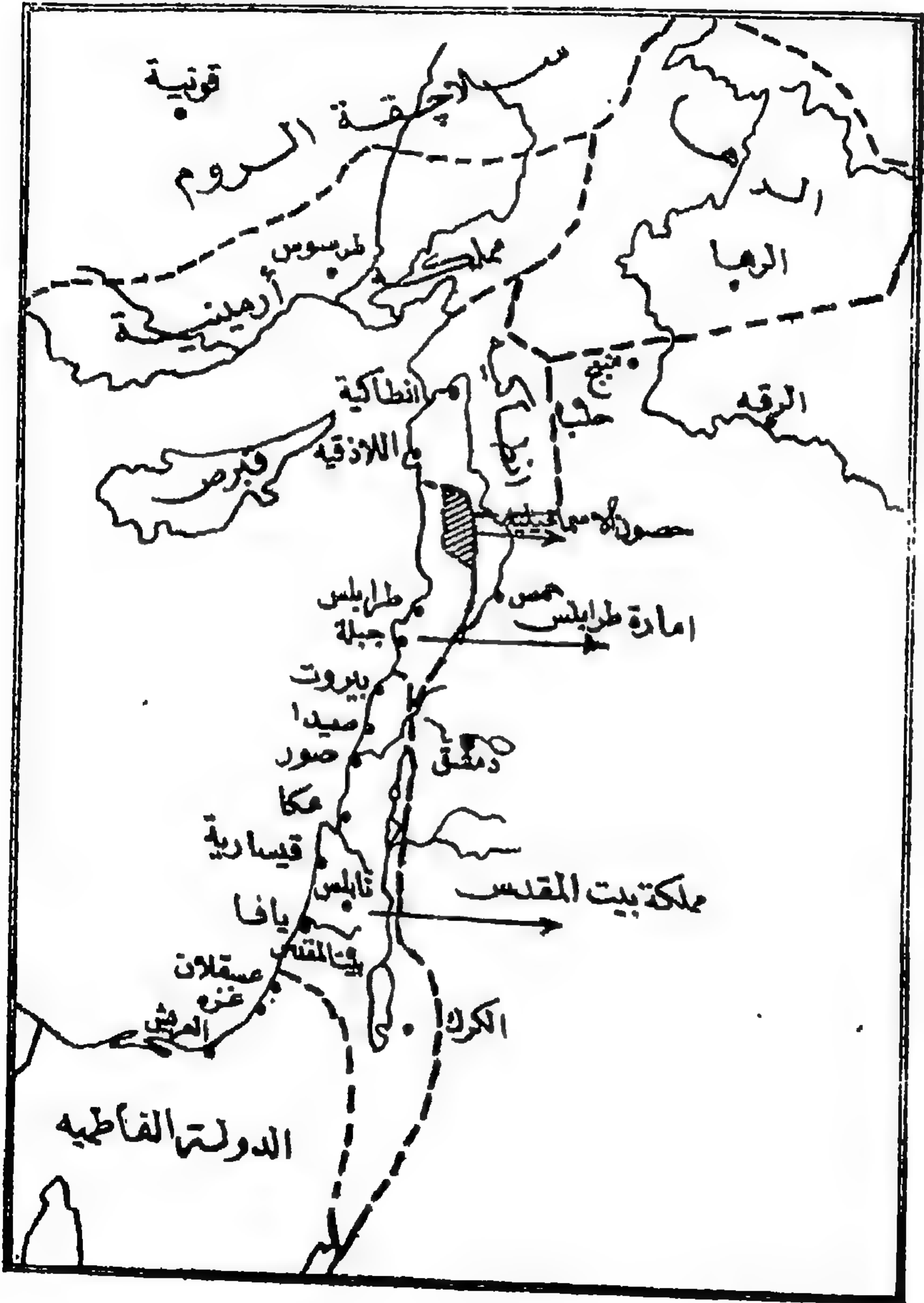
العادل الثاني : ٦٣٥ - ٦٣٧ هـ = ١٢٣٨ - ١٢٤٠ م .

البالج أيوب : ٦٣٧ - ٦٤٦ هـ = ١٢٤٠ - ١٢٤٨ م .

المعظم طوالتشاه : ٦٤٧ - ٦٤٨ هـ = ١٢٤٩ - ١٢٥٠ م .

(٢) هي مصر ودمشق وحلب وبلاد ما بين النهرين وحماة وحمص وبلاد العرب . وكانت دمشق مهد وفاة العادل تخضع خضوعاً إسمياً لمصر ، وكذلك كان الحال بالنسبة لبلاد ما بين النهرين ، إذ كان حكامها من أبناء العادل . أما حلب وحماة وحمص وبلاد العرب فكانت مستقلة تماماً . ونلاحظ أن هذه البلاد جميعها

الامتلاكات الصليبية في بلاد الشام سنة ١١٣٥هـ (١١٤٠م)



خريطة ٤

٢ - المغول قبل غزو الدولة الخوارزمية

كانت الأقاليم الشمالية الشرقية من آسيا منذ فجر التاريخ، المورد الذي انبعثت منه الهجرات القبلية المتعددة التي غزت أقاليم آسيا المختلفة ؛ ونرى بعض القبائل الآسيوية تندفع صوب غربي آسيا ، وأدى ذلك إلى هجرة كثير من القبائل التي اندفعت إلى القارة الأوروبية ، وكانت من العوامل الهامة التي قوضت أركان الإمبراطورية الرومانية^(١). ولسنا هنا في معرض التحدث عن الهجرات الآسيوية التي انبعثت من شمال شرق آسيا ، ولكن المهم أن نذكر أن هذه الجهات كانت بوجه خاص زاخرة بالقبائل الرحل ، التي تنتقل من مكان إلى مكان نتيجة لظروف البيئة المحلية في هذه الجهات ومن هذه القبائل ، قبائل المغول التي نحن بصدد التحدث عنها .

نشأ المغول في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي ، وهي أراض واسعة تنعدم المياه في بعض جهاتها ، وتكوّن حاجزا منيعا بين الأقاليم الصينية الحارة ، وبين الأراضي الباردة في سيبيريا ، وإن الظروف الجغرافية في هذا الإقليم قد جعلت منه إقليما قفرا ، فإن الجبال المحيطة بهذه الهضبة تمنع عنها الرياح الدافئة الممطرة في فصل الصيف ، وأما في فصل الشتاء فتري مناخها شديدا البرودة ؛ وكان من أثر ذلك أن انعدمت الزراعة في أكثر جهاتها ، بحيث لم تشاهد إلا في أماكن متفرقة . وهكذا نرى أن ظروف البيئة تملئ على سكان هذه البلاد أن يعيشوا عيشة رعوية ، وأن ينتقلوا من مكان إلى آخر ، سعيا وراء الرزق^(٢) ؛ فالهجرة من مكان إلى مكان وعدم الاستقرار في مكان معين ، قد أصبحت من أهم الصفات التي يمتاز بها الشعب المغولي ؛ ونتيجة لذلك نرى المغولي يكره الزراعة كرها شديدا . وعلى الرغم من أن المغول كانوا يحتلون بعض السهول الخصبة أحيانا ، فإنهم لم يحاولوا زراعتها ، بل كانوا يهاجرون من السهول إلى

== — ماعدا حمص — كانت خاضعة لسلالة أيوب الحمسة وهم صلاح الدين والهادل وشاهنشاه وطورا لشاه وطفلكين ؛ أما حمص فكانت خاضعة لسلالة شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي .

Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, pp. 77 — 79.

Hart : Mongol Campaigns, p. 705. (١)

(Encyclopædia Britannica, vol. XV.)

Little : The Far East, p. 171. (٢)

الجبـال في فصل الصيف ولا يتركون هذه الجبال إلا إذا انعدم العشب فيها ، وأصبح من المتعذر عليهم البقاء مع ماشيتهم^(١).

هكذا كان يسكن هذه الأقاليم ، القبائل الرحل التي لا تعرف معنى الحضارة ، والتي لا هم لها إلا التنازع والتنافس على موارد الرزق القليل من العشب . على أن كل قبيلة من هذه القبائل كانت تكون وحدة متماسكة من ناحية الجنس واللغة^(٢) . ونجد هذه القبائل ، ومن بينها قبائل المغول ، تعيش عيشة بربرية بحتة وتتوق إلى تعرف كنه الحضارة الصينية المتاخمة لها في الجنوب ، فتراهم يغفرون عليها ، وينهبون كل ما تصل إليه أيديهم^(٣) . وهذا هو السر في بناء سور الصين العظيم الذي بناه أهل الجنوب في عصور التاريخ الأولى دفعا لغارات المتبربرين من الشمال^(٤) . ومن هذه القبائل المختلفة المتعددة ، القبائل المغولية وكانت في العصر الذي نتحدث عنه ، تحتل الأراضي الواقعة بين بحيرة بيكال في الغرب ، وجبال كنجان على حدود منشوريا في الشرق^(٥) .

وليس من المعقول أن يستقر السكان السياسي في هذه البلاد ، وهي على هذه الحال من الفوضى السياسية والاضطراب الاجتماعي . وكانت الحالة هناك تستلزم ظهور شخصية قوية توحد القبائل المغولية أولا ، وتسيطر على سائر القبائل المبعثرة هنا وهناك ثانيا . ولم تكن هذه الشخصية إلا شخصية شاب مغولي ، مات أبوه وهو في الحادية عشرة من عمره . وكان من أثر وفاة أبيه وهو في هذه السن المبكرة ، أن انفضت من حوله القبائل المغولية التي كانت خاضعة لحكم أبيه . وظل هذا الفتى شريدا تتلقفه أيدي من يشفق عليه من أصدقاء أبيه ، حتى إذا ما بلغ السابعة عشرة ، بدأ نجمه يلمع ، إذ استطاع بفضل ذكائه وحنكته أن يجتذب إليه كبار رجال المغول من أتباع أبيه ، حتى إذا ما أقنع أفراد عشيرته بالانضواء تحت لوائه ، عوّل على إخضاع القبائل المنتشرة في صحراء جوبي^(٦) .

(١) Huntington : The Pulse of Asia, p. 313.

(٢) Grenard : Gengis - Khan, p. 8.

(٣) Ibid, p. 7.

(٤) Little : The Far East, p. 184.

(٥) Lamb : Genghis Khan ; The Emperor of All Men, p. 25.

(٦) Ibid, p. 26 & seq.

ولن يدخل في نطاق هذا البحث أن تتبع أدوار هذا النزاع ، بل إن كل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد ، إن « تيموچين » الشاب استطاع بدهاته وذكائه ، أن يوحد كل أهالي أقاليم آسيا الشرقية شمالي بلاد الصين تحت لوائه ، فزاه يستعين بالقبيلة ضد الأخرى ويتحالف مع القوى منها على الضعيف فيزمه . وأخيرا تربع تيموچين على هرش هذه القبائل جميعها فاختارته إمبراطورا عليها . وبعد أن تم له ما أراد ، سمي نفسه باسم « چنكيزخان أي » أعظم الحكام ، The greatest of rulers أو « إمبراطور البشر ، The emperor of all men ، واتخذ بعد ذلك من مدينة « قره قورم » حاضرة للملكة .

بعد أن تربع چنكيزخان على هذا العرش ، رسم لنفسه سياسة واضحة ترمي إلى التوسع في الجنوب على حساب البلاد الصينية ، ثم التوسع في الغرب لاختضاع بعض أعدائه الذين فروا من وجهه ، وكانت قبائل الخطا التي أفضنا الحديث عنها في الباب السابق ، أم هذه القبائل . على أن چنكيزخان قد وضع لشعبه ، قبل أن يبدأ بتنفيذ هذا البرنامج الواسع النطاق ، دستورا اجتماعيا قويا ، ودستورا حرييا لا يقتل عنه قوة . ففي اجتماع عام عقده چنكيزخان سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) ، أعلن قانون « اليساق » ، هو قانون مختصر بسيط ، ولكنه حازم صارم ، أساسه الطاعة العمياء ، وقوامه احترام المجتمع المغولي ، واحترام الصغير لقدر الكبير ^(١) . ونستطيع أن نجمل قانون اليساق في أمور ثلاثة : الخضوع لچنكيزخان ، والاتحاد في قبيلة واحدة ، والعقاب الصارم لكل مخطئ .

أما نظام چنكيزخان الحربي ، فكان قوامه الطاعة العمياء ، بحيث يحترم الصغير من يعلوه في الرتبة العسكرية ، كما سنرى عقوبات لكل من يخالف واجبه من الضباط ^(٢) . وقد زوّد هذا الجيش بما استطاع أن يقتبسه من نظم حرية من البلاد الأكثر حضارة كبلاد الصين ^(٣) . وبهذا النظام الحربي والنظام الاجتماعي ، واصل چنكيزخان

(١) Orenard : Gengis - Khan, pp. 65 — 66.

(٢) De Quignes : Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols et des autres Tartares Occidentaux, tom. iii. p. 73.

(٣) أنظر ما كتبناه عن نظم الفول الإجماعية والحرية في الباب الرابع .

سياسته التي تهدف إلى إخضاع أقاليم آسيا الشرقية ، وفرض سلطانه على أعدائه الذين فروا من وجهه ناحية الغرب ، فقادهم هذا إلى الاصطدام بالعالم الإسلامي ، حيث هدمت معاول المغول حضارة المستلين .

وإذا رجعنا إلى القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) نجد بلاد الصين تحت حكم أسرة تانج Tang ، ولكن الانحلال التدريجي بدأ ينتخر في عظام هذه الأسرة ، إلى أن انهارت سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٧ م) وحل محلها عدة أسرات (١) ، وبذلك أصبحت البلاد الصينية لا تفرق عن العصر الإقطاعي في أوروبا في العصور الوسطى ، وعن دويلات الأناطقة في أواخر العصر السلجوقي . على أن هذه البلاد ما لبثت أن توحدت من جديد ولكن على يد أسرة جديدة هي أسرة سونغ Sung (٣٤٩ - ٥٢١ هـ = ٩٦٠ - ١١٢٧ م) ، التي ما لبثت أن أخذت بدورها تتدهور تدهوراً تدريجياً . وكانت بعض القبائل والجماعات تنتظر الفرصة المواتية للوثوب على هذه الدولة الضعيفة الواهنة بشيء من الاهتمام ، فاندفعت أسرة جديدة تدعى أسرة كين Kin من إقليم منشوريا في الشمال ، واستطاعت أن ترغم دولة سونغ على السماح لها بالسكنى في داخل شواطئ الصين ، في الإقليم الشمالي من بلاد الصين ، واضطرت أسرة سونغ بعد ذلك أن تدفع لأسرة كين جزية سنوية . وبما هو جدير بالملاحظة أن أسرة كين حكمت هذا الجزء الشمالي من بلاد الصين بالإضافة إلى أملاكها الأصلية في منشوريا (٢) . ولم تعد البلاد الصينية جنوب سور الصين العظيم بلاداً موحدة كما كانت من قبل ، بل أصبحت موزعة بين حكم أسرة سونغ ، بحكام البلاد الأصليين ، وبين حكم أسرة كين المختصين (٣) .

هكذا كان الحال في البلاد الصينية عند ما هم جنكيزخان باجتياحها . وقد ذكرنا من قبل أن يموچين توج في سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) على عرش المغول ، وسمى نفسه جنكيزخان ، ومنذ ذلك الحين أخذ يستعد للإغارة على البلاد الصينية في الجنوب (٤) .

(١) Wells, H. G. : Outline of History, vol. ii. p. 473.

(٢) Fitzgerald : China, A Short Cultural History, pp. 386 — 388.

(٣) Douglas : The Story of Nations, China, p. 22.

(٤) Giles : The Civilization of China, p. 182.

ولا يخفى علينا أن الحضارة الصينية من أقدم الحضارات المعروفة في التاريخ ؛ وقد هزت هذه الحضارة المغول المتبربرين وجذبتهم إليها ، فبدأوا يشنون حروباً خاطفة على أعدائهم في الجنوب ، بغية اختبار قوتهم ومعرفة مدى استعدادهم للحرب . على أن أخبار البلاد الجنوبية ، كان يحملها إلى چنكيزخان بعض الجنود الذين يقعون في الأسر ، والذين كان المغول يختطفونهم من الحدود الصينية . وعن هذا الطريق استطاع چنكيزخان أن يقف على مدى ضعف أسرة كين ، كما عرف الكثير عن الحضارة الصينية ، وما كانت عليه تلك البلاد من ثراء لا حد له . وقد شجعت هذه الأخبار چنكيزخان وجنوده على المضي في تنفيذ خطتهم دون تردد .

وبعد أن تأكد چنكيزخان من تفوقه على أعدائه ، سار بجيوشه جنوباً ، وبدأ أولى حملاته في سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) ، ثم تبعها حملات أخرى حتى سنة ٦١١ هـ (١٢١٤ م) . على أن المغول لم يوفقوا في حملتهم الأولى ، إذ لم يستطيعوا أن ينفذوا إلى إمبراطورية كين إلا عن طريق منفذ واحد ، وعن طريق الجيئة . وكل ما أفاده چنكيزخان من هذه الحملة ، أنه عرف الكثير عن أحوال هذه الإمبراطورية ومدنها العامة ^(١) . ولم تنقطع حملات المغول على هذه البلاد ، حتى إذا ما حل عام ٦١١ هـ (١٢١٤ م) هاجم چنكيزخان إمبراطورية كين من نواح متعددة ، ولم تكن الجيوش المغولية على شيء من القوة حتى أن قوادهم فسكروا في الصلح . وقوبلت هذه الفكرة قبولاً حسناً من « وای وانج » Wai Wang إمبراطور كين ، الذي نراة يبعث بالهدايا إلى چنكيزخان ، كما يبعث إليه بزوجة من أسرته .

والظاهر أن إمبراطور كين لم ترقه فكرة الصلح ولم يطمئن إلى المغول ، بدليل أنه فكر في الرحيل عن خاضرته بكنين ، إلى حاضرة أخرى في الجنوب ، رغم معارضة قواده ورجال حاشيته . وقد ترك ولده بادىء الأمر للدفاع عن حاضرة ملكه ، ثم عاد فاستدعاه وترك هذه المهمة لأحد قواده . وقد أدى رحيل هذا الملك إلى قيام ثورة دامية في أنحاء الإمبراطورية ، كما أدى إلى حدوث اضطراب شديد ساعد چنكيزخان على التوغل في هذه البلاد ، والاستيلاء على بكنين حاضرة إمبراطورية كين في سنة

(١) Hart : Mongol Campaigns, p. 706. (Encyclopædia Britannica, Vol. XV.)

لوحة ٧



رسم يمثل اجتماع زعماء المغول للمناداة بچنكيزخان خاقانا عليهم السلام .
في مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين .

(من كتاب Blochet : Musliman Painting .)

٦١٢ هـ (١٢١٥ م) ^(١) . وقد اتخذ المغول من مدينة بكين حاضرة لهذه المستعمرة المغولية الجديدة مدة نصف قرن تقريباً ^(٢) . وبعد أن وضع جنكيزخان يده على كل أملاك إمبراطورية كين في الأشهر التالية لهذا الانتصار ، لجأ «واي وانج» Wai Wang إلى الجنوب حيث أسره سونج ، عدوته بالأمس القريب ^(٣) .

امتدت الفتوحات المغولية بعد هذا النصر حتى وصلت حدود الدولة المغولية إلى نهر هوانهو . على أن جنكيزخان اكتفى بهذا القدر مؤقتاً ، وعاد إلى حاضرة ملكه «قره قورم» ، تاركاً أحد قواده لحكم هذه البلاد التي آلت إلى المغول بعد السيف ، ولحفظ الأمن فيها ^(٤) . ومما تكن النتائج التي ترتبت على غزو المغول لإمبراطورية كين ، فقد استفاد المغول كثيراً من هذا الغزو ، فأثروا بما استولوا عليه من كنوز الصينيين ونفائسهم ، التي لم يكن للمغول بها عهد من قبل . ونرى هذا الثراء واضحاً في الخيام التي صنعها المغول من الحرير بعد غزوه البلاد الصينية ، وفي سيوفهم التي كانوا يصنعونها بالجواهر ^(٥) . كذلك نراهم يقتبسون عن الصينيين استعمال البارود ^(٦) ، ومما هو جدير بالذكر أن الصينيين عرفوا استعمال البارود منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) ^(٧) .

وقد حرص جنكيزخان فوق ما تقدم على الاستفادة من عقول كبار المفكرين

(١) Bretschneider : Recherches Archeologiques et Historiques Sur Pekin et Ses Environs, p. 14.

(٢) ومما هو جدير بالذكر ، أن أباطرة أسرة كين اتخذوا من مدينة بكين حاضرة لهم في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) ، بعد أن تم لهم السيطرة على هذه الأقاليم التي انقطعوا من أسرة سونج . انظر المرجع السابق والصفحة .

(٣) Lamb : Genghis - Khan ; The Emperor of All Men, pp. 99 — 103.

(٤) Hart, B. H. L: Mongol Campaigns, p. 706.

(Encyclopædia Britannica, vol. XV.)

(٥) Fitzgerald : China, A Short Cultural History, p. 429 & seq.

(٦) Wells, H. G. : The Outline of History, vol. ii. p. 473.

(٧) Giles : The Civilization of China, p. 118.

ويرى بعض المؤرخين أن البارود كان يستعمل في ذلك الوقت في شكل قنابل يهدف بها الفرسان على الجيش المعادي . ولم يستعمل الصينيون البارود في المدافع إلا بعد أن علمهم الأوربيون هذه الطريقة ، بعد العصر الذي نتحدث عنه بثلاثة أو أربعة قرون .

Lamb : The Crusades ; The Flame of Islam, p. 338.

الذين لقيهم في البلاد المفتوحة، ومن أشهر هؤلاء «ي لو شو تساي Ye-Lu Ch'u Ts'ai» الذي أسره چنكيزخان في مدينة بكين سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م)، وظل سجيناً لدى المغول حتى وقف چنكيزخان على كفايته ومقدرته، فاتخذته وزيراً له، يستشيريه في كل مهام دولته وكان من حسن الحظ أن صحبه في غزواته للبلاد الإسلامية، فقد وصف لنا هذا الرجل فتوحات چنكيزخان وغزواته للدولة الخوارزمية وصفاً يعد من أدق ما كتب في هذا الموضوع^(١). وهكذا نرى أن المغول في عهد چنكيزخان يستفيدون كثيراً من حضارة الصينيين المادية والأدبية، بالقدر الذي ساعدهم على النجاح فيما بعد. ولم تسلم البلاد الصينية من التخريب، كما لم يسلم سكانها من التشريد والتعذيب والقتل، حتى أننا نرى أن الغزو المغولي يكلف الصينيين خمسين مليوناً من الأنفس؛ ومن هذا نرى مدى حب المغول لإراقة الدماء في البلاد المغلوبة على أمرها^(٢). ولم يأل چنكيزخان جهداً منذ عودته إلى حاضرتة قره قورم، في الاستعداد لمطاردة أعدائه العديدين وزعماء القبائل المختلفة في غرب دولته الذين كانوا لا يفترون عن السكيد له. وهكذا دفعت الظروف چنكيزخان إلى التوجه بجيوشه إلى الغرب، رغبة منه في القضاء على هؤلاء الأعداء؛ ومن هؤلاء كشلوخان الذي تبوأ عرش دولة الخطا وأسس لنفسه دولة قوية على حدود البلاد الإسلامية^(٣).

وقد رأينا كيف نجح چنكيزخان في القضاء على غريمه كشلو ووضع يده على دولته، وأصبحت مملكته الواسعة تجاور أملاك الدولة الخوارزمية. كذلك رأينا كيف أن چنكيزخان قد حاول منذ ذلك الحين، أن تكون علاقته بالدولة الخوارزمية علاقة وفاق، ومن أجل هذا عقد مع علاء الدين خوارزم شاه هذه المعاهدة السلمية، التي فتحت الطريق عبر آسيا لتجار الدولتين. ثم وقعت حادثة مقتل التجار في مدينة أترار فأفسدت تلك العلاقة السلمية وأصبحت الحرب بعد ذلك حقيقة واقعة لم يستطع الخوارزميون ولا المغول دفعها. وتأهب چنكيزخان لاكتساح هذه الدولة وتحطيمها كما سنرى.

Bretschneider : *Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources*, (١)
vol. i. pp. 9 — 10.

Fitzgerald : *China, A Short Cultural History*, p. 431. (٢)

De Quignes : *Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols* (٣)
et des Autres Tartares Occidentaux, tom. iii. pp. 39 — 41.

٣ - المغول في بلاد ماوراء النهر

كانت الفترة التي اكتسح فيها چنكيزخان الدولة الخوارزمية فترة قصيرة جداً بالنسبة إلى عظم المساحة التي اخضعها المغول ، فهي لا تزيد على سنوات أربع ، إذ وصل چنكيزخان إلى الحدود الخوارزمية سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) وأتم إخضاع هذه الدولة ثم عاد فعبر نهر سيحون عائداً إلى منغوليا سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) .

رأينا من قبل كيف أن الجيوش المغولية استولت على أملاك دولة الخطأ ، واتصلت بذلك أملاك المغول بأملاك الدولة الخوارزمية ، كما رأينا كيف تبدلت علاقة الصداقة التي قامت بين المغول والخوارزميين بعد مقتل التجار في مدينة أترار . لذلك بدأ چنكيزخان يعد جيوشه لملاقاة أعدائه من المسلمين منذ سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) ، وهي السنة التي قتل فيها التجار في أترار ^(١) .

وكان الغزو المغولي للعالم الإسلامي عنيفاً كل العنف ، فقد خرب المغول كل شيء ونكلوا بالمسلمين وتفتتوا في تعذيبهم بشق الوسائل والأساليب . وقد وصف كل من عاجل هذا الموضوع من مؤرخي المسلمين حوادث المغول وصفاً يعبر تعبيراً صادقاً عما حل بالعالم الإسلامي في ذلك الوقت من تخريب وتقتيل وتعذيب . كما أبدى بعض المؤرخين من الأوروبيين آراءهم في هذا الموضوع ، وصوّروا ما قاساه العالم الإسلامي على أيدي المغول أدق تصوير .

ويعتبر ابن الأثير عمدة مؤرخي المسلمين الذين عاصروا هذه الحوادث وكتبوا عنها ، ويتضح من كتاباته فداحة الخطب ، كما تتضح آلام المسلمين النفسية ، وضعف حالتهم المعنوية ، حتى أن ابن الأثير نفسه كاد يقلع عن سرد حوادث هذا الغزو كما يتبين ذلك من هذه العبارة :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة ، إستعظماً لها ، ،
« كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه ،
« أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ، ،

(١) الديار بكرى : تاريخ الخميس في أحوال أئمة فليس ، ج ٢ ص ٣٦٨ .

« فإليت أمي لم تلدني وبالييتي مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ثم ،
« رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً هذا الفعل يتضمن ،
« ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى فلو قال قائل إن ،
« العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان ،
« صادقا ؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يداينها
« وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ،
« وشقوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ،
« ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ؛ لهذه الحادثة استطار ،
« شررها ، وعم ضررها ، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته ،
« الريح (١) .

أما السيوطي فقد عبر عن هذه المأساة بقوله :
« هو حديث يأكل الأحاديث ، وخبر يطوى الأخبار ، وتاريخ ينسى ،
« التواريخ ، ونازلة تصغر كل نازلة ، وفادحة تطبق الأرض وتملؤها ،
« ما بين الطول والعرض ، (٢)

ولن يفوتنا في هذا المقام أن نأتي بمثالين من أقوال المؤرخين الأوربيين الذين
عالجوا الغزو المغولي ، ووصفوا ما لحق بالعالم الإسلامي من تخريب ؛ فنرى هارولد لام
Harold Lamb يشبه هذه القوة البدائية بالريح العاصفة والزلازل العالمة ، فقد
استطاعت هذه القوة البشرية أن تصل إلى حدود آسيا الشرقية والغربية ، وأن تعبر
سفوحها الوعرة بعقل لا يختلف عن عقل الحيوان ، الذي لا يكثر لتعذيب البشر ، الشره
لكل ما هو جديد براق ، والذي يندفع اندفاع الأطفال الذين لا يدركون معنى
المسئولية (٣) . ونرى سيكس Sykes يُرجع حب المغول للتخريب إلى طبيعتهم البدائية ،
بحيث كانوا إذا احتكروا ببلد من البلدان المتحضرة ، اندفعوا إلى تدمير حضارته بسبب

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٠ .

(٣) Harold Lamb : The Crusades ; The Flame of Islam, p. 337.

خوفهم منها ، لذلك نرى المغول وقد احتكوا بالبلاد الصينية ولمسوا طرفاً من حضارتها ، يندفعون إلى كراهية المخلوقات المجاورة لهم . فيهاجمونها ، وينكلون بالرجال والنساء والأطفال ، ويحرقون القرى ، ويحولون المدن العامرة إلى صحراء جرداء ، بحيث لم يتركوا وراءهم إلا بلداناً مخربة مكتظة بحشت القتلى^(١) . وعن طريق هذا التحليل النفساني نستطيع أن نلص السبب الذي حدا بالمغول إلى تخريب المدن الإسلامية العامرة بسكانها ومبانيها ، التي تفنن الصنائع المسلمون في تزيينها .

وبهذه الروح المخربة ، سار چنكيزخان لغزو البلاد الإسلامية فبلغها سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) . ومن الخطأ أن نعتقد أن چنكيزخان سار إلى هذه البلاد على غير خطة رسمها لنفسه ، بل الواقع أن نظامه الحربى كان من أهم الأمور التي وضعها نصب عينيه ، فاستطاع بهذا النظام وبفضل خطته الهجومية على البلاد الإسلامية ، أن يحرز ما أحرزه من نجاح . فقد استولى أولاً على كل البلاد الواقعة بين نهري سيحون وجيحون ، ثم وزع أمر الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية المختلفة بين أبنائه وقواده ؛ فبينما توجه جيش إلى إقليم خوارزم ، توجه جيش آخر إلى خراسان ، بينما كان چنكيزخان يتم إذلال المدن الواقعة في أعالي نهري سيحون وجيحون ويمهد للاستيلاء على إقليم غزنة . وفي الوقت نفسه كان قواد المغول الذين طاردوا علاء الدين خوارزم شاه وأجأوه إلى الفرار إلى إحدى جزر بحر قزوين حيث مات ، يعيشون في أقاليم العراق العجمي وأذربيجان وجورجيا^(٢) .

بلغ چنكيزخان بجيوشه ، كما ذكرنا ، نهري سيحون على مقربة من مدينة أترار Otrar ، وهناك أخذ يستعد لغزو بلاد ما وراء النهر ، وهي البلاد الواقعة بين نهري سيحون وجيحون ، والتي يفصلها عن إقليم خوارزم من جهة الغرب إقليم صحراوي . وكان يسكن هذه البلاد أقوام من الترك والفرس والعرب ، كانوا يعمرّون مدها إبان الغزو المغولي . وقد وضع چنكيزخان لغزو هذا الإقليم خطة محكمة ، فلم يشأ أن يهاجمه من جهة واحدة ، بل رأى أن ينقض عليه من جهات أربع ؛ لذلك نراه يقسم

(١) Sykes : A History of Persia, pp 55 -- 56.

(٢) أطرخرطة « الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها » .

جيشه إلى فرق أربعة ، عهد إلى كل فرقة بمهمة الاستيلاء على جزء معين من هذا الإقليم ؛ وبهذه الخطة أخذ چنكيزخان أعداءه على غرة ، ولم يترك لهم فرصة كافية للاستعداد . أما أول هذه الجيوش فكان تحت قيادة ابنه «چجتاي» Tchagatai و «أجتاي» Ogtai ، وقد ألقى چنكيزخان على عاتق هذا الجيش إخضاع مدينة أترار . أما الجيش الثاني فكان تحت قيادة «چوچی» Djoutchi الابن الأكبر لچنكيزخان ، وكان عليه أن يخضع مدينة «جند» إحدى الحصون الإسلامية الهامة على نهر سيعون . أما الجيش الثالث فقد أمّر عليه چنكيزخان ثلاثة من كبار قواده ، وكان على هذا الجيش الاستيلاء على مدينتي «بنكت» و «خجندة» ، وكنا من أهم المعاقل والمنافذ على نهر سيعون^(١) . أما رابع هذه الجيوش فكان تحت قيادة چنكيزخان نفسه ومعه ابنه تولوي Toulou . وقد اتجه چنكيزخان بجيشه إلى قلب إقليم ما وراء النهر ، حتى إذا ما سيطر على مدن هذا الإقليم ومن أهمها بخارى وسمرقند ، استطاع أن يحول دون وصول علاء الدين خوارزم شاه إلى المدن المحاصرة على نهر سيعون في الشرق^(٢) . من هذا نرى أن خطة چنكيزخان كانت خطة محكمة ، ترمى إلى الاستيلاء دفعة واحدة على أهم الثغور والمدن في بلاد ما وراء النهر ، حيث تتجمع الجيوش الخوارزمية ، ولكي يضمن قطع الإمدادات والمؤن عن هذه المدن المحاصرة ، توجه بنفسه للاستيلاء على قلب هذا الإقليم ، وحال بذلك دون وصول جيوش علاء الدين إلى المدن المحاصرة على نهر سيعون .

ولما كانت مدينة «أترار» Otrar هي المدينة التي حدثت فيها مذبحة التجار التي أدت إلى هذا الغزو كما كانت مفتاح إقليم ما وراء النهر ، لذلك كان هجوم المغول عليها عنيفاً . فقد كانوا يتوقعون للثأر من «ينال خان» حاكم هذه المدينة وقاتل التجار . وقد أسرع هذا الرجل فأصلح حصون المدينة وقلعتها ، وزودها بحامية كبيرة ، وأسلم شئون الدفاع عنها إلى أحد قواده المهرة . وقد حاصر كل من أجتاي وچجتاي المدينة خمسة أشهر ، فقد الخوارزميون فيها رباطة جأشهم ، حتى أن القائد الخوارزمي فكر في التسليم .

(١) أنظر «خريطة الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها» .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 217 — 219.

وقد أدرك المغول أن قائد الجيوش الخوارزمية في المدينة وكذا من يريد التسليم من جنود الحامية ، لم يفكروا في التسليم إلا خوفاً من المغول ، بحيث أنهم قد لا يتورعون عن أن يقلبوا لهم ظهر المجن إذا سنحت لهم الفرصة ، ولذلك لم يقبل المغول خضوعهم^(١) . ومن الأمور الطبيعية ألا يوافق ، ينال خان ، على فكرة تسليم المدينة للمغول فهو يعرف المصير الذي ينتظره إذا هو وقع في أيديهم فهو لا محالة هالك ، جزاء له على قتل التجار ورسول چنكيزخان ، لذلك أعلن ينال خان أنه سيدافع عن هذه المدينة إلى النهاية رغم ما أبداه القائد العسكري من ميل إلى التسليم ، تظاهراً منه بالاختلاص لعلاء الدين خوارزم شاه . على أن المغول ما لبثوا أن استولوا على المدينة عنوة سنة ٦٦٦ هـ (١٢١٩ م) ونهبوها وطاردوا سكانها . وقد تقهر ينال خان إلى قلعة المدينة واحتوى بها نحواً من شهر^(٢) فقد في أثنائه معظم رجاله ، ومع ذلك ظل يدافع دفاع اليأس المستميت . ولما وجد نفسه محاصراً من كل جانب قذف بنفسه إلى سقف أحد المنازل ، فتبعه جنديان مغوليان وهولا يملك أن يدافع عن نفسه إلا بقذفهما بالحجارة التي كان يناوله إياها بعض النسوة . وأخيراً وقع في أيدي المغول الذين قادوه إلى معسكر چنكيزخان الذي كان في ذلك الوقت أمام مدينة سمرقند . ولكي ينتقم چنكيزخان منه صعد إلى التَّنْكِيل به فأمر بعض رجاله أن يصهروا كمية من الفضة ويسكبوها في عينيه وأذنيه ، وهكذا نفذ چنكيزخان وعبيده في قاتل تجاره ورسله . وبسقوط مدينة أترار سقط مفتاح بلاد ما وراء النهر^(٣) .

أما عن الجيش الثاني الذي كان تحت قيادة چوچی أكبر أبناء چنكيزخان ، فكانت قبلته مدينة « جند » Djend إحدى معاقل المسلمين على نهر سيحون ، وقد وصل هذا القائد إلى هذه المدينة بعد أن استولى على كثير من المعاقل والمدن الواقعة على نهر سيحون ، وتمكن بذلك من السيطرة على كل مجرى هذا النهر تقريباً . فلما اقترب من مدينة جند ، خادرها حاكمها ليلاً تاركاً لسكانها أمر الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم . وقد نصب المغول المجانيق حول المدينة استعداداً لتحطيم أسوارها . وأزاء هذا الاستعداد من قبل

(١) Douglas : The Life of Jenghis- Khan, p. 16.

(٢) ذكرنا في موضع آخر أنه كانت توجد بكل مدينة قلعة حصينة ، تشبه قلعة الجبل التي بناها صلاح الدين الأيوبي في مصر ، ليحتجى فيها الساطان الخوارزمي وأفراد حاشيته إذا هدد المدينة عدو ما . راجع ص ٧٧ .

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom, i. pp. 219. — 221.

المغول انقسم الأهالي على أنفسهم ، فرأى فريق منهم ضرورة الدفاع عن المدينة ، ورأى فريق آخر أنه لا فائدة من الدفاع وآثر أن يسلم المدينة في الحال ، لعل الأهالي يحدون في ذلك خير شفيع ينجيهم من الوقوع تحت سيوف المغول . والظاهر أن هذا الرأي كان يناصره أكثرية السكان بدليل أن المغول لم يحدوا مقاومة ماداخل المدينة وهم يدكون أسوارها من جميع جهاتها . وأخيراً سلمت المدينة وسلم من سلم من أهلها ، وقتل من قاتل المغول . وبعد أن وضع چوچی على المدن المفتوحة حكماً مخلصين ، أصدر أوامره لجنوده بالعبور إلى إقليم خوارزم^(١) .

أما ثالث جيوش چنكيزخان التي سيرها للاستيلاء على بلاد ما وراء النهر فقد سار إلى مدينة « بنكّت » على نهر سيحون و« خجندة » إلى الجنوب منها . وقد تمكن المغول من دخول مدينة بنكّت بعد أن سلمها الأهالي ، وكان المغول قد أمنوهم على حياتهم . ولكن هؤلاء المغول الذين لا يعرفون معنى للعهود والمواثيق ، لما دخلوا المدينة فصلوا الجند عن المدنيين وأعملوا القتل في رقاب الفريق الأول ، واختاروا من الفريق الثاني خيرة شبابه لينتفعوا بهم في أعمالهم الحربية . ثم سارت هذه الفرقة المغولية نحو الجنوب ميممة شط مدينة « خجندة » الواقعة على نهر سيحون ، وهي مدينة جميلة اشتهرت بمحادثتها وانتعاش التجارة فيها ، كما اشتهرت بشجاعة أهلها وقوة بأسهم^(٢) ، وما يستره النظر أن « تيمور ملك » قائد الحامية الخوارزمية فيها ، فضل أن يغادر المدينة مع ألف من جنوده إلى جزيرة صغيرة في وسط النهر ، بعيدة عن شاطئيه ، حتى يكون في مأمن من غارات المغول ، وعلى بعد كاف من مرمى سهامهم .

وقد سار مايزيد على عشرين ألف جندي مغولي ، من أولئك الذين انتصروا انتصاراً ميئناً على الخوارزميين في مدينة أترار وغيرها من المدن ، يتبعهم خمسون ألفاً من خيرة شباب الخوارزميين ، لمساعدة هذه الفرقة المغولية التي كانت تحاصر « تيمور ملك » . وقد كلفت هذه الجموع إحضار الأحجار من الجبال المجاورة وإلقائها في النهر ، ليكوّنوا بذلك طريقاً يستطيع المغول أن يعبروا منه إلى هذا الخوارزمي الذي كان معتصماً في جزيرته على أن « تيمور ملك » صمم على إفساد خطتهم ، فصنع اثني عشرة سفينة كبيرة

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 221 - 223.

(٢) Howorth : History of the Mongols, Part. i. p. 77.



صورة تمثل فرسان جنكيز خان بعد غارة موققة في آسيا الوسطى ، ترجع في الغالب إلى سنة ١١٦٤ هـ (١٧٥٠ م)
(عن كتاب : Genghis-Khan. Harold Lamb)

غطى جدرانها بالجلود ؛ وكان يرسل في كل يوم ستا من هذه السفن للإغارة على المغول الذين كانوا يعملون في هذا الطريق الموصل إلى الجزيرة ، فيرمونهم بسهامهم . ولكن « تيمور ملك » وجد في النهاية أن مقاومته لن تجدى نفعا فصمم على الهرب ؛ وبعد أن شحن جنوده وأمتعته في سبعين مركبا ، سار في النهر متجها نحو الشمال ، على أن المغول كانوا يراقبونه من جانبي النهر . وقد علم وهو يسير في النهر أن چوچی بن چنكيزخان قد حشد قوة كبيرة من المغول على مقربة من مدينة « جند » ، على جانبي نهر سيحون ، وأنه سد هذا النهر بقنطرة من السفن ، فاضطر « تيمور ملك » أن يترك النهر إلى الساحل حيث امتطى جواده ، وقاتل أعداءه قتال اليأس . ومع ذلك استطاع أن يخدع مطارديه ، وأن يصل في النهاية إلى مدينة خوارزم حيث كان يربط جلال الدين منكبرتي بن علام الدين خوارزم شاه (١) .

أما الجيش الرابع الذي كان يقوده چنكيزخان وابنه تولوي ، فقد توجه إلى مدينة بخارى . وقد استطاع چنكيزخان أن يستولي على المدن التي صادفته في طريقه إلى هذه المدينة وأن يعين على كل منها حاكما من قبله ، وكان قد جرد هذه المدن بما فيها من ذهب وفضة . كذلك نلاحظ أن چنكيزخان انتق من يصلح من سكان هذه المدن المفتوحة ليستعين بهم في حصار مدينة بخارى . وقد بدأ چنكيزخان حصار هذه المدينة سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ؛ (٢) وعلى الرغم من أن القوة الإسلامية التي وكل إليها أمر الدفاع عن المدينة بلغت عشرين ألف رجل ، فإن هذه القوة مالبت أن انهارت أمام استعداد المغول وقوة روحهم المعنوية وما يقابل ذلك من ضعف في الروح المعنوية عند المسلمين .

وقد هاجم المغول هذه المدينة أياما متتالية شعر المدافعون في أثناءها باليأس وقرروا الانسحاب ليلا ، عليهم يحدون مخرجا من هذا المأزق . ولكي يخترق المسلمون صفوف المغول قاتلوهم قتالا عنيفا حتى أرغموهم على الارتداد ولكن بدلا من أن يتبع الخوارزميون أعداءهم الفارين فضلوا طريق الهرب ، فعاد المغول وطاردوا أعداءهم الهاربين واشتبكوا معهم في قتال عنيف بالقرب من نهر سيحون ، وكان النصر حليف المغول (٣) . ولما وجد الخوارزميون الذين بقوا في المدينة أنه لم يعد لهم حول ولا قوة

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 224 — 6.

(٢) Abulgasi : Histoire Généalogique des Tatars, p. 255.

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٠٧ .

ولاسيما بعد أن غادرها خيرة الجنود ، ضُغفت نفوسهم فأرسلوا قاضي المدينة وهو « بدر الدين قاضيخان » ، رسولا لچنكيزخان يعرض عليه تسليم المدينة ويطلب الأمان لسكانها . فلما أجابه چنكيزخان إلى طلبه « فتحت أبواب المدينة للمغول ، وكان ذلك في نفس السنة التي حاصروها فيها (٦١٦ هـ = ١٢١٩ م) »^(١) .

دخل چنكيزخان المدينة ، ومر أمام مسجدها ثم دخله ممتطيا جواده ، وسأل عما إذا كان هذا هو قصر السلطان ، فلما قيل له إن هذا إنما هو بيت الله ، نزل إلى أرض المسجد وصعد المنبر ، وصاح قائلاً بأعلى صوته . « لقد قطع العلف إعطوا الخيل طعاماً ، وقد فهم المغول من هذه العبارة أن چنكيزخان يشير على جنده بأن يهبوا المدينة . وقد حمل المغول إلى فناء المسجد عدة صناديق تحوى نسخاً كثيرة من القرآن الكريم وقعت تحت حوافر الخيل ، كما أهان هؤلاء البرابرة الدين الإسلامي بإحضارهم قرب الخمر إلى المسجد كما أحضروا المغنين من المدن المختلفة ، وأخذوا يشربون ويطربون وأعيان البلد وكبار الأئمة ممسكون بعنان خيولهم .

خرج چنكيزخان بعد ذلك وجمع سكان المدينة وطلب منهم أن يعينوا له أكثر هذا الجمع ثراء . فعينوا له مائتين وعشرين ، بينهم ثمانون من الأغراب ، فطلب منهم أن يقتربوا منه وأخذ يتحدث إليهم ، وبعد أن بين لهم أن الغرض من حملته هو أن يثأر من السلطان الخوارزمي قال :

« لقد ارتكبتم خطأ فاحشاً ، وإن الرؤساء هم المجرمون ، وإذا سألتهموني ،

« عن نفسي قلت لكم إنني نعمة الله على الأرض ، فإذا لم تكونوا ،

« مجرمين فإن الله ما كان يسمح لي بأن أعاقبكم »^(٢) ،

وبعد أن فرغ چنكيزخان من حديثه أمرهم بأن يخرجوا كنوزهم المدفونة ، وأن لا يبالوا بما ليس مدفوناً لأنه يستطيع أن يعثر عليه . وقد ترك چنكيزخان كل رجل من هؤلاء الأغنياء في حراسة رجل مغولي ، على أنه وجد أن هناك أربعاً مائة فارس خوارزمي لم يخرجوا من المدينة مع سائر رجال الحامية فأرغمهم على الالتجاء إلى القلعة . وقد جند المغول من سكان المدينة من يقدر على حمل السلاح وساروا إلى القلعة وحاصروها ، وبعد أن أحدثوا في حوائطها عدة ثغرات دخلوها ، وحينئذ لم يتركوا فيها شخصاً واحداً على قيد

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٨ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 231.

الحياة . على أن هذه الحامية الضعيفة دافعت عن نفسها بكل شجاعة أحد عشر يوماً وقتلت عدداً كبيراً من المغول ، كما قتلت عدداً كبيراً من السكان الذين استخدموا في الحصار (١) . ويظهر أن جنكيز خان ركب رأسه عند ما سقط عدد كبير من المغول صحايا في ساحة القتال ، فأمر جميع السكان أن يخرجوا من المدينة مجردين من أموالهم ، لا يحمل أحد منهم غير ملابسه التي يرتديها ، ثم دخل المغول المدينة فأعملوا فيها النهب وقتلوا من صادفهم من السكان . وقد وصف ابن الأثير يوم سقوط المدينة بقوله :

« وكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان ،
« وتفرقوا أيدي سباً ، وتمزقوا كل ممزق ، واقتسموا النساء أيضاً وأصبحت ،
« بخاراً (كذا في الأصل) خاوية على عروشها ، كأن لم تغن بالأمس .
« وألقوا النار في البلد والمدارس والمساجد وعذبوا الناس بأنواع العذاب ،
« من طلب المال ، (٢) .

وبما هو جدير بالذكر أن المغول أشعلوا النار في المدينة فاحترقت بأسرها إذ أن معظم مبانيها كانت من الخشب ؛ ولم يبق من مباني المدينة إلا تلك المبنية من الآجر ، وأخيراً نزح من بقي من أهلها إلى إقليم خراسان (٣) . وهكذا شرد المغول أهالي مدينة بخارى الذين اشتهروا بولعهم بالعلوم والفنون . وبما هو جدير بالذكر أن أحد سكان هذه المدينة لما وصل إلى إقليم خراسان ، أجمل ما أحدثه المغول في مدينته في هذه العبارة القصيرة التي عبر فيها تعبيراً صادقا عما حدث :

« أتوا فخرّبوا وأحرقوا وقتلوا ونهبوا ، ثم ذهبوا (٤) ،

They came, destroyed, burnt,
Murdered, robbed, and went.

وقد أصبحت مدينة بخارى أطلالا بالية واستمرت على هذا النحو حتى أخذ جنكيز خان نفسه في إصلاحها وإعادة بنائها ، قبل موته بزم من قصير (٥) .

وقد ترك جنكيز خان أنقاض مدينة بخارى وسار إلى مدينة سمرقند حاضرة إقليم ما وراء النهر ، وصحب معه عدداً كبيراً من الأسرى الذين أسرم من مدينة بخارى

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 231 — 232.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٨ .

(٤) Vambery : History of Bokhara, p. 130.

(٥) Abulgasi : Histoire Généalogique des Tatars, p. 266.

ليستعين بهم في حصار هذه المدينة الجديدة ؛ على أنه قتل منهم في الطريق عدداً كبيراً ، وخاصة هؤلاء الذين ظهر عليهم علامات التعب ولم يقروا على مواصلة السير^(١) .

لم تكتسب سمرقند شهرتها من أنها كانت حاضرة بلاد ما وراء النهر فحسب ، بل لأنها كانت في ذلك الوقت من أعظم مدن العالم التجارية ، وكانت محاطة بأسوار عليها أبراج للدفاع عنها ، ولها إثنا عشر باباً من الحديد . أما حامية الدفاع فكانت على ما ذكره الجويني^(٢) تتألف من ستين ألفاً من الأتراك وخمسين ألفاً من الفرس . ويرى ابن العبري^(٣) أن حامية المدينة كانت تتكون من أربعين ألف فارس . أما ابن الأثير^(٤) ، فقد ذكر أنها كانت تتألف من خمسين ألفاً . وبما هو جدير بالذكر أنه كان بالمدينة عشرون فيلاً أعدت للدفاع^(٥) . ومهما يكن عدد الحامية التي كانت بالمدينة فقد كانت الروح المعنوية التي ظهر بها الخوارزميون تذيب بسقوط المدينة في وقت سريع ، على الرغم من مناعة حصونها وقلعتها^(٦) .

سارت الجيوش المغولية بقيادة چنكيزخان كما قلنا لحصار هذه المدينة وانضم إليها كثير من رجال الفرق المغولية الثلاثة الأخرى وكانت قد أخضعت بلاد ما وراء النهر ، كما ضم المغول إلى جيوشهم عدداً كبيراً من الأسرى الذين يصلحون للخدمة العسكرية . وقد سار الفرسان (الخيالة) في مقدمة الجيش ، ولم يظهر المشاة والأسرى إلا في اليوم التالي . وقد قسم المغول الأسرى إلى فرق صغيرة وأعطوا كل عشرة منهم علماً ، فظن الخوارزميون أنهم أمام جيش مغولي لا قدرة لهم على الوقوف في وجهه ، وبذلك دب الذعر في نفوس المحاصرين^(٧) .

وقد قضى چنكيزخان اليومين الأولين في اختبار حصون المدينة ، وفي صباح اليوم الثالث أمر الأسرى من المسلمين وكذا جند المغول بالتقدم ، وفي هذه الفترة خرج جماعة من ذوى البأس من قلعة المدينة لمحاربة المغول ، ولكن هذا الجيش الخوارزمي حلت به

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٩ .

(٢) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion, p. 411.

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٩ .

(٥) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 79.

(٦) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 235.

(٧) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٩ .

الهزيمة ، وكان لذلك أكبر الأثر في إثارة مخاوف الجنود المحاصرين ، ولما كانت أكثرية الحامية الخوارزمية من القبائل التركية التي تقيم على حدود الدولة الخوارزمية الشمالية ، رأى هذا الفريق من الجند أن يستسلم للمغول ويعرض الصلح على أساس أنهم هم والمغول من أصل تركي واحد . فلما عرضوا هذه الفكرة على چنكيز خان ، وعد بإدخالهم في خدمته ، ومن ثم خرجوا من المدينة مع عائلاتهم وانضموا إلى المعسكر المغولي ، وفي اليوم الرابع للقتال ، خرج قاضي المدينة يتبعه كبار رجال الدين فيها ، وذهبوا إلى معسكر چنكيز خان ليعرضوا عليه تسليم المدينة بشرط أن يؤمنهم على حياتهم . وقد وعدهم چنكيز خان بإجابة رغبتهم ، وحينئذ فتحت الأبواب . على أن المغول كما قلنا كانوا لا يقدرون قيمة العهود والمواثيق ، لذلك لا نوجب إذا أمر چنكيز خان السكان — على عادته — بالخروج من المدينة ، وأعمل القتل في رقاب الذين لم يخرجوا . ولما دخل الجيش المغولي المدينة استولى على قلعتها ، وذبح عدداً كبيراً من السكان ، بعد أن اختار چنكيز خان عدداً كبيراً منهم أهداهم أولاده وحرّمه وقواده ، وبعد أن اختار عدداً كبيراً منهم للاتقاع بهم في الأعمال الحربية . وأخيراً سمح لخمس ألف من السكان بالعودة إلى المدينة بعد أن دفعوا مائة ألف قطعة ذهبية ^(١) . وقد قدر ابن العبري هذه الفدية بمائتي ألف دينار قام بجمعها إثنان من كبار رجال سمرقند ^(٢) . وهكذا تم استيلاء المغول على هذه المدينة في أوائل سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) .

وصف ابن الأثير ^(٣) ما أحدثه المغول في المدينة فقال :

« فلما كان اليوم الرابع ، نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن ،
« تأخر قتلوه ، فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ، ففعلوا مع ،
« أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارا (كذا في الأصل) من النهب ،
« والقتل والسبي والفساد ، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع ،
« وافتضوا الأبقار وعذبوا الناس بأنواع العذاب ،
« في طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبي . »

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 239 — 236.

هلا عن كتاب جهان كشاي لعلاء الدين الجويني ، وكتاب جامع التواريخ لرشيد الدين .

(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٩ .

ورغم ما حدث من تخريب في هذه المدينة فقد فرض چنكيزخان على أهلها جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار^(١) هذا فضلا عن أن چنكيزخان قاد إلى «قره قورم» حاضرة المغول ثلاثين ألفا من العمال والصناع من أهالي هذه المدينة ليعملوا هناك لحساب المغول . وقد اتبع المغول هذه السياسة التقليدية في كل بلد غزوه . وكان لذلك أثر كبير فيما أفاده المغول من حضارة المسلمين وصناعاتهم وفنونهم^(٢) .

ولكى ندرك ما حل بحاضرة بلاد ماوراء النهر إثر الغزو المغولي ، نورد ما ذكره شانج شون Chang Chun ، وهو أسقف صيني صاحب چنكيزخان في غزواته ، وكتب مؤلفا بالصينية عن هذه الرحلة . فقد ذكر أن مدينة سمرقند كانت قبل اكتساح الدولة الخوارزمية تضم أكثر من مائة ألف أسرة ، ولكن بعد استيلاء المغول على هذه المدينة لم يبق فيها سوى ربع عدد سكانها . كذلك ذكر أن كثيرين من العمال الصينيين انتشروا في هذه المدينة ، ورغم أن الممتلكات ظلت في أيدي المسلمين فإن إدارتها كانت تحت إشراف جيش الاحتلال المغولي^(٣) .

وهكذا استطاع چنكيزخان أن يجهز على كل بلاد ماوراء النهر التي اتخذ منها الخوارزميون مركزا هاما للدفاع . ومن أجل هذا وضع چنكيزخان خطته الحربية التي كفلت له القضاء على هذه البلاد دفعة واحدة ، ولم يترلا للخوارزميين فرصة لإصلاح شأنهم .

وبانهيار هذا الجزء الهام من الدولة الخوارزمية ، انهارت الخطوط الدفاعية التي اعتمد الخوارزميون عليها ، وسهل على المغول بعد ذلك ، الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية الباقية من غير عناء .

Abulgasi : Histoire Oénéalogique des Tatars, p. 278. (١)

Cahun, M.L. : Gengis - Khan et L'Empire Mongol, p. 944. (٢)

(Lavisse et Rambout : Histoire générale, tom. ii.)

Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, (٣)
vol. i. p. 35 & 78.

ويلاحظ أن المؤلف الذي كتبه « شانج شون » والذي يسمى Si yu ki عبارة عن يوميات هذا الأسقف التي كتبها في أثناء هذه الرحلة ، كما يلاحظ أنه لم يهتم بالكتابة عن الناحية التاريخية بقدر اهتمامه بالكتابة عن جغرافية البلاد التي مر بها .

٤ - خضوع الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية

لما وصل چنكيزخان إلى سمرقند على ما ذكرنا ، أرسل جيشين في إثر علاء الدين خوارزم شاه ، يتكون كل منهما من ألف فارس ويقودهما قائدان من أمهر قواده يدعى أحدهما شي Tchébé والثاني سوبوتاي Souboutai . وقد أمرهما چنكيزخان بالسير رأساً في إثر علاء الدين ، فإذا وجداه على رأس جيش كبير فليجنبنا الاصطدام بجيوشه انتظاراً لوصول المدد من الجيوش المغولية ؛ أما إذا ركن علاء الدين إلى الفرار فيجب عليهما أن يتبعاه بلا تردد . وقد أخذ هذان القائدان يبحثان عن السلطان الهارب ، واستوليا عن المدن التي صادفاهما في الطريق ، وخربا المدن التي قاومت ، وأبقيا على تلك التي لم تقاوم ^(١) .

وبينما كان المغول يكتسحون بلاد ما وراء النهر ، صمم علاء الدين على الابتعاد عن مسرح السياسة والحرب معاً ، وكان يبدو عليه اليأس الذي ما لبث أن تسرب إلى رجاله . وقد بدأ رحلته في طريقه إلى الهرب من مدينة سمرقند وعول على الرحيل إلى الأقاليم الغربية من بلاده . وفي ذلك الوقت عقد مجلساً من وزرائه وكبار قواده للتشاور فيما يفعله الخوارزميون لمواجهة الموقف ، فانقسم المجتتمعون في الرأي ، فريق منهم يرى أنه لم يعد هناك من الوقت ما يتسع لحماية بلاد ما وراء النهر ويجب على الخوارزميين أن يركزوا جهودهم لحماية الأقاليم الواقعة غربي نهر جيحون ، وفريق آخر يرى وجوب انسحاب علاء الدين إلى غزنة ، وهناك يجمع جيوشه المتفرقة ويواجه بها القوات المغولية ، وإذا حلت الهزيمة بالجيش الخوارزمي تمكن من الانسحاب إلى بلاد الهند . وقد فضل علاء الدين الرأي الثاني وسار في طريقه إلى غزنة ، ولكن حدث وهو في مدينة بلخ ما دفعه إلى تغيير خطته والاتجاه نحو العراق العجمي ، فقد التقى في هذه المدينة بالوزير « عماد الملك » الذي أوحى إليه بالعدول عن الذهاب إلى غزنة والاتجاه نحو العراق العجمي ، فقبل السلطان مشورته ^(٢) . وبما هو جدير بالذكر أن

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 240.

(٢) كان « عماد الملك » وزيراً لركن الدين بن السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، الذي كان يحكم =

فريقاً من جيش علاء الدين تأمر في ذلك الوقت على قتله ليلاً ، فلما علم السلطان الخوارزمي بهذا النبأ ، أسرع فغير خيمته في الليل ، ومن الغريب أنه وجد في الصباح أن تلك الخيمة التي تركها ليلاً قد رشقها أعداؤه بالسهام^(١) .

وصل علاء الدين إلى نيسابور ، إحدى مدن خراسان ، وبعد أن قضى هناك بعض الوقت ، علم أن المغول قد عبروا نهر جيحون وأنهم يجردون في البحث عنه ، ولذلك بادر إلى مغادرة المدينة ويم شطر العراق العجمي . وما هو جدير بالذكر أن المغول عبروا نهر جيحون بطريقة طريفة ، إذ أنهم لما اقتربوا من النهر ، لم يجردوا هناك سفناً تصلح للعبور ، فصنعوا أحواضاً من الخشب ، وكسوها بجلود البقر لئلا يتسرب الماء إليها ، ثم وضعوا فيها أسلحتهم وأمتعتهم وألقوا بنحيولهم في الماء وتعلقوا بأذنانها بعد أن شدوا تلك الأحواض إلى أجسادهم فكان الفرس يجذب الرجل ، والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره ، فعبروا كلهم دفعة واحدة^(٢) .

سار المغول إلى نيسابور ، وأرسلوا رسلهم إلى المدن التي صادفتهم يعلنون قدوم جنكيزخان بجيشه العظيم ويطلبون منها التسليم ، ويتوعدون من يرفض الإذعان لمشيئتهم من حكامها ، فإذا خضعت مدينة ما ، عين المغول عليها حاكماً من قبلهم . ويلاحظ أن المغول أخضعوا المدن الصغيرة التي أبت التسليم وخربوها ، أما المدن الكبيرة الحصينة التي رفضت التسليم فإنهم تركوها إلى حين ، إذ أن مهمتهم الأصلية كانت تنحصر في مطاردة السلطان علاء الدين خوارزم شاه والقبض عليه .

ولما استولى المغول على نيسابور ، تابعوا السير للحاق بعلاء الدين ، واستطاع القائدان شي وسوبوتاي أن يستوليا على ما صادفهما من البلاد ، حتى وصلا إلى العراق العجمي ، واستوليا على مدينة الري كما ستفصله . وكان لنبأ سقوط هذه المدينة وقع أليم في نفوس الخوارزميين ، فقد أيقن الأمراء وقواد الجيوش أنه لا فائدة

إقليم العراق العجمي من قبل أيه . فلما وجد حرج مركز أيه أرسل إليه وزيره ليستفيد من خبرته في ذلك الوقت العصيب . ولما كان إقليم العراق العجمي هو الموطن الأصلي لهذا الوزير وبه أسرته وأولاده ، رعب ألا يبتعد عنه واستطاع أن يفري علاء الدين بتغيير خطته ، وأن يتجه إلى العراق العجمي ، وأوهمه أنه سيجد هناك المال والرجال الذين يساعدهونه على صد المغول .

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 243.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧٠ .

من الدفاع ، وأخذ كل منهم يفكر في الطريق الذي ينجيه من الهلاك ، وانصرف كل إلى شأنه ؛ وهكذا تفرقت بقايا الجيش الخوارزمي واستولى الفزع على نفوس الجميع (١) . وقد فكر علاء الدين في الرحيل إلى بغداد عليه يحد مخرجا من هذا المأزق عند الخليفة العباسي ، الذي كان عدوه بالأمس القريب ، غير أنه اضطر إلى العدول عن هذه الفكرة عندما علم أن المغول يتابعونه ، وأن الفرصة ضاعت ، ولم تعد تسنح له بتحقيق هذه الخطة (٢) ؛ لذلك سار إلى إقليم « مازندران » جنوبي بحر قزوين ووصل وحيدا معدما ، ولكنه كان موضع احترام أمراء هذه الجهات . ولما سأل علاء الدين خوارزم شاه عن قلعة أمينة يمكنه أن يحتجى فيها ، أشاروا عليه بالالتجاء إلى إحدى الجزر في بحر قزوين لا تبعد كثيرا عن ساحل مازندران .

وقد رأى علاء الدين أن يعمل بهذه النصيحة ، وانتظر عدة أيام في إحدى القرى الواقعة على ساحل البحر ، ولكن المغول لم يلبثوا أن هجموا عليها فركب إحدى السفن وتوارى عن الساحل وبذلك تخلص من الخطر . وقد أراد بعض الخيالة المغول أن يلحقوا به ، ورموا بأنفسهم في الماء فابتلعهم الأمواج .

وقد وصف النسوي (٣) حالة علاء الدين وهو في هذه السفينة في العبارة الآتية :

« حدثني غير واحد ممن كانوا مع السلطان في المركب ، قالوا : كنا ،
« نسوق المركب وبالسلطان من علة ذات الجنب ما أيسه من الحياة ،
« (جعله يئس من الحياة) ، وهو يظهر إلا كتاب ضجيرا ويقول :
« لم يبق لنا مما ملكناه من الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر ، فما الدنيا
« لساكنها بدار لا ركونه إليها سوى انخداع واغترار ، ما هي إلا ،
« رباط يدخل من باب ويخرج من باب ، فاعتبروا يا أولي الألباب . »

وقد وصل علاء الدين أخيرا إلى إحدى الجزر الصغيرة طلبا للأمان ، وأقام في إحدى الخيام . على أن الأهالي الذين يقيمون على شاطئ مازندران كانوا يأتونه بما يلزمه من ما كل وما يحتاجه من ضرورات الحياة ؛ وفي نظير ذلك كان السلطان يوصي

(١) Curtin : The Mongols' History, p. 116.

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 251 — 252.

(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٤٦ — ٤٧ .

ياقطاعهم الإقطاعات . ولما استعاد جلال الدين منكبرتي أملاك أبيه بعد بضعة سنين ،
أقر هذه الإقطاعات لأصحابها . ونلاحظ أن كل من كان معه علامة من علاء الدين ،
كان جلال الدين منكبرتي يقطعه إقطاعاً .

لما أحس علاء الدين أن المرض يشتد عليه يوماً بعد يوم ، وأن أمه تركان خاتون
قد وقعت أسيرة في أيدي المغول ، استدعى أبناءه جلال الدين منكبرتي وأزلاغ شاه
وأق شاه ، ووكل أمور دولته إلى ابنه جلال الدين ، بعد أن أعلن أنه هو الوحيد
الذي يستطيع حماية الدولة الخوارزمية . وما قاله لأبنائه ، هذه العبارة التي
ذكرها النسوي : (١)

« إن عرى السلطنة قد انقضت ، والدولة قد وهنت قواعدها ،
« وتهدمت ، وهذا العدو قد تأكدت أسبابه ، وتشبثت بالملك أظفاره ،
« وتعلقت أنيابه ، وليس يأخذ بثأري منه إلا ولدي منكبرتي ، وها أنا ،
« موليه العهد ، فعليكم بطاعته . »

وبعد أن قضى علاء الدين في هذه الجزيرة شهراً ، قضى نحبه ودفن فيها (٢) ،
(سنة ٨٦١٧ = ١٢٢١ م) . وما يؤسف له أن أتباعه عجزوا عن إيجاد كفن يكفونه
به حتى أن شمس الدين عمود - وكان من المقربين إليه - خلع قميصه وكفنه به (٣) ؛
ويروى السيوطي أنه كفن بشاش فرائش كان معه (٤) . وقد وصف ابن الوردي (٥) حالة
السلطان علاء الدين خوارزم شاه في أواخر أيامه فقال :

وفارق المسكين أوطانه وملكه ممتحن بالمرض
وكم حوى من جوهر مثنى فما فدى الجوهر هذا العرض
وقد ذكر النسوي الذي عاصر هذه الحوادث ، وخدم في بيوتات الخوارزميين ،

(١) . النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٩٥ .

(٢) Bretschneider : *Medieval Researches From Eastern Asiatic Sources*,
vol. i. p. 288.

(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٤٨ .

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١١٣ .

(٥) ابن الوردي : تمة المختصر في أخبار البشر ، ص ١٥٥ .

بعض أبيات تصوّر حال علاء الدين في أيام سطوته الأولى وحاله بعد أن مالت به
الأيام أبدع تصوير^(١) :

أذل الملوك وصاد القروم	وصير كل عزيز ذليلاً
وحف الملوك به خاضعين	وزفوا إليه رعيلاً رعيلاً
فلما تمكن من أمره	وصارت له الأرض إلا قليلاً
وأوهمه العز أن الزمان	إذا رآه ارتد عنه كليلاً
أتته المنية مغتاضة	وسلت عليه حساماً صقيلاً
فلم تغن عنه حماة الرجال	ولم يجد قيل عليه فقيلاً
كذلك يفعل بالشامتين	ويغنيهم الدهر جيلاً بجيلاً

أما عن القائدين شي وسوبوتاي الذين كانا يقتفیان أثر علاء الدين خوارزم شاه
حتى أوصلاه إلى هذا المصير ، فإنهما استوليا على كل ما كان يحمله السلطان من كنوز
وأحجار كريمة وآنية فضية وبعثا بها إلى چنكيزخان^(٢) كما نجد أنهما استوليا على
ما مرا به من الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية أثناء مطاردتهما للسلطان . وقد
استولى هذان القائدان على مازندران جنوبي بحر قزوين سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ،
رغم مناعة هذا الإقليم وقوة قلاعها . ولما كان استيلاء المغول على هذا الإقليم قد حدث
في الفترة التي كانوا يواصلون البحث فيها عن ذلك السلطان الهارب ، فإنهم صبوا جام
غضبهم على كل ما امتدت إليه أيديهم ، فقتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا كل ما
صادفهم فيه^(٣) .

وبعد أن سيطر المغول على هذا الجزء من الدولة الخوارزمية ، ساروا إلى مدينة
«الري» ، إذ تزامى إلى مسامعهم أن السلطان يقيم في هذا الجزء الغربي من الدولة . وفي
الطريق عثروا صدقة على تتركان خاتون والدة السلطان التي أرادت أن تعتصم في العراق

(١) الذنوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٤٨ .

(القوم جمع قوم وهو السيد العظيم في قومه . وكليلاً = ضعيفاً) .

Bretschneider : Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources, (٢)
vol. i. p. 288.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧٠ .

العجمي فأسروها ، ووضعوا أيديهم على ما معها من نفائس وكنوز وجواهر ، وبعثوا بهذا كله مع أسيرتهم إلى چنكيزخان ^(١) .

وصل المغول إلى مدينة الري ، وكانت الحالة الداخلية فيها خير معين لهم على الاستيلاء عليها ، فقد اختلف أصحاب المذاهب الإسلامية الأربعة في تفسير بعض نصوص القرآن ، وانضم أصحاب المذهبين الحنفي والشافعي بعضهما إلى بعض ووقفوا في وجه أصحاب المذهبين الآخرين . وقد أراد قاضي القضاة الشافعي أن ينتقم من خصومه ، ففتح بابين من أبواب المدينة للمغول فدخلوها ، وقتلوا أعداء قاضي القضاة الذين كانوا يكوّنون نصف عدد سكان المدينة ، فلما فرغوا من مهمتهم تحولوا إلى أصحاب المذهبين المناصرين لهم ، فقتلهم جميعاً بعد أن أعلنوا أنهم لا يستطيعون التعاون مع من خابوا إخوانهم في الدين ^(٢) . وكان لسقوط مدينة الري أثر كبير في تفرق الجيوش الخوارزمية ونرى أن اليأس قد استولى على علماء الدين خوارزم شاه الذي كان حتى ذلك الوقت يفكر في المقاومة ، ولكن بعد سقوط هذه المدينة أخذ يفكر في الهرب والخلص ، على ما ذكرنا .

سار المغول بعد ذلك إلى «همدان» ، فلما اقتربوا منها خرج حاكمها يعرض عليهم الصلح وحمّلهم بالهدايا النفيسة من الأموال والثياب والدواب ، فأمنت المدينة من التخريب ^(٣) . ثم اتجه المغول إلى مدينة «قزوین» ، حيث دافع الأهالي عن أنفسهم في الطرقات . وقد قتل عدد كبير من الفريقين ، على أن عدد القتلى من أهل المدينة زاد على أربعين ألفاً ^(٤) .

وهكذا وضع المغول أيديهم على العراق العجمي بعد أن استولوا على أهم مدنه . وعلى الرغم من أن هذين القائدین لم يهتما أول الأمر بالاستيلاء على بعض هذه المدن ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧١ — ١٧٢ . وقد اختلف المؤرخون في المكان الذي كان فيه چنكيزخان عندما وصلته ترکان خاتون ، فيقول ابن الأثير إنه كان في سمرقند ، فيما يقول دوسون إنه كان يحاصر «الطالقان» ، وهي إحدى مدن أعالي نهر جيحون ، عندما وصلت ترکان خاتون إليه .

(٢) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 93.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧٤ .

(٤) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 325.

فإن حالة الذعر التي استولت على نفوس الخوارزميين في هذه الجهات ، سهلت على المغول الاستيلاء على مدن هذا الإقليم الواحدة تلو الأخرى . على أنه بالرغم مما حل بهذا الإقليم من دمار ، وعلى الرغم من كثرة عدد القتلى في كثير من المدن كالري وهمدان ، فإننا نلاحظ أن هذا الإقليم كان أسعد حظا من سائر أقاليم الدولة الخوارزمية ، إذ أن الخراب هنا كان أقل نسييا من الخراب الذي حل بإقليم خراسان مثلا ، وربما يرجع ذلك إلى قلة عدد الجيوش التي سارت إلى هذه الجهات ، أو ربما يرجع إلى أن القائدين المغوليين كان هدفهما الأول القبض على السلطان الخوارزمي . وبما يدل على صحة ما نقول أن ما حل بأقاليم أذربيجان وأران وجورجيا ، وهي الأقاليم التي استولى عليها المغول بعد موت السلطان علاء الدين في بحر قزوين ، كان أكثر عنفا مما حل بإقليم العراق العجمي ، إذ انحصر غرض المغول هنا في الاستيلاء على هذه الأقاليم دون أن يكون لهم هدف آخر .

وقد اتفق القائدان المغوليان ، شي وسوبوتاي في سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) على الخطط الحربية لغزو أتابكية أذربيجان التي يفصلها نهر دكور ، عن إقليم أران في ناحية الشمال ، وكان هذان الإقليمان تحت حكم الأتابك أوزبك بن البهلوان ، الذي كان طاعنا في السن ، يقضى أكثر وقته في مجالس الشراب ، ولا يفيق من نشوة الخمر ليلا ونهارا ؛ لذلك لا نعجب إذا رأيناه يفضل مسالمة أعدائه المغول الذين صالحوه بعد أن غمرهم بهداياه من مال وثياب ودواب^(١) . وقد دخل المغول مدينة تبريز عاصمة أذربيجان ، وقبل أوزبك أن يكون تابعاهم ؛ على أن هذه التبعية لم تكن شيئا جديداً على هذا الأتابك ، فقد خضع من قبل للخوارزميين وأجزل لهم العطاء ودفع لهم ضريبة سنوية مقررة ، وكل ما حدث أنه أبدل تبعية بتبعية أخرى ، وإن كانت التبعية الثانية أسوأ من الأولى .

وكان الشتاء قد حل عند ما اكتسح المغول هذا الإقليم ، لذلك رحلوا إلى سهول دوقان ، على الساحل الغربي لبحر قزوين ، حيث كان الجوأكثر اعتدالا . ويظهر أن

Defremery : Fragments de Géographes et d'Historiens Arabes et (١)

Persans Inédite, p. 448.

(Journal Asiatique, Novembre — Décembre 1849.)

المغول اندفعوا في ذلك الوقت إلى حدود جورجيا ، واستطاعوا أن يهزموا جيوشها التي كانت تتألف من عشرة آلاف رجل ، غير أنهم عادوا وفضلوا الانتظار إلى أن يتقضى فصل الشتاء ^(١) . وقد وجد حكام جورجيا أن الدائرة لا بد دائرة عليهم إذا ما جاء الربيع ، لذلك فكروا في المقاومة ، على أنهم لما وجدوا أنه لا قدرة لهم على مواجهة المغول منفردين ، سعوا إلى عقد حلف بينهم وبين أتابكية أذربيجان ويضم الأشرف بن الملك العادل صاحب مدينة خلاط وبلاد الجزيرة ، واتفق الجميع على مهاجمة المغول في الربيع ، ظناً منهم أنهم سيركنون إلى الهدوء طيلة فترة الشتاء .

والظاهر أن الجيوش المغولية تنهت إلى ما يحاك حولها من دسائس ، فلم تنتظر حتى يحين فصل الربيع وسارعت إلى مباغته هذه القوى الثلاث . وكانت طلائع الجيوش المغولية تتكون من الجيوش المرتزقة من التركمان والأكراد من أهالي هذه الجهات الذين انضموا تحت لواء المغول ، لمهاجمة شعب مسيحي سبب لهم الخسائر في كثير من الأحيان ، هذا فضلاً عن أنهم منوا أنفسهم بالاستيلاء على ثروة طائلة في إقليم جورجيا . وكان يقود هذه الجيوش المرتزقة « أقوش » ، وهو مملوك تركي من عماليك أوزبك أثر الانضواء تحت الراية المغولية . وقد توغلت هذه الجيوش التي كانت تتألف من المرتزقة في جورجيا دون أن تلقى مقاومة تذكر حتى وصلت إلى مدينة تفليس حاضرة هذا الإقليم ، وقد قتل عدد كبير من جند « أقوش » ، في بادية الأمر ، وإذا كان أقوش قد أفلح في شيء فقد أفلح في إنهاك قوى الجيوش الجورجية التي تمكن المغول من إبادتها فيما بعد ^(٢) . وفي سنة سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) توجه المغول إلى أذربيجان للمرة الثانية انتقاماً من أهلها لمؤازرتهم ذلك الحلف الذي كان يهدف إلى القضاء عليهم . ولما وصل المغول إلى حاضرتهم تبريز ، سارع الأهالي إلى التسليم وتعهدوا بدفع جزية كبيرة . ثم توجهت الجيوش المغولية إلى مدينة « مراغة » إحدى أمهات مدن أذربيجان ، وكانت تحت

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 326.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧٢ — ١٧٣ . و

Defremery : Fragments de Géographes et d'Historiens Arabes et Persans Inédits, pp. 448 — 449.

(Journal Asiatique, Novembre — Décembre 1849.)

حكم إحدى الأميرات التي عازمت على مقاومة المغول ؛ وكما هي عادة المغول في حروبهم وضعوا الأسرى في الصفوف الأولى وأمرهم بالهجوم ، وبعد فترة قصيرة سقط ذلك المكان . ولما كانت عادة المغول أن يقتلوا جميع السكان في المدن التي يفتحونها ، فإنهم لما وجدوا أن عدداً كبيراً منهم قد اختفى في داخل دروب المدينة ، لجأوا إلى حيلة طريفة لإخراجهم ، فأمرهم بعض الأسرى بأن ينادوا في شوارع المدينة ويعلنوا رحيل المغول ، فاطمأن السكان الذين اختفوا في الدروب وخرجوا من مخابثهم ، فقبض عليهم المغول وقتلهم عن آخرهم .

وما يروى في هذا المقام أن امرأة مغولية دخلت إحدى الدور في هذه المدينة وقتلت بعض من فيها من السكان ، الذين لم يستطيعوا المقاومة ظناً منهم أنها رجل مغولي ، فلما كشف أمرها قتلها أحد أسراها . وما يدل على أن اسم المغول أصبح يشير الرعب في نفوس الأهلين ، وأن رؤية المغولي كانت كفيلة بأن تشل حركة السكان المغلوبين على أمرهم ، تلك القصة التي سمعها ابن الأثير بنفسه ورواها ، ذلك أن رجلاً مغولياً دخل أحد دروب المدينة وفيه مائة رجل فأخذ يقتلهم الواحد تلو الآخر دون أن يفكر أحدهم في المقاومة ، وظل هكذا حتى أفتاهم عن آخرهم ^(١) . وعلى الرغم من أن هذه القصة وغيرها من القصص التي رويت في هذه الأثناء لا تخلو من المبالغة ، إلا أنها تعبر تماماً عما كان يعانيه المسلمون في هذه الفترة من خوف وذعر .

توجهت الجيوش المغولية بعد ذلك إلى أتابكية إربل ، وقد أثار ذلك قلق الأمراء الأتابكة هناك ، بل أثار قلق الخليفة العباسي نفسه . وكان هذا الإقليم جبلياً وعراً ، لذلك خشي أمراء المسلمين ومعهم الخليفة أن يتحول عنه المغول إلى العراق العربي ، لذلك نرى الخليفة ينادى بضرورة عقد حلف إسلامي يقف في وجه المغول ، كما نراه يستنجد بأمراء إربل والموصل والجزيرة . وقد أرسل كل من أميرى إربل والموصل ما جمعه من جيوش إلى مدينة « دقوقا » إحدى مدن أتابكية إربل ، واعتذر الملك الأشرف صاحب بلاد الجزيرة بأن جنده قد رحلوا إلى مصر لنجدة أخيه الكامل ومساعدته في حروبه مع الصليبيين الذين كانوا قد استولوا على مدينة دمياط أما الخليفة

(١) اس الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٢٥ - ١١٥ .

فقد أمده هذه الجيوش بثلاثمائة فارس ، ولهم كل ما أمكنه جمعه من الرجال . ولما تجمعت هذه الجيوش في مدينة دقوقا ، وجد قائدها أمير إربل أنها لا تكفي لمواجهة الجيش المغولي فاعتذر عن المسير لملاقاة أعدائه . وكان من حسن حظ المسلمين أن ظن المغول أنهم أمام حلف قوى لا يستطيعون الوقوف في وجهه ، فلم يتجاسروا على السير لمواجهة الجيوش الإسلامية المتجمعة ، ورحلوا إلى العراق العجمي ، وكان من أثر ذلك أن تفرقت الجيوش الإسلامية وعادت إلى أوطانها (١) .

قضى المغول الفترة التالية متنقلين بين المدن الإسلامية المختلفة في العراق العجمي وأذربيجان وأران وجورجيا ، مدمرين وتخريين ما بقي من مدنها ، حاملين ما يستطيعون حمله من خيراتها ، ثم عبر شي وسويوتاي المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى بلاد القفجاق وروسيا ، وسار المغول بقيادة هذين القائدين إلى بلغاريا وأوصلوا الرعب إلى أقصى حدود أوروبا (٢) مما لا يدخل في نطاق موضوعنا .

هـ — المغول في إقليم خوارزم

كان إقليم خوارزم من الأقاليم التي تسيطر عليها ترکان خانون أم السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، فقد كان نفوذها في هذا الإقليم يفوق نفوذ السلطان نفسه ، وذلك بفضل أتباعها المخلصين من قبيلة كانكالي ، التي تسكن السهول الواقعة شمال خوارزم وشمال شرقي بحر قزوين (٣) .

وبرغم هذا الشقاق الذي قام بين علاء الدين وأمه ، فإنه لما رأى الخطر ماثلا أمام عينيه ، أرسل إليها في خوارزم يطلب منها أن تتقهقر هي وحاشيتها إلى إقليم مازندران ، جنوبي بحر قزوين ، حرصا على حياتها . كما نرى چنكيزخان يرسل إليها ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 331 — 4.

(٣) تزوج السلطان علاء الدين تكش خوارزم شاه من ترکان التي تنتسب إلى قبيلة «كانكالي» التي تسكن شمال إقليم خوارزم ، فأنجبت له علاء الدين محمد . وكان من أثر هذه المصاهرة أن نزع عدد كبير من كبار رجال هذه القبيلة إلى الدولة الخوارزمية نفسها ، وتكونت من هؤلاء قوة كبيرة ، أصبحت تناهض قوة السلطان نفسه . السوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٤٢ .

لوحة ٩



منظر لهجوم الفرسان المغول في مخطوط من مخطوطات الشاهنامه يرجع إلى
القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)
ومحفوظ في متحف اللوفر .

(عن كتاب التصوير في الإسلام عند الفرس للدكتور زكي محمد حسن)

عندما سمع بذلك الشقاق الذي قام بين علاء الدين وأمه ، يستميلها إلى جانبه ووعدا بأن يترك لها ما بيدها من أملاك بعد أن يتم فتوحاته ؛ على أن السلطنة لم تهتم بما جاء في هذه الرسالة^(١) .

ولما هلبت ترکان خاتون^(٢) بتقهقر السلطان علاء الدين محمد ، عازمت في أواخر سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م)^(٣) على مغادرة إقليم خوارزم مع وصيفاتها ، ومع أبناء علاء الدين ، وحملت معها كل ما يمكن حمله من كنوز ؛ وقبل أن ترحل ارتسكت عملا بربريا فاحشا ذلك أنها أمرت بقتل أولئك الأمراء الذين كان علاء الدين قد استولى على أملاكهم والذين كانوا في سجون خوارزم ، فقتلت أبناء طغرل بك آخر سلاطين السلاجقة في العراق ، وأمراء بلخ وترمذ وباميان ، وأبني آخر ملوك الدولة الغورية ، وكثيرين من الأمراء الآخرين^(٤) .

رحلت ترکان خاتون من إقليم خوارزم بغية الالتجاء إلى العراق العجمي^(٥) ، ثم اعتصمت وهي في الطريق بإحدى قلاع مازندران الحصينة . وقد استولى القائد المغولي « سوبوتاي » في أثناء مطاردته علاء الدين خوارزم شاه على هذه القلعة ، التي سلمت بعد ثلاثة أشهر حين نفذ ما ادخره المحاصرون من مياه للشرب . والمهم أن ترکان خاتون وقعت أسيرة في أيدي المغول الذين قادوها هي وحاشيتها وأبناء علاء الدين إلى معسكر چنكيزخان . وقد ظلت ترکان خاتون أسيرة في أيدي المغول حتى رحلوا إلى بلادهم ومحبوبها معهم إلى هناك ، حيث ماتت سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٣ م) . أما أبناء علاء الدين الصغار فقد قتلهم چنكيزخان رغم حداثة سنهم ، كما أعطى ابنه چغتاي اثنتين من بنات علاء الدين فتزوج واحدة ، وأعطى الثانية لأحد رجاله المقربين ، كما أعطى چنكيزخان ابنة ثالثة من بنات علاء الدين لحاجبه دانشمند Danishmend^(٦) .

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 258.

(٢) يلاحظ أن لفظ « خاتون » لفظ تركي معناه الزوجة وجمعه خواتين .

(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٨ .

(٤) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 258 — 259.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧١ — ١٧٢ .

(٦) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 260.

وهكذا خلا إقليم خوارزم من الأحكام الخوارزميين ، وبات ينتظر مصيره المحترم على أيدي المغول .

بعد وفاة علاء الدين في هذه الجزيرة المنعزلة في بحر قزوين على نحو ما رأينا ، عبر أولاده الثلاثة ، جلال الدين منكبرتي ، وأزلاخ شاه ، وأق شاه ، عبروا البحر إلى إقليم خوارزم حيث استقبلوا بمظاهر الفرح والسرور ، إذ كانت حاضرة هذا الإقليم في فوضى مستمرة منذ غادرتها ترکان خاتون التي انشغلت بنفسها ، وفاتها أن تعين حاكما على هذا الإقليم . وقد وصف النسوي وصول جلال الدين منكبرتي وأخويه إلى إقليم خوارزم في عبارة نوردها في هذا المقام :

« لما اندرج السلطان إلى رحمة الله ودفن بالجزيرة ، ركب جلال الدين ،
البحر إلى خوارزم بأخويه المذكورين (أزلاخ شاه وأق شاه) ،
« وتباشر الناس بقدمهم تباشر من أعضل داؤه فظفر ،
« بدوائه واجتمعت عندهم من العساكر السلطانية
« زهاء سبعة آلاف فارس (١) » .

وعلى الرغم من أن جلال الدين منكبرتي وأخويه استطاعوا أن يجمعوا جيشاً كبيراً لمواجهة المغول ، فقد كان من سوء حظ الخوارزميين أن هذا الجيش كان يتكون من تلك القبائل التركية التي تنتمي إليها ترکان خاتون والتي لم ترض عن تولي جلال الدين منكبرتي الحكم بعد أبيه (٢) . وقد أراد جلال الدين أن يخضع هذه الجيوش الشائرة بالقوة فتآمروا على قتله . ولم يجد جلال الدين مخرجاً إلا الفرار والنجاة بنفسه من الهلاك ، ففر إلى خراسان يصحبه ثلاثمائة فارس تحت إمرة « تيمور ملك » حاكم مدينة خوجندة ، وكان قد فر إلى إقليم خوارزم بعد غزو المغول مدينته كما رأينا .

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٥٦ .

(٢) كان علاء الدين خوارزم شاه قد اضطر أن يوصي لابنه أزلاخ شاه بالحكم من بعده تحت تأثير ترکان خاتون ، متخطياً في ذلك ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي . غير أن علاء الدين عاد وهو على فراش الموت فنقض العهد الذي أعطاه لابنه المفسير وأوصى بالحكم لجلال الدين بعد تأكيد أنه هو الوحيد الذي يستطيع حماية الدولة الخوارزمية . وطبيعي أن يشير هذا حفيظة الجيوش الخوارزمية من قبيلة كاسكالي التي تنتمي إليها ترکان خاتون ، والتي كانت تؤيد الابن الأصغر أزلاخ شاه .

وقد عبر جلال الدين هذه الصحراء التي تفصل إقليم خوارزم عن خراسان ، في ستة عشر يوماً ، وصل بعدها إلى الأراضى القريبة من مدينة « نسا » (١) .

أما الجند المتآمرون فقد بقوا في خوارزم بعد رحيل جلال الدين عنها ، ولكنهم لما لبثوا أن رحلوا أيضاً إلى خراسان بعد أن سار إليهم المغول . ورحيل جلال الدين منكبرتي من إقليم خوارزم ، ضاع آخر أمل في إنقاذ هذا الإقليم ، إذ لم يعد هناك من قوة تستطيع أن تقف في وجه التيار المغولي .

وكان في قدوم أولاد علاء الدين خوارزم شاه مدينة خوارزم وجمعهم الجيوش الكثيرة فيها ، ما استلغمت نظر چنگيزخان ، فسير إلى هذه المدينة جيشاً تحت قيادة أبنائه يورغي وچغتاي وأجتاي الذين كانوا قد أقموا فتح بلاد ماوراء النهر بالاشتراك مع جيوش چنگيزخان . ولكي يحاصر چنگيزخان أبناء علاء الدين من كل جهة أمر جيوشه في خراسان بأن تقف على الجيود الجنوبية للصحراء التي تفصل خوارزم عن خراسان (٢) . وقد هبكر سبعمائة فارس بالقرب من مدينة « نسا » وكان ذلك عند ما قدم جلال الدين منكبرتي إليها ، فأدى هذا إلى اشتباكه بالمغول ودحا من الوقت ثم فر إلى نيسابور .

لما أرلأخ شاه وائق شاه فكانا أسوأ حظاً من أخيهما جلال الدين منكبرتي ، إذ أنهما لما فرأ إلى خراسان ، لحق بهما المغول بالقرب من مدينة « نسا » ، ولما أرادا الاشتباك معهم حلت بهما الهزيمة ثم وقعا في الأسر . وقد قطع المغول رأسيهما ورشقوهما في سهمين ثم طافوا بهما في أنحاء هذه المقاطعة ، إيماناً في السخرية بالخرارزميين ، وإرهاها للأهالي المتعريدين .

وفي هذه الأثناء (ذي القعدة سنة ٦١٧ هـ = مايو سنة ١٢٢٠ م) ، كان الجيش المغولي يتقدم نحو مدينة خوارزم (٣) ، حاضرة الإقليم المسمى بهذا الاسم ، وتقع على

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 262.

هنا من كتاب جهان كشاي مؤلفه علاء الدين عماد ملك الجويني .

(٢) كان چنگيزخان في مدينة مرقند عندما بعث بمبعثين أحدهما إلى خوارزم والآخر إلى خراسان .

ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٨١-١٨٢ .

(٣) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 88.

مقرنة من مصب نهر جيحون في إقليم صحراوي ، إذ لا نجد فيها عدا هذه المدينة وما يحيط بها من مدن صغيرة وقرى متناثرة ، إلا أراض صحراوية .

وكانت الجيوش المغولية تحت قيادة چوچی وأجتابی من أبناء چنكيزخان كما ذكرنا ، ولسكن القيادة العليا كانت في يد چوچی أكبر أبنائه ، وهكذا كان المغول أقوياء بروحهم المعنوية وبرجالهم وبمؤازرة چنكيزخان لهم . أما الجيوش الخوارزمية فكانت لا ضابط لها وخاصة بعد أن فر جلال الدين منكبرتي وأخواه ، كما كانت أكثرية هذه الجيوش من قبيلة كانكالي التركية ، وهي لا تعدو أن تكون من الجيوش المرتزقة التي لا يهتمها في كثير أو قليل أن تدافع عن الأراضي الخوارزمية .

وصل القواد الثلاثة إلى المدينة وطلبوا من أهلها التسليم ووعدوهم حسن المعاملة ، وأعلنهم چوچی أن أباه أعطاه إقليم خوارزم ليحكمه وأنه حريص على أن يبق حاضرة هذا الإقليم من التخريب ، كما أخبرهم أنه حذر جنوده ألا يمسسوا هذا الإقليم بأذى^(١) . هذا إلى أن السلطان المتوفى علاء الدين خوارزم شاه كان قد أرسل إلى أهالي هذه المدينة ، على أثر بقمقره وفراره ينصحهم بالتسليم وعدم المقاومة ، صدنا لأرواحهم ، وقد جاء في رسالته لهم ما يأتي :

« إن لأهل خوارزم علينا وعلى سلفنا من الحقوق المتلاحقة ،
« والسوالف الحاضرة والسابقة ما يوجب علينا النصح لهم ،
« والإشفاق عليهم ، وهذا العدو عدو غالب فعليكم بالمسألة ،
« والطريق الأرفق ودفع الشر بالوجه الأوفق ،^(٢) .

ورغم تحذير چوچی ونصح السلطان الخوارزمي ، انقسم السكان إلى معسكرين ، فريق منهما يؤمن بضرورة التسليم وفريق آخر يرى ضرورة المقاومة والدفاع عن وطنهم ؛ وقد انتصر أنصار الرأي الثاني ووقفت المدينة موقف الدفاع ، واستعد السكان للمقاومة .

ولما أدرك المغول عزم الخوارزميين على المقاومة ، استعدوا بدورهم للقتال

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 266.

(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٩٣ .

فخصبوا حول المدينة آلات الحرب من مجانيق ومتاريس وغيرها . ولما كانت الأراضي المحيطة بالمدينة فقيرة من الأحجار التي يحتاج إليها المغول في أعمال الحصار والتي يقدفونها على المدن المحاصرة بواسطة المجانيق ، فقد اقتلعوا عددا كبيرا من أشجار التوت ، وقطعوا سيقانها قطعاً مستديرة تركوها فترة من الزمن في الماء حتى ازدادت قوة ، واستطاعوا بعد ذلك أن يستعملوها في مجانيقهم لتحطيم أسوار المدينة (١) . وبينما كانت استعدادات المغول قائمة على قدم وساق ، وصل كثير من أسرى البلاد الخاضعة الذين استغلهم المغول في حفر الخنادق حول المدينة والذين أنجزوا هذا العمل في غضون عشرة أيام (٢) .

ولما اطمأن المغول إلى استعداداتهم الحربية قام ثلاثة آلاف منهم بهجوم كان النصر فيه حليف الخوارزميين ، فظنوا أن التصارم أصبح من الأمور المحققة ، وساعد ذلك على تقوية روحهم المعنوية . على أن هزيمة المغول في هذه المرة ترجع إلى تلك الفوضى التي حلت بالجيش المغولي نتيجة لخلاف نشأ بين چوچنى وچجتاى ابنى چنكيزخان . ورغم هذا النزاع ، استمر حصار هذه المدينة ستة أشهر أرسل قواد المغول في خلالها إلى چنكيزخان - وكان إذ ذاك أمام مدينة الطالقان في أعلى شهر جيحون - يطلبون منه مددا يعرض ما خسروه أمام مدينة خوارزم ، كما نقلوا إليه أنباء ذلك الخلاف الذى نشأ بين ابنه ، وما أدى إليه من شقاق وفساد وفوضى في صفوف الجيش المغولى .

وقد استاء چنكيزخان عندما سمع هذه الأنباء ، فأرسل المدد وبعث أوامره بإسناد قيادة الجيش إلى ابنه الثالث أجتاى ، وأمره أن يصلح من أمر أخويه . ولما أعاد القائد الجديد تنظيم جيوشه وقضى على تلك الفوضى التي انتشرت في صفوف الجيش ، أمر جنده بالهجوم على المدينة ، واستطاع المغول في النهاية أن يهتكوا أسوارها ، وأن يرفعوا أعلام النصر على هذه الأسوار ، ثم أشعل المغول النار في منازل المدينة ومبانيها .

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٩٣ .
(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. I. p. 267.

وعلى الرغم من نجاح المغول في اختراق حصون المدينة ، صمم الخوارزميون على الاستماتة في الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم ، فحاربوا في شوارعها التي خربها المغول ، الشارع تلو الآخر ؛ وقد ساءم النساء والأطفال في هذا النضال^(١) . واستمرت مقاومة الخوارزميين على هذا النحو سبعة أيام ؛ وأخيرا وجد السكان أنفسهم قد تجمعوا في أحياء ثلاثة . وبعد أن أعيتهم الحيلة وضائق بهم السبل عرضوا على المغول التسليم ، فأرسلوا الفقيه « عالي الدين » محتسب خوارزم إلى قائد الجيش المغولي الذي أولاه احترامه وأمر بأن تفرد له خيمة خاصة . ولما آن الوقت الذي مثل فيه الرسول الخوارزمي في حضرة القائد المغولي قال له : « إننا شاهدنا من هيبة الخان ، وقد آن أن نشاهد من مرحمته » . فغضب القائد المغولي^(٢) وقال : « ماذا رأوه من هيبتي ، وقد أفنوا الرجال وظاولوا القتال ؟ ، فأنا الذي شاهدت هيبتهم وما أنا أريهم هيبتي^(٣) » .

وقد أمر القائد المغولي الأهل بالخروج من المدينة وطلب من أصحاب الحرف أن يقفوا في مكان منزل ، فمنهم من فعل ونجا من الموت ، ومنهم من امتنع وظن أن هؤلاء سيؤخذون إلى بلاد المغول وأن الباقين سيتركون أحياء . وقد صدقت نبوءة الخوارزميين عن رحيل أصحاب المهن والحرف إلى بلاد المغول وكذبت نبوءتهم الثانية إذ أعمل المغول السيف في رقاب من بقى من السكان . وكان على كل جندي من المغول أن يقتل أربعة وعشرين رجلا خوارزميا ، فإذا علمنا أن الجيش المغولي كان يتكون من مائة ألف رجل ، أدركنا ذلك العدد الغفير من السكان الذين كان نصيبهم الهلاك^(٤) ؛ وأخيرا لم يبق من السكان في المدينة إلا الفتيات الصغيرات والأطفال الذين استرقهم المغول^(٥) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ١٢ ص ١٨٢ .

(٢) يقول دوسون إن هذا القائد المغولي كان چوچی ، وهذا لا يتفق مع الحقيقة وهي أن چنكيزخان أسند قيادة جيشه لفتح هذه المدينة إلى ابنه أجتاي بعد أن هزل منها ابنه چوچی ، على أثر ذلك الخلاف الذي قام بينه وبين چجتاي . أنظر D'ohsson : tom. i. p. 269 .

(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٩٤ .

(٤) إذا أخذنا بهذا الرأي بلغ عدد المسلمين الذي قتلوا في هذه المدينة ٢,٤٠٠,٠٠٠ وهذا العدد كما يبدو بعيد عن التصديق .

(٥) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 269 — 270 .

ولسكى يجهز المغول على المدينة ويجعلوها أثرا بعد عين ، فتحوا سدود نهر جيحون
ففرقت المدينة وتهدمت أبنيتها وأصبحت كأن لم تكن بالأمس . وقد صور ابن الأثير (١)
ما أصاب هذه المدينة تصويرا دقيقا في هذه العبارة :

« ثم إنهم فتحوا السد الذي يمنع ماء جيحون عن البلد ، فدخله الماء ،
« ففرق البلد جميعه ، وتهدمت الأبنية ، وبقي موضعه ماء ، ولم يسلم ،
« من أهله أحد البتة ، فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله ،
« منهم من يختنق ، ومنهم من يهرب ، ومنهم من يخرج ثم يسلم ، ومنهم
« من يلقي نفسه بين القتلى فينجو ، وأما أهل خوارزم فن اختنق من ،
« التتر غرقه الماء ، وقتله الهدم ، فأصبحت خرابا يابا . »

هكذا سيطر المغول على إقليم خوارزم ، وبسيطرتهم على حاضرة هذا الإقليم ، لم
تعد هناك مدينة أو قرية تستطيع أن تقف في وجههم ، كما أصبح الجيش الخوارزمي
في هذا الإقليم محطما تماما .

وفي نفس الوقت الذي سيطر فيه المغول على إقليم خوارزم ، نرى چنكيزخان
يتم إخضاع المدن الواقعة في أعالي نهر جيحون ، ومن أشهرها ترمذ وبلخ . ومن
الطريف المؤلم أن چنكيزخان لما استولى على مدينة ترمذ ، أمر باخراج جميع السكان
من المدينة وأمر جنده بقتلهم جميعا . وقد حدث أن تم أحد المغول بقتل امرأة عجوز
فأرادت هذه المرأة أن تقتدى نفسها بجمهرة ثمينة كانت تمتلكها ، فلما طالباها المغولي
بهذه الجمهرة ذكرت أنها ابتلعها في جوفها ، فشق المغولي بطن المرأة وأخرج
الجمهرة من جوفها . وقد انتشر الخبر سريعا بين المغول فظنوا أن السكان جميعا قد
خبأوا الجواهر في بطونهم ، لذلك أمر چنكيزخان بشق جميع بطون المرقى للبحث
عما هي أن يكون فيها من جواهر (٢) .

والمهم أنه باستيلاء المغول على إقليمي ما وراء النهر وخوارزم ، استطاعوا
أن يهيظوا تماما بإقليم خراسان حيث وجهوا ضربتهم التالية ، فاستولوا على
مدن هذا الإقليم المدينة تلو الأخرى ، ولم يقف في طريقهم هائق أو يمنع مانع .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٨٢ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. I, p. 271.

٦ - المغول في خراسان

ذكرنا كيف أن چنكيزخان استولى على بلاد ما وراء النهر حيث أخضع هو وابنه « تولوى » أمهات مدن هذا الإقليم ، ومن أهمها بخارى وسمرقند ؛ كما ذكرنا كيف عبرت بعض الجيوش المغولية التي كانت قد فرغت من إخضاع إقليم ما وراء النهر إلى الضفة الغربية من نهر جيحون ، واستولت على إقليم خوارزم ، وكيف أن چنكيزخان كان يحطم الحصون والمدن الخوارزمية في أعالي نهر جيحون في الوقت نفسه .

على أن چنكيزخان بينما كان يواصل أعماله الحربية في إقليم ما وراء النهر ، كان يوجه الجيوش المغولية الأخرى إلى الوجهة التي يراها ، فإذا شعر أن معدنة ما شئت كلها الطاعة على المغول سارع إلى إرسال فرقة مغولية لبادتها ، وإذا وجد أن إقليما من أقاليم الدولة الخوارزمية قد ظهرت فيه روح الترد والعصيان ، أرسل الفرق السادية ليعطى الخوارزميين دروسا في الخضوع والذلة والاستسلام . وكان چنكيزخان يجد في هذه الفترة في البحث عن زعماء الدولة الخوارزمية وقادة الرأي فيها ، ليقضى بقضائه عليهم ، على ما قد يساور الخوارزميين من روح الترد ؛ كما أنه كان إلى جانب ذلك يدافع عن مؤخرة الجيوش المغولية ، ويمد الجيوش المختلفة بما تحتاج إليه من مساعدات .

إذا فهمنا هذه السياسة التي سار عليها چنكيزخان أدركنا السبب في إرسال حملته المطاردة في إثر علاء الدين خوارزم شاه ، كما أدركنا السبب الذي حدا إلى إبراءه بإرسال جيوشه التي كانت قد فرغت من إخضاع بلاد ما وراء النهر إلى إقليم خوارزم عندما علم أن أبناء علاء الدين قد عادوا إلى هذا الإقليم وأخذوا يجمعون الجيوش لمواجهة المغول ، وكذلك نستطيع أن ندرك السبب الذي من أجله صمم المغول على القبض على أبناء علاء الدين خوارزم شاه ، حتى إذا ما قبضوا على اثنين منهما نكلوا بهما أشنع تنكيل . ويتجلى حرص چنكيزخان على تحقيق هذه السياسة فيما رأيناه من إرساله إحدى فصائله إلى خراسان في نفس الوقت الذي أرسل فيه جيشا إلى إقليم خوارزم ويظهر أن الغرض الأساسي الذي من أجله بعث چنكيزخان بهذا الجيش

لوحة ١٠



رسم يمثل چنكيزخان واقفاً يباب خيمته الجميلة النقش ومن حولها خيام حاشيته
في مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين .

(عن كتاب Universal History of the world, vol 5.

كان مساعدة الجيش المغولي الذي سار لغزو إقليم خوارزم ، وسد المسالك على الخوارزميين ، حتى لا يترك لهم سبيلا للهرب^(١) ؛ وقد أدت هذه السياسة إلى نجاح المغول في إقامتهم خوارزم وأسرا اثنين من أبناء علاء الدين خوارزم شاه على مارأبنا.

ولم تكن هذه الفصائل المغولية أولى الفصائل التي وطئت أقدامها إقليم خراسان ، فهذا الإقليم كان معرضا لغزو مفاجئ. خاضع على أيدي القائدين شي وسوبوتاي بينما كانا يطاردان علاء الدين خوارزم شاه ، فاستولى هذان القائدان على بعض المدن الخراسانية الهامة كمدينة نيسابور ، ويلاحظ أن هذين القائدين لم يهتما كثيرا بإخضاع إقليم خراسان إذ كان غرضهما الأساسي مطاردة علاء الدين وأسره ، ومع ذلك فقد وضعوا قوادا من المغول على المدن الخاضعة^(٢).

ولم تظهر جيوش مغولية بعد رحيل شي وسوبوتاي غير تلك الفصائل الصغيرة التي أرسلها چنكيزخان لمساعدة الجيوش المغولية في إقليم خوارزم ، والتي لم يكن في خططها غير سد المسالك على الخوارزميين إذا حاولوا التفتيح نحو الجنوب . لذلك نرى بعض المدن الخراسانية كمدينة طوس ، التي كانت قد خضعت لشي وسوبوتاي ، تحاول الخلاص من الحكم المغولي ، إذ قتل الخوارزميون الحاكم المغولي في هذه المدينة ونخلصوها من العبودية . وقد استمرت الحال في خراسان على هذا النحو حتى صدرت الأوامر لتولوي بن چنكيزخان بالسير إلى إقليم خراسان في خريف عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) . ويظهر أن چنكيزخان كان ينوي غزو هذا الإقليم بنفسه بدليل أنه عبر إلى الضفة الغربية لنهر جيحون وسار إلى مدينة باغ ، إحدى المدن الغنية الواقعة على الضفة الغربية لنهر جيحون ، ابتغاء الاستيلاء عليها .

ولم تكن مدينة بلخ محصنة تحصينا يكفل لها الصمود أمام الجيوش المغولية ؛ وترجع شهرة هذه المدينة إلى أنها كانت من أمهات المدن الخوارزمية ، فضلا عن قيمتها التجارية بسبب وقوعها على إحدى الممرات التجارية الهامة في وسط آسيا . وكانت هذه المدينة

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 246 -- 247 .

خلا عن كتاب جهان كشاي لعلاء الدين الجويني .

عامرة بمبانيها ، آهلة بسكانها حتى قيل إنه كان بها ألف ومئتان من المساجد الكبيرة ومثلها من المساجد الصغيرة ، كما كان بها حمامات عديدة خاصة بالأجانب والتجار الذين يقدور على المدينة ^(١) . وبرغم تسليم هذه المدينة في سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) ، لم يعفها چنكيزخان من التخريب كما لم يعف أهلها من القتل . ثم اكتفى بالزحف عند هذه المدينة وفتح بإرسال ابنه تولوي إلى خراسان على رأس جيش مكون من سبعين ألفا ^(٢) . ويظهر من تغيير چنكيزخان خطته الحربية أنه أراد أن يؤمن أملاكه وجيوشه في هذه المنطقة .

سارت طلائع جيش تولوي إلى خراسان في سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ، وكانت تشكون من عشرة آلاف جندي بقيادة توجاشر Togatcher ، زوج ابنة چنكيزخان ، وقد سار هذا القائد إلى مدينة نسا ، ولما قربت إحدى كتائبه من المدينة ساعد المسلمون سهامهم على رجالها فقتل عدد كبير ، كما قتل بلجوش Belgousch قائد هذه السكتيبة . ولما وصل توجاشر بجيوشه ، أمر بأن ينصب حول المدينة عشرون منجنيقا ^(٣) ، وبعد خمسة عشر يوما استطاع المغول أن يمدثوا ثغرة في حوائطها واحتلوها ليلا ، ولما طلع النهار بدأوا يشارون لمقتل القائد بلجوش ، فأخرجوا جميع السكان وأمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر ، كما أمروا بربط ذراعي كل رجل وراء ظهره ، ثم قتل المغول جميع النساء والرجال والأطفال حتى قيل إن عدد من قتل من سكان هذه المدينة بلغ أكثر من سبعين ألفا . وقد وصف النسوي هذه الحادثة وصفاثير الحسرة والالام حيث قال ^(٤) :

« فساقوم إلى فضاء وراء البساتين كأنهم قطعان الضأنية تسوقها ،
« الرعاة ، ولم يجد التاتار أيديهم إلى سلب ونهب ، إلى أن حشروهم إلى ،
« ذلك الفضاء الواسعة بالصغار والنساء ، والضجيج يشق جلباب السماء ،
« والصياح يسد منافذ الهواء (كذا في الأصل) ، ثم أمروا الناس ،

(١) De Quignes : Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols

et des autres Tartares Occidentaux, tom. iii. p. 58.

ويبدو أن الأرقام التي ذكرها هذا المؤلف تحمل طابع المبالغة.

(٢) Douglas : The Life of Jenghiz-Khan, p. 19.

(٣) D'ohason : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 274 - 275.

(٤) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٥١ - ٥٢ .

« بأن يكتفوا بعضهم بعضاً ففعلوا ذلك خذلانا ، وإلا فلو تفرقوا ،
« وطلبوا الخلاص عدواً من غير قتال والجبل قريب ، لنجا أكثرهم . ،
« فحين كتفوا جاء وإليهم بالقوس وأضجعهم على العدى وأطعمهم ،
« سباع الأرض وطيور الهوى ، فن دماء مسفوكة وستور مهتوكة ،
« وصغار على ندى أمهاتها المقتولة متروكة ، وكان عدة من قتل بلسان ،
« أهلها ومن انضوى إليها من الغرباء ورعية بلدتها سبعون ألفا . »

وقد التجأ محمد النسوى مؤرخ حياة جلال الدين منكبرتي — وكتابه من أمهات المصادر التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب — التجأ هذا الرجل هو وبعض الأسرى إلى قلعة « مرج سائغ » ، إحدى قلاع خراسان الحصينة والمقامة على إحدى الجبال الشاهقة . وما هو جدير بالذكر أن هذه القلعة كانت ملكاً لمحمد النسوى ولآبائه وأجداده من قبل . وكانت ، لوقوعها وسط خراسان وفي هذا المكان الحصين ، تعد ملجأ يعتصم فيه الكثيرون وقت الحاجة . وقد حاصر المغول هذه القلعة ، ولكنهم لما لم يجدوا وسيلة للاستيلاء عليها فرضوا على أهلها في مقابل رفع الحصار عنها ، مائة ألف لباس من القطن وبعض أشياء أخرى كان المغول في حاجة إليها . وقد قبل محمد النسوى أن يرسل إليهم ما طلبوه ، على أن أحداً لم يقبل مهمة توصيل هذه الأشياء للمغول خوفاً من الغدر به ، وأخيراً قبل رجلان مسنان القيام بهذه المهمة ، فودعا أولادهما ، وبعد أن سلها الملابس للمغول حدث ما كان يخشاه أهل القلعة ، إذا قتل هذان الرجلان على أيدي المغول .

ويروى النسوى أن هؤلاء البرابرة المغول انتشروا في خراسان ، وكانوا كلما حلوا ببلد جمعوا الفلاحين وقادوم كالإغنام لمساعدتهم في حصار الأماكن التي يرغبون في الاستيلاء عليها . وقد استولى الرعب والفرع على النفوس حتى كان الأسير أحسن حالا ممن أقام في منزله لأنه أصبح لا يعرف شيئاً عن المصير الذي سيؤول إليه . وكان المغول يرغمون حكام المقاطعات وأتباعهم على الاشتراك في أعمال الحصار ، ومن أبي منهم قتل شر قتله .

سار توجا شر Togalcher بعد ذلك إلى مدينة نيسابور سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م)

وعزم على الاستيلاء عليها ، وقد هاجمها بالفعل ولكنه قتل بعد ثلاثة أيام بسهم من سهام أعدائه (١) . وقد وجد القائد الذي حل محله في القيادة أنه لا يملك القوة السكانية للاستيلاء على هذه المدينة فرفع عنها الحصار ، تاركاً هذه المهمة الشاقة إلى أن يأتي جيش تولوى ، وتفرغ للاستيلاء على بعض الحصون المجاورة (٢) .

كانت مهمة تولوى الأساسية في غزو إقليم خراسان تنحصر في الاستيلاء على حاضرتة « مرو » ، التي كانت مقر سلاطين السلاجقة ومن بينهم ملكشاه وابنه سنجر ، ثم اتخذها الخوارزميون حاضرة لهم بعد أن استولوا على أملاك السلطان سنجر في خراسان ، ولما فر علاء الدين خوارزم شاه من إقليم ما وراء النهر ، أمر بنقل المصالح العامة للدولة من هذه المدينة إلى إحدى القلاع الحصينة ، ووضع حامية تقوم على حماية الأهالي الذين يبقون في المدينة . على أن الاضطراب الذي لازم علاء الدين في هذه الفترة مالىث أن تطرق إلى قواده وكبار رجال دولته . فبدلاً من أن يتحدوا ويتكاتفوا ويقفوا في وجه هذا العدو القوي ، انقسموا شيعاً وأحزاباً ، وتنازعوا على حكم هذه المدينة ، كل يريد أن يستأثر بالحكم لنفسه . كما نجد أن الطامعين في السلطة يلجئون إلى المغول يستعينون بهم على أعدائهم من المنافسين ، ويعدونهم الطاعة والولاء وإمدادهم بما يحتاجون إليه من غذاء وكساء ، إذا وصلوا إلى الحكم (٣) .

وفي ذلك الوقت ظهر تولوى أمام المدينة على رأس جيش كبير يتكون من سبعين ألف رجل بينهم عدد من أسرى البلاد التي خضعت للمغول ، وقد عمل المغول في أول الأمر على إبادة عشيرة آلاف رجل من الحيلة التركمان كانوا يعسكرون على مقربة من المدينة ، فاستدروهم إلى كمين وقتلوا عدداً كبيراً منهم وفر الباقون بعد أن غنم المغول منهم عدداً كبيراً من قطعان الماشية التي نهبوها من مدينة مرو (٤) . وفي اليوم التالي (أول محرم سنة ٦١٨ هـ = ٢٥ فبراير سنة ١٢٢١ م) (٥) ، سار تولوى في خمسمائة

(١) نلاحظ أن هذه المدينة كانت من المدن التي خضعت للقائدين شي' وسويوتاي ، ولكنها البت أن استعادت حريتها بعد رحيل هذين القائدين عنها .

(٢) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 86.

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 279 — 284.

(٤) Ibid, tom i. p. 284.

(٥) Abulgasi : Histoire Généalogique des Tatars, p. 322.

من الخيالة لاختبار حصون المدينة ، ولم يمض أسبوع حتى تجمعت الجيوش المغولية التي أخذت في الهجوم على هذه المدينة . وكان أمام المحاصرين منفذان للنجاء ولكن المغول فطنوا إلى هذين المنفذين وقضوا الليل على حراسة الأسوار والمنافذ ، ليحولوا دون خروج الأهالي والجيوش الخوارزمية منها .

وفي اليوم التالي أرسل حاكم المدينة ، وكان يطلق عليه « مدير الملك » ، كبار رجال الدين إلى تولوى يعرضون التسليم ، بشرط أن يؤمن من في داخل المدينة ، فوعدهم المغول بتلبية مطالبهم حتى أن مدير الملك خرج بنفسه إلى معسكر المغول يحمل الهدايا إلى تولوى ، الذي أكد له أنه سيثبت في حكم هذه المدينة ، كما وعده بأن يؤمن سكانها على حياتهم . وقد طلب تولوى أن يرى كبار رجال المدينة وأعيانها ليخلع عليهم الخلع ويمنحهم الهبات ، فأرسل مدير الملك في استدعائهم ، ولما حضروا إلى معسكر المغول ربطهم تولوى ومعهم مدير الملك ، وطلب منهم أن يعدوا له قائمة بأسماء الأغنياء وكبار الملاك الذين جرى بهم إلى معسكر المغول مع نحو أربعمئة من أصحاب الحرف والمهن . ثم دخلت الجيوش المغولية المدينة وطاردت السكان ، الذين أمرهم تولوى بالخروج ، هم وأسراتهم وما يملكون من مال . وأخيرا جلس تولوى على عرش مذهب في أحد السهول المحيطة بالمدينة ، ثم وزع الرجال والنساء والأطفال على جند المغول فقتلوا جميعا ، ولم يبق من سكان المدينة سوى أربعمئة رجل من أصحاب الحرف الذين أبقاهم المغول للاتفاح بهم في أعمالهم الحربية ^(١) . وقد أزال المغول أسوار المدينة ومبانيها ، ودمروا قلعتها ، ونهبوا قبر السلطان سنجر السليحوقى ظنا منهم أنهم سيجدون فيه ذهبا وفضة ^(٢) .

وهكذا أصبحت مدينة مرو أثرا بعد عين وهلك سكانها أجمعين الذين قد رهم ابن الأثير بسبعين ألفا ^(٣) . أما الجويني فقد قدر هذا العدد في كتابه « تاريخ جهان كشاي » فذكر أنه بلغ مليوناً وثلاثمائة ألف رجل ، عدا الجثث التي كانت في أماكن خفية ^(٤) .

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 285 — 6.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٨١ .

(٣) المرجع السابق والصفحة .

(٤) Browne : A literary History of Persia, vol. ii. p. 439.

سار تولوى بعد ذلك إلى مدينة نيسابور على مسيرة إثني عشر يوما من مدينة مرو . وما يلاحظ أن هذه المدينة خربت مرتين في غضون نصف قرن ، مرة في سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) على يد الأتراك الغز الذين تازروا في وجه السلطان متعجر واكتسحوا خراسان^(١) ، ومرة أخرى في سنة ٦٥٥ هـ (١٢٠٨ م) بتأثير هزة أرضية عنيفة حتى اضطرت الأهالي إلى الهجرة والسكنى في الأراضى الصحراوية المحيطة بالمدينة ردحا من الزمن^(٢) . وبعد أن استعادت نيسابور بهاءها وعمرت بسكانها ومبانيها ، قُدر لها أن تخرب للمرة الثالثة على يد تولوى .

أراد تولوى أن يثار لموت « توجاشر » الذى قُتل أمام أسوار هذه المدينة عندما حاول الاستيلاء عليها قبل وصول تولوى بجيوشه . أما الأهالي فقد أساءوا إلى فصائل المغول التى كانت تظهر تباعا بالقرب من المدينة ، ثم أخذوا أهبتهم للاستعداد عندما علموا أن المغول سيهاجمون المدينة ، فجهزوا ثلاثة آلاف آلة لقذف الرماح *balistes, ou machines à lancer des javelots* وخمسمائة منجنيق *Catapultes* . على أن ما أعدد المغول من آلات الحرب لم يكن أقل من ذلك ففضلا عن أنهم خربوا جميع الأراضى التى كانت تحيط بالمدينة ، فإنهم نصبوا أمامها ثلاثة آلاف آلة لقذف الرماح، وثلاثمائة منجنيق ، وسبعمائة آلة لقذف النفط *machines à lancer des pots de naphis* وأربعة آلاف سلم ، كما أحضروا من الجبال القريبة ألفين وخمسمائة حمل من الطوب . ولما رأى السكان المحاصرون وقواد الجيوش الخوارزمية هذه المعدات الحربية ، فضلا عن الجيوش المغولية التى أحاطت بالمدينة من كل جانب ، فقدوا رباطة جأشهم وأرسل الأهالي نوابا عنهم من الأئمة وكبار رجال المدينة وعلى رأسهم قاضى القضاة فى خراسان ، إلى المعسكر المغولى وعرضوا على تولوى التسليم ، وتعهدوا بأن يؤدوا للمغول فدية سنوية . ولكن تولوى الذى كان صدره يغلى ونفسه تتعرق شوقا للانتقام لمقتل زوج شقيقته توجاشر ، رفض كل العروض التى عرضها عليه أهالي هذه المدينة^(٣) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٩ — ٨٢ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١٢ ص ١٣١ .

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 289 — 290.

وفي اليوم التالي تفقد تولوى جنده الذين كانوا يرابطون حول المدينة وأخذ يشجعهم ، حتى إذا ما حل اليوم الثاني عشر من شهر صفر سنة ٦١٨ هـ (٧ إبريل سنة ١٢٢١ م) أمر بمهاجمة المدينة من كل مكان ، واستمر القتال طول النهار وطيلة الليل ، ثم استطاع المغول أن يخترقوا الحصون ويحدثوا في حوائطها ثغرات عديدة مكنتهم من دخول المدينة من جميع جهاتها ، وأصبحت شوارعها ومنازلها مسرحا للحروب . وأخيرا تمكن المغول من احتلال المدينة وأخذوا يثأرون لمقتل « توجاشر » . وقد دخلت زوجة ذلك القائد وهي ابنة جنسكيزخان المدينة يصحبها عشرة آلاف رجل وقتلوا كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال ، ولم يتركوا حتى القطط والكلاب^(١) .

ومما يدل على أن المغول كانوا يتحرقون شوقا للتسكيل بسكان نيسابور أن تولوى رأى بعض السكان يتلبسون النجاة بالرقاد بين جثث القتلى ، فلكى لا يترك فرصة لأحد منهم للنجاة ، أمر بقطع جميع رؤوس القتلى ، ووضع هذه الرؤوس في جانب والأجساد في جانب آخر^(٢) . وقد استمر تخريب المدينة خمسة عشر يوما زالت فيها معالمها ، ولم يبق المغول إلا على أربعمئة رجل من أصحاب الحرف والمهن للاتقاع بهم . ولكي يطمئن تولوى إلى القضاء على جميع سكان المدينة ترك بعد رحيله عنها عددا من الجنود لقتل السكان الذين قد يظهرون بعد رحيل الجيش المغولي ؛ وقد ظهر فعلا عدد منهم أجهز عليهم المغول . وقد قدر عدد من قتل من سكان هذه المدينة بنحو ١,٧٤٧,٠٠٠ رجل^(٣) . ومما هو جدير بالذكر أن سقوط هذه المدينة حدث بعد وفاة علاء الدين خوارزم شاه بشهرين .

لم يبق أمام المغول من مدن خراسان الهامة إلا مدينة هراة التي سار إليها تولوى بجيوشه . وسير وهو في طريقه إليها فصيلا من جنده إلى مدينة « طوس » حيث المشهد الذي دفن فيه علي بن موسى الرضى وهارون الرشيد^(٤) . وقد أتى المغول على كل ما وجدوه في هذه المدينة .

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 290.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٨١ .

(٣) Douglas : The Life of Jenghiz - Khan, p. 23.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٨١ .

وجعل تولوى إلى مدينة هراة على مسيرة خمسة أيام في الجنوب الشرقي من نيسابور وتقع وسط سهل خصيب يحيط به الجبال . وقد أرسل تولوى إلى هذه المدينة رسولا يطلب إلى أهلها التسليم ، غير أن نصيب هذا الرسول كان القتل . وقد طلب حاكم المدينة إلى رجاله الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم بما أوتوا من قوة . وأمر تولوى بمهاجمة المدينة من جميع جهاتها في وقت واحد ، وبعد ثمانية أيام لم ير حاكم المدينة بداً من التسليم ، بشرط أن يؤمن المغول الأهالي على أرواحهم . واضطر تولوى إلى قبول ما عرض له عليه الخوارزميون ، بعد أن وجد أن قواده وجنوده قد انقسموا على أنفسهم ، وأصبح ذلك الانقسام ينذر باندحارهم . على أن تولوى لم يف بوعده فأمر بقتل عدد كبير من من جند الخوارزميين من أتباع جلال الدين منكبرتي ومن سكان هذه المدينة المدنيين ، حتى بلغ عددهم اثني عشر ألفاً . ولأول مرة نرى تولوى يولى حاكماً مسلماً على مدينة خوارزمية ، على أن ذلك الحاكم المسلم كان تحت رقابة حاكم آخر من المغول ^(١) .

وبعد ثمانية أيام من خضوع مدينة هراة ، تلقى تولوى أمراً من أبيه چنكيزخان ليلحق به عند مدينة الطالقان ^(٢) في أعالي نهر جيحون . وكان چنكيزخان في هذه الفترة قد عزم على الرحيل إلى منغوليا كما سيأتي .

وهكذا خضع إقليم خراسان للمغول . وبما هو جدير بالذكر أنه في الوقت الذي غزا فيه المغول خراسان ، تركت إحدى القبائل التركمانية التي كانت تسكن بالقرب من مدينة مرو ، أملاكها تحت تأثير الفزع من ناحية المغول وهاجرت غرباً إلى أرمينية . وبعد ذلك بثمانية أعوام أغار المغول على هذا الإقليم ، فترك هذه القبيلة هذا المكان وسارت إلى آسيا الصغرى واستطاع قائد هارطغرل ، مع رجاله الذين كانوا يكوّنون أربعاً وأربعين عائلة ، أن يقيموا في إحدى المقاطعات التابعة لسلطان السلاجقة الروم في إقليم أنقرة على حدود الدولة البيزنطية . ولما توفي هارطغرل وسعت هذه القبيلة أراضيها على حساب البيزنطيين ، وتحولت الزعامة إلى عثمان الذي استطاع في سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) ، بعد أن دب الضعف إلى السلاجقة في آسيا الصغرى ، أن يكوّن له دولة

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 292.

(٢) Ibid, tom. i. p. 293.

لوحة ١١



منظر في مخطوط يرجع إلى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)
 يمثل انتصار البطل رستم
 (عن كتاب كوتل في التصوير في الإسلام)

على أنقاض هذه الدولة السلجوقية ، واتخذ لنفسه لقب « سلطان » . ويعتبر عثمان هذا المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية (١) .

٧ - المغول في إقليم غزنة

ذكرنا أن چنكيزخان كان يواصل إخضاع المدن الواقعة في أعلى نهر جيحون الواحدة تلو الأخرى . فمما فعله أنه خرب إقليم « الطالقان » سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) ثم قضى شتاء هذا العام في الإقليم الجبلي المحيط بهذه المدينة ، حيث انضم إليه أبناء چجتاي وأجتاي بعد أن اتما إخضاع إقليم خوارزم بالاشتراك مع أخيهما چوچی (٢) . ولما حل الربيع أراد چنكيزخان أن يتم إخضاع ما بقى من الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية . وفي هذه الأثناء ، علم أن جلال الدين منكبرتي يربط في إقليم غزنه على رأس جيش كبير ، فوطد العزم على المسير إليه . وقد حاصر وهو في الطريق قلعة باميان Bamian الواقعة على أحد فروع نهر جيحون ، ولسوء حظ الخوارزميين أن أحد أبناء چجتاي قتل في أثناء الحصار بسهم صوبه إليه جندي خوارزمي ، فصمم جده چنكيزخان على الانتقام له لشدة تعلقه به . وقد استطاعت الجيوش المغولية المتعطشة لأخذ الثأر أن تقتحم الحصن وأن تزيل مغالمة كما لم يترك المغول فيه شخصاً واحداً على قيد الحياة ، وبما يدل على عظم ما أصاب هذا المكان من تخریب ، أنه ظل خالياً من السكان خمس سنوات (٣) . وبينما كان چنكيزخان ينعم بشمرة انتصاراته في باميان Bamian تلقى خبراً بانتصار جلال الدين منكبرتي على إحدى الفصائل المغولية في السهول المحيطة بمدينة يروان Beruan شمال مدينة غزنه .

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols; tom. i. p. 293.

(٢) نلاحظ أن چوچی انفصل عن أخويه بعد سقوط مدينة خوارزم على أثر النزاع الذي قام بينه وبين أخيه چجتاي، ذلك النزاع الذي أدى إلى عزله من القيادة وتولى أخيهما الثالث أجتاي . لذلك لم ينضم إلى أخويه في الذهاب إلى إقليم الطالقان وآثر أن يمضي وقته في الإقليم الواقع شمال نهر سيجون .

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 294 — 5.

عبر جلال الدين منكبرتي صحراء خوارزم على ما ذكرنا ، على أثر هجوم المغول على إقليم خوارزم فوصل إلى مدينة « نسا » ثم غادرها إلى نيسابور في طريقه إلى مدينة غزنة حاضرة الإقليم المسمى بهذا الاسم ، والذي قام بحكمه وقتاً ما من قبل أبيه علاء الدين خوارزم شاه . فلما وصل إلى نيسابور ، اشتدت رغبته في الجهاد وبدأ يكتب الأمراء والحكام ويحثهم على مساعدته بالرجال والعتاد .

وقد أقام جلال الدين في نيسابور شهراً كان فيه دائم التفكير في العمل الذي كان مقبلاً عليه . على أن المغول لما علموا بوجوده في نيسابور ساروا لملاقاته ولسكنهم وصلوا إلى هذه المدينة بعد رخيصة عنها بوقت قصير جداً ، فتابعوا السير في أثره . على أن هذا السلطان استطاع أن يخدع المغول ويصرفهم عن طريقه ، فسير قائداً من قواده في طريق آخر ، واستطاع هذا القائد بدهائه أن يجذب إليه أنظار المغول فساروا في أثره ظناً منهم أن هذا هو الطريق الذي سلكه السلطان الخوارزمي ، وفي ذلك الوقت كان جلال الدين يسير بحيل في طريق آخر . وقد نجحت هذه الخطة وتمقب المغول القائد الخوارزمي وتركوا الطريق الذي سار فيه السلطان الذي أنهكه التعب ، بعد رحلة طويلة شاقة ، وأخيراً وصل إلى مدينة دوزن ^(١) .

ولم يسمح سكان هذه المدينة للسلطان الخوارزمي بالبقاء فيها إلا ريثما تستريح خيوله ، وأخبره حاكمها أن المغول إذا علموا بوجوده ، سيقاتلون قتال المستعصم حتى يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة ، وحيلت بتحولون إلى السكان الأمنين فيقتلونهم عن آخرهم كما فعلوا في المدن الخوارزمية الأخرى ، وهكذا لم ير جلال الدين بداً من الرحيل إلى مدينة غزنة فوصلها بعد ثلاثة أيام ، وهناك كما يقول النسوي ، « تباشر الناس بوصول تباشير الصوام بهلال الفطر » ، ورحب الأهالي به أيما ترحيب والظم تحت لوائه جموع كثيرة من مختلف الأجناس ^(٢) .

وكان يسود مدينة غزنة في ذلك الوقت الفوضى والقلق والثورات بسبب كثرة ما فيها من الجيوش المختلفة الأجناس . فقد سكنها الأتراك والغوريون من بقايا الدولة الغورية كما سكنها الجيوش الخوارزمية التي فرقت من وجه المغول ، وكان قواد

(١) راجع خريطة « الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها » .

(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٦٣ = ٦٤ و ص ٨٠ .

هذه الجيوش متنازعين متنافسين ، وكثر الطامعون في حكم هذا الإقليم . كذلك نجد كثيرين من قواد الجيوش ينسحبون من المدينة بعد أن علموا بمسير المغول إليها . وفي وسط هذه الأحوال المضطربة وصل جلال الدين منكبرتي إلى المدينة ، حيث أسرع الجنود من كل جانب وانضوا تحت إوائه ، وجاءته الجنود الخوارزمية المبعثرة في كابل وبشاور وغيرهما من المدن الواقعة على حدود بلاد الهند . وبذلك أصبح جلال الدين على رأس جيش كبير يتراوح بين ستين ألفاً وسبعين ألفاً من الحيلة (١) .

وبعد أن نظم السلطان الخوارزمي هذه الجنود وضمن ولائها له ، خرج في ربيع عام ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) إلى السهول المحيطة بمدينة « يروان » في الشمال الشرقي من غزنة لمقاتلة الجيوش المغولية التي كانت تتحفر للوثوب على جيوش جلال الدين . واستطاع السلطان الخوارزمي أن يفتصر على طلائع جيوش المغول وأن يقتل ما يربو على ألف رجل ؛ ثم رأى المغول أن يولوا اهتمامهم إلى الجيش الخوارزمي الذي عاد إلى مدينة يروان . وقد بدا هذا الاهتمام بعد ثمانية أيام حين ظهر جيش مغولي آخر يتألف من ثلاثين ألف رجل كان چنكيزخان قد أمر بأن يربط على مقربة من مدينة كابل لمراقبة حركات جلال الدين منكبرتي من جهة ، ومساعدة جيوش چنكيزخان إذا دعت الحاجة إلى ذلك من جهة أخرى .

سار الجيش المغولي للملاقاة لجلال الدين الذي خرج بدوره من مدينة يروان لملاقاته في السهول المحيطة بهذه المدينة ، التي تقع على مسيرة يوم واحد من غزنة (٢) . وقد نظم جلال الدين جيشه تنظيمًا حسنًا ، فقسمه إلى ميمنة وميسرة ووسط ، وأمر جنوده جميعاً أن يمتطوا خيولهم استعداداً للقتال . فلما هاجم المغول ميمنة جلال الدين بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل ، استطاع جنود الميسرة والوسط أن يصدوا العدو . واستمر القتال طوال ذلك اليوم ، وفي المساء عاد كل جيش إلى المكان الذي يعسكر فيه . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن أحد قواد المغول رأى في هذه الأثناء أن يمتثل على الخوارزميين بأن يوجههم أنه تلقى إمدادات كثيرة في أثناء الليل ، فأمر

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 297—300.

وقد ذكر النسوي في كتابه — ص ٨٠ — أن ما تجمع لدى جلال الدين بلغ ثلاثين ألف جندي

(٢) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 89.

جنوده بأن يضعوا قلائد لهم على رؤوس خيولهم ويقفوا هم خلفها حتى يظن الخوارزميون أن عدد الجيوش المغولية قد تضاعف . وكادت هذه الحيلة تنطلي على الخوارزميين إذ وجد قواد السلطان في الصباح أن جنود المغول يقفون في صفين ، فظنوا بالفعل أن امدادات كثيرة قد جاءتهم ولذا عزموا على التقهقر ، ولكن السلطان أبي الإذعان لرغبتهم ، وأعلن عزمه على مغادرة معسكره ومواصلة الحرب مهما تكن النتيجة ، فلم يجد المغول بداً من مواصلة القتال .

وجد المغول في اليوم التالي قوة ميسرة الجيوش الخوارزمية فركزوا اهتمامهم في التوجه إليها ، على أن خيالة المغول التي حاولت الهجوم على ميسرة الخوارزميين استقبلت بوابل من السهام جعلتها تولى الخوارزميين ظهرها . وحينئذ تبدلت خطة الخوارزميين من الدفاع إلى الهجوم فأمر السلطان الخوارزمي جنوده فامتطوا ظهور خيولهم وتوجهوا إلى صفوف المغول الذين ولوا الأدبار ، وهربوا في غير نظام . ولما كانت الأراضي المحيطة بمدينة يروان تقطعها الوديان العديدة ، فقد عاق ذلك خيالة المغول عن مواصلة الحرب ، فوقموا تحت السيوف الخوارزمية ، فقتل جنود السلطان معظم جند المغول . وهكذا فنى الجزء الأكبر من الجيش المغولي في هذه الموقعة (١) . وقد وصف النسوي انتصار الخوارزميين على المغول وصفاً أقل ما يقال عنه أنه يعبر تعبيراً صادقاً عن نفسية الخوارزميين في ذلك الوقت ، فقد جاء في وصف هذا الانتصار ما يلي :

« فلما (اشتبك) الجمعان حمل جلال الدين بنفسه على قلب تولى خان (٢) ،
« فبدد نظامه ونثر تحت قوائم الخيل أعلامه وألجأه إلى الانهزام ،
« وإسلام المقام ، وتحكمت فيهم سيوف الانتقام ، وركب جلال الدين ،
« أكتاف الغل ، يفصل بالأسياف بجامع الأكتاف وكيف ،

(١) D'ohsson: Histoire Des Mongols, pp. 301 - 2

(٢) ذكر النسوي أن قائد المغول كان تولوى بن چنكيزخان وأنه قتل في أثناء القتال كما جاء في هذا النص ، على أن هذا خطأ واضح إذ أن تولوى لم يشترك في الموقعة ولم يقتل ، بل إنه كان بمن راقبوا چنكيزخان في أثناء عودته إلى بلاده ، وهناك لما شرع في تقسيم دولته بين أبنائه كانت قره تورم والأراضي المحيطة بها من نصيبه .

« لا وقد فجعوه بإخوته وأبيه ومملكتيه ودويه فترك لا والد ،

« ولا مولود ولا عابد ولا معبود ، تلفظه النوادي إلى النوادي ... »

« وقُتِلَ تولى خان في وهج القتال وكثر الأسرى^(١) . »

وقد انتقم الخوارزميون من المغول انتقاما شديدا فكانوا يدقون الأوتاد في آذان

الأسرى ، وجلال الدين ينظر إليهم ويعلو وجهه البشاشة بما ظفر^(٢) .

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن بعض المدن الخوارزمية التي خضعت للمغول

ظننت أن انتصار جلال الدين كان ضربة قاضية وجهت لجيوش چنگيزخان ، وأن وقت

الخلاص قد حان ، فثارت في وجه حكام المغول . ومن هذه المدن مدينة هراة ، وهي

المدينة الخراسانية الوحيدة التي سلمت إلى حد ما من التخریب كما تقدم ، فقد اشتعلت

فيها نار الثورة عند ما سمع سكانها بانتصار جلال الدين في إقليم يروان . لذلك عاتب

چنگيزخان ابنه تولوى لأنه لم يقتل جميع السكان فيها عندما استولى عليها^(٣) . ثم أرسل

چنگيزخان جيشا مغوليا كبيرا لتأديب سكان هذه المدينة ، واستعد السكان للمقاومة

بعد أن عقدوا العزم على أن يجهدوا إلى آخر قطرة من دماهم ، ولكن الانقسام مالم يث

أن دب بين صفوف رجال الجيش فيها ، إذ أراد بعض الجنود التسليم بعد أن وجدوا

ألا فائدة من المقاومة ، على حين رأى بعض آخر أن يموتوا في ساحة القتال بدلا من

أن يستسلموا لأعدائهم وقد أدى هذا الانقسام إلى سقوط المدينة في اليوم الثالث من

شهر جمادى الآخرة سنة ٦١٩ هـ (١٤ يونيو سنة ١٢٢٢ م) . وبلغ عدد من قتلوا على أيدي

المغول ، كما قيل ، مليوناً وستمائة ألف رجل ، كما أجزز المغول على كل شيء في المدينة ،

ولم يعفوا من القتل إلا أصحاب المهن والحرف للاستفادة من خبرتهم^(٤) .

وكان انتصار جلال الدين على المغول في سهول يروان انتصارا مؤقتا بينما كان

يوزع الغنائم على قواده وجنوده ، أشد النزاع بين قائدين من كبار قواده على حصان عربي

سكان كل منهما يريد له لنفسه ، وبلغ من حدة الخلاف أن ضرب أحدهما الآخر على رأسه

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٨١ .

(٣) Howorth : History of the Mongols, part I, p. 91.

(٤) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. I pp 311 - 314.

بسوط كان يحمله . ولم يرض السلطان عن هذه الإهانة ، ولم يقبل القائد المعتدى أن يعتذر عما بدر منه ، وكانت النتيجة أن انسحب القائد الآخر بجنوده إلى مدينة « بشاور » ، على حدود الهند ، وانضم إليه عدد كبير من الجنود الغورية من مدينة غزنة بعد أن خابت جميع جهود السلطان لإعادتهم . ولما وجد جلال الدين أن جيوشه أصبحت مقصورة على الأتراك والخوارزميين دون الجنود الغورية الذين كانوا يكوّنون عصب الجيش الخوارزمي ، أدرك أنه لم يعد قادرا على مواجهة المغول ، ولم يربداً من الانسحاب إلى السهل الواقع غرب نهر السند وخاصة عند ما علم أن چنكيزخان قدم إلى إقليم غزنة لينتقم لهزيمة قائده في سهول يروان (١) .

ولما لانت قناة أولئك القواد الذين تركوا الجيوش الخوارزمية في مدينة غزنة وفكروا في العودة إلى جيوش جلال الدين ، كان الوقت قد أزف والفرصة قد ضاعت . وقد عزم جلال الدين على جمع سفن ليبر بها هو وجنوده نهر السند على يجد مأمنا في بلاد الهند ؛ على أنه لم يستطع أن يحصل إلا على سفينة واحدة ، أمر أن تنقل فيها أمه وزوجه ولكن المركب لم تلبث أن تحطمت وتهدر عبورهم . وفي هذه الأثناء وصل چنكيزخان يتحرق شوقا إلى الثأر (٢) .

لما علم چنكيزخان أن عدوه الخوارزمي يريد عبور نهر السند ، سار إليه مسرعا واستطاع أن يأمر مؤخرة جيوشه ، وحاول أن يطوق الجزء الباقي بجيوشه التي تجمعت على شكل نصف دائرة ، وبهذه الخطة انحصرت الجيوش الخوارزمية بين نهر السند من جهة والجيوش المغولية من جهة أخرى . وقد رأى جلال الدين أن يختار بين أحد أمرين ، إما أن يبذل أقصى ما يستطيعه من جهد فينتصر على المغول ، أو يموت إما بسيف المغول ورماحهم ، وإما غرقا في نهر السند . وقد استطاع جلال الدين أولا أن يثبت لهجوم المغول بل إنه كما يقول النسوي ، « حمل بنفسه على قلب چنكيزخان (كذا في الأصل) ، فزقه بددا وولى اللعين بنفسه هزيمًا وكادت الدائرة تدور على الكفار والهزيمة تستمر بأهل النار لولا أن اللعين أفرد قبل اللقاء الكمين وفيه عشرة آلاف فارس من نخب وجاله . . . فخرجوا على ميمنة جلال الدين . . . فكسروها . . . فتبدد نظامه ، وتزعزت عن الثبات أقدامه (٣) . »

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٨٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٨٣ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٨٣ — ٨٤ .

ولم تكن ميسرة جلال الدين أسعد حظا من ميمته، فالبثت أن حلت بها الهزيمة . وقد وقف جلال الدين في القلب ومعه سبعمائة رجل يقاتلون بشجاعة نادرة، ويحاولون إحداث ثغرة في صفوف أعدائهم يهربون منها . ولما لم يجد جلال الدين سبيلا إلى اختراق صفوف المغول ولي وجهه شطر النهر وقذّب بنفسه وبمحضانه فيه من ارتفاع عشرين ذراعا ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يعبر النهر إلى الجانب الشرقي . وقد قُتل عدد كبير من جنوده وغرق أولئك الذين حاولوا العبور إلى الضفة الشرقية ، كما أسر أحد أبنائه وكان في السابعة من عمره ، ثم قتله چنكيزخان بين يديه . ولما اقترب جلال الدين من نهر السند ، رأى والدته وأم ابنه وحريمه يصحن باقعه عليك اقتلتنا وخلصنا من الأمر ، فأمر بهن ففرقن وهذه من عجائب البلايا ونوادير الرذايا^(١) .

وبرى كل من دوسون وهورث^(٢) ، أن نساء السلطان وقعن في الأسر ولم يشيرا إلى فرقهن في ماء السند ؛ كما ذكر كل من ابن الوردي^(٣) والنسوي^(٤) . والحقيقة أن أم جلال الدين ونساءه قد فرقن فعلا في ماء السند ، وأما التي أسرها المغول فكانت متركبان عاتون أم السلطان هلاء الدين خوارزم شاه التي أسرت في تلك القلعة بإقليم مازندران عند فرارها إلى العراق العجمي على ما ذكرنا . ومن الطريف أن جلال الدين منكبرتي احتفظ بذلك الجواد ، الذي هرب به نهر السند وكان سبيا في انقاذ حياته ، دون أن يركبه حتى استعاد بلاده بعد رحيل چنكيزخان عنها .

" وكانت الجيوش المغولية تتوق إلى اللحاق بجلال الدين ، وهم كثير منهم بعبور النهر غير أن چنكيزخان أسرع ومنع جنوده من تنفيذ هذا العمل . ولما علم چنكيزخان أن عدوه قد أمر بأن يلقى كل ما كان يمتلكه من ذهب وفضة في نهر السند حتى لا يقع غنيمة سهلة في يد المغول ، أرسل بعض رجاله فغاصروا في النهر وأمكنهم أن ينتشلوا بعض هذه الأموال^(٥) . ورغم حرج موقف الخوارزميين في هذه الموقعة ، ورغم

(١) ابن الوردي : قصة المختصر في أخبار البشر ، ص ١٥٥ .

(٢) D'ohsson : tom. I, p. 307. & Howorth : part I, p. 90.

(٣) ابن الوردي : قصة المختصر في أخبار البشر ، ص ١٥٥ .

(٤) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٨٤ .

(٥) ابن الوردي : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤١٢ — ٤١٣ .

تلك الهزيمة التي حلت بالسلطان الخوارزمي وجنوده ، استطاع أربعة آلاف من الجنود الخوارزميين أن ينجوا بأنفسهم بعبورهم إلى الضفة الشرقية حيث وصلوا ، حفاة عراة كأنهم أهل النشور حشروا فبعثوا من القبور^(١) . ومن الطبيعي أن يفرح السلطان الفار ببقاء هذا العدد الذي نجا من جنوده .

ولم تكن خطة جلال الدين منكبرتي التي ترمي إلى الهرب إلى بلاد الهند بالخطة الجديدة علىحكام إقليم غزنة ، فقد كانت البلاد الهندية مأوى للحكام من الأتراك الذين فروا إليها من قبل^(٢) ، فقد قامت للدولة الغورية في هذه الجهات ثم توسع إحكامها في امتلاك الأقاليم الهندية ، بل إنهم اقتصروا على حكم هذه الأقاليم بعد أن ضاعت هيبتهم في إقليم غزنة ، على أثر ظهور الدولة الخوارزمية واتساع رقعتها في هذه الجهات .

ولما عبر الخوارزميون نهر السند كانوا لا يملكون لباساً ولا سلاحاً وكان هدفهم الأول البحث عن مأوى أمين يلجئون إليه ، وينعمون فيه بالراحة بعد تلك الحرب التي عانوا من أهوالها الشيء الكثير . واستطاع الخوارزميون أن يغيروا على بعض بلاد الهند العامرة ، وأن ينهبوا منها ما وجدوه من ملابس وما كل وسلاح وغيره من الغنائم النفيسة . وكانت هذه الأقاليم من البلاد الهندية تحت حكم أسرات تركية ، عبرت إلى هذه الجهات بعد سقوط الدولة الغورية . وكان أقوى هؤلاء الأمراء حكام كرشي ولاهور ومولتان ودهلي^(٣) .

أخذ جلال الدين يتنقل بين هذه المدن جميعاً ثم فكر في الالتجاء إلى مدينته دهلي — وكانت أبعد هذه المدن عن الدولة الخوارزمية — ليتخذ منها ملجأ له ، عندما علم أن هناك فصائل مغوية تجدد في البحث عنه ، ولما علم أمير هذه المدينة باقتراب جلال الدين من مدينته ، عمل على إبعاده بشتى الوسائل والأساليب ، فأرسل إليه الهدايا وعرض عليه صداقته كما عرض عليه ابنته ليتزوج بها ، ثم أفهمه أن جو بلاده لا يلائمه ونصح له

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٨٥ .

(٢) Lane - poole : Mediaeval India Under Mohammed in Rule, p. 71.

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom i. p. 309.



منظر قتال في عخلوط من كتاب جامع التواريخ لشيد الدين برجع إلى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م)
 (من كتاب مارتن في التصوير والمصورين في إيران والمند وركيا)

بالابتعاد إلى مدينة «مولتان» على نهر السند . وقد امثل جلال الدين فعلا لنصيحة
حاكم دهلي وجاد عن المدينة .

وبما لاشك فيه أن جلال الدين ، في الفترة التي قضاها في بلاد الهند ، كثيرا ما كان
يظهر بمظهر الكسير الذليل من هول ما أصاب دولته عامة ، وأصابه هو خاصة ، بعد
موقعة السند . وقد نظم ابن الوردي ^(١) قصيدة وصف فيها جلال الدين ودولته ،
وكيف انحدر هو ودولته إلى هاوية عميقة ، بعد أن قدر لهذه الدولة أن تصل إلى
ذروة المجد . وقد جاء في هذه القصيدة ما يلي :

من ملك الدنيا ودانت له	فالجهل كل الجهل أن يحسدا
بقدر ما ترفع أصحابها	تخطهم فالرأى قرب المدا
وبلى على المغبرى بعليلاتها	ميصحك اليوم ويكي غدا
تعطيه كالشفق لسكرها	تبطش في الأخذ كبطش العدا
مبتدأ حبلو لمن ذاقه	ولكن انظر خبر المبتدا
غدارة خيانة أهلها	ما زهد الزهاد فيها سدى

• • •

أما المغول في هذه الفترة فنه ام يعيشون فساداً في إقليم غزنة ، وينعمون
بانتصاراتهم ، ويذيقون من بقى من الخوارزميين صنوف العذاب . ولم يشأ
چنكيزخان أن يترك هذا العدد القليل من الخوارزميين الذين عبروا السند
إلى بلاد الهند ، بل أرسل قائدين من قواده هما بلا Bela وتورتاي Tourtai لمطاردة
هؤلاء القوم العزل وسلطانهم الكسير . وقد عبر هذان القائدان نهر السند وبحثا عن
السلطان الخوارزمي مطاردين لياه ، ولكنهما لم يستطيعا اللحاق به ، وخشيا التوغل في
الأراضي الهندية المترامية الأطراف ، ولا سيما أن عدد رجالهما لم يكن بالكثرة التي
تسمح بالتوغل في هذه البلاد المجهولة ^(٢) .

ولم يكن من خطة المغول أن يستولوا على بلاد الهند ، لذلك أخذ الخطر المغولي
يتضاءل بسرعة كما ظهر بسرعة . ومن حسن حظ هذه البلاد أن المغول لم تتجه
أنظارهم إليها في وقت ما ^(٣) . وبما لاشك فيه أنه لولا فرار جلال الدين إلى هذه البلاد ،

(١) ابن الوردي : تنمة المختصر في أخبار البشر ، ص ١٤٥ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 309 — 310.

(٣) Lane - Poole : Medjæval India Under Mohammedan Rule, p. 71.

لما فكر چنكيزخان في إرسال هذا الجيش المغولي الصغير عبر نهر السند على أن هذين القائدين قد حاولا الاستيلاء على بعض المدن الهندية مثل مولتان ، غير أن جيوشهما لم تكن بالقوة التي تتبع لها الاستيلاء على هذه المدن الكبيرة ، فضلا عن أن خططهم الرئيسية كانت تنحصر في مطاردة السلطان . ولذلك اكتفى المغول بتخريب ضواحي مولتان ولاهور وبشاور ، ثم هادوا فعبروا نهر السند وانضموا إلى الجيش الرئيسي بقيادة چنكيزخان (١) .

وكان إقليم غزنة آخر حصون الخوارزميين التي غزاها المغول ، ونستطيع أن نقول إنه بخضوع هذا الإقليم ، لم يعد هناك ما يحول بينهم وبين السيطرة التامة على جميع أراضي الدولة الخوارزمية التي ألحق المغول بها التخريب من كل جانب ، ولم يسلم من هذا التخريب إلا الأقاليم البعيدة التي لم تكن في متناول أيديهم أو تلك التي وجد المغول ألا فائدة من الاستيلاء عليها كأتابكيتي فارس ولورستان (٢) . وبعد أن اداهان چنكيزخان إلى أنه وضع يده على فريسته ، بل وانتقم من السلطان الخوارزمي الذي كان السبب في مقتل التجار في مدينة أترار ، وبعد أن شرد من شرد من أعضاء الأسرة الخوارزمية ، وأسر من أسر منها ، فسكر في العودة إلى بلاده . وقبل أن يرحل إلى منغوليا قضى وقتاً ليس بقصير يطوف في الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية ، ويلقي نظرة على المدن الخوارزمية المخربة ، ولأول مرة نراه ينصب حكاما مدنيين على البلاد التي خضعت لنفوذه . وفي ربيع عام ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) . هزم على العودة إلى منغوليا عن طريق بلاد الهند وهضبة التبت .

تضاربت الأقوال في سبب عودة چنكيزخان إلى بلاده ، ولكن السبب الرئيسي الذي دفعه إلى العودة ، هو ثورة قبائل التانجوت عليه . وما يدل على صحة هذا القول أنه سار لإخضاع هذه القبائل على أثر وصوله إلى منغوليا بأيام قليلة . وقبل أن يبدأ چنكيزخان في الرحيل عن البلاد الخوارزمية ، أمر بقتل جميع الأسرى الكثيري العدد الذين احتشدوا في خيام المغول ، بحيث جمعت كل خيمة حوالى عشرين أو ثلاثين أسيرا ، فقتلوا جميعاً في ليلة واحدة (٣) . ولعله فعل ذلك لاعتقاده أنه سيعجز عن

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 310.

(٢) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 91.

أنظر خريطة « الشرق الإسلامي بعد عصر ملكشاه . »

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 318 — 319

تزويد هذا العدد الغفير من الأسرى بالطعام في الطريق .

سارت الجيوش المغولية في طريق التبت . ولكن هذه الفصائل ما كادت تشرع في التحرك حتى أدرك چنكيزخان مدى الصعاب التي سيلاقها أثناء عبوره هذه الأقاليم الجبلية الوعرة المغطاة بالجليد ، فعاد إلى بشاور على الحدود الهندية ، وأثر أن يسلك الطريق الذي سلكه عند قدومه إلى فارس . ولما وصل إلى بلخ أمر بقتل جميع السكان الذين عادوا فسكنوا هذه المدينة . وبعد فترة قصيرة عبر چنكيزخان نهر جيحون ثم وصل إلى مدينة بخارى ، وكانت كما قلنا من أمهات مدن بلاد ما وراء النهر ، وهناك أمر باستدعاء بعض رجال الدين من المسلمين ، وطلب منهم أن يشرحوا له مبادئ الدين الإسلامي ، فلما انتهوا من شرحهم اقتنع چنكيزخان بكل ما أنزل على الرسول ماعدا الحج إلى بلاد الحجاز ، وقال إن الأرض جميعها ملك لله الذي يقبل الدعاء من عباده في أى مكان . وقد رحل چنكيزخان بعد ذلك إلى سمرقند حاضرة بلاد ما وراء النهر ، فلما وصل إليها خرج كبار رجال الدين فيها لاستقباله ، فلما مثلوا بين يديه طلب منهم الدعاء له في الخطبة ، ثم أمر بإعفائهم من الضريبة التي كانوا يدفعونها . وبينما كان چنكيزخان في هذه المدينة ، أرسل في طلب أبنائه ليكونوا إلى جانبه حينما يرحل إلى منغوليا .

وقد قضى چنكيزخان شتاء عام ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) في سمرقند وضواحيها . ولما حل الربيع بدأ في المسير ، وبالقرب من نهر سيحون التقى بابنيه چجتاي وأجتاي اللذين كانا يصطادان في ضواحي بخارى وكابا يرسلان إلى أبيهما في كل أسبوع من أسابيع الشتاء خمسين حملا من الطيور البرية . ولم يحضر چوچی إلى جوار أبيه في ذلك الوقت لأنه لم يغفر لأخيه چجتاي ما قام بينهما من نزاع أمام مدينة خوارزم ، ذلك النزاع الذي أدى إلى تولى أخيه الأصغر أجتاي القيادة بأمر چنكيزخان . وقبل أن يترك المغول حدود الدولة الخوارزمية أمر چنكيزخان تركان خاتون أم السلطان علاء الدين خوارزم شاه كما أمر زوجاته أن يلقين آخر نظرة على أراضى وطنهن .

قضى چنكيزخان سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) في الطريق إلى مرطه الأصلية ، وتقابل في الطريق مع حفيديه كوبلاي Kubilai وهو لاكو ، وكانا قد خما لاستقباله . وكان كوبلاي في ذلك الوقت في الحادية عشرة من عمره . أما هو لاكو فكان في التاسعة .

وأخيرا وصل چنكيزخان إلى بلاده سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) حيث حارب أعداءه القدامى من القبائل وخاصة قبائل التانجوت ، كما أعلن الحرب على إمبراطورية سونج في بلاد الصين ، واشترك چنكيزخان في القتال بنفسه ، ولكنه مات في سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) ولم تكن الحرب قد انتهت بعد ^(١) .

وبعد أن عاد چنكيزخان إلى بلاده أخذ يفكر في تنظيم شئون دولته الداخلية والخارجية ، واعتمد على أبنائه في تنظيم هذه الدولة ، فتراه مثلا يعتمد على ابنه چوچی في تنظيم قصوره وتزيينها ، وعلى ابنه چجتای في تنظيم القضاء ، أما ابنه أجتای فقد اختص بالشئون المالية ، واختص ابنه تولوی بالشئون الحربية ^(٢) .

ثم رأى چنكيزخان وهو على فراش الموت أن هذه الإمبراطورية الواسعة لن يستقيم أمرها إلا إذا قسمها بين أبنائه ؛ وقد تم هذا التقسيم فعلا فكان من نصيب چوچی بلاد خوارزم وخراسان والأقاليم الواقعة شمالي بحر آرال والتي تمتد غربا حتى تشمل بلاد القفجاق شمالي البحر الأسود وكذلك الأقاليم التي تمتد حتى بلغاريا التي أخضعها القائدان شې وسوبوتای ^(٣) . على أن هذا الابن توفي قبل وفاة أبيه تاركا نصيبه لابنه باتو الذي أخضع روسيا وبلغاريا وخرم بولندا ومورافيا ودلماشيا ^(٤) أما چجتای فقد اختص ببلاد ماوراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنه ^(٥) . واختص أجتای بالأراضي التي يجري فيها نهر إميل ، وتشمل بعض أقاليم دولة الخيطة . أما الأراضي الواقعة حول قره قورم ، حاضرة المغول إذ ذاك ، فكانت من نصيب تولوی .

وكما قسم چنكيزخان أملاكه بين أبنائه ، كذلك وزع عليهم جيوشه ، ثم سار كل من هؤلاء الأبناء مع قواده وجنده إلى الجهة التي خصصت له ^(٦) . وعلى هذا النحو كانت إمبراطورية المغول عند وفاة چنكيزخان .

Lamb : Genghis Khan, The Emperor of All Men, p. 192 & seqq. (١)

De Guignes : Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols (٢)
et des Autres Tartares Occidentaux, tom iii. p. 71.

Howorth : History of the Mongols, part i. p. 105. (٣)

Malcolm : The History of Persia, vol. i. p. 260. (٤)

Skrine & Ross : The Heart of Asia, pp. 160 — 161. (٥)

D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. ii. pp. 2—7. (٦)

البَابُ الثَالِثُ

الدولة الخوارزمية في عهد جلال الدين منكبرتي

- ١ - عودة جلال الدين منكبرتي إلى عرش الدولة الخوارزمية .
- ٢ - اتساع نفوذ جلال الدين منكبرتي .
- ٣ - زوال الدولة الخوارزمية على أيدي المغول .

الباب الثالث

الدولة الخوارزمية في عهد جلال الدين منكبرتي

١ - عودة جلال الدين منكبرتي إلى عرش الدولة الخوارزمية

تمتاز الفترة التي حكم فيها جلال الدين منكبرتي الدولة الخوارزمية بطابع خاص يختلف عن عهود من جاء قبله من السلاطين ، إذ كانت الدولة في هذا العهد تعاني آثار التخريب الذي لحق بأقاليمها المختلفة بعد غزو چنكيزخان ، فاضطربت أحوالها السياسية والاجتماعية وأصبحت أقاليمها المختلفة المتعددة خاوية على عروشها ، وباتت طعمة للبغصبين من الحكام والقواد .

ونلاحظ أن نشاط جلال الدين منكبرتي واتجاهاته السياسية قد اقتصر على على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية التي عرفنا حدودها في عهد أبيه علاء الدين خوارزم شاه كان نشاطه كله نشاطاً حرياً ، إذ حاول أن يكسب لنفسه ولدولته بالقوة ما لم يستطع أبوه أن يكسبه بالسياسة والقوة معا . لذلك عادى جلال الدين كل جيرانه من مسلمين ومسيحيين بلا استثناء ، وكان من أثر ذلك أنه لم يجد في النهاية من يقف إلى جانبه عندما عاد المغول فغزوا الدولة الخوارزمية من جديد

...

ترك چنكيزخان الدولة الخوارزمية وعاد إلى منغوليا كما رأينا ، بعد أن جعلها أشبه ما تكون بصحراء جرداء ، لا زرع فيها ولا ماء ، فأباد سكانها وخرّب مدنها ، تلك المدن التي أصبحت أطلالا لا تجد من يبكيها . كذلك نجح چنكيزخان في تشريد علاء الدين خوارزم شاه ، الذي ظل طريدا في أراضي الدولة الخوارزمية . تلتفقه مدينة وتلفظه أخرى ، إلى أن مات منكسر الجناح ذليلا في إحدى جزر بحر قزوين . أما أبناؤه فمنهم من قتل ، ومنهم من اختبأ وتوارى عن الأعين ، ومنهم من ظل يحارب

إلى أن استولى عليه اليأس ثم فر ، وقد رأينا كيف قتل ركن الدين غور شاه وقطب الدين أزلاغ شاه وأق شاه من أبناء علاء الدين . كما رأينا كيف فر غياث الدين شيرشاه إلى مازندران واعتصم بها حتى ابتعد المغول ثم أخذ يظهر على مسرح التاريخ من جديد . أما أكبر هؤلاء الأبناء وهو جلال الدين منكبرتي فقد فر إلى بلاد الهند كما ذكرنا ، وظل بها لا يلوى على شيء .

لما قسم علاء الدين خوارزم شاه أقاليم الدولة الخوارزمية بين أبنائه على النحو الذي بيناه ^(١) ، اختص ابنه غياث الدين بحكم بعض الأقاليم في جنوب وغرب الدولة ، وظل يحكم هذه الأقاليم حتى الغزو المغولي بمساعدة خاله « إيغان طائيسى » ، الذي كان نافذ الكلمة في هذا الجزء من الدولة الخوارزمية . فلما رحل المغول عن بلاد الدولة الخوارزمية ، عاد غياث الدين واسترد أملاكه ، بعد أن قضى بعض الوقت معتصماً في قلاع مازندران . ولكن خاله « إيغان طائيسى » حدثه نفسه في هذه الأثناء بأن يشق عصا الطاعة على هذا الأمير الخوارزمي ، وينفرد بالحكم في هذه الأقاليم ، فاتفق مع أحد كبار القواد على العصيان ^(٢) . وقد أيد الخليفة الناصر العباسي هذا الأمير العاصي سراً وشجعه على الثورة ، بل أعطاه تفويضاً بحكم هذه البلاد مدفوعاً إلى ذلك بعدائه القديم للخوارزميين . ولذلك قويت عزيمته وصمم على شق عصا الطاعة على غياث الدين ، واستطاع أن يجذب إليه عدداً كبيراً من الجنود الخوارزميين من أتباعه المخلصين . على أن غياث الدين ما لبث أن واجه هذه الجيوش الثائرة وهزمها شر هزيمة سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) ^(٣) وفر المنهزمون إلى أذربيجان واعتصموا بها ^(٤) ، واضطر « إيغان طائيسى » إلى قبول سيادة غياث الدين ، الذي أصبح سييداً على العراق العجمي وخراسان ، بالإضافة إلى إقليم مازندران جنوبي بحر قزوين ^(٥) .

(١) راجع ما كتبناه في صفحة ٢٩ .

(٢) يسمى هذا القائد أليك الشامي .

(٣) يلاحظ أن چنكيزخان كان في ذلك الوقت على الحدود الشرقية للدولة الخوارزمية على أهمية الرحيل إلى منغوليا .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٥) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. iii. p. 2.

وفي أواخر سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) صمم غياث الدين على الاستيلاء على أتابكية فارس ، فباغت صاحبها الأتابك سعد بن تكللا ، الذي لم يتخذ عدته للدفاع ، لذلك فر إلى إحدى القلاع المنيعه واختبأ فيها فسهل بذلك استيلاء غياث الدين على مدن هذه الأتابكية واحدة تلو أخرى ، ثم تمكن الخوارزميون من الإجهاز على هذه الأتابكية بعد الاستيلاء على حاضرتها شيراز سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) دون مقاومة . وباستيلاء الخوارزميين على هذه المدن لم يبق في يد الأتابك سعد سوى بعض القلاع المنيعه التي لم يتمكن الخوارزميون من الاستيلاء عليها . وأخيراً تم الصلح بينهما واتفقا على أن يحكم كل منهما جزءاً من أتابكية فارس ^(١) .

وكان من أثر خضوع هذه البلاد لغياث الدين أن دعى له على المنابر في خطبة الجمعة ، ودُفعت له الجزية . على أن القوة التي اكتسبها غياث الدين بعد هذه السلسلة من الفتن والدسائس والمؤامرات قد قدر لها أن تموت في مهدها لأسباب كثيرة منها أن كثيرين ممن قبلوا طاعته اقتصروا على الوغد بإرسال هذه الجزية دون أن يقوموا بتنفيذ ما وعدوا به . وفضلاً عن ذلك كان غياث الدين سيئ السيرة ، إذ كان كما وصفه النسوي ، متوفراً على لذاته منهمكاً في أهوائه وشهواته ، لا يشهد مقاماً محموداً ولا يشهر حساماً مغموداً ، . أضف إلى ذلك أن الأتراك في هذه البلاد عمدوا — بعد أن رأوا ضعف سياسته — إلى تخريب ما تصل إليه أيديهم ، ولم يستطع غياث الدين أن يضرب على أيدي هؤلاء ، بل على العكس نراه يحاول إرضاءهم بشتى الوسائل ، ومنها الإسراف في منحهم الألقاب ، فلقب البعض بالأمراء والبعض الآخر بالملوك وبعض ثالث بالخانات ^(٢) .

(١) ابن الوردي : تنمة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٤٥ .
(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٩٩ — ١٠٠ . ومما هو جدير بالذكر في هذه المناسبة أن أبا بكر الخوارزمي (٣٢٣ — ٣٨٣ هـ = ٩٣٤ — ٩٣٩ م) أنشد بعض أبيات صور فيها موقفاً مشابهاً حين قال :

ما رأيت بي العباس قد فتحوا من الكفى ومن الأسماء أبوابا
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم ما كان يجمله للحش بابا
قل الدرهم في كفى خليفنا هذا فأتق في الأقوام ألقابا
ولما كان الخوارزمي قد عاش في عصر كان البويهيون يسيطرون فيه على الدولة العباسية ويتحكمون في

ومن الأسباب التي ساعدت على اضطراب الحالة السياسية في هذه البلاد تحكم أم غياث الدين في أمره حتى أنها تلقبت بلقب «خداوند جهان» أسوة بهذه الألقاب التي تلقبت بها تتركان خاتون أم علاء الدين خوارزم شاه^(١). وقد استمر الحال على ذلك في هذه الأقاليم من الدولة الخوارزمية حتى عاد جلال الدين منكبرتي من منفاه في بلاد الهند، واستطاع أن يسيطر على الأملاك التي يدأخيه.

رحل جلال الدين منكبرتي إلى بلاد الهند كما رأينا، فأرأى وجه المغول بعد أن حلت به الهزيمة في موقعة السند. وقد توغل في بلاد الهند، وحاول أن يلجأ إلى شمس الدين ألتش سلطان دهلي^(٢).

وقد أدرك شمس الدين حرج الموقف وحاول أن يبعد جلال الدين عن بلاده بشتى الوسائل، فأرسل إليه الهدايا وأخبره أن جو بلاده لا يلائمه، ونصح له بالالتجاء إلى مدينة «مولتان» على نهر السند. وقد عاد جلال الدين فعلاً بمجيوشه فهدل عن فكرة الالتجاء إلى مدينة دهلي، وأمكنه أن يستولى في أثناء تقهقره على كثير من الغنائم من البلاد التي مر بها.

وقد زادت قوة جلال الدين في بلاد الهند وخاصة عندما انضم إليه كثير من القواد الخوارزميين الذين جاءوا من العراق العجمي، فرارا عن غياث الدين، ومضطرا على سياسته هناك. وقد ساعد هذا المدد السلطان الخوارزمي على مهاجمة الأقاليم الواقعة في حوض نهر السند، فتمكن من السيطرة على بعض هذه الأقاليم والاستيلاء على خيراتها، بعد أن أعمل القتل في رقاب أهلها. وقد أدرك سلطان دهلي مدى الخطر الذي يهدد بلاده إذا ما سيطر جلال الدين منكبرتي على أقاليم السند، فسار إلى نجدة

== الخلفاء أنفسهم مما دفع هؤلاء الخلفاء إلى إرضائهم بشتى الوسائل والأساليب، منها الإسراف في منحهم الألقاب فمن المحتمل أن يكون الخوارزمي قد قصد بهذه الأبيات أن يصور حال العباسيين في ذلك الوقت من حيث إسرافهم في منح الألقاب للبويهيين.

(١) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ١٠٠.

(٢) كان «شمس الدين ألتش» أحد أرقاء الترك في الدولة الغورية، وقد سار إلى بلاد الهند بمسند سقوط هذه الدولة، وتمكن من تأسيس إمارة في الجزء الشمالي من هذه البلاد.

جيرانه وانضم إلى ذلك الحلف الذي تكون من أمراء الهند لطرد الخوارزميين من هذه البلاد .

ولم يستطع جلال الدين أن يقف أمام هذه القوات المتحالفة ، ولما عجز عن مقاومته لقواده ، انقسم الخوارزميون إلى فريقين ، فسيرى رأى ضرورة العودة إلى الدولة الخوارزمية وانتزاع السلطة من يد غياث الدين ، وفريق آخر أثر البقاء في بلاد الهند ليسكون في مأمن من چنكيزخان وجيوشه ، إذا ما فكر المغول في العودة إلى غزو الدولة الخوارزمية ، وكان من رأى هذا الفريق أن ذلك الحلف الهندي لن يكون شيئاً مذكوراً إذا ما قيس بجيوش چنكيزخان . غير أن جلال الدين منكبرتي قد أثر ، بدافع من الحنين إلى وطنه ، الأخذ بالرأى الأول فعبر نهر السند في سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) وأسرع إلى الأقاليم الغربية من دولته ، بعد أن عين وهو في الطريق أحد قواده حاكماً على مدينة غزنة وما يليها^(١) .

اتخرق جلال الدين ذلك الإقليم المجدب الواقع إلى الجنوب من بلاد الدولة الخوارزمية ، الذي يفصل بلاد الهند عن إقليم كرمان ، وفقد عدداً كبيراً من رجاله الذين ماتوا من شدة الجوع والعطش وبسبب انتشار الأمراض بينهم ، حتى أنه لما وصل إلى كرمان لم يكن معه سوى أربعة آلاف رجل^(٢) . وقد حل بجلال الدين في هذه البلاد ما حل بالأسكندر الأكبر من قبل بعد أن أخفق في الاستيلاء على بلاد الهند . ولما وصل جلال الدين إلى كرمان ، استقبله حاكمها براق الحاجب ، الذي ينتمى إلى دولة الخِطّاء والذي استطاع أن يؤسس لنفسه دولة في كرمان سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢ م)^(٣) . وقد أظهر براق ولاءه للسلطان الجديد وقدم إليه ما استطاع أن يحمله من هدايا ، ولكي يؤكد هذا الولاء عرض على السلطان إحدى بناته فتزوجها . وبعد أن تأكد جلال الدين من خضوع أتابكية كرمان لسلطانه ، سار إلى أتابكية فارس حيث أظهر له الأتابك سعد بن زنكي ، ولاءه ، وأكثر من ذلك فقد سار على سنة التقرب من

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. iii. pp. 3 -- 4

(٢) Ibid, tom. iji. p. 5.

(٣) أنظر « خريطة الشرق الإسلامي بيد عصر ملكشاه »

الحكام المنتصرين فزوجه من ابنته^(١) . ومما ساعد على توطيد المودة بين جلال الدين والآتابك سعد ، ما كان يعلمه جلال الدين من العداوة القائمة بين أخيه غياث الدين وبين هذا الآتابك . وقد رأينا كيف غزا غياث الدين آتابكية فارس قبل قدوم جلال الدين بقليل ، واستولى على بعض أملاكه .

كان جلال الدين في « شيراز » حاضرة آتابكية فارس عند ما جاء إليه الآتابك علاء الدين صاحب ميرد ، معلنا خضوعه له ، بل إنه حذا حذو كل من آتابكي كرمان وفارس فزوج جلال الدين من ابنته . ولما أدرك جلال الدين منكبتي صدق نوايا هذا الآتابك ، أقره على ما بيده من البلاد ، ثم سار إلى مدينة أصفهان التي لم تلبث أن قدمت إليه فروض الطاعة والولاء . ثم تقدم السلطان الخوارزمي لملاقاة أخيه غياث الدين ، ونازله في ساحة القتال ، لأول مرة منذ عودته من البلاد الهندية .

كان غياث الدين يعسكر بجيش كبير على مقربة من مدينة الري ، كما كان على أتم استعداد لمواجهة جلال الدين الذي حمل جنده أعلا ما بيضاء كتلك الأعلام التي كان يحملها المغول ، فلما رأى غياث الدين ذلك المنظر ظن أنه أمام جيش مغولي ، فولى الأدبار ، ثم عاد على رأس جيش كبير يتألف من ثلاثين ألف جندي من الحيلة^(٢) . ولما وجد جلال الدين أنه لن يستطيع أن يواجه هذا العدد الكبير ، أتى أخاه عن طريق الحيلة والغدر ، فأعلن أنه لم يأت من بلاد الهند إلا ليكون إلى جواره ، وأعلن أنه ليس له من مأرب آخر ، وقد خدع غياث الدين بهذه الحيلة وفرق جيوشه . ولما اطمأن جلال الدين إلى ضعف خصمه ، انقلب عليه وهزم ما بقي من جيوشه هزيمة منكرة ، فانسحب غياث الدين إلى مدينة الري واعتصم بإحدى القلاع المنيعة فيها^(٣) . وهكذا أصبح جلال الدين يسيطر على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ، وخاصة بعد أن حضر من بقي من قواد هذه الدولة وأعلنوا ندمهم على عصيانهم ، وتوسلوا إلى السلطان أن يصفح عنهم ، فأجابهم جلال الدين إلى طلبهم . كذلك نرى حكام المدن والأقاليم المختلفة الذين استقلوا ببعض ولايات خراسان ومازندران والعراق العجمي في فترة

(١) Howarth : History of the Mongols, part i. p. 126.

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. iii. p. 8.

(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي : ص ٩٥ .

المفوضى التى أعقبت رحيل جنكيز خان عن البلاد لإسلامية ، يسارعون إلى جلال الدين ويعلمون طاعتهم له ، فمنهم من صفح عنه وأعادته إلى بلاده معزراً مكرماً ، ومنهم من عزله عما كان بيده من البلاد^(١) .

وقد وصف النسوى حالة البلاد الخوارزمية بعد عودة جلال الدين بقوله .
« فأفرجت أيام السلطان عن الناس الكرب وأطفأت منيران ،
« الفتن ما التهاب ، وتفرقت الوزراء والعمال في الأطراف بالتواقيع ،
« السلطانية فضبطوها .^(٢) »

وقد أكد جلال الدين لوالة غياث الدين الذى ذكرنا ، أنه لا يضر الشر لأخيه ، بل إنه يحل من نفسه كما يحل أقرب المقربين إليه . فأرسلت هذه إلى ابنها وهدأت من روعه ، فعاد غياث الدين إلى جوار أخيه وأصبح أميراً كسائر الأمراء التابعين له .

استقر جلال الدين على عرش أبيه ، وامتد سلطانه على أقاليم خوارزم وغزنة وكرمان وفارس وخراسان ومازندران . أما إقليم ماوراء النهر فلم نعثر فى بطون الكتب على ما يشير إلى استعادة الخوارزميين له ، ولعل ذلك يرجع إلى تمسك المغول بالسيطرة عليه ، وربما يرجع أيضاً إلى أن الخوارزميين كانوا فى ذلك الوقت فى موقف لا يسمح لهم باستعادته . وليس معنى استرداد جلال الدين أقاليم الدولة الخوارزمية أنه أصبح صاحب النفوذ المطلق فيها . فالواقع أن الوحدة السياسية بين هذه الأقاليم لم تعد من مميزات هذا العهد . إذ استقل كل أمير بما تحت يده من إقطاع أو مدينة ، وأصبح لا يعترف للسلطان الخوارزمي إلا بتبعية اسمية . فترى من هؤلاء من يبعث بحزبة صغيرة للسلطان دفعا لشره . ومنهم من آنس فى نفسه القوة فلم يهتم بإرسال هذه الجزية إليه ولم يجرؤ السلطان نفسه على طلبها . وليس أدل على تفكك الدولة الخوارزمية فى ذلك الوقت . من أن المغول لم يجدوا أية مقاومة تذكر عند ما فكروا فى غزوها من جديد . وإذا كان جلال الدين قد استطاع أن يسيطر إلى حين على بعض أقاليم

[1] Holisson : Histoire Des Mongols, t. III, p. 9.

[2] دوى - صدره سلطان جلال الدين - منكوتى ، ص ٩٨

الدولة ، فقد كان ذلك راجعاً إلى عدم اهتمام المغول في الفترة التي أعقبت عودة جلال الدين من الهند بأمور الدولة الخوارزمية خاصة ، وأمور غربي آسيا عامة ، فقد حدث أن مات چنكيزخان في سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) ، فشغل المغول عن كل شيء ولم يهتموا إلا بشئونهم وأحوالهم الداخلية ، والاستعداد لانتخاب من يحل محل زعيمهم چنكيزخان ، لذلك نرى القواد والحكام والأمراء الذين كانوا في أماكن بعيدة عن أوطانهم يسارعون بالعودة إلى ديارهم ، حاضرة المغول . كذلك نرى المغول يهتمون في هذه الفترة بإخضاع البلاد الصينية أكثر من اهتمامهم بإخضاع أي إقليم آخر . وهكذا كان جلال الدين في مأمن من أي خطر مغولي ، إلى أن انتخب الخاقان الجديد وعاد المغول فاهتموا بالبلاد الإسلامية .

وإذا كنا نرى جلال الدين منكبرتي قد جرد على محاولة إخضاع الخلافة العباسية فقد كان ذلك راجعاً إلى تأييد الشيعة الذين كانوا يتوقون إلى قلب الخلافة الدينية ، ونرى الأتراك يعضدونه ، لاجباً فيه أو رغبة منهم في مساعدته ، بل لرغبتهم في استعادة مجد الأتراك القديم في الدولة العباسية . وسنرى فيما بعد كيف أن هذه العوامل مجتمعة ، أدت إلى نشاط جلال الدين منكبرتي السياسي والحربي في هذه الفترة من تاريخ الدولة الخوارزمية ، رغم أن نشاطه هذا لم يؤد إلى النتيجة التي كان يرجوها ، بل على العكس ساعد نشاطه الحربي على ازدياد ضعف الدولة الخوارزمية خاصة والعالم الإسلامي عامة ، فلم يثبت أمام المغول عندما فكروا في السيطرة من جديد على أراضي الدولة الخوارزمية .

٢ - اتساع نفوذ جلال الدين منكبرتي

كانت مهمة جلال الدين الأولى ، بعد أن اطمأن إلى أنه لم يعد هناك من ينازعه السلطان ، أن يوجه عنايته إلى توسيع نفوذه على حساب القوى المتعددة القائمة في ذلك الوقت ، وأن ينتقم من أعدائه القدامى الذين لم يناصروا أماء إبان الغزو المغولي . وكانت الخلافة العباسية من أهم هؤلاء الأعداء الذين وقفوا في سبيل تقدم الدولة

الخوارزمية في مصورها السابقة . وقد رأينا أن الخليفة العباسي الناصر كان إلى حد ما من العوامل التي شجعت چنكيزخان على تحقيق ما اعتزمه من غزو الدولة الخوارزمية . لذلك لا نعجب إذا رأينا أن مهمة جلال الدين الأساسية التي أخذها على عاتقه هي أن يوجه ضربته إلى الخليفة ، عدو أبيه وجده ، في بغداد نفسها . في سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) سار إلى إقليم خوزستان الذي كان تابعا للخليفة وكان تحت إمرة أحد عماليكه (١) . ولما حاصر مدينة « تستر » عاصمة هذا الإقليم صمم حاكمها على المقاومة فلم يستطع الخوارزميون الاستيلاء عليها ، ولم ينجحوا إلا في نهب كل ما وجدوه حولها ، إذ أنهم عاثوا في ضواحي هذه المدينة فسادا ، بل انحدر بعض الجنود من الخوارزميين إلى ضواحي مدينة البصرة ونهبوا ما وجدوه في طريقهم ، غير أن حاكم المدينة سرعان ما سار إليهم وقتل من لم يسمعه حظه بالفرار . وقد استمر حصار مدينة تستر نحواً من شهرين رحل جلال الدين في آخرها لجأه وسار في طريقه إلى بغداد ، فلما وصل إلى قرية « يعقوبا » (٢) استعد الخليفة للدفاع ووضع جنوده على أهبة الاستعداد (٣) . ولم يكن جلال الدين موفقاً من الناحية السياسية في محاولته غزو بغداد فلم يستطع أن يجذب إليه من يقف إلى جانبه من الأمراء المسلمين لتحقيق هذه المحاولة ، كما لم يكن موفقاً من الناحية الحربية إذ أنه كان يفتقر إلى الأسلحة والدواب التي تحمل متاع جنوده ، ولذلك كانوا ينهبون ما يجدونه من الخيل والبغال في البلاد التي يمرون بها . أضف إلى ذلك أن هؤلاء الجنود قد أنهكهم التعب بعد أن قطعوا تلك المرحلة الطويلة حتى وصلوا إلى خوزستان (٤) .

أما جيوش الخليفة العباسي فكانت رغم ضعفها ، أحسن حالا من الجيوش الخوارزمية . فقد عهد الخليفة بقيادة جيوشه إلى « جلال الدين قشتمر » الذي سار على رأس جيش يتألف من عشرين ألفاً ، كما أرسل إلى أمير إربل رسالة يحملها حجام زاجل ، يطلب منه

(١) يسمى هذا الملوك « قاتر الدين » ويلقب بوجه السبع ، وربما كان هذا اللقب كناية عن اتجاؤه بالشجاعة . أنظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٩٥ .

(٢) إحدى القرى الواقعة في طريق خراسان وتبعد عن بغداد بنحو سبعة فراسخ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٩٥ .

(٤) المرجع نفسه والصفحة .

أن يسرع إليه على رأس عشرة آلاف لمهاجمة مؤخرة الخوارزميين ، وقطع سبيل
التقهقر إذا ما ضاقت السبل في وجوههم^(١) . ولما وجد جلال الدين منكبرتي أن
جيوشه أقل عددا من جيوش الخليفة العباسي ، أخبر قشتمر أنه لم يأت إلى هنا معاديا
للخليفة ، وإنما أتى يطلب رضاه في هذا الظرف العصيب الذي أصبحت فيه البلاد
الإسلامية مهددة بغزو مغولي ثان . ولم يهتم قشتمر بما سرده جلال الدين من أقوال
يبرر بها مجيئه إلى أملاك الخليفة ، واستعد للملاقاة الخوارزميين . لذلك اضطر
جلال الدين إلى الارتداد بعد أن عجز عن مواجهة عدوه ، وطاردت جيوش الخليفة
الجيش الخوارزمي . ولحسن حظ الخوارزميين قُتل قشتمر في هذه الفترة ، وانتشر
الخبر بين جند الخليفة ، فساعد ذلك على انتصار جلال الدين الذي استطاع أن يطارده
جيوش الخليفة إلى أبواب بغداد .

وقد تمكن جلال الدين بعد هذا الانتصار من الاستيلاء على بعض المدن والقرى
الواقعة على نهر دجلة ، ولكنه عاد فرأى أن يهادن الخليفة العباسي ، لذلك أرسل إليه
رسولا يعاتبه على عدائه للخوارزميين . ولم يجد الخليفة ، بعد أن انهزمت جيوشه ،
بدأ من أن يكرم وقادة الرسول الخوارزمي ويعيده إلى الساطان ، وفور الحظ من
الإعانة جزيل القسط من النابل العام^(٢) . وقد انصرف جلال الدين منكبرتي عن
أراضي الدولة العباسية إلى حين ، وعوّل على توسيع نفوذه على حساب القوى المجاورة
له من الشمال ، ومن أهمها أذربيجان وجورجيا . وسار لتحقيق هذا الهدف في
سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) .

. . .

كانت الحالة الداخلية في أذربيجان من العوامل التي ساعدت الخوارزميين على
السيطرة على هذا الإقليم ، فقد كان الأتابك أوزبك بن البهلوان حاكم هذا الإقليم رجلا
مسنا ، منصرفا إلى مجالس اللهو والعبث ، لا يهتم بمصالح بلاده ، بل إنه ترك مقاليد
الأمور لزوجته ، التي أقامت في حاضرتها تبريز ، وأخذت تصرف شئون دولتها على

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. iii. p. 11.

(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٠٩ .

قدر استطاعتها^(١) . وهكذا كان إقليم أذربيجان في حالة شديدة من الفوضى مما سهل على جلال الدين تحقيق ما كان يرمى إليه . أما أوزبك فإنه بدلا من أن يعد العدة للخطر الذي بات يهدد بلاده ، رحل إلى مدينة « كنجة » ، في أقصى شمال أذربيجان ، غير مكترث لما يعليه عليه الواجب في هذه الظروف .

وقد استولى جلال الدين على مدينة « مراغة » ، على حدود أذربيجان الجنوبية دون صعوبة تذكر ، وأخذ يتوعد إلى أهلها بأن حاول أن يصلح من أحوالهم ، كما عمد إلى إصلاح ما تخرب من هذه المدينة بسبب هذه الحرب . ولما اطمأن إلى حب الأهالي إياه ، سار إلى تبريز حاضرة أذربيجان فشدد عليها الحصار حتى سلبت له بعد خمسة أيام ، ثم عفا عن زوجة أوزبك وأكرمها ونظر في ظلمات الأهالي ، على الرغم من أنهم وقفوا في وجه الخوارزميين أثناء غزو چنكيزخان لبلادهم ، وناصروا المغول عليهم وقت محنتهم . وما يدل على تسامح جلال الدين مع أهالي تبريز ما قاله لأهالي هذه المدينة^(٢) :

« قد رأيتم ما فعلت بمراغة من الإحسان والعمارة بعد أن كانت ،
« خرابا ، وسترون كيف أصنع معكم من العدل فيكم وعمارة بلادكم . »
وبعد أن مكث جلال الدين في تبريز عدة أيام توجه إلى إقليم جورجيا حيث وطد العزم على توسيع حدود مملكته هناك .

وكانت الحالة في جورجيا تختلف تماما عما عهدناه في إقليم أذربيجان ، فقد كان السواد الأعظم من أهالي هذه البلاد يدينون بالمسيحية بخلاف ما كانت عليه الحال في أذربيجان . وكثيرا ما اتخذ المسيحيون في جورجيا من المحن التي حلت بالعالم الإسلامي أمام الغزو المغولي ومن ضعف أذربيجان والأقاليم المجاورة لها ، فرصة للإغارة عليها في فترات متعددة ، واستولوا على المدن الواقعة على حدود بلادهم وأذاقوا أهلها العذاب ، ونهبوا ما استطاعوا أن يحصلوا عليه من خيرات هذه البلاد . لذلك نرى أن المعاملة التي عامل بها جلال الدين منكبرتي أهالي جورجيا ، تختلف تماما عما رأيناه من تسامحه مع أهالي

(١) كانت زوجة أوزبك ، ابنة السلطان طغرليك آخر سلاطين السلاجقة في العراق ، وقد قتل في سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) . راجع ما كتبناه في ص ٢٣ — ٢٤ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٩٨ — ١٩٩ .

أذربيجان ، فقد هول منذ البداية على الانتقام ، فقتل وسي ونهب . كما نلاحظ أن أهالي هذه البلاد قابلوا تحدى جلال الدين لهم بالاستهزاء أول الأمر ، فإنه بعد أن أعلن عليهم الحرب ردوا عليه رداً يهزم منه تحديهم له واستهزأوهم به فقالوا له (١) :

« إننا قد قصدنا التتر الذين فعلوا بأبيك وهو أعظم منك ملكا ،

« وأكثر عسكرياً وأقوى نفساً ، ما تعلمه ، وأخذوا بلادكم ، فلم ،

« نبال بهم . »

ولم يلبث أهالي جورجيا بعد أن أرسلوا لجلال الدين هذه الرسالة ، أن جمعوا جيشاً يقرب من سبعين ألف رجل .

لم يهتم جلال الدين متكبرتي بما بدا له من قوة الأهالي ، ومار إليهم يحدوه الأمل في النصر مؤيداً من الله ؛ عازماً عزماً صادقاً على أن يعلى كلمة الإسلام في هذه البلاد . فلما التقى بجيش العدو هزمه شر هزيمة وقتل من رجاله أكثر من عشرين ألفاً ، وأسر عدداً كبيراً من قوادهم . ثم تفرقت الجيوش الخوارزمية في جورجيا حيث أباح لهم جلال الدين القتل والنهب والسبي والتخريب . ولولا أن الظروف قد سحلت لجلال الدين على العودة إلى تبريز حاضرة أذربيجان ، لما أبقى الخوارزميون على شيء مما وجدوه في هذه البلاد . وقد أدى رحيل جلال الدين إلى تبريز ، إلى تأخير استيلاء الخوارزميين على مدينة تغليس حاضرة جورجيا إلى العام التالي ، أي إلى سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) .

أما عن السبب الذي دفع جلال الدين إلى العودة إلى أذربيجان ، فهو تأمر بعض حكام هذا الإقليم وعلى رأسهم أوزبك بن البهلوان ، بغية التخلص من سيادة الخوارزميين ، متهزين فرصة غياب جلال الدين في جورجيا . وقد علم جلال الدين بخبر هذه المؤامرة بينما كانت الحرس دائرة بينه وبين جنود جورجيا ، فأخفى الخبر عن جيوشه حتى لا تتأثر حالتهم المعنوية . ولما انتهى القتال وانتصرت الجيوش الخوارزمية على ما ذكرنا ، سارع إلى تبريز وأعادها إلى حوزته وأنزل العقاب بالمتآمرين ؛ ثم تزوج من زوجة أوزبك بعد أن أشهد عليها بطلاقها من زوجها . وقد أكمل جلال الدين في هذه الغزوة إخضاع

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٢٠٠ .

ما بقي من أذربيجان ، بالاستيلاء على ما بقي من مدنها في أقصى الشمال، وبذلك دانت له جميع مدن هذا الإقليم بالطاعة^(١).

وفي أثناء غياب جلال الدين في أذربيجان ، نظم أهل جورجيا جيشاً جراراً انضم إليه عدد كبير من الجنود المرتزقة من القبائل المجاورة لهم . وقد حدث لهذا الجيش ما يحدث دائماً لكل الجيوش المرتزقة التي لا يهتمها في كثير أو قليل أن تحارب أو تدافع عن البلاد التي تعمل لحسابها ، فرجال هذه الجيوش يختلفون تمام الاختلاف في روحهم المعنوية وفي مقدار تهمسهم للانتصار عن الجنود الوطنيين الذين يحاربون دفاعاً عن أوطانهم ، ولذلك انتصر عليهم جلال الدين وقتل عدداً كبيراً منهم . وسار بعد ذلك إلى تفليس حاضرة جورجيا ليم إخضاع هذا الإقليم برمته ، واستطاع أن يستولي عليها في الثامن من ربيع الأول سنة ٦٢٣ هـ (٩ مارس سنة ١٢٢٦ م) بعد أن جطم قوى جورجيا وجيوشها . وقد أسر جلال الدين عدداً كبيراً من الرجال ، وسبي من بقي من النساء على قيد الحياة ، وأصبحت المدينة مرتعاً للنهب والسلب ، ولم يعف جلال الدين من القتل إلا من اعتنق الإسلام . وهكذا انتقم جلال الدين للمسلمين الذين عانوا ما عانوه من أهالي جورجيا في السنوات السابقة لوصوله إلى فارس^(٢) ، كما استطاع الخوارزميون بعد هذا النصر أن يضعوا أيديهم على جميع هذه البلاد كافة وطبعوها بالطابع الإسلامي إلى حين .

وتتميز الفترة التي تقع بين سنتي ٦٢٣ و ٦٢٨ هـ (١٢٢٦ و ١٢٣١ م) ، أي منذ أن أتم جلال الدين منكبرتي إخضاع جورجيا وأذربيجان في الشمال وكرمان وفارس في الجنوب حتى غزا المغول الدولة الخوارزمية للمرة الثانية ، بطابع خاص في سياسة جلال الدين منكبرتي ، يتميز بمحاولته المحافظة على ما استولى عليه من بلدان ، والوقوف في وجه أعدائه الكثيرين في الداخل والخارج ، هذا فضلاً عن أنه كان يرمى إلى التوسع

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) Defremery : Fragments de Geographes et d'Historiens Arabes et Persans Inédits, pp. 486 — 7.

(Journal Asiatique, Novembre — Décembre 1849.)

على حساب جيرانه من الأمراء المسلمين ، ويحاول الانتقام من الامة العباسية لانهما
السابق للخوارزميين .

إذا تركنا جانباً تلك الحملات الصغيرة التي وجهها جلال الدين إلى أملاكه في الشمال
وفي الجنوب لإخضاع عدو قد تحدته نفسه بالثورة والانشقاق شتاً أو هناك - إذا
تركنا ذلك جانباً، نرى جلال الدين يوجه جهوده للاستيلاء على مدينة «خلاط» الواقعة
على بحيرة «وان» في أعالي نهري دجلة والفرات ، من صاحبها الملك الأشرف بن الملك
العاقل أيوب . منتزعا فرصة ذلك الشقاق الذي قام بينه وبين أخويه المعظم في دمشق
والكاظم في مصر ؛ وكان يرمى من وراء ذلك إلى تأليف حلف عربي يستطيع أن يوجهه
ضد الخلافة العباسية في بغداد . كذلك نرى جلال الدين في هذه الفترة لا يفتر عن
توجيه بعض جهوده للقضاء على طائفة الإسماعيلية وتخريب حصونها في جنوب بحر
قزوين . وأهم من هذا وذاك نراه في هذه الفترة يأخذ الحيلة لنفسه من ناحية المغول
الذين وجهوا بعض عنايتهم للدولة الخوارزمية في عهدهما الجديد .

• • •

وقع خلاف كبير بين ثلاثة من أمراء الدولة الأيوبية من أبناء الملك العادل أيوب
وم الكامل محمد صاحب مصر ، والمعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس وطبرية
وما جاورها ، والأشرف موسى صاحب بلاد الجزيرة وخلاط وميفارقين ؛ فقد سار
الأشرف لزيارة أخيه الكامل في مصر دون أن يصحب أخاه المعظم معه ، فظن المعظم
أن أخاه يرمى من وراء هذه الزيارة إلى التحالف ضده^(١) . ولذلك لم يأل جهداً في أن يكيد
لأخويه بمهاجمة بعض أملاكهما تارة ، وبتأليب بعض الحكام عليهما تارة أخرى ؛ من
ذلك أنه أرسل إلى جلال الدين منكبرتي الذي تجاور أملاكه أملاك أخيه الأشرف ،
يعرض عليه تكوين حلف منهما يكون هدفه الأول الاستيلاء على مدينة خلاط ، التي
كانت من أملاك الأشرف موسى . وقد صادفت هذه الفكرة قبولا لدى جلال الدين
الذي وجد في ذلك الحلف فرصة لتوسيع نفوذه ، ومدرمة دولته على ما يجاورها من
البلاد . وسرعان ما أرسل الهدايا والخلع للمعظم في دمشق تعزيزاً لأواصر الصداقة

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢١٣ - ٢١٤ .

بينهما . وقد بلغ من اعتزاز المعظم بذلك الحلف الجديد أنه أصبح لا يقسم إلا برأس جلال الدين .

وفضلا عن فكرة التوسع التي كان يرمى إليها جلال الدين من وراء هذا التحالف ، فإنه كان يهدف أيضا إلى توجيه هذه القوة وغيرها من القوى ضد الخليفة في بغداد . ولم يكن من المعقول أن يقف الأشرف موسى مكتوف اليدين حيال ما أظهره جلال الدين من نواياه العدائية ، لذلك كثيرا ما نسمع عن اعتداء جيوشه على القوى الخوارزمية في جورجيا وأذربيجان ، كما نسمع عن اعتداءات الأشرف على الجنود الخوارزمية في أنحاء الدولة ، مما أزعج جلال الدين كثيرا وجعله لا يتردد في السير إلى مدينة خِلاط والاستيلاء عليها ، لو أتبح له ذلك (١) .

وقد هاجم جلال الدين منكبرتي في سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) مدينة خِلاط، وانتشر الخوارزميون في ضواحيها ونهبوا ما استطاعوا أن يصلوا إليه . غير أن الأهالي ثبتوا للجنود الخوارزمية ودافعوا عن مدينتهم دفاعا مجيدا ، وخاصة بعد أن أدركوا ما سيحل بهم وبأموالهم ونسائهم إذا ما استولى الخوارزميون عليها ، فكانوا — كما يقول ابن الأثير — يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه وحرمة وماله (٢) . وإزاء هذا الدفاع المجيد من جانب الأهالي ، اضطر جلال الدين إلى رفع الحصار عن المدينة مؤقتا .

ومن بين الأسباب التي دفعت جلال الدين إلى رفع الحصار عن هذه المدينة ، اشتداد البرد في ذلك الوقت وتساقط الثلوج حتى أنه خاف على جنوده من الهلاك . أضف إلى ذلك أن بعض القبائل التركية كانت تهدد أملاكه في أذربيجان ، فلم يردأ من السير لإنقاذها (٣) . وهناك سبب آخر لا يمكن إغفاله ، هو أن الصلح قد تم بين المعظم والأشرف في هذه السنة وسار الأشرف بنفسه إلى أخيه المعظم في دمشق بعد أن وجد أن النزاع الذي قام بينه وبين أخيه سوف يؤدي إلى أسوأ العواقب . ويقال أن المعظم أرسل بعد ذلك إلى جلال الدين يرجوه أن يرفع الحصار عن مدينة

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. iii. pp. 18-20.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢١٢ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢١٢ — ٢١٣ .

خلاط^(١). على أن هذا السبب الأخير لم يكن له على ما نعتقد تأثير كبير في رفع الحصار ، إذ أن إبرام الصلح بين الأخوين لن يغير شيئاً عما أخذته جلال الدين على عاتقه من العمل على توسيع نفوذه على حساب ما جاوره من البلاد . وما يدل على صحة هذا القول ، أن جلال الدين عاد إلى حصار هذه المدينة في سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) وشدّد في حصارها حتى أن ذلك الحصار استمر ستة شهور ، ذاق الخوارزميون أنفسهم خلالها كثيراً من المحن من جراء ما عانوه من شدة البرد ، حتى أن جلال الدين كان يعمد إلى توزيع جنوده على القرى المجاورة ، عليهم يجدون فيها ملجأ يحتمون فيه من برد الشتاء^(٢) . وعلى الرغم من ذلك شدد جلال الدين في حصار المدينة حتى أن هذه المدينة كما يقول النسوي « لما عظم بها البلاء واشتد الغلاء وكسدت الدنانير وأكلت الكلاب والسنائير خرج منهم (أي الأهالي) في يوم واحد قرابة عشرين ألف إنسان ، وقد تغيرت صورهم بالجوع حتى أن الأخ لا كان يعرف أخاه ولا الوالد ولده^(٣) » . واستطاع جلال الدين في آخر الأمر أن يستولى على هذه المدينة وذلك في الثامن والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٧ هـ (٢ إبريل سنة ١٢٣٠ م)^(٤) .

وقد أراد السلطان أن يمنع جنوده من نهب المدينة ولكن القواد الخوارزميين عارضوا في ذلك أشد المعارضة بحجة أنهم ضجروا كثيراً حتى استولوا عليها ، وفقدوا كثيراً من جندهم في أثناء ذلك الحصار الطويل ، كما فقدوا خيولهم وماشيئهم ، ثم هددوه بالإنصراف عن خدمته إذا هو منعهم من نهب المدينة . وهكذا اضطر جلال الدين أن يبيع لهم المدينة ثلاثة أيام قبلوا فيها كثيراً من أهلها بعد أن عذبهم بأنواع العذاب حتى حملوهم على إخراج ما أخفوه من نقائس ، كما أكثر الخوارزميون من سبي النساء واسترقاق الأطفال . وما هو جدير بالذكر أن زوجة الأشرف كانت

(١) D'ohsson: Histoire Des Mongols, tom. iii. p. 21.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٢٦ .

(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٩٢ .

(٤) Defremery: Fragments de Geographes et d'Historiens Arabes et Persans Inédits, pp. 499-450.

(Journal Asiatique, Novembre — Décembre 1849.)

من بين الأسرى ، فتزوج بها السلطان في نفس الليلة التي دخل فيها مدينة خيلاط (١) .
وقد قيل إن جلال الدين ندم على تخريب هذه المدينة فيما بعد ، ولذلك عمد إلى تجديد
عمارتها وأطلق من خزائنه الخاصة أربعة آلاف دينار لتجديد ما خربته المجانيق من
سورها العظيم (٢) .

وبما هو جدير بالذكر هنا أن جلال الدين منكبرتي بينما كان يحاصر مدينة خلاط،
عزم أن ينقل جثة أبيه من هذه الجزيرة التي دفن فيها في بحر قزوين إلى ضريح خاص
عزم على تشييده في مدينة أصفهان فعهد إلى «مقدم الغراشية» وهو الذي تولى غسل
السلطان المتوفى ، بأن يسير إلى مدينة أصفهان ، لينبئ بها مدرسة يدفنه فيها ، وأعطاه
ثلاثين ألف دينار للبدء بتنفيذ هذا المشروع . وأمر السلطان بنقل التابوت الذي به
جثة أبيه إلى إحدى القلاع المنيعه حتى يتم بناء تلك المدرسة . وقد تولى محمد النسوي
نفسه كتابة هذا التوقيع الذي كتبه — كما يقول — وهو مشفق على هذه الجثة ، إذ
جرت عادة المغول أن يحرقوا جميع جثث البيت الخوارزمي التي يعثرون عليها . وقد
حدث فعلا ما كان يخشاه النسوي إذ استولى المغول على البلاد الخوارزمية من جديد
في أيام جلال الدين نفسه وأخرجوا جثة علاء الدين خوارزم شاه ، وأرسلوها إلى
الخاقان الذي أمر بإحراقها (٣) .

وبينما كان جلال الدين منكبرتي يحاصر مدينة خلاط ، عرض على «علاء الدين
قيقباد» سلطان الروم السلاجقة عقد حلف بينهما يكون الغرض منه توحيد القوى
الإسلامية ضد المغول . وقد وافق علاء الدين على ذلك وأرسل إليه بعض الرسل
محمدين بالهدايا توطيدا لأواصر الصداقة بين الفريقين (٤) .

وكانت هدايا سلاجقة الروم تتكون من ثلاثين بغلا مجهزة بالملايس والنفائس ، وثلاثين
مملوكا بخيولهم وعدتهم ومائة فرس وغير ذلك من الهدايا . على أن رجال السلطان
جلال الدين منكبرتي عاملوا هؤلاء الرسل في شيء كثير من الغاظة ، اعتقادا منهم أن

(١) D'ohsson: Histoire Des Mongols, tom. iii. pp. 41-42.

(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي . ص ١٩٨ — ٢٠٢ .

(٣) المرجع نفسه . ص ١٩٢ — ١٩٣ .

(٤) Howorth: History of the Mongols, part i. p. 129.

هذه الهدايا لا تتناسب مع السلطان الخوارزمي . وعاد رسل علاء الدين قيقباز دون أن يعتقدوا ذلك الحلف مع الخوارزميين ^(١) .

وكان طرد رسل سلاجقة الروم على هذا النحو ، وبالأعلى جلال الدين الذي استولى على مدينة خلط كما ذكرنا من صاحبها الأشرف موسى أمير خلط وبلاد الجزيرة ودمشق ^(٢) ، فأبرم هذا في سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م) حلفا ضد الخوارزميين من أمراء الموصل وبلاد ما بين النهرين ، وانضم إليه علاء الدين قيقباز سلطان الروم السلاجقة ، وهو صاحب هذه الهدية التي رفضها الخوارزميون . وقد تقابلت الجيوش المتحالفة المتجمعة من بلاد الشام والجزيرة في مدينة « سيواس » بآسيا الصغرى ، وبعد أن اكتمل عددها سارت إلى مدينة خلط . وقد سارع جلال الدين للقائهم بجيش قليل العدد والعدة ، وكان يأمل أن يقاوم أعداءه قبل أن تتجمع قواهم ، إلا أن جلال الدين مرض في ذلك الوقت ، وقبل أن يتم شفاؤه كانت قوات أعدائه قد تجمعت وأنزلت به هزيمة منكرة بالقرب من مدينة خلط ، دخل الأشرف موسى على أثرها هذه المدينة دخول الظافر ، بعد أن فر جلال الدين إلى أذربيجان ^(٣) . ومع ذلك فقد عاد الأشرف موسى إلى عقد الصلح مع جلال الدين منكبرتي واتفق الطرفان على أن يكون لكل منهما البلاد التي تحت يده ، وبعد أن تم هذا الصلح عاد الأشرف إلى دمشق ، وبقي جلال الدين في أذربيجان ^(٤) .

أما عن السبب الذي دفع هؤلاء الأمراء المسلمين وعلى رأسهم الأشرف موسى إلى عقد الصلح مع جلال الدين ، فهو أنهم وجدوا أن المغول باتوا يهددون أملاك الخوارزميين في فارس ، فخشوا أن يستولى المغول على الدولة الخوارزمية من جديد فتدور عليهم الدائرة بعد ذلك ، ولذلك آثروا الصلح على الحرب ، لكي ينصرف

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٩٦ — ١٩٧ .

(٢) يلاحظ أن المعظم صاحب دمشق توفي سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) وتولى بعده ابنه داود الذي حكم هذه المدينة قرابة عامين حتى استولى عليها عمه الأشرف موسى صاحب خلط وبلاد الجزيرة وضمها إلى أملاكه سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) أي في نفس السنة التي استولى فيها جلال الدين منكبرتي على مدينة خلط .

أنظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢١٨ و ٢٢٣ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ٢٢٧ .

(٤) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ٢٢٨ .

جلال الدين إلى مواجهة ذلك الخطر المغولي الذي بات يهدد كيانه وكيانهم^(١).

* * *

أما عن علاقة الدولة الخوارزمية بالخلافة العباسية في هذه الفترة من حكم جلال الدين منكبرتي، فكانت من الأمور التي تسترعى النظر. فقد رأينا أن جلال الدين كان متحمساً ضد الخلافة العباسية في بغداد عندما عاد من بلاد الهند وظهر على مسرح التاريخ الخوارزمي من جديد، غير أنه لما أخفق في محاولته غزو بغداد في عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله كما رأينا، عمد إلى تكوين حلف مع المعظم عيسى صاحب دمشق منتزاً فرصة قيام الشقاق بينه وبين أخويه، وكان أهم ما يرمى إليه من وراء ذلك الحلف أن يؤلب القوى الإسلامية على الخليفة العباسي، ولكن هذه الفكرة كان نصيبها الفشل أيضاً. والظاهر أن جلال الدين شك بعد ذلك في قدرته على تحقيق فكرة غزو بغداد، كما نرى أن الخلافة العباسية تميل بدورها إلى مسالمة الخوارزميين. فنجد تولى الخليفة الظاهر الحكم سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) نراه يميل إلى مصالحة جلال الدين فأرسل إليه رسولين لهذا الغرض، هما نجم الدين الرازي^(٢) وركن الدين بن عطاف. وقد أمر الخليفة ثاني الرجلين بالبقاء في حضرة جلال الدين إذا لاقى فكرة الصلح قبولاً حسناً، وأن يعود الرازي بمن يصحبهم من الرسل الذين يرسلهم السلطان الخوارزمي كيما يحملون الخلع إليه. وقد وافق جلال الدين على عقد الصلح وأرسل إلى الخليفة العباسي، القاضي «بجير الدين» ليحضر الخلع والهدايا من عنده. واستقبل الخليفة رسول السلطان الخوارزمي أحسن استقبال، وأرسل معه كثيراً من الخلع لجلال الدين؛ ولكن الخليفة الظاهر توفي — لسوء الحظ — في هذه الفترة قبل وصول الرسول إلى حضرة جلال الدين، فأعيدت الخلع إلى بغداد ولم تتحقق فكرة الصلح^(٣). وتأجلت إلى حين.

— (١) Howarth: History of the Mongols, part i. p. 130.

(٢) كان نجم الدين الرازي من رجال الصوفية في عصره وقد رحل بعد الغزو المغولي إلى بلاد الروم وهناك ألف كتابه المعروف باسم «مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد» وهو كتاب كتب باللغة الفارسية ويبحث في عقائد التصوف؛ وقد توفي الرازي سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م). أنظر كتاب الدكتور رضا زاده شفق «تاريخ الأدب الفارسي»، ص ١٩٧.

(٣) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ١٦٩ — ١٧٠.

جلس الخليفة المستنصر العباسي بعد ذلك على كرسى الخلافة (٦٢٣ هـ - ٦٤٠ هـ) =
١٢٢٦ - ١٢٤٢ م)، واستمرت العلاقة العدائية قائمة بينه وبين الخوارزميين كما كانت
في عهد من جاء قبله من الخلفاء، حتى سار جلال الدين إلى مدينة خلاط سنة ٦٢٦ هـ
(١٢٢٩ م) كما سبق ذكرنا، وهناك تم الصلح بين الفريقين. ففي أثناء حصار هذه المدينة
وصل «سعد الدين الحاجب» رسولا من قبل الخليفة المستنصر بالله العباسي إلى جلال
الدين منكبرتي يعرض عليه الصلح مقابل بعض المطالب كشرط أساسي، حتى إذا ما قبل
جلال الدين هذه المطالب، استعد الخليفة لاستقبال سفرائه ليحملهم بالخلع والهدايا.
أما مطالب الخليفة فكانت تنحصر في أمرين :

(١) عدم الاعتداء على بعض الأمراء المسلمين الذين يعتبرهم الخليفة من رعاياه،
ومن أقرب المقربين إليه، ومن هؤلاء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ومظفر الدين
ككبرى صاحب إربل.

(٢) إقامة الخطبة للخليفة العباسي على سائر منابر الدولة الخوارزمية.
وقد قبل السلطان الخوارزمي هذين المطالبين، وأصدر أوامره بالدعاء للخليفة
المستنصر بالله، ثم أوفد إليه في بغداد رسولا يعلن قبوله لمطالبه. وكان هذا الرسول
- لحسن الحظ - محمد النسوي صاحب ذلك الكتاب الذي أرشح فيه لجلال الدين
منكبرتي، فوصف رحلته إلى بغداد وصفا مسهيا. وبما ذكره أنه لما وصل إلى العاصمة
الإسلامية الكبرى، أقام في دار أعدت لنزوله على نهر دجلة، ولما حان وقت مثوله
بين يدي الخليفة أعدت له مركب سارت به في النهر. ووصف هذا المؤرخ مقابله
للخليفة في هذه العبارة :

«لما طلعتنا الدرجة وصافحت عيني الستر الأسود، قبلت الأرض»
«ورأيت بستاناً من كثرة الشموع كأنه في الليلة الظلماء عكس الفلك في»
«الماء، ورأيت الوزير واقفا حذاء الستر والستر مرخى، وجاء خادم ورفع،»
«الستر، فسكنت أمشي وأقبل الأرض إلى أن قاربت الوزير. ووقفت فإذا،»
«أمير المؤمنين جالس على سرير فتكلم الوزير بكلمة عريية، فتقدم،»
«خطوات وأشار إلى بالوقوف حيث كان هو واقفاً أولاً، فتقدمت وقبلت،»

« الأرض ووقفت موقفه ، ثم قال أمير : المؤمنين كيف الجناب العالى ،
« الشاهنشاهى؟ يعنى السلطان. وهكذا كان خطابه للسلطان إذ ذاك . فقبلت ،
« الأرض. وأردف ذلك بكلمات يثنى على المواعد الجميلة وشمول العنايةات ،
« أحوال السلطان ، وأنه يريد تقديمه على ساير (كذا فى الأصل) ملوك ،
« زمانه وسلاطين أوانه ، فلم أزد فى جواب ذلك على تقبيل الأرض .
« ثم علّم على كتاب العهد الذى كتبه للسلطان وناولنى الوزير فوضعت على ،
« رأسى وقبلت الأرض ورجعت وخلع على المذكور خلعة سنية^(١) .

وقد أرسل الخليفة . بعض الرسل إلى جلال الدين فوصلوا فى أثناء حصار مدينة
خلاط ، وكانوا يحملون خلعتين له وثلاثين خلعة لأفراد حاشيته ، وهى عبارة عن
حلابس حريرية محلاة بالجواهر وسيوف محلاة بالذهب ، فضلا عن الخيول العربية
وبعض المالك^(٢) .

وكان سفراء الخليفة ينتظرون أن يحضر جلال الدين إلى الخيمة التى أعدت لإيداع
هذه الهدايا ليلبس الخلعتين ، ولكنه رفض وأمر بضرب خيمة أخرى بجوار الخيمة
التي وضعت فيها الهدايا ، ونقلت إليها الخلع ، وركب السلطان مرتين ، فدخلها ولبس
الخلعتين فى نهار واحد ، ثم لبس أفراد حاشيته من بعده . وقد أراد رسل الخليفة فى
هذه الأثناء أن يشفعوا لأهل مدينة خلاط لدى السلطان كي يرفع عنها الحصار ،
ولكنه أبى بحجة أن هذا يناق ما تمناه الخليفة له من الرفعة وعلو المنزلة . وكان الرسل
يخشون ألا يستطيع السلطان الاستيلاء على هذه المدينة فيشمت فيه الشامتون ، وعرضوا
عليه أن يرفع الحصار بشفاعة الخليفة نفسه حتى لا يظهر بمظهر الرجل الضعيف^(٣) ،
ولكنه ظل مع ذلك على حصارها إلى أن استولى عليها كما ذكرنا .

وهكذا عاد السلام بين الخلافة العباسية وبين جلال الدين منكبرى بعد نزاع استمر
سليمة عهده وعهد أبيه وجده . وكان من الطبعي أن ينتهى ذلك النزاع بعد أن يضحى

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرى ، ص ١٨٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٩١ .

كل من الطرفين بشيء من أطماعه ويتفرغ لمناوأة المغول عدوهما المشترك ، الذين أصبحوا خطراً ماثلاً أمام كل أمير من أمراء المسلمين .

* * *

نتقل بعد ذلك إلى ناحية أخرى من سياحة جلال الدين منكبرتي في هذه الفترة من حكمه ، ألا وهي علاقته بطائفة الإسماعيلية التي لا تقل في أهميتها عن علاقاته بغيرائه الآخرين . فقد أثارت هذه الطائفة في وجه الدولة الخوارزمية وسلاطين السلاجقة كثيراً من المتاعب ، ولم يستطع السلاجقة كما لم يستطع سلاطين الدولة الخوارزمية عامة وغلاء الدين خوارزم شاه خاصة أن يقضوا عليهم ، لذلك كانت طائفة الإسماعيلية شوكة في ظهر الخوارزميين .

وقد انتهزت طائفة الإسماعيلية تلك القوضى التي حلت بالعالم الإسلامي عامة وبالدولة الخوارزمية خاصة على أثر الغزو المغولي وأخذت تعيش في البلاد فساداً ، على أنها بدأت تنكش في قلاعها بعد عودة جلال الدين من الهند . ولم يهتم جلال الدين بهذه الطائفة أول الأمر لأن مشاكلة العديدة قد صرفت نظره عنها إلى حين ، على أنه حدث في سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) أن قُتل حاكم مدينة كنجة ، من أعمال أذربيجان ، وكان من الأمراء المقربين إلى جلال الدين ، على أيدي الإسماعيلية ، فعظم ذلك على السلطان الخوارزمي ، وسار إليهم بنفسه ، وحاصر جميع قلاعهم من حدود الموت ، حتى حصونهم في خراسان ، ونغرب الجميع ، وقتل أهلها ، ونهب الأموال ، وسبي الحرير ، واسترق الأولاد ، وقتل الرجال ، وعمل بهم الأعمال العظيمة وانتقم منهم . . . فكف عاديهم ، (١) .

ومنذ ذلك الوقت أخذت طائفة الإسماعيلية تخشى بأس جلال الدين منكبرتي بل عملت على التقرب إليه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . فقد حدث أن انتصر جلال الدين في سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) بالقرب من مدينة أصفهان على فرقة مغولية ظنت أن في استطاعتها أن تلعب مع الدولة الخوارزمية نفس الدور الذي لعبه چنكيزخان

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٢٧ .

من قبل ^(١) ، فبعد أن أحرز الخوارزميون هذا الانتصار على المغول حاول مقدم الإسماعيلية ^(٢) أن يتقرب إلى جلال الدين ، بأن أرسل إليه تسعة من الفدائيين ليرسلهم في إثر من يريد من أعدائه . على أن جلال الدين رد هؤلاء الفدائيين إلى أصحابهم . ظناً منه أن غرض مقدم الإسماعيلية هو أن يعرف أعداءه ليؤلبهم عليه ^(٣) .

والظاهر أن عداوة الإسماعيلية للخوارزميين شجعت خصوم جلال الدين على الالتجاء إليهم ، وكان من بين هؤلاء اللاجئين « غياث الدين » أحد إخوة جلال الدين نفسه . فقد قام بين الأخوين سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) نزاع بسبب قتل غياث الدين أحد المقرين لأخيه الذي صمم على أن يثأر له . ولم ير الأخ القاتل بدأ من الفرار والالتجاء إلى أحد خصوم السلطان ، فسار باديء الأمر إلى خوزستان مستغيثاً بالخليفة العباسي ^(٤) ، ثم بدا له أن يحتسب بخصم آخر هو طائفة الإسماعيلية . ولما علم جلال الدين بذلك ، عزم على غزو حصون الإسماعيلية إذا لم يسلموا أخاه إليه ، وأرسل رسالة بهذا المعنى إلى مقدم الإسماعيلية الذي اعتذر إلى جلال الدين في عبارة تدل على أن طائفة الإسماعيلية لم يعد لها تلك القوة التي تمت بها من قبل ، وبما جاء في هذه الرسالة :

« إن أخاك قد قصدنا ، وهو سلطان ابن سلطان ، ولا يجوز لنا أن نسله . ،
« ولكن نحن نتركه عندنا ولا نمكته أن يقصد شيئاً من بلادك ونسألك ،
« أن تشفعنا فيه ، والضمان علينا بما قلنا ، ومتى كان منه ما نكره في بلادك ،
« قبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار ، »

وقد اقتنع جلال الدين بهذا الرد وعاد عن بلادهم . أما غياث الدين فإنه لم يلبث أن قتل في بعض القلاع دون أن يعرف على وجه التحقيق النهاية التي ختمت بها حياته ^(٥) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٢٠ .

(٢) هو علاء الدين محمد بن جلال الدين وقد تولى زعامة الإسماعيلية سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) .

(٣) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٤٠ — ١٤٥ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢١٩ .

ولم يكن من المعقول أن تطعن طائفة الإسماعيلية إلى الاستسلام للخوارزميين ، فتكون النتيجة أن يقضى جلال الدين عليها تدريجياً . لذلك نرى أتباعها يعمدون إلى الاستعانة على الخوارزميين بأعدائهم ؛ ولما كان المغول من أقوى هؤلاء الأعداء في نظرهم ، لذلك لم يترددوا في مراسلتهم وحشهم على غزو الدولة الخوارزمية من جديد . وقد ذكر ابن الأثير أن جلال الدين منكبرتي لما هزمه الأشرف موسى صاحب دمشق ، وعلاء الدين قيقباز سلطان السلاجقة الروم سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م) على ما ذكرنا ، أرسل مقدم الإسماعيلية إلى المغول يطلبهم على ما بلغه الخوارزميون من ضعف ، ويحثهم على غزو بلادهم ، ويؤكد لهم أن النصر سوف يكون حليفهم ^(١) . على أن هذه الرسالة لم تكن الأولى التي أرسلها مقدم الإسماعيلية إلى المغول ، ومن البديهي أن تبدأ هذه المراسلات قبل ذلك الوقت ، أي منذ خرب جلال الدين حصون الإسماعيلية سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) كما ذكرنا ، وبما يدل على ذلك أن الخوارزميين وصلتهم أخبار هذه المراسلات قبل التاريخ الذي حدده ابن الأثير . ويتبين ذلك من سير محمد النسوي إلى قلعة الموت ، رسولا من قبل جلال الدين سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) ليستطلع الأسباب التي حدثت بالإسماعيلية إلى إرسال هذه الرسائل للمغول ، الذين كانوا يقيمون في بلاد ما وراء النهر . وقد اعترف مقدم الإسماعيلية للنسوي بأنه إنما يكتب المغول لأن له أملا كما تجاوز بلادهم ، وأنه لا بد له من مداراتهم . ثم طمأن رسول الخوارزميين بأنه لم يقصد من وراء هذه الرسائل أي أذى يلحق بالسلطان ^(٢) .

وسواء أكان مقدم الإسماعيلية يرسل المغول ابتغاء استدعائهم لمنازلة جلال الدين ، أم يقصد مداراتهم ، فليس هناك من شك في أن هؤلاء المغول لا بد أن يفكروا في غزو الدولة الخوارزمية من جديد ، إذ لم يصرفهم عن ذلك إلا معالجة بعض الأمور الهامة في بلادهم الأصلية ، حتى إذا ما انتهوا منها ساروا إلى البلاد الإسلامية . ويمكن القول أن تلك العلاقة التي كانت قائمة بين الإسماعيلية وبين المغول قد أدت على الأقل

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٠ .

(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٤٦ و ص ٢١٢ — ٢١٣ .

إلى وقوف المغول على أحوال الدولة الخوارزمية في عهدها الجديد وشجعهم على العودة إلى غزوها .

٣ - زوال الدولة الخوارزمية على أيدي المغول

لما رحل چنكيزخان إلى بلاده ، ترك أقاليم الدولة الخوارزمية خاوية على عروشها ، ثم انشغل المغول عن البلاد الإسلامية بأمور أصبحت تهدد كياناتهم في بلادهم الأصلية . لذلك نرى چنكيزخان في الفترة الباقية من حياته ، أى منذ عودته إلى بلاده حتى توفي سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) ، يكتل جهوده للضرب على أيدي القبائل الثائرة عليه (١) ، ويحاول إخضاع ما يستطيع إخضاعه من إمبراطورية سونغ Sung في النصف الجنوبي من بلاد الصين ، وعلى أنه توفي قبل أن يرى ثمرة انتصار قواده هناك .

ولما توفي چنكيزخان ظلت أحوال المغول غير مستقرة على حال ، وعاد كبار رجال دولتهم وكبار قوادهم المنتشرون في الأراضي البعيدة التي خضعت للمغول ، إلى دقره قورم ، حاضرة الدولة المغولية لانتخاب الخاقان الجديد (٢) . ثم انتخب أجتاي ابن چنكيزخان سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) خاقانا ، فأخذ على عاتقه إخضاع الدولة الخوارزمية من جديد .

ويظهر أن تخريب جيوش چنكيزخان أقاليم خراسان وخوارزم وغزنه ، لم تشجع المغول على الاحتفاظ بهذه الأقاليم أو الإقامة فيها ، كما لم يشجع جلال الدين منكبرتي

(١) Lamb: Genghis-Khan; The Emperor of All Men, p. 192.

(٢) لفظ «خاقان» لقب أطلقه المغول على الرئيس الأعلى لدولتهم ، ومعناه رئيس الرؤساء أو أعظم الحكام . أما لقب «خان» فكانوا يطلقونه على رؤسائهم الذين يتولون جزءا من الإمبراطورية المغولية . وقد استعمل المغول لقب «خان» أيضا بمعنى «خاقان» ، وربما كان ذلك من باب الرغبة في الاختصار . وبما هو جدير بالذكر أن الفرق بين «خان» و «خاقان» ، يشبه الفرق بين كلمتي «سلطان» و «ملك» ، فالسلطان هو الملك الأعظم كالسلطان صلاح الدين الأيوبي ، أما ملك فهو أحد ولاة السلطان من أبناء بيته كالملك المادل حينما كان صاحب دمشق من قبل أخيه صلاح الدين الأيوبي . وقد وجد هذا الفرق أيضا عند الفرس ، فإن لقب «شاهنشاه» ومعناه «ملك الملوك» يتميز عن لقب «شاه» فقط وهو «الملك الصغير» . أنظر المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ القسم الثاني ص ٣٠٧ حاشية ٤ .

بعد عودته من الهند على الاهتمام بها . فترى جلال الدين يصرف وقته في العراق العجمي ، ويهتم بالأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية دون أن يعير أقاليم خراسان وخوارزم وغزنه ذلك الاهتمام ، مع أن هذه الأقاليم كانت عصب الدولة الخوارزمية في حياة أبيه . وكل ما فعله أنه ترك مدن هذه الأقاليم وغيرها في أيدي المغتصبين من رجال الدولة الخوارزمية الذين كانوا يدعون أحقيتهم بحكمها . وكان الحال كذلك بالنسبة للمغول ، فقد تركوا هذه البلاد دون أن يحاولوا الإقامة فيها ، ولم يضعوا أيديهم إلا على إقليم ما وراء النهر وحده الذي اهتموا بتعمير مدنه . أما في أقاليم الدولة الخوارزمية الأخرى ، فقد كانت جماعات مغولية غير منظمة تخرج لتحارب في حروب أشبه بحروب العصابات . وكان المغول في غالب الأحيان لا يجدون ما يروق لهم في هذه الجهات التي أمست يابا^(١) . ففي سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) وهي السنة التي توفي فيها چنكيز خان ، خرج جماعة من المغول إلى بلاد الدولة الخوارزمية وتوغلوا في أراضيها حتى أصبحوا على مقربة من مدينة الري . ولم تكن هذه الجماعة على شيء من القوة أو النظام ، حتى أن جلال الدين استطاع أن يقبض عليهم دون صعوبة ما^(٢) . وفي العام التالي ظهرت قوة كبيرة للمغول وتوغلوا في أراضي الدولة الخوارزمية حتى أصبحت على مسيرة يومين من أصفهان ، وهنا تجلبت شجاعة جلال الدين منكبرتي الذي لم يكثر لمجيئهم أو على الأقل تظاهر بعدم الاكتراث . وفي ذلك يقول النسوي :

« وما يدل على قوة قلب السلطان في الأمور الفادحة وقلة مبالاته ،
« بالخطوب الكالحة ، أن جماعة الأمراء والخانات لما سمعوا بقرب ،
« العدو انزعجوا لذلك وقصدوا بابه ، فجلسوا ساعة حتى أذن لهم ،
« بالدخول . فلما وقفوا بين يديه وهو واقف في صحن الدار ، أخذ ،
« يتكلم زمانا فيما ليس يتعلق بالتاتار ، استحقاراً بهم وإظهاراً للجاعة ،
« بأن الأمر ليس بأمر ، وأن الحادث ليس بشكر ، تسكيناً لقلوبهم ،
« الخافضة وتقوية لنفوسهم الفارقة ، وطاول في أطراف المحادثة ،
« إلى أن أجلسهم وشاورهم فيما يقع عليه الاتفاق فكانت ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٠ .

(٢) الرجوع نفسه ، ج ١٢ ص ٢١٧ .

« زبدة المشورة أنه استحلهم على أن لا يهربوا ولا يختاروا الحياة ،
« (كذا في الأصل) على الموت ، ثم حلف لهم بمثل ما حلفوا له ،
« تبرعاً منه ^(١) . »

وفي اليوم الذي اختاره المنجمون للقتال ، خرج السلطان بجيشه ، ولكن لسوء
حظ المسلمين انسحب أخوه غياث الدين مع أتباعه كما ذكرنا ، ومع ذلك فلم يعر
السلطان الأمر اهتماماً ، واستطاع بميسرته وميمته وقلب جيشه أن يهزم المغول حتى
ولوا الأدبار ، بعد أن قتل الخوارزميون منهم عدداً كبيراً . ولما حاول السلطان
مطاردتهم أوقعوه في كمين نصبوه له وبذلك استطاعوا أن يحولوا انتصاره إلى هزيمة ،
وتفرقت الجيوش الخوارزمية بين أقاليم فارس وكرمان وأذربيجان وغيرها ، بل
اختفى السلطان نفسه حتى أن الخوارزميين فكروا في سلطان يخلفه ، غير أنه عاد
وفاجأهم بظهوره بعد ثمانية أيام ^(٢) .

وما يدل على أن هذه الحملات المغولية لم تكن نتيجة تدبير أو تنظيم ، أنه على
الرغم من انتصار المغول على الجيوش الخوارزمية ، فإنهم لم يفعلوا ، كما يقول
الجويني ، أكثر من الاقتراب من أبواب أصفهان ، ثم عادوا مسرعين إلى بلاد
ما وراء النهر بعد أن فقدوا معظم جيوشهم ^(٣) .

وكانت أول حرب مغولية منظمة شنّها المغول على أقاليم الدولة الإسلامية بعد
وفاة چنكيزخان ، على يد ابنه وخليفته أجتاي Ogtai ، فقد جهز جيشاً من ثلاثين
ألف ، قاتل وولى قيادته اثنين من أشهر قواده هما شيرماجون Churmagon وبيدشو
Baidshu ^(٤) ، ولما بلغ الجيش المغولي خراسان عبر هذا الإقليم بسرعة فائقة حتى وصل
إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ، واستطاع المغول أن يستولوا على الري وهمذان
وما بينهما من البلاد ، ووصلوا إلى حدود أذربيجان في أوائل سنة ٦٢٨هـ (١٣٢١م) ^(٥) .
ولم يهتم المغول في هذه الفترة بشيء سوى مطاردة جلال الدين والقبض عليه ، حتى

(١) الندوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٣٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٣٩ .

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. iii. p 27.

(٤) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 130.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٠ .

إذا تم لهم القضاء على رأس الدولة الخوارزمية، اطمأنوا إلى إخضاعها في سهولة ويسر .
لذلك نرى أن حركات المغول وتنقلاتهم في أراضي الدولة الخوارزمية في هذه الفترة
كانت مقيدة تماماً بحركات جلال الدين وتنقلاته فيها ، فلما رحل السلطان الخوارزمي
إلى تبريز حاضرة أذربيجان ، ظناً منه خطأ أن المغول سيقضون شتاء هذا العام في
العراق العجمي ، فإذا بالمغول يسرون في إثره ويرغمونه على التقهقر إلى سهل «موقان»
المجاور للساحل الغربي من بحر قزوين، قبل أن يتمكن جلال الدين من جمع جيوشه^(١).
وكان تقهقر جلال الدين إلى هذا الإقليم تقهقراً مفاجئاً ، حتى أنه ترك حريمه في تبريز .
ولم يكد يستقر في موقان حتى فوجيء بمسير المغول إليه ، فاضطر إلى العودة ثانية
إلى أذربيجان^(٢) .

وقد حاول جلال الدين في هذه الفترة الاستنجاد بأمراء ديار بكر والجزيرة ، كما
حاول أن يستنجد بالخليفة العباسي أيضاً . وقد عزم على أن يسير بنفسه إلى هؤلاء
جميعاً ، فلما وصل إلى مدينة «آمد» في أعالي نهر دجلة ، لحق به المغول وهزموه شر
هزيمة ، وقتلوا وأسروا كثيرين من الخوارزميين وتفرق الباقون أيدي سبا^(٣) . وكان
السلطان نفسه ضمن من ولوا الأدبار فتبعه خمسة عشر من فرسان المغول ، وأدركه
اثنان منهم فقتلها جلال الدين ، وعاد الباقون بعد أن يثسروا من الظفر به ، وأخيراً
لبأ السلطان الخوارزمي الشريد إلى جبال كردستان^(٤) . وقد فتشه الأكراد ، كما هي
عادتهم في تفتيش كل غريب عنهم ، ولما هموا بقتله همس في أذن كبيرهم «إتق» أنا
السلطان فلا تستعجل في أمري .^(٥) فأخذه الرجل إلى منزله وهناك طلب منه جلال الدين
أن يعاونه على العودة إلى بلاده . فتركه الكردي في منزله مع زوجته ، وخرج لإحضار
بعض خيوله ليستعين بها في إرجاعه إلى بلاده . وبينما كان الكردي غائباً عن منزله

(١) كانت الجيوش الخوارزمية قد تفرقت في أنحاء الدولة المختلفة على أثر هزيمة جلال الدين منكبرتي
سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م) من الحلف الذي كونه الأشرف موسى كما ذكرنا .

(٢) Howorth : History of the Mongols, part I. p. 130.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣١ .

(٤) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٢٤٥ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٤٥ — ٢٤٦

أتى كردى آخر ويده حربة وقال للمرأة : « ما هذا الخوارزمى وهلا تقتلونه ؟ » فقالت :
« لاسيل إلى ذلك وقد أمتنه زوجى وعرف أنه هو السلطان » . فقال الكردى : « سيف
تصدقونه بأنه السلطان ؟ » وقد قُتل لى بخلاط أخ خير منه ، ثم ضربه بالحربة ضربة
أضحت عن الثانية . وعلى هذا النحو كان مصير آخر سلاطين الدولة الخوارزمية . وكانت
وفاته فى منتصف شوال سنة ٦٢٨ هـ (١٥ أغسطس سنة ١٢٣١ م) . وقد عقب النسوى
على وفاته بالآيات الآتية :

يامن أسال رقاب الكاشحين دماً من بعد فقدك أبكيت العيون دماً
لئن أتاح صروف الدهر ساحتها فانظر إلى الملك والإسلام لاجراً
فالدين منظم والملك منهدم وظل حيل العلى والمجد منجدماً^(١)
وقد اختلف المؤرخون فى تصوير شخصية جلال الدين منكبرى وتباينت آراؤهم
فيه ، فترى ابن الأثير يصفه بقوله :

« كان جلال الدين سيء السيرة قبيح التدبير للملك ، لم يترك أحداً من
الملوك المجاورين له إلا عاداه ، ونازعه الملك ، وأساء مجاورته^(٢) . »
وترى النسوى يصفه بقوله :

« كان تركى الشارة والعبارة ، وكان يتكلم بالفارسية أيضاً . وأما ،
« شجاعته لحبك منها ، أوردته من وقايعه (كذافى الأصل) ، فكان ،
« أسداً ضرعاً ، أشجع فرسانه إقداماً . وكان حليماً لا غضوباً ولا ،
« شتاما ، وقوراً لا يضحك إلا تبسماً ولا يكتر كلاماً^(٣) . »

أما دوسون D'ohsson ، فقد صورته فى صورة الجندى لافى صورة الحاكم السياسى
كما ذكر أنه كان يميل إلى الآبهة ، شديد الولع بالخمر والموسيقى ، حتى فى أشد ساعاته
حرجاً . وكانت جيوشه ، التى لا يدفع أرزاقها ، تعيش على السلب والنهب^(٤) .
ومن هذه الأقوال الثلاثة . بغض النظر عما فيها من صفات خلقية ، نستطيع أن

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرى ، ص ٢٤٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٠ .

(٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرى ، ص ٢٤٧ .

(٤) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom iii. p. 63 .

نلخص سياسة جلال الدين . فنذ وصل إلى فارس لم يحاول أن يكسب صداقة جيرانه من المسلمين ، بل نراه يعاديه جميعا ، ويحاول أن يغم على حسابهم جميعا ، مما فرق شمل الوحدة الإسلامية وزادها ضعفا على ضعف . ولهذا نرى دوسون يغلب النزعة العسكرية فيه على النزعة السياسية ، تلك النزعة التي سيطرت على سياسته ، وجعلته يطمع في أن يكسب لنفسه ولدولته بقوة السلاح وحده .

وبما لا شك فيه أن سياسة جلال الدين الداخلية قد تأثرت إلى حد كبير بسياسته الخارجية ، فهو رجل كانت كل رغباته ونزعاته تتجه نحو الفتح والغزو ، وكان لا يهتم بالإصلاح الداخلي ، بل عمد إلى تسخير كل موارد دولته لتحقيق أهدافه العسكرية . ولذلك اضطربت أحوال دولته المالية وعجز عن دفع أرزاق جنده ، مما حفزهم إلى إذكاء نار الثورة في كثير من المناسبات . وكان عدم دفع هذه الأرزاق أكبر حافز لهم على تخريب المدن المفتوحة ونهبها ، ليأخذوا منها ما يعوضهم عن روايتهم المتأخرة . وقد رأينا أنهم بعد أن استولوا على مدينة خلط هددوا السلطان بالانصراف عنه إذا لم يسمح لهم بنهب المدينة ، كما رأينا كيف أنه نزل على إرادتهم وأباح لهم ثلاثة أيام ، دون أن يهتم بما يترتب على هذه السياسة من كراهية الأهالي لحكمه وبغضهم للخوارزميين ، مما جعلهم يتوقون إلى الخلاص على يد أول طارق يحاول تخليصهم . وإذا كنا نجزئ مرجحين ما فعله المغول الوثنيون في البلاد الإسلامية بعد أن استولوا عليها ، فلن نجزئ ذلك لسلطان مسلم في بلاد إسلامية مع شعوب إسلامية .

وبعد وفاة السلطان جلال الدين منكبرتي ، اعتدى الفلاحون والإرعاة على من وجدوهم من الخوارزميين ، انتقاماً منهم لما فعلوه بهم من قبل ، مما ساعد المغول على الاستيلاء على البلاد الإسلامية ونهبها ، فاستولوا في سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) وهي السنة التي قتل فيها السلطان ، على بعض المدن الإسلامية مثل ديار بكر وماردين ونصيبين وسنجار ، وأخذوا يعيشون فيها فساداً دون أن يجدوا مقاومة من السكان . وقد روى ابن الأثير بعض القصص التي تدل على جبن أولئك السكان ، فمثلاً كان الرجل المغولي يدخل وحده قرية من القرى فيقتل من يجدهم من السكان دون أن يجرؤ الأهالي على المقاومة . وقص لنا ابن الأثير قصة رجل مغولي قبض على أحد المسلمين ولم يكن مع المغولي في ذلك الوقت

سيف ، فأمره أن ينام حتى يأتي بسيف فيقتله به ، فلما عاد المغولي وجد الرجل لم يتحرك^(١). وإذا كانت هذه القصص وغيرها لا تخلو من المبالغة ، فإن أقل ما تدل عليه أنها تعبر عما ساد نفوس المسلمين في ذلك الوقت من ذعر وفزع ، كما تدل على ما حل بالعالم الإسلامي من اضطراب وقلق

تقدم المغول في نفس السنة إلى أذربيجان ولما اقتربوا من حاضرتها تبريز ، افتدى السكان أنفسهم بكثير من الأموال والهدايا الثمينة . ثم تمكن المغول من الإيجاز على مدن أذربيجان المدينة تلو الأخرى . وبما ساعد المغول على الاستيلاء على هذه المدن ، تلك الهزيمة التي حلت بحملال الدين وما كان من تفرق جيوشه ، واختفاء أخباره في ذلك الوقت ، إذ لم يكن معروفاً على وجه التحقيق المصير الذي آل إليه^(٢) ، كما ساعد المغول أيضاً ، إذكاء نار الثورة في أذربيجان وأران ، تلك الثورة التي أضرم لها هؤلاء الذين كانوا يحكمون هذه البلاد من قبيل السلطان الخوارزمي ، تقريباً منهم للمغول ، إذ لما عجز السلطان عن المقاومة ، ثار هؤلاء الحكام على الخوارزميين في أذربيجان وأران وقطعوا رموس من قبضوا عليهم منهم ، وأرسلوها إلى المغول^(٣) .

وفي سنتي ٦٣٢ و ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ — ١٢٣٦ م) دخل المغول إقليم إربل واستولوا على حاضرتهم إربل ، وخربوها ، ولكن الأهالي أرغموا المغول على التمهق بعد أن تحصن معظمهم في قلعة المدينة ، على أن المغول واصلوا الزحف في شمال العراق العربي حتى بلغوا مدينة سامراء . ولما وجد الخليفة العباسي المستنصر الخطر الذي بات يهدده ، استعد لملاقاة المغول ، واتخذ خطة الدفاع ، ودعا المسلمين للجهاد^(٤) . وقد التحمت جيوش الخليفة بجيوش المغول عند « حمير » ، وهـ جبلة ، على نهر دجلة ، واستطاعت الجيوش الإسلامية أن تلحق الهزيمة بالمغول وتأسر عدداً كبيراً منهم . وفي سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) دخل حوالى عشرة آلاف رجل من المغول أراضي العراق العربي للمرة الثانية ، واستطاع المغول أن يستدرجوا جيوش الخليفة إلى كمين نصبوه لهم ، فقتل عدد كبير من المسلمين .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٢) للرجوع نفسه ، ص ٢٣٤ .

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom iii, p. 52.

(٤) Howorth : History of the Mongols, part i, p 132.

ولم تكن انتصارات المغول في الشمال بأقل منها في الجنوب ، ففي سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) دخلت جيوش المغول مدينة « كنجة » ، في إقليم أران وقتلوا غالبية أهلها ، وخرّبوا المدينة بأسرها . وفي السنة التالية ترك المغول سهل موقان على بحر قزوين واستولوا على معظم مدن جورجيا ومن أهمها تفليس حاضرة هذا الإقليم ، ثم وضعوا أيديهم على معظم مدن أرمينية الكبرى ^(١) ، كما توغلوا في الأراضي الواقعة شمالي هذه الأقاليم . وإن استقصاء أخبار هذه الفتوح يخرج بنا عن نطاق هذا البحث .

على أن توغل المغول إلى الحد الذي رأيناه في أراضي العراق العربي جنوبا ، وفي أذربيجان وجورجيا وأرمينية شمالا ، لم يكن إلا نتيجة حتمية لزوال آخر شخصية خوارزمية وقفت في وجه الغزو المغولي ، إذ أنه لما زالت هذه الشخصية الخوارزمية ، وزالت الدولة الخوارزمية بزوالها ، لم يعد هناك ما يحول بين المغول وبين العبث في أراضي العالم الإسلامي ، دون أن يقف في وجههم عائق عن تنفيذ أغراضهم .

الباب الرابع

عوامل زوال الدولة الخوارزمية

- ١ — اضطراب الحالة الداخلية في الدولة الخوارزمية .
- ٢ — ضعف النظام الحربي الخوارزمي .
- ٣ — قوة النظم الاجتماعية والحرية عند المغول .

الباب الرابع

عوامل زوال الدولة الخوارزمية

١ - اضطراب الحالة الداخلية في الدولة الخوارزمية

العوامل التي أدت إلى انهيار الدولة الخوارزمية كثيرة ومتشعبة ، يرجع بعضها إلى ضعف العالم الإسلامي عامة قبيل الغزو ، حتى أصبح ذلك العالم مفكك الأوصال تتنازعه أيدي المقتصبين في الداخل والخارج ، ولذلك لم تكن هناك قوة واحدة تستطيع أن تقف في وجه التيار المغولي عندما فسر چنكيزخان في اجتياح أراضي الدولة الإسلامية . وإذا كانت مجهودات چنكيزخان قد انصبت على بعض أقاليم العالم الإسلامي دون بعضها الآخر ، فإن ذلك لا يرجع إلى أن الجزء الذي سلم من الغزو كان من القوة بحيث يستطيع أن يقف في وجه المغول ، وإنما يرجع إلى أن چنكيزخان لم يشأ غزوه ، بل ولم يفكر فيه . وقد فصلنا الكلام عن ضعف الشرق الإسلامي في الباب الثاني .

ومن العوامل التي أدت إلى انهيار الدولة الخوارزمية ما يرجع إلى اضطراب الحالة السياسية والاجتماعية في هذه الدولة نفسها ، ومنها ما يرجع إلى ضعف نظم الخوارزميين الحربية حتى أن المغول واجهوا دولة مفككة الأوصال على رأسها سلطان ظاهره القوة وباطنه الضعف ؛ ويقابل هذا الضعف من ناحية الخوارزميين ، تماسك في المجتمع المغولي وقوة في نظمهم الاجتماعية ، وشدة وصرامة في نظمهم العسكرية . وقد ساعدت هذه العوامل مجتمعة على إزالة الدولة الخوارزمية في وقت قصير .

ظهرت الدولة الخوارزمية كما رأينا في فترة يسودها الاضطراب ، مليئة بالفتن والمؤامرات السياسية والدينية ، وكان العالم الإسلامي في الوقت الذي بدأت فيه هذه الدولة تقوى وتوسع على حساب جيرانها ، قد أثرت فيه هذه التيارات السياسية والفتن

الدينية ، فأضعفت وحدته وكثر الأمراء والحكام المستقلون الذين لا يعترفون للخليفة العباسي إلا بالسيادة الاسمية .

وقد ساعدت كل هذه الظروف على ظهور الدولة الخوارزمية على مسرح التاريخ الإسلامي، ثم أخذت هذه الدولة تقوى شيئاً فشيئاً بقدر ما كان يصيب الأمراء والحكام المجاورين من ضعف . وكانت فترة مضطربة حقاً تلك التي حاول فيها سلاطين الدولة الخوارزمية أن يفرضوا نفوذهم على القوى الموجودة في ذلك الوقت، معتمدين في ذلك على سلاح القوة وحده ، دون أن يعتمدوا على المهارة السياسية . ومن أجل هذا كانت سياسة سلاطين الدولة الخوارزمية بوجه عام وسياسة علاء الدين خوارزم شاه بوجه خاص ، سبياً في إضعاف الولايات الإسلامية المجاورة ، وخاصة إذا كان الهدف الأول الذي يرمى إليه علاء الدين هو أن يؤسس لنفسه إمبراطورية عظيمة على حساب هذه القوى، إذ كان من أثر هذه السياسة أن ضعفت هذه القوى جميعاً وضعفت الدولة الخوارزمية أيضاً . وما يدل على صحة هذا القول أن علاء الدين خوارزم شاه لما فر من وجه التيار المغولي الجارف ، لم يكن هناك أمير قوى يستطيع أن يلم شمل الولايات الإسلامية ويقف بها في وجه المغول .

وكان النزاع الذي قام بين السلطان الخوارزمي من جهة ، وبين الأمراء المسلمين والخليفة العباسي من جهة أخرى ، وما تبع هذا النزاع من فتن ومؤامرات ، كان ذلك كله أكبر مشجع للمغول على غزو بلاد الدولة الخوارزمية^(١) . وقد عبر ابن الأثير عن هذه الحقيقة بقوله :

« فإن هؤلاء التتر إنما استقام لهم الأمر لعدم المانع ، وسبب عدمه ،

« أن خوارزم شاه محمداً كان قد استولى على البلاد . وقتل ملوكها ، »

« وأفناهم ، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها ، فلما انهزم منهم لم ،

« يبق في البلاد من يمنعه ولا من يحميها ، ليقضى الله أمرها كان مفعولاً^(٢) . »

وإذا انتقلنا إلى قلب الدولة الخوارزمية نفسها ، وجدنا بدور الفوضى والانحلال

(١) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, pp. 435—6.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٦ .

قد تأصلت فيها ، فلم يكن أهالي هذه الدولة متحدين إلا في العقيدة الدينية ، وعلى الرغم من ذلك كانت المذاهب الإسلامية منبع عدااء مستمر بين المسلمين أنفسهم ؛ وفيما عدا الناحية الدينية نرى هؤلاء الأهالي يتكونون من عناصر متباينة تتألف من العرب والفرس والآتراك . وقد اعتمد الخوارزميون في تكوين جيشهم على الآتراك دون سواهم من العناصر الأخرى ، مما أدى إلى تدميرها .

وكان الجزء الرئيسي من الجيش الخوارزمي يتكون من التركمان وقبائل كانكالي Cancalis . أما التركمان فهم سلالة الآتراك الغز الذين أخضعوا فارس تحت زعامة السلاجقة ، وأدى استيطانهم في هذا الجزء من العالم الإسلامي واختلاطهم بالعناصر الفارسية والعربية ، إلى تغيير صفاتهم الجثمانية وعاداتهم ولغتهم . أما قبائل كانكالي ، فيرجع أصلهم إلى السهول الواقعة شمالي إقليم خوارزم وفي شمال شرقي بحر قزوين ، وقد اندفعوا إلى أراضي الدولة الخوارزمية على أثر تصاهرهم مع سلاطين هذه الدولة . فقد تزوج السلطان علاء الدين تكش من تركان خاتون ابنة أحد زعماء هذه القبائل ، وكان من أثر ذلك أن هاجر كثير من رجال هذه القبائل من أقرباء تركان خاتون وأفراد عشيرتها إلى أراضي الدولة الخوارزمية ودخلوا في خدمة علاء الدين محمد خوارزم شاه ، ووصلوا إلى أعلى المناصب وأرقاها . وبذلك تكونت منهم قوة عظيمة في الدولة الخوارزمية وخاصة بعد أن منحهم السلطان بعض الأقاليم ليحكموها باسمه ، وأطلق أيديهم فيها ، وبما لا شك فيه ، أن قوة الخوارزميين قد تضاعفت أمام هذه الأرستقراطية العسكرية ، وشعر الأهليون فملا ، وكذا السلطان ، بالحاجة إلى التحفظ في إشباع رغبات هؤلاء الجند الذين كانت محبتهم له موزعة الأركان ، وطاعتهم له لا تقوم على شعور ينم عن الإخلاص ، فلما شعروا بنوايا السلطان نحوهم عمدوا إلى إرهاب الأهالي المسلمين ونهب حوائطهم في الطرقات (١) . وتفنى هؤلاء الجند الغرباء في تعذيب الأهالي وسلبكوا في ذلك سبلا متعددة ، فاضطرب الأمن في البلاد واضطربت معه أحوال الدولة السياسية والاجتماعية (٢) .

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 196 — 8.

(٢) الديار بكري : تاريخ الخميس في أحوال أئمة نبيس ، ج ٢ ص ٣٦٨ .

وبما زاد في اضطراب الحالة السياسية في داخل هذه البلاد أن تركان خاتون أم السلطان علاء الدين ، كونه لها عصبية قوية من قوادعشيرتها حتى أصبح نفوذها في الدولة لا يقل عن نفوذ السلطان نفسه . من ذلك أنه كان إذا حدث حادث في جهة من جهات الدولة ، أو عرضت مشكلة من المشاكل صدر فيها حكمان متناقضان أحدهما من السلطان والآخر من تركان خاتون ، نظر في تاريخ كل من الحكيمين ولقد أحدهما (١) ، وهذا ينافي تماماً ما يجب أن يكون في مثل هذه الأحوال من حيث احترام أوامر السلطان مهما كان تاريخ الأوامر التي تصدرها تركان خاتون . ولذلك نرى أن نفوذ هذه السلطنة وعشيرتها قد تفرغل في الدولة ، مما أضعف هيبة حكامها . وفضلاً عن ذلك فإن السلطان علاء الدين جوارزم شاه كان لا يخالف لأمه أمراً وذلك لسببين ، أولها ما غرسه سنة الكون في نفسه من الخرج على طاعة الوالد ، والثاني بسبب كثرة أمراء الدولة وحكامها الذين كانوا من عشيرتها (٢) .

ولنضرب مثلاً لقوة تركان خاتون وتغلغل نفوذها في الدولة ، فقد أمكنها أن ترفع أحد المقربين إليها وهو نظام الملك (٣) إلى منصب الوزارة رغماً عن السلطان الذي لم يكن يميل إليه بسبب تجرده من الصفات الخلقية التي يجب أن يبتحلي بها صاحب هذا المنصب ، فضلاً عن أنه كان من الرجال المرششين ، فإنه عُرِف أيضاً بالتسكوت في البيت فيما يترشح عليه من الأمور . وقد حدث أن كان علاء الدين في مدينة عيسابور وأُخذت منصب القضاء فيها إلى صدر الدين الجتدي ، الذي كان من بيت تنقل بكثير من أفراد كثير آ من وظائف الدولة ، كما كان من أهل العلم والفضل ، وبعد أن قلده علاء الدين هذا المنصب حذره من أن يرسل الهدايا إلى الوزير كما كان يفعل أكثر الحكام ، ولكن القاضي أدرك ما يترتب على عدم إرسال الهدايا إلى الوزير وخاصة بعد أن مدده هذا بسوء المصير ، وحدث بعد ذلك أن أرسل القاضي إليه فعلاً كيباً عتوماً به أربعة آلاف دينار ، مخالفاً في ذلك أوامر السلطان . فلما علم علاء الدين

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٤٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٨ .

(٣) هو نظام الملك ناصر الدين محمد بن صالح .

بذلك ، أرسل إلى الوزير يطلب منه الهدية فاضطر أن يرسلها إليه مختومة كما وصلته .
ولما مثل القاضي في حضرته سأله عن نوع الهدية التي أرسلها إلى الوزير فأجاب القاضي
بأنه لم يرسل شيئاً ، وأقسم برأس السلطان على ذلك ، فلما واجهه بالهدية أسقط في يده ،
واعترف بالأمر ، وحينئذ أصدر السلطان أمره بعزله وعزل الوزير ^(١) .

والمهم في هذا كله . أن أحداً لم يجرؤ على أن يفاتح الوزير المعزول بخبر عزله .
ولم يستطع السلطان تنفيذ ما أمر به . وتلاحظ أن تُركان خاتون عهدت بعد ذلك إلى
نظام الملك بإدارة أملاك ابنها «أزلاغ شاه» الذي كان يحكم إقليم خوارزم ، وسار الوزير
في حكم هذا الإقليم سيرة تتفق مع طبيعته الشريرة ، ونهب بعض أموال هذا الإقليم .
ولما علم السلطان بذلك ثارت ثائرتة وأوقد أحد قواده إلى إقليم خوارزم وأمره بأن
يحضر إليه رأس الوزير . وكان طبعياً ألا يرضى هذا الأمر أم السلطان وأمرت
باستدعاء هذا القائد عقب وصوله ، وأمرته بأن يحضر إلى الديوان عندما يكون الوزير
هناك ، وأن يحياه باسم السلطان ويقول له : « إن السلطان يقول لي مالي وزير غيرك
فكن على رأس عمالك ، فليس لأحد في سائر أقاليم الملك أن يخالف أمرك وينكر
قدرك » . وقد اضطر القائد أن ينفذ ما أمر به ، واستمر نظام الملك يتمتع بسلطة
واسعة رغم غضب السلطان عليه ، كما استمرت أوامره نافذة في خوارزم وخراسان
ومازندران ^(٢) .

وهكذا نرى أن نفوذ الأتراك في الدولة الخوارزمية قد استفحل ، حتى أنهم
تحكموا في أمهات أمورها ، وزادت نسبة حكام المدن والأقاليم منهم . حتى أننا نرى أن
نظام الإقطاع الذي كان من أهم مظاهر العصر السلاجوقي ، والذي كان يتجلى في نظام
الأنابكة ، يستمر في عهد الدولة الخوارزمية ^(٣) . ولم يكن هؤلاء الأتراك مصدر قوة
للدولة بل كانوا مصدر ضعفها ، ففضلاً عن استقلالهم ببعض أقاليمها فإنهم لم يندمجوا
سلوياً بنسجهم مع أهالي البلاد الأصليين ، ولما شعروا بضعف السلطان لم يحترموا قوته

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣١ .

(٣) Barthold : Turkestan down to the Mongol Invasion, p. 378.

أو حكومته ، وأخذوا ينهبون البلاد . وأسوأ من هذا زام يتركون صفوف الجيش الخوارزمي وينضمون تحت لواء جيش چشكيزخان المغولي^(١) .

٢ - ضعف النظام الحربي الخوارزمي

كانت نظم الخوارزميين الحربية وخططهم التي أعدوها للدفاع عن دولتهم قبل الغزو المغولي ، من العوامل الرئيسية التي أدت إلى انتصار المغول . ففضلاً عن أن الجيش الخوارزمي الذي اعتمد عليه علام الدين كان يتكون كما قلنا من الجنود الأتراك الذين كانوا مصدر قلق واضطراب للدولة الخوارزمية ، فإن هؤلاء الجنود لم يهتموا كثيراً بالدفاع عن هذه الدولة شأنهم في ذلك شأن الجنود المرتزقة الذين يوكل إليهم أمر الدفاع عن شعب غريب عنهم ، وكانوا يدركون أنهم إذا انتصروا في ميدان القتال ، فلن يعود عليهم هذا النصر بخير كثير . ثم إن الجيش الخوارزمي كان ينقصه النظام والطاعة للقواد ، والقدرة على تحمل الصعاب ، تلك الصفات التي كانت من أهم مميزات الجيش المغولي^(٢) . وأهم من ذلك كله فقد فقد علام الدين خوارزم شاه ثقة شعبه ، فلم يشاركوه بقلوبهم في الاستعداد لمواجهة هذا الخطر الداهم ، ولم يسارعوا للانضمام تحت لوائه ، كما لم يساعده في جمع المال اللازم للإنفاق على جنوده ، هذا فضلاً عن أن القدرة على تجنيد السلطان لمن يشاء من رعيته لم تتوفر لديه .

أما من ناحية الخطة الحربية التي اتبعها علام الدين خوارزم شاه ، فترى أنها كانت خطة غير موفقة ، إذ بدلاً من أن يجمع جيشاً واحداً يقف به في وجه المغول ، يراه يوزع قواته على المدن المختلفة في بلاد ما وراء النهر . فمثلاً زاه يضع في مدينة بخارى عشرين ألف رجل ، وفي سمرقند خمسين ألفاً^(٣) ، كما نراه يضع في مدينة أترار التي تعتبر مفتاح هذا الإقليم عشرين ألفاً^(٤) . ونراه أيضاً يرسل دعائه إلى أقاليم الدولة الخوارزمية المختلفة لجباية الضرائب منها ، معلناً أنه سيضع في كل إقليم جيشاً يعادل

(١) Vambery : History of Bokhara, p. 140.

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, to n. i. pp. 212 — 13.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٨ .

(٤) Cahun : Introduction à l'Histoire de l'Asie, l'Europe et les Mongols, (١) p. 281.

ما يجمع من هذا الإقليم من أموال . وهكذا تفرق الجيش الخوارزمي بين المدن الخوارزمية المختلفة مما سهل على المغول القضاء على المدن واحدة تلو أخرى . ولو أن علاء الدين جمع جيوشه وقابل بها المغول دفعة واحدة ، لربما سهل عليه القضاء عليهم . وبسبب تجمع الجيوش الخوارزمية في داخل المدن ، نرى علاء الدين يعمل جاهداً على تحصين تلك المدن وتقوية حوائطها ، حتى يكون الجنود وهم في داخل الأسوار في مأمن من غدر أعدائهم . ومن الأمثلة على ذلك ما فعله في مدينة سمرقند ، إذ أنه رغم اتساع هذه المدينة نراه يشرع في بناء سور حولها ليكون وسيلة قوية من وسائل الدفاع . ولكي يحصل على المال اللازم لهذا المشروع ، نراه يوزع عماله في الأقاليم لجمع الضرائب باسم عمارة سور سمرقند ، واستطاع بعد ذلك أن يجمع المال اللازم لهذا المشروع في وقت قصير ، ولكن الغزو المغولي المفاجيء منعه من إنجاز مشروعه^(١) .

ويذهب المؤرخون مذاهب شتى في تعليل السبب الذي دفع علاء الدين إلى توزيع قواته على هذا النحو في داخل المدن الخوارزمية ، فيرى جيبون Gibbon أنه قد ظن أن المغول سيمسكون بحصار هذه المدن العديدة ومن ثم يعودون إلى بلادهم دون أن ينالوا من هذه المدن منالاً^(٢) . ويرى سيكس Sykes أن علاء الدين خوارزم شاه ظن في ذلك الوقت أن چنكيزخان سيكتفي من البلاد الإسلامية بنهب ما تصل إليه أيديه من الغنائم والأسلاب ، ثم يعود من حيث أتى^(٣) ، وهذا يخالف طبعاً ما عزم عليه چنكيزخان من إخضاع أقاليم آسيا الغربية . ويرى فلاديميرستوف Vladimirstov أن السلطان الخوارزمي كان لا يثق بقواده ، ولذلك كان يخشى أن يتجمع عدد كبير من رجاله تحت قيادة رجل واحد ، فتقلب عليه هذه الجيوش تحقيقاً لرغبة قائدها الذي قد تحدثه نفسه بعصيان السلطان . وقد ذكر فلاديميرستوف فوق ما تقدم أن القواد الخوارزميين لم يكونوا من الكفاية والمقدرة بحيث يستطيع قائد واحد منهم أن يقود جيشاً كبيراً ، أضف إلى ذلك أن علاء الدين وجد أنه من الصعب عليه أن يلتقي بأعدائه في العراق ولذلك فضل التحصن في المدن^(٤) .

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) Gibbon : The Decline & Fall of the Roman Empire, vol. vi. p. 279.

(٣) Sykes : A History of Persia, p. 56.

(٤) Vladimirstov : The Life of Chingis - Khan, pp. 121 — 2.

ونحن نميل إلى الأخذ بالرأى الأخير الذى يتفق مع ما ذكرناه من أن الجيوش والقواد الخوارزميين كانوا أجنب عن الدولة الخوارزمية ، كما أنهم كانوا يعضدون سياسة تُركانخاتون التى تتعارض مع سياسة السلطان نفسه . فلا عجب إذا رأينا علاء الدين لا يوليهم ثقته . وليس أدل على صحة ما نقول ، من اختلاف وجهة نظر القواد وكبار رجال الدولة حيال الخطة التى يجب أن تتبع لمواجهة المغول ، إذ كان كل يفضل الطريق الذى يتفق مع ميوله ومصالحه الشخصية بصرف النظر عن مصلحة الدولة وسلامتها . وقد رأينا أن أحد كبار رجال الدولة قد زيّس لعلاء الدين طريق الالتجاء إلى العراق العجمي ، بعد أن كان قد عقد العزم على أن يدافع عن دولته في إقليم غزته ، لا لسبب إلا لأن مصالحه الشخصية كانت تتفق مع هذا الرأى (١) .

بما تقدم نرى أن قوة الخوارزميين الحربية قد وزعت وتفرقت ، ولذلك سهل على المغول إخضاع المدينة تلو الأخرى وإبادة الحامية بعد الحامية ، كما سهل عليهم ، بعد انهيار بلاد ما وراء النهر التى ركز الخوارزميون فيها وسائل دفاعهم ، أن يزيلوا الدولة الخوارزمية ويخربوا ما همّسه المسلمون من مدينها ، ويجعلوا منها أطلالا لا تجد من ييكها (٢) .

وقد عاد چنگيزخان إلى بلاده على النحو الذى رأيناه ، وما كاد يعود حتى عاد جلال الدين منكبرتي من بلاد الهند واستعاد الخربات التى تركها له المغول ، وكوّن في الجزء الغربى من أقاليم الدولة الخوارزمية حكومة مهيضة الجانِب . ولم يكن في وسع هذا السلطان ، الذى ركز جهوده الانتقام من حكام البلاد المحيطة بدولته وعلى رأسهم الخليفة العباسي بسبب عداوتهم لأبيه ، والذى كان يعمل فوق ما تقدم على توسيع رقعة بلاده على حساب ما يحاورها من حكام البلاد الإسلامية وغير الإسلامية ، لم يكن في وسع هذا السلطان أن يعمل على توثيق روابط الود والإخاء بينه وبين هؤلاء الجيران ، لذلك قضى فترة من الوقت استطاع فيها ، على قصرها ، أن ينهك القوى الإسلامية ويضعفها ، كما أثار نفور المسلمين منه وسخطهم عليه ، فانفضوا من

(١) Curtin : The Moigols' History, p. 113.

(٢) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p 437.

حوله ، وفضلاً عن هذا فإنه لم يحسب حساباً للمغول الذين انصرفوا عنه وعن العالم الإسلامي إلى حين ، بسبب تفرغهم لمشا كلهم الداخلية في ذلك الوقت . وكان الواجب على جلال الدين منكبرتي وقد عاد إلى بلاده وترجع على عرشها أن يستفيد من أخطاء أئنه وهفواته السياسية ، فيعمل على اكتساب رضا جيرانه في الخارج ، ويكون حلفاء إسلامياً يقف به في وجه المغول ، وكان يجب عليه أيضاً أن يعمل على كذب حجة رعيته حتى يضمن ولاء الأهلالي إذا ما ظهر الخطر المغولي من جديد . ولكن على العكس من ذلك نراه لا يترك قوة من القوى الموجودة في ذلك الوقت إلا ناصبها العداء ، خارج دولته وداخلها . ففي الخارج اعتدى على أملاك الخليفة ، وأملاك الأمراء المسلمين في بلاد ما بين النهرين ، كما غزا أذربيجان وجورجيا وأذل أهلها لسلطانها ، وناصب طائفة الإسماعيلية للعداء ، تلك الطائفة الخطرة التي ألبت عليه أعداءه وشجعت المغول على إعادة غزو أراضي الدولة الخوارزمية .

وقد وصف ابن الأثير سياسة جلال الدين منكبرتي الخارجية منذ ظهوره على المسرح التاريخي من جديد ، وصفا يعبر تعبيراً صحيحاً عما جلبته عليه هذه السياسة من أضرار فقال :

« وكان جلال الدين سبي السيرة فيبيع التديير للملكة لم يترك أحداً ،
 « من الملوك المجاورين له إلا عاداه ونازعه الملك وأبواه مجاورته ، فمن ،
 « ذلك أنه أول ما ظهر في أصفهان وجمع العساكر قصد خوزستان ،
 « فحصر مدينة شستر (كذا في الأصل) وهي للخليفة فحصرها ،
 « وسار إلى دقوقا فنهبا وقتل فيها كثيراً وهي للخليفة أيضاً ، ثم ملك ،
 « أذربيجان وهي لأوزبك فلما قصد الكرج (جورجيا) وهزمهم ،
 « وعادهم ثم عادى الملك الأشرف صاحب خلاط ، ثم عادى علاء الدين ،
 « صاحب بلاد الروم ، وعادى الإسماعيلية ونهب بلادهم وقتل فيهم ،
 « فأكثر وقرر عليهم وظيفه من المال كل سنة ، وكذلك غيرهم ، فكل ،
 « من الملوك تخلى عنه ولم يأخذ يده (١) . »

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٠ .

وهكذا كان من أثر عداوة جلال الدين لهذه القوى المحيطة بدولته أنها رفضت أن تمد له يد المساعدة ، عندما داهمه المغول بغزوهم المماجي^(١) .

أما في الداخل فترى جلال الدين يحاول أن يكون الحاكم المستبد في دولته ، فانفض عنه أخوه غياث الدين تتبعه قوة كبيرة من رجال جيشه في الوقت الذي كان يتحتم عليه أن يستفيد بمجهود كل رجل في دولته . كذلك ترى كبار رجال الدولة يتفضون من حوله ويحيطونه بشبكة من الدسائس والمؤامرات ، ويشعلون نيران الثورة عليه في البلاد الخاضعة ، كما حدث في أذربيجان^(٢) .

ولم يفكر جلال الدين في تكوين جيش يستطيع أن يواجه به العدو المغولي إلا عند ما دقت الساعة وظهر المغول فجأة في الميدان ، فأخوه على غرة قبل أن يتمكن من إصلاح شؤنه الداخلية أو الخارجية ، فكانت النتيجة أن اكتسج المغول الدولة الخوارزمية من جديد سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) ، وزالت هذه الدولة بزوال آخر شخصية خوارزمية من سلالة فوشتكين .

٣ - قوة النظم الاجتماعية والحربية عند المغول

رأينا أن المغول كانوا بدائيين في نظمهم الاجتماعية وطرق معيشتهم ، كما رأينا كيف أنهم عاشوا عيشة بدوية وسط تلك القبائل العديدة التي كانت تحيط بهم . وعلى الرغم من أن اليساطة في العيش كانت من أهم مميزاتهم ، إلا أنهم اصطالحوا على بعض النظم والتقاليد التي ساروا عليها فيما بينهم وأولوها احترامهم ، فكانت سر تقدمهم . وقد فرضت عليهم بيوتهم وحالة التنقل التي استلزمها ظروفهم ، أن يذبوا أنفسهم على حب المخاطرة ومواجهة الشدائد بشعر باسم ، وأن يغرسوا هذه الصفات في نفوس أطفالهم منذ نعومة أظفارهم ، فكانوا يدرّبونهم وهم في سن الثالثة على استعمال القوس

De Guignes : Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols (١)
et des Autres Tartares Occidentaux, tom. iii. p. 76.

Howorth : History of the Mongols, part i. p. 130. (٢)

والنشاب^(١) ، ويدربونهم على صيد الأرانب والفيران ، وكما يركب الكبار ظهور الجياد ، كان الأطفال يركبون الخراف ويتعلقون بصوفها^(٢) . وهكذا ينشأ الأطفال جميعي الأجسام ، سليمي العقول ، يحترمون أنفسهم ، فيخدمون قبائلهم بقوة وحزم ، إذا ما ترعرعوا وكبروا .

وكما هي الحال في الحياة القبلية ، نجد أن كثرة العدد في القبيلة أو العشيرة مما يقوى من شأنها ويشد من أزرها ، فترى المغول ، وهم يعيشون وسط مجموعة من القبائل القوية ، يهدفون إلى الإكثار من عددهم بالتشجيع على الزواج . لذلك نراهم لا يحددون عدد الزوجات ، فكان للفرد أن يتزوج ما شاءت له رغبته أن يتزوج . ومن أقرب الأمثلة على ذلك جنكيزخان نفسه فقد قيل إنه تزوج من أكثر من خمسمائة زوجة في وقت واحد من بنات الأمراء أو الخانات ، على أنه مع كثرة عدد زوجاته كان يفضل خمسا منهن^(٣) . ولم يكن هناك ما يحول بين المغول وبين الزواج من أزواج آبائهم ما عدا الأم^(٤) . ولم تكن هناك فوارق اجتماعية تحول بين زواج أي رجل من الفتاة التي يرغبها مهما كانت منزلتها في المجتمع المغولي^(٥) .

وهكذا كان للفرد في المجتمع المغولي قيمته ، فكان موضع احترام المجتمع في حياته نظراً لتفانيه في المحافظة على هذا المجتمع الذي يعيش فيه . وكما كان الفرد مكرماً في حياته ، فإنه كان موضع التكريم أيضاً بعد مماته ، فإذا توفي رجل مغولي كفنوه بأحسن الملابس ووضعوا معه الكنوز الذهبية والأحجار الكريمة . ويظهر أن المغول كانوا يعتقدون كما كان يعتقد قدماء المصريين أن الميت سيبعث بعد مماته ، ولذلك كانوا يضعون في قبره الطعام والشراب كما كانوا يضعون معه خيولاً حية إذا كان الميت من الأمراء^(٦) .

(١) Boulger : The Mongols & the Court of Kublai Khan, p. 2850.

(The Universal History of the world, vol. 5.)

Lamb : Genghis-Khan, The Emperor of All Men, p. 19. (٢)

Abulgasi : Histoire Généalogique des Tatars, pp. 233 — 5. (٣)

Fitzgerald : China, A Short Cultural History, p. 427. (٤)

(٥) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ص ١٣٩ .

Boulger : The Mongols & The Court of Kublai Khan, pp. 2850—51. (٦)

(The Universal History of the World, vol. 5.)

وبما هو جدير بالملاحظة أن المغول بوجه عام وچنكيزخان بوجه خاص لم يفرقوا بين الأديان العديدة التي أحاطت بهم ، فعلى الرغم من أن أقاليم شرق آسيا كانت فاصلة بالجماليات الإسلامية وجماعات المبشرين من المسيحيين وأصحاب الديانة البوذية ، فإن الاعتبار القومية عند المغول كانت فوق الاعتبارات الدينية . ولذلك تأمل چنكيزخان جميع السكان على اختلاف أديانهم معاملة واحدة ، وترك لهم حريتهم الدينية ، رغم أنه كان يدين بالديانة الشامانية ^(١) . ويرى ولز Wells أنه في عصر چنكيزخان كان الاضطهاد الديني على أشده في طول آسيا وعرضها ^(٢) ، على أننا نرى أن ذلك الاضطهاد والتعذيب الذي حل بالأهالي في البلاد المفتوحة لم يكن اضطهاداً دينياً ، ولكنه كان اضطهاداً سياسياً حريياً شمل جميع الأهالي على اختلاف أجناسهم وأديانهم وعلى الرغم من أن چنكيزخان لم يكن يعرف القراءة والكتابة ولا يعرف من اللغات سوى اللغة المغولية ^(٣) ، فقد شرع لأمته عقب انتخابه خاقاناً سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) قانوناً عاماً عرف باليساق ، نظم فيه علاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض ، كما حدد فيه علاقة الفرد بالمجتمع . وتتلخص أحكام اليساق في أمور ثلاثة : الخشوع لچنكيزخان ، والاتحاد في قبيلة واحدة ، والعقاب للصارم لكل مخطئ . وبذلك القانون استطاع چنكيزخان أن يجمع كافة القبائل تحت لوائه ؛ وكان كل شخص ، عسكري أو مدني ، كبير أو صغير لا يعرف إلا كلمة واحدة هي كلمة الطاعة ^(٤) . وقد أورد المقرئزي تعاليم اليساق كما وضعها چنكيزخان نقلاً عن نسخة وجدت في خزانة المدرسة المستنصرية ببغداد ^(٥) .

(١) Vladimirstov : The Life of Chingis - Khan, p. 109.

(٢) Wells, H. O. : Outline of History, vol. ii. p. 473.

(٣) Vladimirstov : The Life of Chingis - Khan, p. 72.

(٤) Lamb : Genghis, Khan, The Emperor of All Men, pp. 77—78.

(٥) يقول المقرئزي في كتابه المخطط عن قانون اليساق : يأتي .

« إن چنكيزخان القائم بدولة التتر في بلاد المشرق ، قرر قواعد وعقوبات أثبتتها في كتاب سماه «ياسة» ومن الناس من يسميه «يسق» والأصل في اسمه «ياسة» . ولما تم وضعه ، كتب ذلك نقشا في صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالزموه بعده حتى قطع الله دابرهم ... وأخبرني العبد الصالح الداعي لله الله تبارك وتعالى أبو حاتم أحمد بن البرهان أنه رأى نسخة من الياسة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد ، وهي جمة »

وكانت ثقة چنكيزخان باليساق عظيمة حتى أنه اعتقد أن أمور دولته لن تستقيم إلا بتطبيق أحكامه . وقد أثر عنه أنه قال : « إذا لم يتبع الأمراء الذين سيأتون بعدنا قوانين اليساق فإن إمبراطوريتنا ستبلى وتتحطم » (١) .

وكان من أثر تمسك چنكيزخان بتنفيذ مآشرعه من قوانين ، أن تماسك أعضاء المجتمع المغولي وارتبطوا برباط واحد لتحقيق هدف واحد هو المحافظة على كيانهم السياسي في داخل مجتمعهم الخاص ، ثم توجيه القوى الكامنة في قلوبهم إلى السيطرة على جيرانهم . ولم يكن هذا وحده هو السبب في تفوق المغول على القوى المحيطة بهم ، ولكن يرجع السر في هذا التفوق أيضا إلى قوة نظمهم الحربية سواء أكان ذلك من ناحية

== مآشرعه چنكيزخان في الياسة أن من ذني قتل ، ولم يفرق بين المحسن وغير المحسن ، ومن لا ط قتل ، من بال في الماء أو على الرماد قتل ، ومن وجد مبدأ هاربا أو أسيرا قد حرب ولم يرده على من كان في يده قتل ، ومن أعطى بضاعة تلحق فيها فاته يقتل بعد الثالثة ، ومن أطمع أسير قوم أو كساه بشير لاذنهم قتل ، وأن الحيوان تكتف لوائمه ويحق بطنه ويمرر قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه ، وأن من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح ، ومن وقع حمله أو نوسه أو شئ من متاعه وهو يكبر أو يفر في حالة القتال وكان وراءه أحد فإنه ينزل ويناول صاحبه ماسقط منه فإن لم ينزل ولم يناوله قتل ، وشرط أن لا يكون على أحد من ولد طلي بن أبي طالب رضى الله عنه مؤنة ولا سلفة ، وألا يكون على أحد من الفقراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عساجم من أرباب العلوم وأصحاب العباد والزهد والمؤذنين ومغسل الأموات كلفة ولا مؤنة ، وشرط تنظيم جميع الملل من غير تعصب لملّة طلي أخرى ، وجعل ذلك كله قرينة إلى الله تعالى ، وألزم قومه أن لا يأكل أحد من أحد حتى يأكل المتناول منه أولا ولو أنه أمير ومن يناوله أسير ، ولزم أن لا يتخصص أحد بأكل شئ . وغيره يراه بل يشركهمه في أكله ، وألزمهم ألا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه ... وإن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل وأكل معهم من غير لاذنهم وليس لأحد منعه ، وألزمهم أن لا يدخل أحد يده في الماء ولكنه يتناول الماء بشئ . يخرقه به ، ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى ، ومنع أن يقال لشئ إنه نجس ، وقال جميع الأشياء ظاهرة ولا يفرق بين طاهر ونجس ، وألزمهم ألا يتعصبوا لشئ من المذاهب ، ومنعهم من تهنيئ الألقاب ووضع الألقاب ، وإنما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط . وألزم القام بعده عرض المساكر وأسلحتها إذا أراد الخروج إلى القتال ، وأنه يعرض كل ماسافر به عسكره وينظر حتى الإبرة والحيط فمن وجده قد قصر في شئ مما يحتاج إليه عند عرضه إليه عاقبه ، وألزم لساء المساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف في مدة غيبتهم في القتال ... وألزمهم عند رأس كل سنة عرض سائر بناتهم الأبنكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده . ورتب لساكره أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشراوات . وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنّب وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فإنه يلقي نفسه إلى الأرض بين يدي الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضي فيه ما أمر به الملك من العوبة ولو كانت بذهاب نفسه . وألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة .

المقرئى : المخطط ، ج ٢ ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

Grenard : Gengis - Khan, p. 66. (١)

التنظيم الداخلي في الجيش ، أم من ناحية خططهم الحربية قبل أن يخوضوا غمار الحرب بل وفي أثناء المواقع الحربية نفسها.

وكان كل مغولي مجتهداً في خدمة دولته ، كما كان على أتم استعداد لحمل السلاح والانضواء تحت الراية المغولية إذا هدد بلاده خطر خارجي ، أو إذا هاجمت جموع المغول إقليماً من الأقاليم . وكان الجندى المغولي في وقت السلم يدرب نفسه على ما سيقوم به في وقت الحرب فيعد آلات القتال ويتدرج على استعمالها في صيد الحيوانات والطيور (١) ، تاركاً شتونه الخاصة وشتون أسرته إلى حنكة نسائه ومهارتهن .

ويرى كثيرون من مؤرخي العصور الوسطى أن السبب في انتصارات المغول يرجع إلى كثرة عددهم وتفوقهم على جميع الشعوب التي ساربوها في العدد ، ولكن السبب الحقيقي الذي قادم إلى النصر يرجع إلى السكيف لا إلى الكم ، إذ لم يوجد من الجيوش في العصور الوسطى ما يضارعهم أو يضاهيهم في خططهم الحربية . فالسلطة العليا كانت في يد الخاقان ، فهو المرجع الأخير في كل صغيرة وكبيرة ، وهو الذي يشرف على تنظيم الجيش وإعداده ورسم الخطط والمواقع الحربية واختيار الأوقات المناسبة لها . وكان الجيش المغولي منظماً أحسن تنظيم إذ قسمه چنكيزخان إلى فرق كبيرة تتكون كل منها من عشرة آلاف رجل ، وهذه بدورها تنقسم إلى فرق تتألف كل منها من ألف رجل ، ويتدرج هذا التقسيم في الفرق ، ففرق فرقا من مائة وفرقا من عشرة . ونرى تبعاً لهذا التقسيم قائداً لكل فرقة من الفرق الكبيرة أو الصغيرة يتصرف فيها حسب ما يراه ، ولكن كل هؤلاء القواد كانوا يرجعون في النهاية إلى چنكيزخان . (٢)

على أننا نلاحظ أن هذا التقسيم للجيش المغولي ، لم يكن من ابتداء چنكيزخان ، بل كان هذا النظام معمولاً به في الجيش المغولي قبل تويجة خاقانا ، ولكن يمكن القول إن چنكيزخان قد حافظ على هذا النظام وأكسبه قوة ، كما سس القوانين الصارمة لكل من يخالف واجبه من القواد أو الجنود (٣) ولكي يطمئن چنكيزخان على جيشه نراه

(١) Howarth : History of the Mongols, part i. p. 110.

(٢) Abulgasi : Histoire Généalogique des Tatars, pp. 348 — 9.

(٣) De Guignes : Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols

et des Autres Tartares Occidentaux, tom. iii. pp. 72 — 73.

يضع على رأس كل جيش قائداً يعرفه شخصياً ويثق به وبقدرته ، ولذلك كان معظم قواد الجيوش من العائلات الأرستقراطية . ثم إن چنكيزخان سن سنة حسنة في ترقية الضباط فجعل أساس الترقية من رتبة إلى رتبة أعلى منها الكفاءة وحدها دون أى اعتبار آخر . وكما أن چنكيزخان كان يحافظ على كيان الجندى المغولى ويحترم شخصيته ، كان كذلك يحاسبه على تقصيره في أداء واجبه ، أو هدم إطاعة أوامر رؤسائه ، لا يقتل الجندى أو الضابط المذنب فقط ، وإنما يقتل زوجته وأولاده أيضاً^(١) .

كذلك نرى المغول يقسمون الفرق التي تتألف منها جيوشهم إلى وسط وجناحين ، أيمن وأيسر ، فتتحرك هذه الفصائل وتحيط بالعدو كلها دعت الجلالة إلى ذلك^(٢) . وكانت قوات الوسط تتكون من فرق أمامية وأخرى خلفية . ولما كانت الفرق الأمامية أكثر تعرضاً لفتك الأعداء ، كان يلبس جنودها دروعاً كاملة ويحملون السيوف والخرايا ويغطون خيولهم بدروع ثنasia . أما الفرق الخلفية فكان جنودها لا يلبسون دروعاً ولا يحملون من أسلحة الحرب سوى القوس والنشاب ، وكانت هذه الفرق بمثابة الفرق الخفيفة التي يسهل تنقلها من مكان إلى آخر ، وكانت تستخدم في مناورة العدو كلها تقدم ، فتشتت شمله . وإذا تقابل الجيشان المتعاديان اندست هذه الفرق الخفيفة الخلفية بين الفرق الأمامية الثقيلة وصوبت نحو العدو وإبلا من سهامها ، حتى إذا ما اختل نظام العدو ، أخذت الفرق الأمامية تنقض عليه وتشتت شمله دون مشقة ، بينما تكون الفرق الخفيفة قد طادت إلى مكانها بالخلف^(٣) .

وإن الآلات الحربية التي استعملها المغول من الأمور التي تستلفت النظر ، فقد كان المغول يستعملون خلاف القوس والنشاب والسيوف ، آلات تسمى قاذفات السهام missile throwing machines وهي بلا شك تستعمل في قذف السهام بكثرة على الأعداء ولمسافات بعيدة . وكان المغول يستعملون آلات مشابهة تسمى قاذفات اللهب تساعد على إشعال الحرائق في المدن المحاصرة^(٤) ، هذا عدا المجانيق وآلات

Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 433. (١)

Vladimirstov : The Life of Chingis - Khan, p. 70. (٢)

Hart : Mongol Campaigns, pp. 706 — 7. (٣)

(Encyclopædia Britannica, vol. 15.)

Ibid, p. 705. (٤)

الحصار الأخرى . وقد استفاد المغول كثيراً من مجاورتهم للبلاد الصينية المتحضرة قبل غزوهم إياها وبعده ، فأخذوا عن الصينيين بعض فنونهم الحربية واستعملوها في حروبهم مع المسلمين ، من ذلك طريقة استعمال البارود الذي عرفه الصينيون منذ القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) . وعلى الرغم مما نسمعه عن استعمال البارود في أثناء الغزو المغولى في القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، فإن البنادق المعروفة لدينا بشكلها الحالى لم تستعمل بانتظام إلا بعد ذلك بقرنين من الزمان .^(١) والثابت أن المغول كانوا يستعملون البارود في شكل قنابل تلقى على المدن المحاصرة والجيوش المعادية . ثم إن الصينيين كانوا يعرفون البوصلة التى أخذوا استعمالها عن العرب ، ولا بد أن يكون المغول قد نقلوها بدورهم عنهم واستعملوها في حروبهم^(٢) . كذلك استعان المغول في حروبهم مع المسلمين بالمهندسين الصينيين الذين أسروهم في البلاد الصينية وأفادوا من خبرتهم وتجاربهم^(٣) .

أما عن المحارب المغولى ، فكان إذا سار للقتال حمل معه كل ما يحتاجه في أثناء الحرب ، فراه مثلاً يحمل آلات لسن الرماح كما يحمل الإبر والخيوط لاستعمالها عند الحاجة ، ولا يأخذ معه من المؤن إلا قريباً من اللبن ، وآنية من الفخار لطهى فيها طعامه ، ونخيمة صغيرة^(٤) . وكان يحمل معه آلة حديدية لحفر الأرض وكيساً من الجلد يحمل فيه ملاءسه ويستعمله في عبور الأنهار ، وهو يشبه حلقة النجاة عندنا في الوقت الحاضر^(٥) . وكان كل جندى من المغول مسئولاً عما في يده ، ولقائده أن يحاسبه عن تقصيره إن هو شعر بنقص في هذه الأدوات الضرورية^(٦) . وقد يحدث في بعض الأحيان أن يسير المغول مدة عشرة أيام دون أن يتناولوا طعاماً ما ، وفي هذه الحالة يعيشون على دماء خيولهم ، فكان الجندى منهم يقطع شرياناً من شرايين

Giles : The Civilization of China, p. 118. (١)

Ibid, p. 118. (٢)

Gibbon : The Decline & Fall of the Roman Empire, vol. vi. p. 279. (٣)

Howorth : History of the Mongols, part i. p. 109. (٤)

Hart : Mongol Campaigns, p. 705. (٥)

(Encyclopædia Britannica, vol. 15.)

Malcolm ; The History of Persia, vol. i. p. 256. (٦)



منظر لمعركة لجيوش المغول في مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين يرجع إلى نهاية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ومحفوظ في المكتبة الأهلية بباريس .

(عن موسوعة الفن الفارسي. Survey of Persian Art)

حصانه ويمتص من دماؤه ما يشبع به رمقه ثم يسد الشريان ثانية^(١) .
وكان چنكيزخان فوق ذلك شديد العناية بأمور التكوين في جيشه ، فكان لا يني
عن أن يمد جنوده وقواده بما يحتاجونه من مأكل وملبس ومشرب ، وهذا يشبه إلى
حد كبير ما يتبع في جيوشنا المعاصرة^(٢) .
أما عن خطة المغول الحربية إذا ما فكروا في غزو بلد من البلاد، فقد كان چنكيزخان
يرتبها قبل الشروع في الغزو بوقت كاف ، فيجمع « الكورلتاي » ، Kuriltai أو
المجلس العام General Council في مقر الخاقان ، ويدعو إليه جميع كبار الضباط
عدا من يكون مكلفاً منهم بمهام عامة ، وي طرح هذه المسألة على بساط البحث ثم توضع
خطة الغزو . وكان چنكيزخان في العادة يعرض الخطة على كبار قواده ويترك لهم
الحرية التامة في مناقشتها ، فيستمر بهم النقاش حتى يتفقوا على خطة معينة^(٣) . وإذا
ما استقر الرأي على الغزو، أطلق المغول جواسيسهم في بلاد العدو فيجمعون الأخبار
من هذا وهناك ، ويستقصون حالة الجيش ويختبرون حصون المدن ثم يعودون بهذه
المعلومات إلى بلادهم ، ويزودون قادة الجيش بها .
وكان من عادة چنكيزخان إذا ما قصد مكاناً ما أن يسير بين سكانه بوجه عام
وزعمائه وقادة الرأي فيه بوجه خاص وفق سياسة « فرق تسد » ، وطبعي جداً أن يجد
بين السكان عناصر ساخطة على السلطة الحاكمة ، فيضم هذه العناصر إليه بعد أن يعدها
بالوعود الخلابه ويمنحها الأمان الطيبة ، وبذلك يضمن وجود حلفاء له في داخل الدولة
أو المدينة المعادية^(٤) . وقد رأينا كيف أنه استعمل هذه الطريقة في إخضاع أكثر
المدن الإسلامية التي غزاها ، كما رأينا كيف أنه حاول أن يستغل ذلك العداء الذي قام
بين علاء الدين خوارزم شاه وبين أمه ترکان خاتون .
وإذا استقر رأي المغول على موعد الغزو ، هاجموا المكان المقصود من عدة جهات
في وقت واحد ، فلا يجد العدو مفرأ من التسليم . ولعلنا لاحظنا ذلك عندما هاجم

(١) Howorth : History of the Mongols, part. i. p. 109.

(٢) Vladimirstov : The Life of Chingis - Khan, p. 72.

(٣) Grenard : Gengis - Khan, pp. 75 — 76.

(٤) Howorth : History of the Mongols, part i p. 109.

چنگيز خان بلاد ماوراء النهر، إذ انقض عليها بجيوش أربعة وكلف كل قائد من قوادها بمهاجمة جهة معينة ، فسقط هذا الإقليم بسرعة ، وانهارت بانهاره خطوط دفاع الخوارزميين. وكان المغول إذا قصدوا مدينة ما، حاصروها من جميع جهاتها ووضعوا منافذها تحت حراسة قوية ، وخربوا في نفس الوقت الأماكن المحيطة بها وجمعوا المؤن منها ، فإذا لم تستسلم المدينة بعد طول الحصار لمهاجموها واستولوا عليها عنوة . وإذا تقابل المغول بجيش من جيوش أعدائهم في أرض سهلة ، هاجموا ليسلا ونهارا حتى تنهك قواه ، فإما أن يستسلم لهم وإما أن يركن رجاله إلى الفرار^(١) .

ونلاحظ أن المغول كانوا إذا افتقروا إلى السفن لعبور ما يصادفهم من الأنهار ، استعملوا طريقة طريفة ، فثلاثهم عندما أرادوا عبور نهر جيحون ولم يجدوا سفنا يعبرون فيها صنعوا أحواضاً من الخشب كسوا جدرانها بجلود البقر حتى لا يدخلها الماء ووضعوا فيها أسلحتهم وأمتعتهم ، ثم ألغوا خيولهم في الماء وأمسكوا بأذنانها بعد أن ربطوا الأحواض الخشبية إلى أجسامهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الخوض المملوء من السلاح وغيره فعبروا كلهم دفعة واحدة^(٢) .

ونلاحظ أيضاً أن المغول لم يعدوا وسيلة لخداع عدوهم ، وقد رأينا أنهم كانوا إذا ملوا حصار مدينة تظاهروا برفع الحصار عنها ، حتى إذا ما اطمأن أعداؤهم في داخل المدينة إلى رحيلهم وألقوا أسلحتهم ، عاد المغول فجأة إلى المدينة واستولوا عليها قبل أن يستعد العدو للدفاع^(٣) . كما كانوا يختارون الأشداء من بين سكان المدن الخاضعة واهجاب الممن والحرق فيها فينتقمون بهم في أعمالهم الحربية المقبلة . وكان من عادة المغول أن يضعوا أسراهم في مقدمة الصفوف وبقونهم في المؤخرة ، فيقوم الأسرى بالأعمال الحربية العنيفة ويتعرضون للأخطار دون أن يجدوا سبيلا للفرار ، إذ كانت أعين المغول ساهرة عليهم ، فإذا ما أنك الأسرى قوا أعدائهم ، يأتي المغول بعد ذلك للإجهاز عليهم . وفي ذلك يقول ابن الأثير :

(١) Lamb : Genghis - Khan, The Emperor of All Men, pp. 221 — 3.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧٠ .

(٣) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 109.

« وكانت عاداتهم إذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين ،
 « أيديهم يزحفون ويقاتلون ، فإن عادوا قتلوا ، فكانوا يقاتلون كرها وهم ،
 « المساكين كما قيل كالأشقر إن تقدم ينحروا إن تأخر يعقر . وكانوا هم يقاتلون ،
 « وراهم المسلمين ، فيكون القتل في المسلمين الأسارى ، وهم بنجوة منه » (١) .

ثم إن المغول كانوا يستخرون جميع القادرين من الأسرى في حفر الخنادق وتنصيب
 أدوات الحصار وغير ذلك من الأعمال الحربية الضرورية العنيفة الشاقة (٢) . ومن
 الحيل الطريفة التي لجأ إليها المغول إذا قصدوا مدينة من المدن القوية ، أن ينظموا
 الأسرى في فرق متراصة ، ويضعوا مع كل عشرة منهم علما مغوليا فيظن الأهالي
 المحاصرون أنهم أمام جيش كثير العدد ، فتخور قواهم وتنحط روحهم المعنوية ولا
 يجدون بعد ذلك مفرأ من التسليم . وقد استعمل المغول هذه الحيلة عندما أرادوا
 الاستيلاء على مدينة سمرقند حاضرة بلاد ما وراء النهر (٣) .

وكان المغول يعمدون إلى إتخاذ وسائل الإرهاب لإثارة الرعب في قلوب أعدائهم ،
 فكانوا إذا توجهوا إلى إقليم من الأقاليم أو مدينة من المدن أرسلوا إنذارا لحاكم الإقليم
 أو المدينة وأعلنوا في كلمات قلائل ما سيحل به وبالإقليم الذي يحكمه إن هو فكر في المقاومة ،
 وكانت عبارتهم المشهورة في هذه المناسبات هي « إذا لم تبادر إلى الخضوع والتسليم فلا
 يعلم إلا الله ما سيحدث بعد ذلك » . وكان التسليم في هذه الحالة معناه التبعية المطلقة
 وتسليم عشر خيرات الإقليم أو المدينة ، كما كان معناه قبول حاكم مغولي على الإقليم أو
 المدينة ، ومع ذلك كان حكام المغول غلاظ القلوب لا يعرفون شفقة أو رحمة (٤) . أما
 إذا وجد المغول أية مقاومة من أعدائهم ، أو خسروا خسارة قليلة أمام المدينة المحاصرة
 فإنهم لا يعقدون معها صلحا ، وحتى إذا سلمت بعد ذلك فإن المحاربين والأهالي من غير
 المحاربين يحب أن يفتنوا إلى آخر رجل وآخر امرأة وآخر طفل (٥) . وبهذه الوسائل

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٧ ص ١٧٤ .

(٢) Sykes : A History of Persia, p. 56.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٩ .

(٤) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 109.

(٥) Filzgerald : China, A Short Cultural History, p. 426.

الإرهابية نجح المغول في الاستيلاء على أمهات المدن الإسلامية . وقد رأينا في كثير من المناسبات أن مدينة بأسرها كانت تزال معالمها ويقتل جميع سكانها لأن قائدا مغوليا قتل أمام حصونها . ويكفي بعد ذلك أن يسمع سكان مدينة أخرى بما حل بهذه المدينة المخربة حتى يسرعوا إلى التسليم خشية أن يهيبهم ما أصاب سكان المدينة الأخرى . وهكذا اتصف المغول بغلظة القلوب ، وهم كما يقول قامبري Vambery سيكون في أعينهم ويضحكون في ساحات القتال ، ويرضون بالبرد والجوع ولا يعرفون طعما للراحة ولا السرور ، وحتى هذه الكلمات لا تجد لها مكانا في قوايمهم . وفضلا عن ذلك فإنهم كانوا لا يعرفون معنى للترف في الأكل أو اللبس ، ولا يعرفون معنى للشفقة أو الرحمة وكانوا دائما على استعداد لشق بطون الحوامل وإخراج الإجنة منها (١) .

وعما يدل على أن إساءة السماء وإزهاق الأرواح كانت من الصفات الرئيسية للمغول ، تلك العبارة التي أثرت عن چنكيزخان ، فقد قال إن أسعد الاوقات عنده هي التي يحطم فيها قوى أعدائه ويطاردهم ويستولى على ممتلكاتهم ويرى دموع الالام تنساقط من أعين نسائهم وأطفالهم ، وهو الوقت الذي يستطيع فيه أن يركب خيولهم ويمتلك بناتهم ونساءهم (٢) .

وقد علل بلوشيه Blochet فكرة ذبح المغول سكان المدن التي تقاومهم وسلب جميع أموالهم ، بأن هذه تقاليد القبائل البربرية الرحل التي لا مقر لها ولا مسكن يأويها ، فلا يرون في الحرب إلا وسيلة سريعة لأخذ الغنائم وأسر العبيد ، بدليل أنهم كانوا ينجحون ما يزيد عن حاجتهم من هؤلاء (٣) . على أن هذا التعليل الفلسفي لا يمنع من القول بأن چنكيزخان كان يرى من وراء قتل السكان في المدن الخاضعة أن يضمن سلامة مؤخرة جيوشه أثناء زحفه ، كما كان يرى إلى ضمان سلامة طرق مواصلاته (٤) .

(١) Vambery : History of Bokhara, pp. 139 - 140.

(٢) Vitzgerald : China, A Short Cultural History, p. 428.

(٣) Blochet : Introduction a l'Histoire des Mongols de Fadlallah

Rashid Ed-Din, pp. 216-7.

(٤) Howorth : History of the Mongols, part I. p. 110.

وما يدل على أن قتل الأهل وتعذيبهم كان من الأمور العادية عند المغول بوجه عام وهند چنكيزخان بوجه خاص أن عدد من قتل على أيدي المغول في الفترة الواقعة بين سنتي ٦٠٨ و ٦٢٠ هـ (١٢١١ و ١٢٢٣ م) ، وهي الفترة التي غزوا فيها بلاد الصين في الشرق والبلاد الإسلامية في الغرب ، قدر بأكثر من ثمانية عشر مليوناً^(١) . وهكذا كانت هذه القوة البشرية كما يقول هارولد لام كالريخ العاصف والزوال العالمي ، إذ استطاع المغول أن يصلوا إلى أقصى حدود آسيا وأن يعبروا الجبال الوعرة بعقل لا يفترق عن عقل الحيوان ، الذي لا يكثر للعذاب الإنساني ، الشره لكل ما هو جديد براق والذي يندفع في حركانه اندفاع الأطفال^(٢) .

بهذه الروح البربرية الفاشمة التي تهدف إلى إثارة الفزع والرعب في قلوب الأعداء ، وبهذا النظام العسكري الدقيق الذي يقوم على الطاعة المطلقة ، استطاع المغول أن يقلبوا البلاد الإسلامية رأساً على عقب وأن يحولوا أراضيها الخصبة إلى صحراوات جرداء . والظاهر أن چنكيزخان عاد إلى صوابه في أواخر أيامه فتقدم على ما جنت يده ، لذلك عزم على أن يصلح ما خربته جيوشه ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان ، إذ عاجلته منيته دون أن يستطيع أن يكمل مشروعه أو يبدأ فيه^(٣) . ولم يكن من السهل على أبنائه وأحفاده أن يعيدوا إلى الأراضي الإسلامية حيويتها ، فظلت حقبة طويلة من الزمن تعاني آلام التخريب ، كما ظل الأهل يعانون ويلات العرى والجوع والحرمان .

(١) Curtin : The Mongols' History, p. 141.

(٢) Lamb : The Crusades, The Falme of Islam, p. 337.

(٣) Fraser : Historical & Descriptive Account of Persia, p. 226.

الباب الخامس

أثر الغزو المغولي في الدولة الخوارزمية والعالم الإسلامي

- ١ - الأثر السياسي .
(أ) سياسة المغول الداخلية في الدولة الخوارزمية .
(ب) توسع المغول في غرب آسيا .
- ٢ - الأثر الديني .
- ٣ - الأثر الإقتصادي .
- ٤ - الأثر الثقافي .

الباب الخامس

أثر الغزو المغولي في الدولة الخوارزمية والعالم الإسلامي

١ - الأثر السياسي

تأثر نظام الحكم في الدولة الخوارزمية نتيجة لذلك النظام الذي وضعه المغول لحكم البلاد الإسلامية التي خضعت لهم ، إذ بالرغم من الأضرار التي حاقّت بالمسلمين في ذلك الوقت ، نلاحظ أن الفترة التي أعقبت الغزو المغولي كانت فترة تمتاز - إذا قورنت بما كانت عليه الحال قبل الغزو - بأنها أكثر هدوءاً من ناحية الانقلابات السياسية . كما نلاحظ أن نظام الحكم في العهد المغولي سار وفق تلك النظم التي سار عليها المغول في بلادهم ، وهي تختلف طبعا عن تلك النظم التي عرفها المسلمون من قبل .

أما عن أثر زوال الخوارزمية من الناحية السياسية في الشرق الإسلامي ، فيكفي القول بأن طريق المغول إلى غرب آسيا أصبح مهداً بعد زوال هذه الدولة ، التي كانت تسكوّن وحدة سياسية تقف رغم ضعفها حجر عثرة في سبيل تقدم المغيرين من الشرق . وسنحاول أن نصور حال الخوارزميين وهم يستظلون بالراية المغولية كما سنتكلم في إيجاز عن مدى توسع المغول في غرب آسيا نتيجة لزوال الدولة الخوارزمية من طريقهم .

(١) سياسة المغول الداخلية في الدولة الخوارزمية

لما عاد چنكيزخان إلى بلاده قسم البلاد التي فتحها بين أبنائه الأربعة ، چوچی وچغتای وأجتای وتولوی . وكانت الأراضي التي تشغلها الدولة الخوارزمية من نصيب ابنه الأكبر چوچی بالإضافة إلى تلك البلاد التي تليها غربا في آسيا وأوربا حتى

بلغاريا^(١) . وليس معنى تقسيم چنكيزخان أملاكه بين أبنائه أنه ترك لهم الجبل على الغارب ، ولكنه أوصاهم ، بل فرض عليهم احترام تقاليد المغول القديمة ، التي كان يعتقد أنها صادرة عن وحى إلهي^(٢) . ولهذا كان كل حاكم من حكام المغول مقيدا بقيود لا يحيد عنها في الإقليم الذي يحكمه .

ولم يحكم چوچی بنفسه ما آل إليه من أملاك أبيه ، ولكنه فعل ما فعله حكام الأقاليم البعيدة في عصر اضمحلال الدولة العباسية ، حين كان كل منهم ينيب عنه من يثق به ويبقى هو في بغداد ليتمتع بمباهج الحضارة الإسلامية . لذلك نراه ينيب عنه في حكم الدولة الخوارزمية حاكما يدعى « شن تيمور » ، Chin Timur ، الذي حكم الدولة الخوارزمية بمعاونة أربعة من الحكام قدامى ولاية أقاليمها المختلفة ، بينما بقي هو بعيدا عن هذه الأقاليم^(٣) . ونلاحظ هنا أن الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ومن بينها أذربيجان وجورجيا كانت تحت حكم « شسيرماجون » ، Churmagan ، ذلك القائد المغولي الذي أنضغ هذه الأقاليم في عهد چنكيزخان كما ذكرنا . على أن هذه الأقاليم ظلت فترة طويلة تقرب من العشرين عاما لا تستقر على حال ، ولا يستتب فيها أمن أو نظام . وقد اتخذ الحكام المغول من مدينة تبريز حاضرة لهم في هذا القسم ، كما اتخذوا من مدينة طوس حاضرة لهم في خراسان^(٤) .

أما من طريقة حكم « شن تيمور » أقاليم الدولة الخوارزمية ، فترى أنه سار على سياسة ترمي في النهاية إلى جمع المال بالوسائل المشروعة وغير المشروعة ، وفرض الضرائب الباهظة على من ظل على قيد الحياة من أهالي الدولة الخوارزمية بعد الغزو المغولي . ومن العوامل التي جعلته يشتط في تعسفه ، أن چنكيزخان لم يكن يؤمن بقيمة العملة في المعاملة ، لذلك كان « شن تيمور » يأخذ ما فرضه على الأهالي من ضرائب ، على طريقة

(١) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 105

(٢) Blochet : Introduction à l'Histoire des Mongols de Fadlallah Rashid
Ed-Din, p. 190.

(٣) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 133.

ونلاحظ أن چوچی توفي قبل وفاة أبيه چنكيزخان بمدة قصيرة .

(٤) Bretschneider : Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources, (١)
vol. i. p. 113.

الضرائب النوعية ، كما عمد إلى تعذيب الأهالي لإخراج ما أخفوه من نفائس . ومن الطبيعي أن تثير هذه السياسة حفيظة الأهالي على اختلاف أجناسهم ، فوجدوا بعد طول صبر أن الموت في ساحة الوغى أشرف بكثير من الموت البطيء تحت الحكم المغولي ، فعندوا إلى الثورة عليهم يتخلصون منه . لذلك تجمع عشرة آلاف من قبيلة كانكالي Kankalis في الجبال المحيطة بمدينة تقيطوس ونيسابور وهاجموا المغول وقتلوا عددا كبيرا منهم ، على أن هذه الثورة انتهت بالخيبة ، إذ تمكن المغول من إخمادها ، وتشريد الثوار ، وقتل ثلاثة آلاف رجل من بينهم ، كانوا قد اعتصموا بأحد المساجد بمدينة هراة (١) .

توفي چنكيزخان كما ذكرنا سنة ١٢٢٤م (١٢٢٧م) ، وانتخب ابنه أجتاي Ogotai خاقاناً بعد أن تمت مراسيم انتخابه سنة ١٢٢٦م (١٢٢٩م) . وقد عزم الخاقان الجديد على أن يسير في حكم خراسان والبلاد الإسلامية سيرة جديدة تخالف تلك التي سار عليها أبوه چنكيزخان من قبل ، فعزل «شن تيمور» بعد أن أدرك ما أدت إليه سياسته التعسفية من إثارة روح التذمر في البلاد ، وعين مكانه رجلاً يدعى «تاير بهادور» Tair Behadur . فلما رأى شن تيمور المصير الذي آل إليه عمد إلى سياسة التقرب والزلفى من الخاقان ، تارة بإظهار نفسه في ثوب الحاكم المخلص الحريص على كيان الحكم المغولي في البلاد الإسلامية ، وتارة أخرى بإرسال السفراء والمبعوثين يعلنون باسمه فروض الطاعة والولاء للخاقان . فتراه مثلاً يرسل الحملات التأديبية إلى خراسان لمعاقبة من تحدثهم أنفسهم بالثورة على الحكم المغولي ، واستطاع بذلك أن يقبض على زمام الأمور هناك ، كما تراه يرسل إلى الخاقان بعض الأمراء لإعلان ولائه وولايتهم له ، ويرغبونه في نفس الوقت بوسائلهم المختلفة في إلغاء قرار عزل شن تيمور . وكان لهؤلاء الرسل والمبعوثين أكبر الأثر في نفس الخاقان وخاصة بعد أن قارن بين شن تيمور وبين شيرماجون Chormagun حاكم أذربيجان وجورجيا ، الذي أراق دماء الأهالي هناك وتسبب في اضطراب الأمن ، بل ولم يرسل المبعوثين لإعلان ولائه له . ولهذا الأسباب مجتمعة أعاد أجتاي «شن تيمور» إلى حكم خراسان ومازندران ، وضم إليه خيلاط ،

(١) Howarth : History of the Mongols, part I, p. 133.

وأطلق يده في حكم البلاد التي خضعت له وجعله مستقلا عن شيرماجون وسائر قواد المغول . ولما اطمأن شن تيمور إلى النتيجة التي وصل إليها ، عين رجلا من مدينة «يزد» يدعى «شرف الدين» حاملا لأختامه ، كما عين «بهي الدين محمد الجويني» والد علاء الدين الجويني صاحب كتاب جهان كشاي Dihan Kushai وزيرا لماليتها (١) .

ولم يكن تعيين هؤلاء الحكام من أهالي البلاد الأصليين بالشئ الجديد في سياسة المغول ، بل كان ذلك من الأمور الأساسية في سياستهم ؛ فقد حرص المغول دائما على أن تسودهم الروح العسكرية في كل ناحية من نواحي حياتهم ، ولذلك حرموا على أنفسهم تولى الإدارات المدنية وتركوها لأهالي البلاد المفتوحة ، واقتصروا على إرسال حكام عسكريين للإشراف على السياسة العليا لهذه البلاد فضلا عن الحاميات العسكرية التي زودوا بها المدن المختلفة . وعلى هذا الأساس نجد الإدارات المدنية في فارس والعراق وجورجيا وأرمينية وبلاد الصين في أيدي أفراد من أهالي هذه البلاد الأصليين (٢) . ثم إن المغول كانوا يتخذون وزراءهم ومستشاريهم من خيرة أهالي البلاد المفتوحة ، وليس أدل على ذلك من «بي لوشوتساي» Ye-lu Cu Ts'ai وزير چنكيزخان ورفيقه في رحلته التي غزا فيها البلاد الإسلامية ، وكان المغول قد أسروه في مدينة بكن بعد استيلائهم عليها . فلما لمس چنكيزخان كفايته ومقدرته ، ولاه أعلى المناصب في دولته ، ثم اتخذه خلفاؤه مشرعا لدولتهم حتى توفي سنة ٦٤٠هـ (١٢٤٣م) (٣) .

(١) Howorth : History of the Mongols, part i p. 133.

وعما هو جدير بالذكر هنا أن علاء الدين الجويني كان سكرتيرا خاصا لهولاكو عندما سار لغزو الإسماعيلية في «ألموت» والخلافة العباسية في بغداد . وفي هذه الفترة استطاع أن يكتب كتاب «جهان كشاي» أي تاريخ قاهر العالم History of the conqueror of the world . ويروى هذا الكتاب حوادث السنوات العشر الأخيرة من حكم چنكيزخان ، فيتناول الكلام عن الحوادث التي انتهت باستيلاء المغول على بلاد ما وراء النهر وفارس ، ثم يتكلم عن حكم أجتاي وكيوك ومانجو خان ، وينتهي من كتابه إلى حوادث عام ٦٥٥هـ (١٢٥٧م) ، وتوفي علاء الدين سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) . ثم آثم هذا الكتاب عبد الله بن فضل الله المعروف بوصاف المصنف فتكلم عن تاريخ المغول من سنة ٦٥٥هـ إلى سنة ٧٢٨هـ (١٢٥٧-١٣٢٧م) .

(٢) Fitzgerald : China, A Short Cultural History, p. 427.

Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, (٣) vol. i. p. 9 — 10.

ومن أكبر الأدلة على اعتماد المغول في حكم ما يدهم من البلاد على أفراد من غير المغول، أن كوبلاي خان اعتمد على الرحالة ماركوبولو مدة سبعة عشر عاماً في تصريف شئون دولته^(١).

والآن نعود إلى شن تيمور وحكمه في بلاد الدولة الخوارزمية، فنرى أنه بعد أن اطمأن إلى تركيز السلطة في يده، سار في حكم هذه البلاد سيرة لا تختلف عن سيرته الأولى فيها أي قبل أن يعتلي أجتاي عرش المغول، فاستبد بالآهالي وتعسف في جمع الضرائب، وإن كان تعسفه في هذه المرة أقل بكثير منه في المرة السابقة. واستمرت الحال على هذا النحو حتى توفي شن تيمور سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) وتولى حكم هذه البلاد رجل تقدمت به السن يدعى «نوصال» Nussala الذي ترك الجبل على الغارب لرجل من رجال شن تيمور يدعى «كورجوز» Kuurgz^(٢). ويقال إن هذا الرجل نظم إدارة خراسان تنظيمًا حسنًا، وقضى على تعسف جماعة من الحكام الطغاة مما أثار عليه عداوة كثير من الحكام الذين تأمروا على خلعه. على أن تأمرهم عليه ووشايتهم به عند أجتاي باءت بالخسران المبين، إذ أدرك أجتاي أن «كورجوز» كان ضحية بعض الحاسدين والحاقدين، فأقره على حكم جميع البلاد الواقعة غربي نهر جيحون بما في ذلك فتوحات شيرماجون، وهي أذربيجان وجورجيا وأرمينية، فضلاً عن بعض البلاد الواقعة شمال نهري دجلة والفرات. وقد اتخذ كورجوز مدينة طوس مقراً لحكم هذه الأقاليم الشاسعة.

وبعد أن استقر الأمر لكورجوز، دعا إلى حاضرة ملكه، كبار رجال الدولة في الأقاليم المختلفة، وفي الاجتماع الذي عقده لهم أعلن فروض الولاء لأجتاي خان، وبعد ذلك أخذ كل حاكم يحكم الولاية أو المدينة التي تحت يده باسم الخاقان، وهذا يشابه تماماً ما حدث في البلاد الإسلامية حينما كان كل حاكم في ولايته، يحكم باسم الخليفة العباسي في بغداد، ويدعوه على المنابر وينقش اسمه على السكة. وهذا لا يمنعنا من القول بأن سلطة الخليفة في هذه الأقاليم وكذا سلطة الخاقان فيها، كانت في الواقع سلطة اسمية، لأن السلطة الفعلية فيها كانت للحكام المباشرين.

وقد سار «كورجوز» في حكم البلاد التي آلت إليه، سيرة أقل ما يقال فيها إنها تغاير

(١) Fitzgerald : China, A Short Cultural History, p. 427.

(٢) كان كورجوز معلماً لأبناء «چوچی بن چنگیز خان»، ثم اتخذ «شن تيمور» سكرتيراً له عندما

تولى حكم خوارزم.

تلك السياسة التعسفية التي سار عليها سلفه ، إذ أنه عزل كثيرين من الحكام المتعسفين الذين كان «شيرماجون» قد ولاهم على هذه البلاد، ولذلك خفت حدة معارضة الأهالي للحكم المغولي عما كانت عليه من قبل . ثم إننا نلاحظ أنه قد ظل طيلة حكمه يدافع عن أهالي هذه البلاد من الفرس والآتراك وغيرهم من الشعوب الأخرى التي استوطنت هذه البلاد، كما ظل طيلة حكمه موضع احترام المغول والأهالي على السواء ، وإن كانت سياسته قد أغضبت بعض الحكام من المغول ، الذين كانوا يتوقون إلى إطلاق أيديهم في هذه البلاد .

ونلاحظ أيضا أن «كورجوز» قد عمل منذ وطئت أقدامه هذه البلاد، على أن يصلح ماخر به المغول من مدنها ، فتراه مثلا يعيد بناء مدينة طوس التي لم يبق من مبانيها بعد الغزو المغولي إلا منازل معدودات . كذلك بدأت مدينة هراة تتعش من جراء ذلك الخراب الذي حل بها ، فعمرت بالسكان بعد أن ظلت خالية ممن يسكنها مدة خمسة عشر عاما ، إذ لما هدأت حالة البلاد الإسلامية وبدأ السكان يطمثون على أرواحهم وأموالهم ، هاجر إلى هذه المدينة مائة أسرة بزعامة «عز الدين» ، وهو من كبار رجال المدينة المسلمين الذين كان تولوى قد طردهم منها ، وقد سارع هذا الرجل فبذر بذور العمران في المدينة بأن أحضر الماشية والمحارث من بلاد الأفغان ، وحفر القنوات الموصلة إلى هذه المدينة بعد أن كانت قد سدت على أثر الغزو . ولم تلبث هذه المدينة أن ازدهرت بالسكان الذين بلغ عددهم في سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م) أكثر من ستة آلاف نسمة ^(١) . وبالمثل بدأت المدن الإسلامية المختلفة تصلح بعض ما حل بها من خراب وديار .

وقد حدث لسوء حظ البلاد الإسلامية أن مات أجتاي سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) ، ومرت فترة طويلة من الوقت قبل أن ينتخب الخاقان الجديد . وأخيرا انتخب كيوك Kuyuk سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) ، ولكنه لم يستمر في الحكم كثيرا إذ توفي بعد سنتين . وكانت الفترة التي مرت بين وفاة أجتاي وانتخاب كيوك من الفترات التي سادها الاضطراب في تاريخ المغول ، إذ عادت البلاد الإسلامية إلى ما كانت عليه من الفوضى والاضطراب نتيجة للظروف التي أدت إلى خلع «كورجوز» وقلته ، ونتيجة لسوء سياسة خلفه في هذه

(١) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 134.

البلاد . فقد جرت التقاليد المغولية بأنه إذا توفي الخاقان ، يذهب الحكم وكبار قواد المغول إلى الحاضرة العظمى «قره قورم» ، للتشاور فيما بينهم وانتخاب الخاقان الجديد ، فلما توفي أجتاي على ما رأينا ، تاهب كورجوز للرحيل إلى حاضرة المغول ، وبينما كان يعبر بلاد ماوراء النهر قام نزاع بينه وبين أحد المقربين إلى چجتاي بن چنكيزخان ، فشكاه چجتاي إلى زوجة أخيه أجتاي وكانت تتولى تصريف شئون البلاد بعد وفاة زوجها . وكان من أثر ذلك أن أرسل كبار قواد چجتاي شخصا يدعى « أرغون » Argun لإحضار كورجوز حيا أو ميتا ، واستطاع هؤلاء أن يقبضوا عليه ويسوقوه إلى البلاط المغولي حيث قتل دون محاكمة ^(١) ، وكان معنى قتله تغير نظام الحكم في البلاد الإسلامية . وقد عيّنت زوجة أجتاي أرغون على البلاد الإسلامية فركز اهتمامه في تخليص أذربيجان وما جاورها من البلاد الخاضعة لحكم المغول من تعسف الحكم المغول أنفسهم . ولما وصل إلى تبريز حاضرة أذربيجان ، تلقى أنباء خضوع سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وحكام سوريا ، فأرسل مبعوثيه بجمع الجزية من هذين البلدين . وهكذا نرى سلطان المغول في عهد أرغون الذي اشتمل على خوارزم وخراسان ، يمتد أيضا على جزء كبير من البلاد الإسلامية فيشمل أذربيجان وديار بكر والموصل وحلب وجورجيا ودولة الروم السلاجقة وأرمينية الصغرى . ولكن أرغون استبد بحكم هذه الأقاليم وأطلق لسياسته التعسفية العنان ، ولم يتردد الأمراء وكبار القواد من المغول ورؤساء الإدارات المدنية في تنفيذ أوامره ^(٢) . وكان نظام الحكم على النحو الذي رأيناه ، من سوء حظ البلاد الإسلامية كما ذكرنا ، فقد عاد المغول في هذا العهد الجديد إلى أساليبهم التعسفية في جمع الأموال من الأهالي وسلكوا في ذلك سبلا مختلفة . وكان « شرف الدين » الذي اتخذ أرغون عضدا له ، لا يؤمن إلا بالقسوة والتعذيب في جمع الأموال ، فلم تأخذه شفقة باليتامى الذين قتل آباؤهم في أيام چنكيزخان ، ولا رحمة بالنساء اللاتي ترملن بعد حروب المغول الدامية ، وبلغ من تعسفه في جمع الأموال أن عجز الناس عن دفع ما فرض عليهم من الضرائب ووصل بهم الأمر إلى أن اضطروا إلى بيع أبنائهم لأدائهم .

(١) مما هو جدير بالذكر أن « كورجوز » اعتنق الدين الإسلامي في أواخر أيامه .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. II. p. 262.

وفي سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) ، استدعى أرغون للانتخاب الذي انتهى بجلوس «كيوك» على عرش المغول ، فذهب محملاً بالهدايا والنفائس التي جمعت من أصحابها اغتصاباً فلا عجب إذا رأينا «كيوك» يثبت في الحكم . وفي أثناء عودة أرغون استقبل في مدينة مرو حاضرة خراسان بترحيب زائف من الأهالي ، الذين اضطروا أن يقيموا له ولية كبيرة . وعلى الرغم من هذه السياسة التعسفية ، استمرت البلاد الإسلامية في حالة شبه مستقرة طيلة حكم «كيوك» الذي توفي بعد سنتين من حكمه أي في سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) ، وبعد وفاته انتقلت البلاد إلى حالة من الفوضى حتى انتخب الخاقان الجديد مانجوخان Mangu Khan بعد وفاة سلفه بسنتين (١) .

وبعد أن تم انتخاب مانجوخان ، جمع حكام البلاد المختلفة الخاضعة للمغول ، الذين كانوا قد اجتمعوا لانتخابه في «قره قورم» ، للتشاور معهم في وضع أساس جديد قويم لحكم البلاد الخاضعة للمغول بوجه عام ومن بينها البلاد الإسلامية . وقد طلب مانجوخان من كل من هؤلاء الحكام أن يكتب له تقريراً عن حالة الإقليم الذي بيده ، والطريقة التي يراها كفيلة لاستقرار الحكم فيه . وقد أجمع الحكام على أن فرض الضرائب الباهظة هو السبب الرئيسي لما ساد هذه البلاد من فوضى ، واقترحوا أن تقدر الضريبة على الأهالي حسب ثروة كل فرد ، كما هو الحال في بلاد ما وراء النهر (٢) . وقد أخذ الخاقان بهذا الرأي وأمر بأن تجبي الضرائب من كل فرد بحسب ثروته ، وأن تدرج هذه الضريبة من دينار إلى عشرة دنانير على الفرد الواحد (٣) . وذكر دوسون أن هذه الضريبة التي عرفت باسم ضريبة الروس كانت تتراوح بين دينار وسبعة دنانير في بلاد فارس ، أما في بلاد الصين وفي بلاد ما وراء النهر فكانت تتراوح بين دينار وخمسة عشر ديناراً . وكانت هناك ضريبة أخرى على الماشية بنسبة واحد في المائة مما يملكه كل فرد ، ويعني منها من يمتلك أقل من مائة رأس (٤) .

وكانت هذه الضرائب لا تذهب إلى خزائن الخاقان ، بل يدفع منها أولاً رواتب

(١) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 170.

(٢) كان إقليم ما وراء النهر تحت حكم الخاقان المباشر .

(٣) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 192.

(٤) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. ii. pp. 203 — 4.



رسم الجبال في الطريق إلى التبت من كتاب «جامع التواريخ» لرشيد الدين الخفرو ظفي الجمعية الملكية الاسيوية
 بلندن . وتبدو هذه اللوحة لأول وهلة كأنها صينية ، والحقيقة أنها تعد من أبلغ الأمثلة على تأثير المسلمين
 بثقافة الشرق الاقصى عقب الغزو المغولي ، ويتضح ذلك من ظهور السحنة الصينية ومن مناظر العمارة والملايس .
 (من كتاب الصين وثقوث الإسلام للدكتور زكي محمد حسن)

الجند وينفق منها على إصلاح محطات البريد في الطرق العامة التي كان المغول يهتمون بها اهتماما خاصا لأهميتها لهم في تنقلات جيشهم في أوقات الحرب ، فضلا عن أهميتها التجارية في أوقات السلم ، إذ أن المغول أولوا التجارة كثيرا من عنايتهم ^(١) . وبعد أن وضع مانجوخان هذا النظام الدقيق لحكم البلاد التابعة له ، رحل كل حاكم إلى الإقليم الذي عينه فيه . وكانت بلاد فارس في هذا العهد الجديد من نصيب أرغون ، إذ أعطاه الخاقان تقليدا جديدا بحكم هذه البلاد من جديد . على أن أرغون سار في الحكم هذه المرة سيرة تختلف عن سياسته في أيام كيوك خان ، وخاصة بعد أن وضع مانجوخان هذا النظام الدقيق لحكم البلاد الخاضعة ، وأخذ يراقب بعين ساهرة مدى تنفيذ حكامه لهذه النظم الموضوعة . ولكي يسهل حكم البلاد الإسلامية ، قسم المغول بلاد فارس أربعة أقسام يحكم كلا منها ملك ، يعينه الخاقان ، فانقسمت بذلك البلاد الإسلامية إلى الأقاليم الأربعة الآتية :

١ — هراة والأراضي التي تليها شرقا حتى نهر السند وهي الأراضي التي كانت تحكمها الدولة الغورية تقريبا .

٢ — كرمان .

٣ — خوارزم وأغلب بلاد خراسان .

٤ — جورجيا وأذربيجان والبلاد الخاضعة للمغول في شمال العراق .

ونلاحظ أن مانجوخان سار على نهج سياسة جنكيزخان وأجتأى من قبل ، تلك السياسة التي ترمي إلى إعفاء رجال الدين من المسلمين والمسيحيين والوثنيين من الضرائب ، وفضلا عن ذلك فإنه أعفى الشيوخ والعاجزين عن الكسب ؛ وقد ذهب مانجوخان إلى أبعد من ذلك فلم يطالب الأهالي بأداء مائة آخر عليهم من الضرائب ، وبما يؤثر عنه أنه صرح بأنه لن يسعى إلى تكديس الأموال في خزائنه على حساب شقاء الشعب ^(٢) .

وقد اهتم مانجوخان ونوابه في البلاد الإسلامية بتعمير ماخر به المغول ، فأصلحوا المدن وأقاموا العمار فيها ، وشجعوا طلاب العلم . وبما يدل على ذلك أن أم مانجوخان ، رغم أنها كانت تعتنق الديانة المسيحية ، فإنها كانت شديدة العطف على

(١) Howorth : History of the Mongols, part.i. p. 192.

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. ii. pp. 264 — 5.

المسلمين ، حتى أنها أغدقت عليهم الكثير من أموالها ، فتراها مثلاً تمنح المسلمين مبلغاً كبيراً من المال لبناء مدرسة إسلامية في مدينة بخارى كان يؤمها عدد كبير من طلاب العلم^(١) . وقد استمر الحال على هذا النحو حتى قدر المغول في عهد مانجوخان نفسه أن يشرعوا في مد نفوذهم على البلاد الإسلامية الباقية ، فسير أخاه الأصغر هولاكو للقضاء على طائفة الإسماعيلية والخلافة العباسية في بغداد . وبعد أن تم لهولاكو تخريب حصون الإسماعيلية وفتح بغداد وتشريد أفراد البيت العباسي ، دخل الشرق الإسلامي عامة بما في ذلك البلاد التي كانت تضمها أقاليم الدولة الخوارزمية ، في عهد جديد كانت السيطرة فيه لابناء هولاكو الذين استقلوا تدريجياً عن المغول في « قره قورم » ، وأسسوا لأنفسهم دولة في بلاد فارس عرفت باسم دولة إيلخانات المغول^(٢) .

(ب) توسع المغول في غرب آسيا

كانت الدولة الخوارزمية في وضعها السياسي الذي صورناه ، وحدة سياسية لا يستهان بقوتها رغم تلك العوامل التي تجمعت على إضعافها ، فقد كانت هذه الدولة بمثابة الحاجز المنيع الذي يحول بين الشعوب والقبائل المتبربرة في شرق نهر سيحون ، وبين مركز الخلافة العباسية في بغداد بوجه خاص وأقاليم غرب آسيا بوجه عام ، وبعبارة أخرى كانت الدولة الخوارزمية بالنسبة لغرب آسيا بمثابة الباب من المنزل ، وإذا فتح الباب سهل دخول المنزل واقتحامه . وعلى هذا الأساس كان من السهل على المغول أن يتوغلوا في غرب آسيا ، وأن يزيلوا دون عناء مابق في أيدي المسلمين من أملاك وخاصة ما كان بيد الخلافة العباسية في العراق العربي . وقد عبر بروان Browne عن هذه الحقيقة بقوله : إن الدولة الخوارزمية لم تكن إلا فتنة يجب على المغول أن يعبروها حتى يتمكنوا من القضاء على الدولة العباسية^(٣) .

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. ii. p. 267.

(٢) « إيلخان » لفظ معناه « الخان التابع » وهو الذي يختص بحكم إقليم من أقاليم الدولة Provincial Khan وكان يتبع الخاقان المنولي أي الحاكم العام للإمبراطورية المغولية . وقد أطلق هذا اللقب على هولاكو عندما أسند إليه حكم فارس ثم ألحق بمحكّام المغول في فارس من سلالة هولاكو ، وأطلق اسم « دولة إيلخانات » على البلاد التي حكموها . انظر للمريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٤١١ حاشية ١ .

(٣) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 436.

على أن أهمية الدولة الخوارزمية لم تكن خافية على أمراء المسلمين في ذلك الوقت، لذلك نرى أن أمراء الولايات الإسلامية وحكامها الذين تحالفوا ضد جلال الدين منكبرتي كما رأينا، يبادرون إلى عرض الصلح عليه عندما أدركوا أن الخطر المغولي بات يهدد الدولة الخوارزمية في ذلك الوقت، وأن ذلك الخطر لا بد أن يتحول إليهم إذا اكتسح المغول هذه الدولة^(١). وما يدل على أهمية بقاء الدولة الخوارزمية في نظر أمراء المسلمين أنه لما قتل جلال الدين منكبرتي آخر الأمر، دخل جماعة على الأشرف موسى صاحب دمشق يهتفون به مقتله ويعدونه فقال لهم:

« تهتفون وتعرضون ، بسوف ترون عيسه ، والله لتكونن هذه ،

« الكسرة سيداً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام . ما كان الخوارزمي ،

« إلا مثل السد الذي بيننا وبين ياجوج وماجوج^(٢) ،

من ذلك يتضح أن سلامة أقاليم غربي آسيا كانت تتوقف إلى حد كبير على زوال أو بقاء الكيان السياسي للدولة الخوارزمية ، فلما زالت هذه الدولة انفسح المجال أمام المغول للتوغل غرباً ، وقد ظهر ذلك جلياً في أيام چنكيزخان نفسه، إذ أنه لما أرسل قائديه شي وسوبوتاي في إثر علاء الدين خوارزم شاه بعد انكسار جيوشه وفراره إلى تلك الجزيرة ببحر قزوين ، لم يلق هذان القائدان صعوبة في الاستيلاء على العراق العجمي وأذربيجان وجورجيا ، ثم عبرا المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود ووصلا إلى بلاد القفجاق، وظهر المغول في بلاد الروس لأول مرة في سنة ٦٢٠هـ (١٢٢٣م)^(٣)، وألقوا الرعب في قلوب أهل أوربا . وفي عهد أجتاي Ogotaï (٦٢٤ - ٦٣٩ هـ = ١٢٢٧ - ١٢٤١ م) وجهت حملة مغولية كبيرة إلى أوربا بقيادة « بانو ، Batu حفيد چنكيزخان سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٥م) فأخضع الأقاليم الواقعة شمالي بحر قزوين واكتسح روسيا ، وفرض عليها جزية كبيرة، وألقى الرعب والخراب والدمار في بولندا ومورافيا وسيليزيا كما خرب هنغاريا ، ثم ترك هذه البلاد تنحى من بناها سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤١ م) ، وعاد إلى وطنه على رأس الجيوش المغولية على أثر وفاة أجتاي في هذه السنة^(٤) .

(١) Howorth: History of the Mongols, part i. p. 130.

(٢) أبو المحاسن : الهجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ ص ٢٧٧ .

(٣) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 112.

(٤) Ibid, vol. i. pp. 112 - 113.

والمهم في ذلك كله أنه بعد حملات چنكيزخان على غربي آسيا وإخضاعه أقاليم الدولة الخوارزمية ، فتح أمام المغول طريقان إلى أوربا ، طريق يمتد إلى الشرق الأراضي الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين وهو الطريق الذي سلكه القائدان شي وسوبوتاي ، وطريق يمتد إلى الشرق الأراضي الواقعة شمالي بحر قزوين وهو الطريق الذي سلكه باتو بحملته على أوربا . وعن هذين الطريقين أمكن المغول أن يشيروا الرعب في قلوب أهالي أوربا ، وأخذ القلق يذنب في نفوس البابطرة والبابوات فأخذوا يتقربون بشق الوسائل إلى المغول كما سنرى .

أما من ناحية البلاد الإسلامية التي كانت تتأخم بلاد الدولة الخوارزمية في الغرب ، فلم يعد هناك من شك في أن نهايتها أصبحت قريبة ، وكانت هذه النهاية تتوقف دون شك على إرادة المغول أنفسهم . فقد بدأت الجيوش المغولية منذ أيام چنكيزخان نفسه تتسلل إلى أراضي العراق العربي في حملات صغيرة . ففي أثناء حملة شي وسوبوتاي غزا المغول بعض أقاليم العراق العربي ، ولما وجد الخليفة الناصر أن أملاكه أصبحت مهددة بالزوال وأن كيانه السياسي كاد أن يتقوض ، استصرخ أمراء المسلمين لمساعدته . وأدرك المغول في ذلك الوقت أنهم لا يستطيعون مواجهة جيوش الخلافة ففضلوا الانسحاب^(١) . على أنهم عادوا في أيام أجتاي إلى هذه المحاولة من جديد ، فاستولوا في عامي ٦٢٣ و ٦٢٤ هـ (١٢٣٥ و ١٢٣٦ م) على إمارة إربل وتوغلوا في العراق العربي حتى بلغوا مدينة سامرا ، ولما أدرك الخليفة حرج مركزه دعا المسلمين إلى الجهاد . وقد اشتبكت جيوش الخليفة بجيوش المغول عند مدينة «جبله» على نهر دجلة واضطر هؤلاء إلى الانسحاب . ومع ذلك فقد أعاد المغول الكرة بعد ذلك بسنتين ، واستدرجوا جيوش الخليفة إلى كمين وتمكنوا من قتل عدد كبير من جند المسلمين^(٢) . وفي سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) وهي السنة التي انتخب فيها كيوك Kuyuk خاقاناً ، أعاد المغول الكرة وهددوا أراضي العراق العربي ، ولسكن نصبت هذه الحملة كان نصيب ماسبقها من حملات المغول^(٣) . وصفوة القول إن المغول لم يكفوا عن إرسال أمثال هذه الحملات بين الفينة

(١) D'ohsson: Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 330 - 331.

(٢) Howorth: History of the Mongols, part i. p. 132.

(٣) Ibid, part i. p. 167.

والفينة ، بقصد السلب والنهب أحيانا ، وبقصد اختبار قوة المسلمين أحيانا أخرى . واستمرت الحال على ذلك حتى انتخب مانجوخان Mangu Khan خاقانا ، فعول على توسيع أملاكه شرقا وغربا ، فأرسل حملتين كبيرتين إحداهما بقيادة أخيه كوبلاي Kubilai كان الغرض منها إتمام فتح بلاد الصين ، والثانية بقيادة أخيه الأصغر هولاكو كان الغرض منها القضاء على حصون الإسماعيلية ثم الاستيلاء على مدينة بغداد حاضرة الخلافة العباسية^(١) .

أخذ هولاكو يستعد لهذه الحملة ، فبالإضافة إلى هذه الجموع الغفيرة من الجند الذين أصبحوا على استعداد للسير تحت لوائه^(٢) ، نراه يضم إلى جيشه ألف رجل من المهندسين الصينيين للاستعانة بهم في تنصيب المجانيق وقذف المواد الملتبسة على المدن المحاصرة ، ثم نراه يأمر حكام الأقاليم التي في طريقه إلى فارس بتجهيز السكك الخيول . وقبل أن يبدأ في الرحيل أمر بإصلاح جميع الطرق التي سيسلكها جيشه وإقامة القناطر على الأنهار ، وأرسل إلى حكام المغول في فارس يأمرهم بإعداد المؤن للجيش القادم إليهم^(٣) .

وقد حاول مانجوخان وهولاكو أن يكلا استعدادهما الحربي باستعداد دبلوماسي ، فحاولا التحالف مع الملوك والأمراء المسيحيين في غرب آسيا ضد الخليفة العباسي المسلم ، وكان كل من المغول والمسيحيين يحاول أن يتقرب من الآخر . أما المغول فكانوا يرمون من وراء ذلك أن يجدوا لهم نصيرا يساعدهم على الخليفة ، وأما المسيحيون فكانوا يهدفون إلى دفع الخطر المغولي الذي بات يهددهم ، كما كانوا يهدفون إلى القضاء على أعدائهم المسلمين في بغداد وغيرها ، وفضلا عن ذلك كانوا يطمعون في مساعدة المغول لهم لاسترداد بيت المقدس . لذلك لانعجب إذا رأينا « هيثون » Haythn ملك أرمينية « وبوهيمند السادس » أمير أنطاكية يتحالفان مع مانجوخان ويرسلان إليه الجزية ، ولذلك أيضا نرى مانجوخان يعلن أنه إنما أرسل هولاكو إلى غرب آسيا ليقضى على

(١) Browne: A Literary History of Persia, vol. ii p. 452.

(٢) ومما هو جدير بالذكر أن مانجوخان أمر بجمع الجيوش التي كان چنكيزخان قد أمر بتوزيعها على أولاده ، وكون من هؤلاء جميعا ذلك الجيش الذي سار تحت إمرة هولاكو .

(٣) Bretschneider : Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources, (٣)

vol. i. pp. 112-114.

الخلافة العباسية ، ويعيد بيت المقدس إلى المسيحيين ^(١) . كذلك نرى لويس التاسع بعد أن أخفق في حملته على مصر يرحل إلى عكا سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) ، حيث مكث في البلاد الشامية أربع سنوات حاول خلالها دون جدوى وبوسائل مختلفة أن ينتزع بيت المقدس من أيدي المسلمين ^(٢) ؛ من ذلك أنه أرسل إلى مانجوخان راهبا يدهى ولهم زوبروك William De Rubruquis بقصد التحالف معه ضد المسلمين ولكن هذا الرسول لما عاد إلى البلاد الشامية في سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م) حاملا إلى لويس التاسع رسالة تحوى بين سطورها عبارات المجاملة ^(٣) ، كان هذا قد رحل إلى فرنسا في السنة السابقة ^(٤) . ونلاحظ أن هولاء كورجالة ، أرسلوا - قبل أن يصلوا إلى البلاد الإسلامية - إلى المسيحيين في غرب آسيا رسالة جاء فيها :

« لدينا أعداد كبيرة من المسيحيين بين عشائرننا ، وقد جئنا بقوتنا ،
« وسلطاننا معلنين ضرورة تحرير جميع المسيحيين من العبودية ومن ،
« الضرائب التي فرضها عليهم المسلمون ، ومعلنين ضرورة معاملة ،
« المسيحيين بمعاملة تليق بهم ، فلا يعتدى عليهم ولا على تجارتهم .
« ونحن نصرح بأننا سنعيد بناء جميع الكنائس التي خربها المسلمون ^(٥) .
والظاهر أن هذه الرسالة لم تصل أيضا إلى لويس التاسع وهو في بلاد الشام ،
ويحتمل أن تكون قد وصلت إليه بعد أن عاد إلى فرنسا .

* * *

وصل هولاء كورجالة إلى مدينة سمرقند سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م) ثم رحل منها إلى مدينة
« كيش ، Kesh إحدى مدن بلاد ما وراء النهر ، حيث قابل أرغون حاكم المغول
في بلاد فارس . وأقام هولاء كورجالة في هذه المدينة شهرا أرسل في خلاله يطلب مساعدة
أمرام آسيا الغربية ضد طائفة الإسماعيلية ^(٦) . والظاهر أن هولاء الأمرام بدأوا يخشون

(١) Lamb : The Crusades; The Flame of Islam, pp. 337 - 8.

(٢) Barker : The Crusades, pp. 83 - 84.

(٣) Sykes : The Quest for Cathay, pp. 102 - 110.

(٤) Barker : The Crusades, p. 84.

(٥) Lamb : The Crusades; The Flame of Islam, pp. 338 - 9.

(٦) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 115.

هولاكو وحملته بدليل أنه لما عبر نهر جيحون في أوائل سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) ، سارع سلطان سلاجقة الروم كما سارع أتابك فارس (أتابكية فارس) بإرسال الرسل لتحية هذا القادم ، كما حضر بعض هؤلاء الأمراء بأنفسهم لاستقباله^(١) . وقد قضى هولاكو عام ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) متنقلا في مدن فارس المختلفة ، كما أرسل الحملات المتتالية بقصد الاستيلاء على حصون الإسماعيلية ، واستطاع في نهاية هذه السنة أن يستولى على قلعة الموت ، أقوى حصونهم ، ولم ير زعماء الإسماعيلية الذين كانوا يقيمون في القلاع الباقية بدأ من التسليم . وهكذا قضى المغول على هذه الطائفة قضاء مبرما ، فإنهم فضلا عن إزالة معالم هذه الحصون ، قتلوا كل من ينتمي إلى هذه الطائفة في فارس^(٢) .

وبعد أن حقق هولاكو الجزء الأول من برنامجه وهو القضاء على طائفة الإسماعيلية ، سارع لتحقيق الجزء الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية في بغداد . وإن التوسع في سرد حوادث الاستيلاء على الحاضرة الإسلامية لا يدخل في نطاق هذا البحث ، ومع ذلك فلا بأس من أن نشير إلى هذه المسألة بشيء من الإيجاز .

أرسل هولاكو في التاسع من شهر ربيع الثاني سنة ٦٥٥ هـ (٢١ سبتمبر سنة ١٢٥٧ م) إلى الخليفة المستعصم رسالة يدعو فيه إلى تقويض حصون بغداد وأسوارها ، كما أرسل إليه يدعو إلى الحضور بنفسه إلى حضرته وتسليم المدينة ، وإلا فالحكم للسيف وحده . وما يسترعى النظر في رسالة هولاكو ، أنه ضمنها احتجاجه على عدم مساعدته ضد الإسماعيلية^(٣) . ولم يكن المقصود بهذه الرسالة غير التهديد والوعيد والتذرع بأسباب واهية لغزو بغداد ، ولا تخرج هذه الأسباب في موضوعها عن موضوع قصة الذئب والحمل المعروفة ، تلك القصة التي أراد الذئب فيها أن يأكل الحمل ولم يجد وسيلة لذلك إلا الادعاء عليه بالباطل أنه عكر عليه الماء الذي يشرب منه . ومع أن هذه الأخطار لم تكن خافية على الخليفة ورجاله المقربين ، فإنه لم يهتم

Bretschneider : Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources, (١)
vol. i. p. 116.

Ibid , vol. i. p. 118. (٢)

Rashid Eldin : Histoire Des Mongols de la Perse tom. i. pp. 224-233. (٣)

بالاستعداد لمواجهة هذا الشر القبيح وأخطابه وبطلته ، بل على العكس نراه = كما ذكر صاحب القصص - يهمل ويضرب في الإهمال رغم تحذير وزيره ابن العلقم ، لأن خواص الخليفة صوّروا له هذا الوزير في صورة الرجل المفرض ، وأنهموه أن الخطر ليس بقريب (١) . وهكذا لم يكن هناك مفر من أن يهمل بمدينة بغداد ما حل بأهبات المدن الإسلامية الأخرى على يد جنكيز خان .

وفي سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) استطاع هولاكو بخططه الحربية أن يحيط بالمدينة من جميع جهاتها ، وأن يحطم قلعتها وحصونها في وقت قصير (٢) . ولما وجد الخليفة أنه لم يعد قادراً على مواجهة الجيش المغول وأدرك أنه أساء التقدير منذ البداية ، حاول أن يقدّم الصلح مع هولاكو ، ولكن كل مساعيه ذهبت أدراج الرياح (٣) . ولم يجد الخليفة بداً من القنابل بنفسه وبعث أولاده الثلاثة إلى معسكر هولاكو حيث سلم حاضرة خلافة إلى أهل المغول فيها التهب والنهب وسلب سبعة أيام ، وبعد عشرة أيام من تسليم الخليفة ، قتل الخليفة نفسه وابنه الأكبر (٤) . وقد وصف كثير من المؤرخين ما حل بمدينة بغداد في هذه الفترة من قتل وسي وتخريب ، ولكن يكفي هنا ما ذكره السيوطي ، إذ قدر عدد من قتل من أهلها بما يقرب من مليون نسمة ، ولم يترك هولاكو على قيد الحياة أحداً من العلماء والأمراء والمجانب وكبار رجال الدولة ، كما لم يسلّم من أهل المدينة إلا من اختفى في بئر أو قنطرة . وذكر السيوطي أيضاً أن المغول نكلوا بالخليفة قتلوه رفاً (٥) ، وبالجملة فقد أزال هولاكو معالم هذه المدينة ومبانيها التي كانت آية من آيات الفن الإسلامي وأرسل كل ما استطاع أن يجمعه من ثنائسها إلى أذربيجان ، حتى تكون في مأمن من كل مكروه . كما جمع هولاكو في هذا الإقليم كل ما تجمع لديه من ثروة من بلاد السلاجقة الروم وجورجيا وأرمينية ولورستان وكرديستان (٦) .

(١) ابن بطوطا : القصص في الآداب السلطانية ، ص ٢٩٢ .

(٢) De Guignes : Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols et des Autres Tartares Occidentaux tom. iii. pp. 131-2.
(٣) Bretschneider : Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. pp. 119-120.

(٤) Ibid , vol. i. p. 120.

(٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٤ .

(٦) Rashid Eldin : Histoire des Mongols de la Perse, tom. i. p. 317.

وكان لسقوط بغداد أثر كبير في خضوع أمراء آسيا الغربية ، إذ أسرع إليه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في هذه السنة معلناً خضوعه وولائه ، كما سارع إلى إعلان هذا الخضوع الأتابك أبو بكر بن سعد صاحب فارس ، وأسرع سلطان سلاجقة الروم لمقابلته بالقرب من مدينة تبريز^(١) . أما البلاد التي لم تسارع إلى التسليم فقد استولى عليها المغول عنوة . ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام أن سقوط الخلافة العباسية من بغداد كان سبباً في انتقال مركز الخلافة فيما بعد إلى مصر ، التي أصبحت قبله أنظار المسلمين في جميع أنحاء العالم . واستمر الحال على هذا الوضع حتى قدر لهذه الخلافة أن تنتقل للمرة الثانية إلى القسطنطينية حاضرة العثمانيين .

كانت مهمة هولاء كوكب النالية أن يخضع سوريا ثم يستولى على مصر . وقبل أن يبدأ برحيله إلى هذه الجهات أرسل عدة خطابات تحمل في طياتها معاني التهديد والوعيد لحكام البلاد التي ستمر جيوشه فيها ، وعلى الأخص لحاكم مدينة حلب التي تعتبر مفتاح البلاد السورية^(٢) . ولما أتم استعداداته الحربية سار إلى الغرب مكتسحاً ما بقى من بلاد ما بين النهرين ، ثم رحل إلى حلب وأخضعها ثم خربها سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، وشرع في إتمام فتح ما بقى من الأراضي السورية في الجنوب ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى بلاده تاركاً لقائده كتبغا إتمام هذا المشروع^(٣) . أما عن السبب الذي دفع هولاء كوكب إلى العودة إلى بلاده في هذا الوقت العصيب دون أن يتم هذه الفتوح ، فإنه يرجع إلى رغبته في الاشتراك في انتخاب خلف لآلئيه مانجوخان الذي كان قد توفي سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) . ولم يكن في عزم هولاء كوكب أن يترك خلفاً له ليمت هذا المشروع لولا إلحاح المسيحيين عليه وعلى رأسهم « هيثون » Haythou ملك أرمينية ، وكانوا يرمون إلى استرداد بيت المقدس من أيدي المسلمين ، فاضطر هولاء كوكب أن يترك قائده « كتبغا » ومعه عشرة آلاف مقاتل مغولي لإتمام هذا المشروع^(٤) .

(١) Rashid Eldin : Histoire des Mongols de la Perse, tom.I. pp. 321-323.

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٣) Nicholson : A Literary History of the Arabs, p. 446.

(٤) Lamb : The Crusades; The Flame of Islam, p. 340.

ومما هو جدير بالملاحظة أن بيت المقدس كانت قد آلت إلى حكم المسلمين بعد استيلاء الصالح أيوب عليها سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) .

صار كتبنا بهذا الجيش ميمما شطر البلاد المصرية وأرسل — كما جرت بذلك عادة المغول — خطاب تهديد إلى المصريين^(١)، علمهم يسارعون إلى تسليم بلادهم، ولسكنهم أدركوا في ذلك الوقت مدى قوة الجيش المغولي بعد رحيل هولاء، فلم يهتموا بتهديد أو وعيد، واتجهوا نحو البلاد الشامية لملاقاة أعدائهم، واستطاعوا بفضل شجاعة قائدهم بيبرس البندقداري أن يوقعوا بالمغول هزيمة منكرة في موقعة عين جالوت، سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م). وقد قتل المماليك السواد الأعظم من رجال المغول واختطفوا بعضهم، أما من نجا من القتل والأسر فقد بادر إلى الهرب. واستطاع بيبرس بعد هذا الانتصار أن يعيد إلى حوزة المسلمين ما استولى عليه المغول من البلاد الشامية ومن أهمها دمشق وحلب^(٢).

وحرى بنا أن نذكر في هذا المقام أن المغول قد أثروا بطريق غير مباشر في هجرة بعض الأقوام الآسيوية إلى غرب آسيا، فكانوا — كما ذكرنا — سببا في هجرة تلك القبيلة التركية إلى آسيا الصغرى فكانت نواة الدولة العثمانية فيما بعد. وكذلك نرى أن غزوات المغول كانت السبب في هجرة كثير من الخوارزميين إلى البلاد الشامية وإلى مصر، وقد شجعهم الصالح أيوب واستألمهم إلى البلاد المصرية جريا على سياسته التي كانت ترمي إلى اجتذاب المماليك إلى بلاده. وقد استخدمهم الصالح أيوب فعلا في حروبه مع الصليبيين في بلاد الشام، وتمكن بفضل مساعدتهم من الاستيلاء على بيت المقدس من أيدي المسيحيين سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤م)^(٣). كذلك نرى الصالح أيوب يشتري عددا كبيرا من أسرى المغول الذين أسروا في حروبهم في بلاد المشرق وفي بلاد القفجاق وغيرها، ويضمهم إلى ممالكه الذين كانوا يعرفون بالمماليك البحرية^(٤). وقد قدم إلى مصر عدد كبير من المغول في أوائل عهد الملك الظاهر بيبرس، واتخذوا الإسلام ديناً لهم، وأقاموا في دور بنيت لهم في الجهة المروقة اليوم بباب اللوق. وكان

(١) كانت مصر تحت سيطرة مظفر الدين قطز.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٣١٥. ومما هو جدير بالذكر أن السواد الأعظم من الجيش المصري كان يتكون من بقايا جيش جلال الدين منكبرتي ومن الخوارزميين الذين كانوا قد لجأوا إلى مصر بعد غزو چنكيزخان. Rashid Eldin: Histoire Des Mongols de la Perse, tom. i, p. 343.

(٣) Lane-Foote: History of Egypt in the Middle Ages, p. 231.

(٤) القرطبي: المحط، ج ٢ ص ٢٢١.

هؤلاء المغول موضع عناية السلطان بيبرس فتحهم بعض الإقطاعات . وقد شجعت هذه المعاملة الحسنة التي وجدها المغول في ذلك العهد عددا كبيرا منهم على الالتجاء إلى مصر ، وأدى نشاطهم إلى تزايد العائز في سعي باب اللوق والأحياء المجاورة له^(١) . وإذا عرفنا النظم الاجتماعية لدولة المماليك في مصر وعرفنا طريقة تولي سلاطينها الحكم ما شككنا لحظة في احتمال وجود عدد كبير من نسل كل من الخوارزميين والمغول بين أسماء سلاطين دولة المماليك ، أو على الأقل بين أسماء رجالها البارزين ، الذين كان لهم شأن يذكر في إدارة شئون هذه الدولة^(٢) .

٢ - الأثر الديني

كان المغول في بادئ أمرهم يدينون بالديانة الشامانية^(٣) وخاصة في تلك الأيام التي كانوا فيها على بداوتهم وفطرتهم . وقد بدأ المغول يتحررون من هذه الديانة تدريجيا منذ أخذوا يتوسعون شرقا وغربا ويؤسسون لهم ملكا عريضا ، فالتقوا في أثناء توسعهم بحضارات متباينة وديانات عدة ، وتأثروا بها بمقدار ما كانت عليه هذه الحضارات والديانات من قوة أو ضعف .

وقد وقع المغول منذ توسعهم في هذه الفتوح تحت تأثير ديانات ثلاث ، هي البوذية والمسيحية ، والإسلام . وقد حاول دعاة هذه الديانات الوصول إلى قلوب هؤلاء البدائيين ، فنشأ صراع عنيف بينهم ، وحاول كل فريق منهم أن يكون له نصيب السبق في هذا المضمار^(٤) . ولم يكن المغول في بداية أمرهم يفرقون بين هذه الديانات ، فأطلقوا

(١) محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ، ص ١٦٦ .

(٢) يروى في هذا الصدد أن مظفر الدين قطز أحد سلاطين المماليك في مصر كان من أقرباء السلطان جلال الدين خوارزم شاه (جلال الدين منكبرتي) ، وقد أسرى في أثناء حروب المغول وبيع بمدينة السلطان الملك العزيز . انظر القرينى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٤١٧ حاشية ٢ ، ص ٤٢٧ حاشية ٣ . وابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٣٧٩ .

(٣) تمثل هذه الديانة في عبادة بعض الآلهة المنحطة الشريرة التي كان يخشاها للقول ، فيقدمون إليها القرابين والضحايا اتقاء لعمرها وأذاها ، وفضلا عن ذلك كان أتباع هذه الديانة يعبدون أرواح أجدادهم لاعتقادهم أن لهذه الأرواح سلطانا كبيرا على حياتهم .

(٤) Arnold : The Preaching of Islam, p. 220.

الحرية لكل فرد ليتبع الطريق الذي يختار ، وليس أدل على ذلك من أن چنكيزخان نفسه سارى بين أتباع جميع هذه الديانات دون أن يتحيز إلى إحداها^(١) . وأكثر من ذلك نراه يعين كثيرا من المسلمين في المناصب المختلفة في بلاد ما وراء النهر ، كما اتخذ في حاشيته أمثما يصاحبه يدينون بالديانة البوذية . وكذلك فرى «كوبلاى خان» يتخذ من «ماركوفول» رفيقا له ويمهد إليه بتصرف كثير من المهام السياسية في الدولة^(٢) . وإذا كان المسلمون قد اجتنبوا ما رأوا من قتل وتعذيب على يد چنكيزخان ، فقد كان هذا تعذبا سياسيا مشترك فيه أصحاب الأديان جميعا ، ولم يكن احتطادا دينيا بالمعنى الذى نعرفه . وليس أدل على احترام چنكيزخان لرجال الدين من أنه أعفاهم من الضرائب التى فرضها على عامة الشعب^(٣) .

وقد تأثر المغول في القسم الشرقى من إمبراطوريتهم بالديانة البوذية ، التى كانت في ذلك العصر قد قطعت علاقتها بموطنها الأصلي في بلاد الهند واستقرت في حضبة التبت ، فأخذ دعاتها يعملون جهادين على نشرها في الجزء الشرقى من آسيا^(٤) . وقد انتصر دعاة هذه الديانة انتصارا عظيما باعتناق كوبلاى خان (٦٥٥ - ٦٩٣ = ١٢٥٧ - ١٢٩٤ م) هذه الديانة^(٥) ، ولا يزال سكان هذا الجزء من القارة الآسيوية يدينون بها إلى اليوم .

• • •

ولم يكن دعاة الديانة المسيحية أقل شأنا في ميدان التنافس الدينى ، بل نراه يعملون جهادين كذلك على إحياء هذا الدين إلى قلوب أولئك البدائيين . وليس معنى هذا أن المسيحيين لم يصلوا إلى شرق آسيا إلا بعد الفخ والمغول ، ولكن للواقع أنهم وصلوا إلى هناك منذ القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) حتى إذا جاء عصر چنكيزخان كانت جماعات من المسيحيين تنتشر في هذه البلاد ، ولكنها لم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تنشر هذا الدين بين المغول ، رغم أنها لم تال جهدا في نشر الدعوة له .

Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 440. (١)

Vambyer : History of Bokhara, p. 139. (٢)

Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 440. (٣)

Huzayyin : Arabia & The Far East, p. 202. (٤)

Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 440. (٥)

وفي الوقت الذي ظهر فيه چنكيزخان ، كانت قبيلة القرايت Kara'its المغولية التي تسكن جنوبي بحيرة بيكال تدين بالديانة المسيحية . وقد تزوج چنكيزخان من ابنة رئيس هذه القبيلة بعد أن تم له إخضاعها . وكذلك زى أجتاي Ogotai يتزوج من نفس هذه القبيلة . ولم يقل عطف كيوك Kuyuk بن أجتاي على أصحاب الديانة المسيحية عن عطف أسلافه ، رغم عدم اعتناقه إياها^(١) .

وقد كثر المسيحيون النسطوريون في بلاط خانات المغول في الشرق فرى منهم عدداً كبيراً يشغلون المناصب الكبرى في الدولة المغولية ، ومن بينها منصب الوزارة . وأكثَر من ذلك زى خانات المغول يقبلون على الزواج من المسيحيات^(٢) . ونلاحظ أن نظرة المسيحيين إلى المغول قد تطورت بعد عصر چنكيزخان الذي مد فتوحه في غرب آسيا . فقبل هزو چنكيزخان ، كان أقصى ما يطمع فيه المسيحيون أن ينشروا هذا الدين بين هؤلاء القوم ، وكانوا في ذلك الوقت يقتنعون بما قد يصيبونه من نجاح قليل . ولكن بعد أن غزا چنكيزخان غربي آسيا وأدخل خلفاؤه الرعب في قلوب أهل أوربا ، نظر المسيحيون إلى المغول نظرة خوف وعلع في بادىء الأمر ، حتى إذا ما سكنت قلوبهم ، وأطمأنت نفوسهم ، حاولوا أن يستميلوا هؤلاء الغزاة إلى دينهم ، بل حاولوا أن يستعينوا بهم على المسلمين .

أخضع چنكيزخان كما رأينا أواسط آسيا ، ثم أخضع ابنه أجتاي خان (٦٢٤ - ٦٣٩ هـ = ١٢٢٧ - ١٢٤١ م) أرمينية ، وفي عهده واصل باتو Batu بن چوچی إخضاع جنوبي روسيا وبولندا ، واستولى على بودابست سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) ، فمال ذلك الأوربيين وجعلهم يقفون مشدوهين إزاء هذا الخطر المفاجئ . بل إن ذلك حفز رجال الدين إلى إرسال البعث إلى دقره قورم ، حاضرة المغول ، لاستطلاع نواياهم نحو القارة الأوربية ، وكان من أثر هذه البعث أن زادت معلومات الأوربيين عن الشرق^(٣) . ففي سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) ، جلس انسوت الرابع على عرش البابوية

(١) Arnold : The Preaching of Islam, p. 221.

(٢) Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, tom. ii, pp 66.

(٣) Joseph Jacobs : The Story of Geographical Discovery, pp. 70-71.

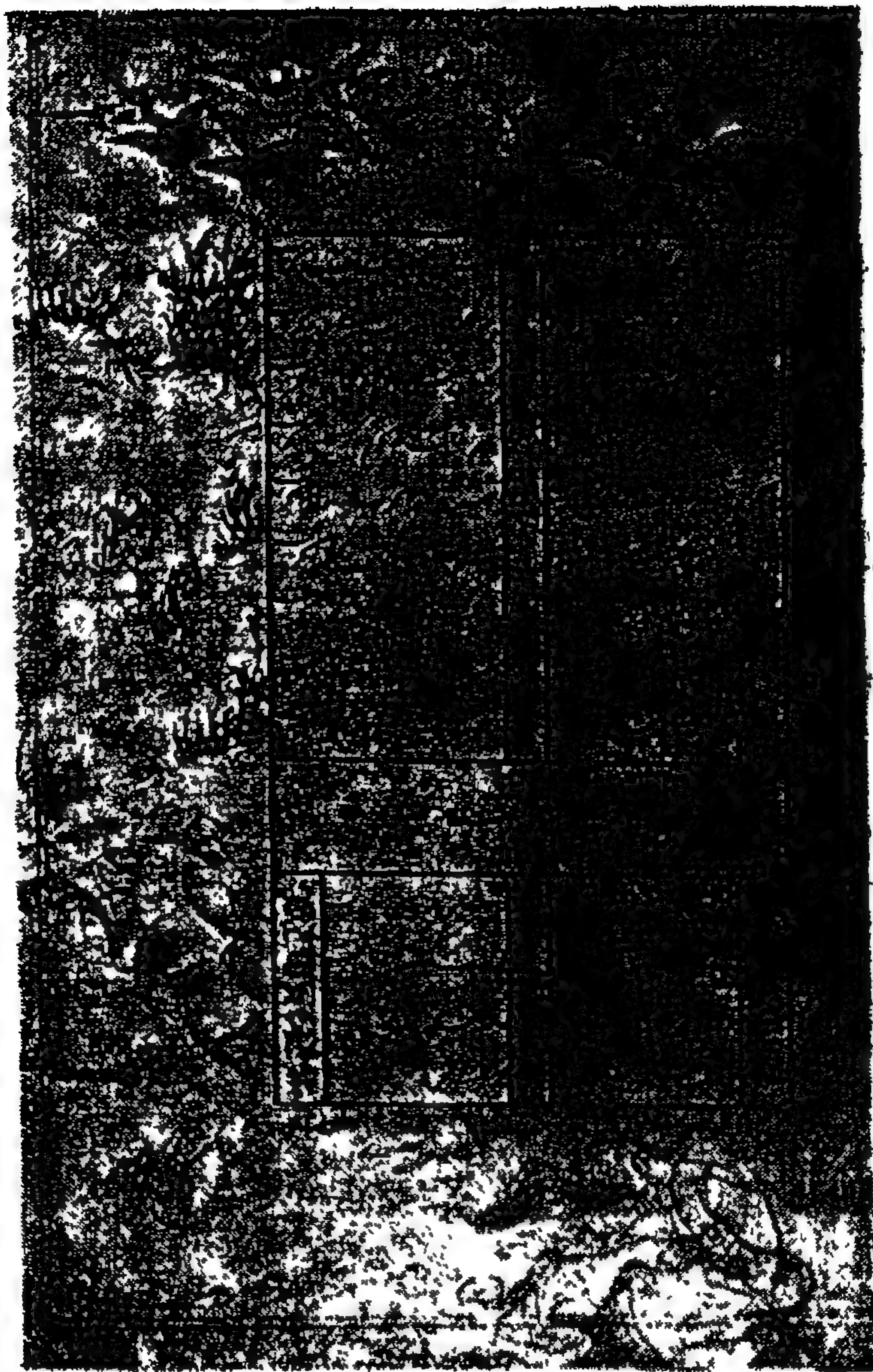
وكان الخطر المغولي في ذلك الوقت ماثلاً للعيان ، فجمع بعد انتخابه بسنتين بمعاذينا في مدينة ليون لمعالجة خطر المغول الذي بات يهدد القارة الأوروبية ، وقد اقترح في هذا الاجتماع أن تسد المسالك والمناقل الأوروبية في وجه المغول بالأسوار والحصائد والمباني ولما سمع البابا بوجود جاليات مسيحية بين المغول ، وطد العزم على استغلالهم في القضاء على ذلك الخطر ، فأرسل إلى الخاقان أحمد دعائه وهو چون دى بلاتو كلريني Joliti De Plano Carpini ، داعياً للديانة المسيحية ، فضلاً عن هدفه الأصلي الذي يرمى إلى استطلاع نوايا المغول تجاه أوروبا .

وقد بدأ كلريني رحلته من مدينة ليون بصحبة بعض رجال الدين من المسيحيين سنة ١٢٤٣ م (١٢٤٥ م) واتجهوا إلى منغوليا عبر سهول أوروبا ، فوصلوا إلى شمال البحر الأسود حيث التقوا بمسكر باتو Batu مؤسس دولة مغول القفجاق ، ثم اخترقوا بلاد المسلمين التي أصابها التخريب ، وأخيراً وصلوا إلى منغوليا ، وهناك التقوا بكثير من رسل حكام البلاد المختلفة في غرب آسيا ومن بينهم رسل الخليفة العباسي المستنصر . وقد جاء كل هؤلاء الرسل والسفراء لإعلان طاعتهم ، أو لتقديم الهدايا للخابان ، أو لتقديم ما فرجه المغول على بلادهم من خرايب . وقد وصف كلريني كيوك خان ، من الباحتين الجسانية والخلقية ، وذكر كيف أنه كان يعطف على المسيحيين . وبعد أن مكث في البلاد المغولية زهاء أربعة أشهر لقي في أثناءها من المغول ما جعله يلجأ بكرم ضيافتهم ، عاد إلى روما سنة ١٢٤٥ م (١٢٤٧ م) يحمل معه رسالة ودية لرعي المسيحيين ^(١) . على أن مبعوث البابا إذا كان قد أخفق في حمل الخاقان على اعتناق الديانة المسيحية كما كان ينبغي ، فإن هذه الرحلة نبهت الأوروبيين إلى كثير مما كانوا يجهلونه من خفايا الشرق ، إذ أن كلريني قد وصف دون شك مدينة « قره قورم » حاضرة المغول كما وصف البلاد التي مر بها وصفاً أثار شغف الأوروبيين وحفزهم إلى الاستزادة من أخبار الشرق ^(٢) . وحرى بنا أن نذكر هنا أن المسيحيين الذين أخذهم المغول بالقوة إلى وسط آسيا ، وهؤلاء الذين ذهبوا إلى هذه البلاد

(١) Sykes: The Quest for Cathay, pp. 93 — 98.

(٢) Barker: The Crusades, p. 86.

لوحة ١٥.



رسم على الطراز الصيني في مخطوط إيراني يرجع في الغالب إلى سنة ٨٠٥ هـ
(١٤٠٢ م) وييسدو التأثر بالأساليب الفنية الصينية من الرسوم الريفية
ورسوم الطيور التي كانت نادرة جداً في هوامش المخطوطات الإيرانية .
(عن كتاب المين ونون الإسلام للدكتور زكي محمد حسن)

مختارين ، كانوا يستطيعون من غير عناء أن يقيموا طقوسهم الدينية . كما كانوا في كل وقت من أوقاتهم موضع احترام المغول كما شهد بذلك المبشرون الذين وفدوا على هذه الجهات (١) .

على أن تسامح المغول مع أصحاب هذه العقائد الدينية على اختلافها ، جعل المسيحيين في غرب آسيا يحاولون التعرّب منهم واجتذابهم إلى صفوفهم ضد المسلمين ، حتى يستطيعوا بمعاونتهم أن يستخلصوا بيت المقدس خاصة وبلاد الشام عامة من أيديهم . وهذا ما حقّز هيثون Haythion ملك أرمينية وبوهيمند السادس أمير أنطاكية على التحالف مع مايجو خان (٦٤٦ - ٦٥٥ هـ = ١٢٤٨ - ١٢٥٧ م) ، الذي رحّب بهذا الحلف وأرسل أخاه هولّاكو لغزو بغداد . وكان من أثر سقوط هذه المدينة بودخول الجيش المغولي أراضي أرمينية وجورجيا ، أن اعتنق كثير من المغول الدين المسيحي (٢) . ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام أن هولّاكو ، رغم عدم اعتناقه الديانة المسيحية ، قد شيد الكنائس في جميع المدن التي استولى عليها مدفوعاً في ذلك بدافع قوى من ناحية زوجته المسيحية (٣) . وقد ساعد على انتشار الكنائس في المدن المختلفة عبر القارة الآسيوية ، ما ذكرناه من تعيد الطرق التجارية عبر هذه القارة في وجه الأوربيين عقب الغزو المغولي (٤) .

وكان من أثر ما عرفه المسيحيون من ميل المغول إليهم ، أن علق لويس التاسع أهمية كبيرة على ذلك الميل منذ وصل إلى بلاد الشرق ، فإنه لما نزل بجزيرة قبرص سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) ، تلقى من الحاكم المغولي في فارس رسالة يعرض عليه فيها استعداده لمهاجمة المسلمين ومساعدته في مهمته الأساسية ، وهي الاستيلاء على بيت

Heyd: Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, tom. ii. (١)
pp. 67 — 68.

Arnold: The Preaching of Islam, pp. 221 — 222. (٢)

Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, tom. ii. (٣)
pp. 67 — 68.

Eileen Power: The Guilds and Medieval Commerce, p. 2915. (٤)
(Universal History of the World, vol. 5.)

المقدس^(١) . وقد علم لويس التاسع مما ورد في هذه الرسالة كما ذكر سيكس Sykes أن الخاقان المغولي «كيوك» اعتنق الديانة المسيحية مع كثير من أفراد رعيته^(٢) . لذلك أرسل لويس التاسع إلى بلاط الخاقان قسيسا يدعى «أندرو» Andrew ، ولكنه لما وصل إلى هناك علم أن الخاقان قد مات . على أن لويس التاسع حلت به الهزيمة في موقعة المنصورة أثناء غيبة هذا الرسول في بلاد المغول ، وترك الديار المصرية بعد ذلك وسار إلى فلسطين حيث لقي هذا الرسول الذي حمل إليه رداً لا ينطوي على شيء من الود من ذلك المغولي الذي كان يقوم بحكم دولة المغول مؤقتاً ، إلى أن ينتخب الخاقان الجديد . ولما انتخب مانجوخان ، أرسل لويس التاسع إلى بلاط المغول رسولا آخر يدعى «وليم روبروك» ، الذي رحل من عكاسة سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) واتجه شطر القسطنطينية حيث مكث بها عاماً يستقصى ما كان يفتقر . من أخبار تساعد في مهمته ، ثم رحل إلى منغوليا . وقد وصف «وليم روبروك» عادات المغول وطبائعهم وحياتهم الاجتماعية وغير ذلك مما صادفه في رحلته ، كما وصف جميع القبائل والجماعات التي كان يتكون منها العنصر المغولي ، والتي أخضعها چنكيزخان ، ثم عاد إلى عكا في صيف عام ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م) يحمل إلى لويس التاسع رسالة لا تخرج في معناها عن رسالة سلفه التي أرسلها إلى البابا^(٣) .

ولم تؤد هذه الرحلة إلى شيء أكثر من ازدياد معلومات الأوروبيين الجغرافية عن البلاد

(١) يرى الدكتور عزيز سوريال عطية أن السبب الذي دفع المغول إلى الإسراع بالتحالف مع لويس التاسع أنهم كانوا في ذلك الوقت يفكرون في الاستيلاء على بغداد . ولكي يتحقق هذا الأمل ، عمدوا إلى أن يشغلوا المصريين مع لويس التاسع بوجه خاص ، والمسيحيين في الشرق بوجه عام ، حتى ينصرف المصريون عن مساعدة الخلافة العباسية إذا ما غزاها المغول .

Atiya, A. S. : The Crusade in the Later Middle Ages, p. 242.

(٢) لم يعتنق كيوك الديانة المسيحية ، ولكنه ترك أمور دولته لوزيره المسيحيين ، كما ملا بلاطه بكثير من الرهبان ورجال الدين من المسيحيين ، وكان من أثر ذلك أن لقي المسلمون في عهده صنوفاً مختلفة من المذاب .

Sykes: The Quest for Cathay, pp. 101 — 110. (٣)

ويلاحظ أن لويس التاسع لم يلتق بوليم روبروك في بلاد الشام ، إذ أنه رحل عنها إلى فرنسا سنة ٦٥٢ هـ (١٢٥٤ م) أي في السنة السابقة لوصول هذا الرسول إلى عكا .



سلطانية من الخزف ترجع إلى القرن التاسع الهجري (الخامس
عشر الميلادي) تبدو في زخارفها رسوم السحب الصينية



إناء من الخزف يرجع إلى سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٨ م) من مجموعة
القسم الإسلامي في متحف الدولة ببرلين . وهو يشبه بعض
أنواع الخزف الصيني في المادة وروح الزخرفة .

(من كتاب الصين وفنون الإسلام للدكتور زكي محمد حسن)

الأسيرية (١) . على أن أم ما استخلصه المسيحيون من هذه الرحلة وغيرها من الرحلات السابقة ، أنهم وجدوا المغول كثيرى العطف على ديانتهم ، وأن ذلك قد بعث فيهم الأمل وحفزهم على نشر هذا الدين بين المغول . وكان من السهل جداً أن ينجح المسيحيون في هذا السيل لولا ذلك الانقسام المذهبي الذي قام بين المسيحيين أنفسهم حتى أصبحوا فريقين ، فريقاً يناصر الكنيسة النسطورية ، وفريقاً يناصر الكنيسة الكاثوليكية . ولم يتفق أصحاب المذهبين لا في العقيدة ولا في طريقة التبشير مما أضعف من قوة المسيحيين أمام المسلمين . كما نرى الكنيسة النسطورية في ذلك الوقت تسير في طريق الانهيار ، ولم يحاول أتباع الكنيسة الكاثوليكية أن يستفيدوا من ذلك الضعف (٢) . وهكذا نرى أنه بالرغم مما بذله المسيحيون في ذلك الوقت من جهود لاجتذاب المغول إليهم سياسياً وديناً ، فإن نجاحهم كان محدوداً في ذلك المضمار . في الوقت الذي كان فيه أصحاب المذاهب المسيحية يتنازعون فيما بينهم ، ترى الديانة البوذية توطد أقدامها بين المغول في شرق آسيا ، كما نرى المسلمين يعملون جامدين على نشر دينهم في غربها .

لم تكن الديانة الإسلامية بالديانة الجديدة على أهالي شرق آسيا بوجه عام وعلى المغول بوجه خاص ، فقد وصل المسلمون إلى أقصى أقاليم آسيا الشرقية للتجارة مع أهلها ، ونجحوا في تأسيس جماليات عربية إسلامية لهم هناك ، وقد زاد عددهم في البلاد الصينية بعد تأسيس الدولة العباسية . وكان من أثر ذلك أن توطدت العلاقات بين حكام الصينيين وخلفاء بني العباس ، وازداد عدد المسلمين في بلاد الصين تبعاً لذلك ، وخاصة بعد أن تزوج هؤلاء المسلمون من نساء صينيات (٣) .

على أن عدد المسلمين قد زاد في شرق آسيا على أثر غزوات المغول وحملاتهم على غرب هذه القارة ، فقد صحب جنكيزخان معه إلى بلاد المشرق الأقصى بعد إخضاع الدولة الخوارزمية ، عدداً كبيراً من أصحاب الحرف والمهن للاستعانة بهم وبخبرتهم

Barker: The Crusades, p. 26. (١)

Huzayyin: Arabia & The Far East, p. 202. (٢)

Pitzgerald: China, A Short Cultural History, pp. 326 7. (٣)

في بلاده ، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تقوية الجاليات الإسلامية في بلاد المشرق الأقصى وبالتالي إلى ازدياد انتشار الإسلام فيها عما كان عليه الحال قبل الغزو . ومما ساعد على تفوق الديانة الإسلامية على منافستها المسيحية في شرق آسيا ، تفوق المسلمين في ميدان المنافسة التجارية ، وليس هناك من شك في أن انتشار العقائد الدينية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلاقات التجارية ، فإن التجار المسلمين كانوا يعملون على نشر الإسلام أينما حلوا ، وبذلك انتشر الإسلام في الشرق في مدة وجيزة ، ووصل إلى البلاد التي كان يفسر فيها البوذيون دياتهم^(١) . ورغم هذه الجهود التي بذلها المسلمون والمسيحيون في شرق آسيا ، لم يستطيعوا أن يتغلبوا على الديانة البوذية التي أحرزت قصب السبق في ذلك المضمار ، بسبب كثرة أتباعها في هذه البلاد منذ زمن طويل ، على حين أدى انقسام المسيحيين وقلة عدد المسلمين ، إلى انتشار هاتين الديانتين في نطاق ضيق .

أما في غرب آسيا فقد قاسى المسلمون في أثناء الغزو صنوفاً مختلفة من العذاب ، وقد رأينا كيف أن مدنها خربت وكرامتهم الدينية أهينت بعد أن هدم المغول مساجدهم وقتلوا أكابر علمائهم وفقهائهم ، وأسروا من نجا منهم من القتل . وقد ذكر براون Browne نقلاً عما كتبه الجويني أنه لم يبق من أهالي البلاد الإسلامية التي غزاها المغول إلا ما يقرب من جزء من ألف من مجموع عدد سكانها^(٢) . ولم يخص المغول المسلمين بهذا العذاب بل إن ذلك كان من نصيب جميع سكان غربي آسيا التي غزاها المغول ، الذين لم يميزوا بين أصحاب دين وآخر في المعاملة .

وفي عهد كيوك خان (٦٤٤ - ٦٤٦ هـ = ١٢٤٦ - ١٢٤٨ م) ، قاسى المسلمون صنوفاً مختلفة من العذاب ، إذ أطلق العنان لوزيريه المسيحيين ، كما ملأ بلاطه بكثير من الرهبان المسيحيين . وقد اضطره بعض خواصه من المتعصبين للديانة المسيحية إلى استدعاء بعض المسلمين بحجة شرح مبادئ الدين الإسلامي ، فلما أخذ هؤلاء في شرح دينهم وقاموا للصلاة ، نكل بهم المسيحيون بأن ضربوا رؤوسهم في الأرض ، وأهانوهم إهانات شتى . أما أرغون Arghun رابع إيلخانات المغول في فارس (٦٨٣ - ٦٩٠ هـ =

(١) Huzayyin : Arabia & The Far East, pp. 264 — 265.

(٢) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 439.

(= ١٢٨٤ - ١٢٩٠ م)، فقد اشتط في اضطهاد المسلمين في جميع أنحاء دولته حتى أنه حرم عليهم التوظيف في دواوين الحكومة، كما حرم عليهم أن تطاء أقدامهم بلاطه (١).

ومع أن المسلمين لا قوا صنوفا مختلفة من العذاب في عهود المغول الأولى إلا أنهم صبروا وصابروا مؤمنين بنصر يأتهم في النهاية على هؤلاء المتبربرين. على أن المسلمين لم يعدموا وسط هذا الاضطهاد أناسا يعطفون على ديانتهم ويؤمنون بها، فترى «كورجوز» Kurguz حاكم فارس من قبل أجتاي خان، يعتنق الديانة الإسلامية في أواخر أيامه. على أن أول نصر حقيقي للمسلمين قد تحقق باعتناق بركة Baraka خان القبيلة الذهبية (٦٥٤ - ٦٦٦ هـ = ١٢٥٦ - ١٢٦٧ م) الديانة الإسلامية وخاصة بعد أن تبعه السواد الأعظم من رعيته. بل يمكن القول إن كل رجال جيوشه كانوا من المسلمين. وكان من أثر ذلك أن توطدت العلاقة بين بركة خان والظاهر بيبرس في مصر بل تحالف الفريقان ضد عدوهما المشترك الذي يتمثل في أسرة هولاء كوي فارس (٢).

ولم يدخر هولاء كوي وسعا في أن يحمي نفسه من هذا الحلف الإسلامي. فعمل بدوره على البحث عن حلفاء جدد يناصرونه على هؤلاء المسلمين، وقد وجد هؤلاء الحلفاء دون مشقة في الحكام المسيحيين في غرب آسيا ووجد من ملك أرمينية ومن زعماء الصليبيين في بلاد الشام رغبة صادقة في هذا السبيل. وكان لزوجة هولاء كوي المسيحية أكبر الأثر في انصرافه عن الديانة الإسلامية، إذ حاولت بشتى الوسائل أن تستميله إلى دينها، ولا بد أن تكون هذه الزوجة قد ساعدت على توطيد أواصر الصداقة بين هولاء كوي وزعماء المسيحيين في غرب آسيا.

أما «أباقا خان» Abaqa بن هولاء كوي (٦٦٣ - ٦٨٠ هـ = ١٢٦٥ - ١٢٨١ م)، فقد تزوج من ابنة الإمبراطور ميخائيل باليولوجوس Michael Paleologus إمبراطور الدولة البيزنطية. ورغم عدم اعتناقه الديانة المسيحية، قراه يرسل سفراءه إلى ملوك أوروبا وأمرائها، كما كثرت رسائله إليهم سعيا وراء التحالف معهم على المسلمين في الشرق وطردهم

(١) Arnold: The Preaching of Islam, pp. 225 — 6.

(٢) Ibid, pp. 227 — 8.

من بيت المقدس^(١) . على أن هذه الجهود كان نصيبها الإخفاق ، إذ كانت الأحوال ملائمة للمسلمين . وقد شهد أباقاخان نفسه الممالك وهم يكيلون الضربات المتتالية للصليبيين في بلاد الشام ، الذين كانوا في النزاع الأخير .

وبقدر ما كان يصيب المسيحيين في بلاد المشرق من تدهور تدريجي ، نرى نفوذ المسلمين يقوى على مر الزمن حتى أن « تكودار أحمد ، Takudar أخا أباقاخان (٦٨٠ - ٦٨٣ = ١٢٨١ - ١٢٨٤ م) ، اعتنق الديانة الإسلامية عند ما بلغ سن الرشد^(٢) . كما سعى إلى جذب رعاياه إلى هذا الدين الجديد ، فأجزل العطايا والمنح لكل من يعتنق الإسلام كما أعقد عليهم ألقاب الشرف في دولته ، وقد لجأ تكودار إلى طريقة الترغيب في الدين دون الإكراه على الدخول فيه ، وخاصة عندما وجد كثيراً من المغول يتمسكون بأحداب دينهم^(٣) . على أن اضطهاد المسيحيين في عهد تكودار أحمد قد أدى إلى اندلاع نيران الثورة عليه في البلاد بزعامة ابن أخيه « أرغون ، Argiun الذي دبر قتله ثم اعتلى العرش من بعده (٦٨٣ - ٦٩٠ = ١٢٨٤ - ١٢٩١ م) ؛ وبعد مقتل تكودار انتقم خصومه منه أشد انتقام فقتلوا بجثته بأن شطروها شطرين^(٤) . وكان طبعاً أن يعود المسيحيون بعد مقتل تكودار إلى سابق عهدهم ، فاضطهدوا المسلمين وعذبوهم حتى أنهم أفصوهم عن مناصب الدولة .

وقد ظل المغول يدعمون بوثنياتهم ، كما استمر المسيحيون في اضطهادهم للمسلمين

(١) Sykes: A History of Persia, p. 62.

(٢) كان تكودار في بداية أمره يدين بالديانة المسيحية ، وقد تمهد في صباه وتسمى منذ ذلك الحين باسم بقولا ، ولكنه اتخذ لنفسه اسم أحمد بعد اعتناقه الدين الإسلامي .
ويظهر أنه كان للمسيحيين نفوذ عظيم في بداية عهد تكودار ، ومما يدل على ذلك أنه قد وجدت قطعة من النقود ترجع إلى عهده كتب على أحد وجهيها عبارة المسيحيين المشهورة وهي « اسم الاب والابن وروح القدس » ، وكتب على الوجه الآخر اسم الخاقان المغولي ولقبه باللغة المغولية . وعلى الرغم من أن التاريخ الذي صربت فيه هذه القطعة قد عفى بحكم الزمن ، فالراجح أن هذه القطعة ترجع إلى أوائل عهد تكودار أي قبل أن يعتنق الديانة الإسلامية . انظر

Lane-Poole: Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library at Cairo, p. 347.

(٣) Arnold: The Preaching of Islam, pp. 230. — 231.

(٤) Sykes: A History of Persia, p. 63.

حتى تولى غازان محمود Ghazan Mahmud سابع إيلخانات المغول في فارس الحكم (٦٩٤ - ٥٧٠٣ = ١٢٩٥ - ١٣٠٤ م) فاعتنق الدين الإسلامى . ولم يقف غازان موقفاً سلبيًا إزاء رعاياه كما فعل تكودار أحمد من قبل ، بل إنه فرض هذه الديانة فرضاً على جميع سكان بلاده وجعلها دين الدولة الرسمى (١) . ومنذ ذلك الوقت أخذ الإسلام ينتشر انتشاراً سريعاً في دولة إيلخانات المغول في فارس ، وضاع ما كان يؤمله المسيحيون من انتصار على الدين الإسلامى ، كما ضاعت آمجوداتهم السابقة في الدعوة لهذا الدين .

٣ - الأثر الاقتصادى

من الثابت أن حركة التجارة في القارة الآسيوية تأثرت إلى حد كبير بعد غزوات چنكيزخان ، ويمكن أن يقال إنها قشطت عما كانت عليه من قبل . كذلك يمكن القول إن غزو المغول غرب آسيا قرب القارة الأوروبية من القارة الآسيوية ، وسهل بذلك اتصال الشرق بالغرب . وإذا علمنا أن الحملات الحربية يتبعها عادة فترة هدوء تبرز فيها حضارة كل من الغالب والمغلوب ، وتؤثر إحداهما في الأخرى وتتأثر بها — إذا علمنا ذلك أدركنا مدى ما حمله المغول ، الذين تأثروا من قبل بحضارة الصينيين ، إلى البلاد الإسلامية من حضارة الشرق الأقصى . كما نستطيع أن تصور مدى ما حمله هؤلاء المغول من حضارة المسلمين إلى بلادهم وخاصة بعد أن صحبوا معهم ذلك العدد الكبير من مهرة الصناع والفنانين المسلمين ، الذين أسروهم في البلاد الإسلامية .

وليس معنى ذلك أن العرب والمسلمين لم يعرفوا بلاد الصين خاصة والشرق الأقصى عامة حتى زمن چنكيزخان ، بل نلاحظ أن العرب وصلوا إلى هذه البلاد النائية قبل ذلك التاريخ بزمن طويل . فقد حوت الكتب الصينية بين منطورها ما يدل على أن العرب قد عرفوا هذه الجهات بكثرة ظاهرة منذ ظهور الإسلام ، ويستدل بما جاء في كثير من المصادر الصينية أنه قد وجد في القرن الثانى من الهجرة (الثامن الميلادى) كثير من المصانع العربية في مدينة كانتون (٢) . ومن الثابت أن جماعات متفرقة

(١) Arnold : The Preaching of Islam, p. 232.

(٢) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. pp. 264 — 265.

من العناصر العربية قد وصلت إلى أقاصى شرق آسيا منذ عصر ما قبل الإسلام، وأن التجارة كانت هدفهم الأول . وأغلب الظن أن السبب في وجود العرب في هذه الجهات في هذه الأزمنة المتقدمة، يرجع إلى أن التجار بين الصين والهند من جهة وبين البلاد الواقعة على ساحل البحر الأبيض من جهة أخرى كانت في الجاهلية في أيدي العرب، ثم اتسعت هذه التجارة شيئاً فشيئاً وزاد اتساعها في القرن الأول من الهجرة (السابع الميلادى)، وأصبح ميناء «سيراف» على الخليج الفارسى مركزاً هاماً لتوزيع السلع الصينية في فارس وبلاد العرب .

وكما وجد الاتصال البحرى بين الشرق والغرب، كذلك نرى أن الاتصال البرى عبر القارة الآسيوية كان قائماً، وأن الإيرانيين قد احتكروه عدة قرون^(١). على أننا نلاحظ أن الجاليات العربية كانت تكثر في الموانئ الصينية على عكس ما كانت عليه الحال في المدن الداخلية، وهذا يدل على أن الاتصال البحرى بين الشرق والغرب كان أيسر للعرب من الاتصال البرى . وليس معنى هذا أن الطريق البحرى بين شرق آسيا وغربها كان معبداً سهلاً في أيدي كل من العرب والصينيين، بل نلاحظ أن هذا الطريق كان مرتعاً خصباً لقرصان البحار منذ منتصف القرن الخامس الميلادى، إذ كان هؤلاء يسيطون باستمرار على الموانئ البحرية^(٢). وقد منع هؤلاء القرصان التجار الصينيين من أن يصلوا بتجارهم إلى غرب آسيا، كما حالوا دون وصول العرب إلى الشرق الأقصى، ولهذا تأخر الاتصال البحرى بصورته الجدية إلى القرن الثانى من الهجرة (الثامن الميلادى) إذ تدل الوثائق الصينية على أن الصينيين أمكنهم أن يصلوا من كانتون إلى الخليج الفارسى، فانتعشت التجارة واتسع أفق الصينيين، وازدادت معلوماتهم عن البلاد الغربية، وأدى هذا بدوره إلى زيادة عدد المسلمين في كانتون وغيرها. وما يدل على اتساع نطاق التجارة الإسلامية في مدينة كانتون أن المسلمين اتخذوا لهم فيها قاضياً، وبنوا فيها المساجد، وأكثر من ذلك كان علماء المسلمين

(١) الدكتور ركن محمد حسن : الصين وفنون الإسلام، ص ٧ - ٩ .

(٢) Hirth & Rockhill: Chinese & Arab Trade in the Twelfth & Thirteenth Centuries, p. 7.

ومشايخهم يحاكون التجار على حسب مبادئ الشريعة الإسلامية^(١). وقد استمرت الحل على هذا النحو حتى أصبح العرب يتحكمون في التجارة البحرية بين الشرق والغرب في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). وساعد على تقدم التجارة والملاحة البحرية في ذلك الوقت اكتشاف البوصلة البحرية التي كان يسميها الصينيون «الإبرة التي تشير إلى الجنوب» South Pointing Needle، فأصبحت الملاحة تقوم على أساس على متين^(٢).

وإذا تركنا هذه الطرق البحرية المباشرة بين الشرق والغرب، نرى هناك طريقا بريا بحريا في نفس الوقت، إذ كانت السفن التجارية تصل بما تحمله من بضائع من البلاد الصينية، إما إلى مدينة البصرة حيث تحمل هذه البضائع إلى المدن الشامية ومن أهمها دمشق وطرايزون، أو تتخذ طريق البحر الأحمر وتفرغ ما تحمله من بضائع في الموانئ المصرية، وهناك تحمل هذه البضائع عبر الأراضي المصرية إلى موانئ البحر الأبيض، ومن هذه الموانئ جميعا تحمل التجارة إلى أوروبا.

وفضلا عن هذه الطرق كانت هناك ثلاث طرق برية تسير عبر القارة الآسيوية تحمل التجارة الآتية من شمال الصين وشمال الهند. وأول هذه الطرق يبدأ من بكين أو شنغهاي ويتجه غربا حتى يصل إلى بخاري وسمرقند من مدن بلاد ما وراء النهر، ثم يسير غربا إلى الموانئ الشامية أو إلى موانئ البحر الأسود حيث تحمل التجارة إلى أوروبا. والطريق الثاني يبدأ من دهل في شمال الهند ويسير في سهول خراسان حيث يلتقي بالطريق الأول. أما ثالث هذه الطرق فأقلها أهمية إذ كان يخترق السهل الساحلي في الجنوب وهو الطريق الصحراوي الذي اخترقه الإسكندر الأكبر في أثناء عودته إلى غرب آسيا بعد أن أخفق في تحقيق مشروعه الذي كان يهدف إلى الاستيلاء على بلاد الهند^(٣).

وكانت هذه الطرق البرية عبر القارة الآسيوية تكاد تكون عديمة الفائدة. وليس أدل على ذلك من أن التجار الأوربيين لم يستعملوها أو يسيروا فيها، بل إن التجار

Hirth & Rockhill: Chinese & Arab Trade, pp. 9 -- 17. (١)

ibid, pp. 9 -- 17. (٢)

Eileen Power: The Guilds & Medieval Commerce, pp. 290 -- 12 (٣)
(Universal History of the World, vol. 5.)

الذين كانوا يسكنون الموانئ التي كانت في أيدي الصليبيين لم يستطيعوا أن يصلوا إلى داخل القارة الآسيوية ، ولا يجد مثلاً واحداً يدل على أن أحدهم وصل إلى بغداد أو إلى الخليج الفارسي ، فكانت البلاد الشامية هي أقصى ما وصل إليه نشاط التجار الأوربيين^(١). ويرجع السبب في ذلك إلى أن السهول الآسيوية كانت لا تتميز بطابع سياسي واحد ، مما أدى إلى اختلال الأمن وانتشار الفوضى على طول هذه الطرق البرية ؛ هذا إلى عوامل أخرى أهمها عدم اهتمام حكام البلاد الصينية وحكام البلاد المتاخمة لها في الشمال بفتح طرق آسيا البرية ، أضف إلى ذلك أن الخلافة العباسية كانت من الضعف بحيث لم يهتم الخلفاء كما لم يهتم حكام الولايات الإسلامية في الشرق الإسلامي باستئناف العلاقات التجارية مع شرق آسيا الأقصى . ويقال إن سوء العلاقة بين المسلمين والمسيحيين أدى إلى كساد تجارة المسيحيين ، ونتج عن هذا عدم اهتمامهم بالطرق البرية .

كانت هذه العوامل مجتمعة السبب في ضعف الاتصال البري بين شرق آسيا وغربها ؛ على أن الدكتور حزين يرى أن العامل الأخير وهو سوء العلاقة بين المسلمين والمسيحيين لا يستند إلى أساس ، إذ حرص المسلمون على أن يرثوا تراث أهل جنوة والبندقية حتى تكون لهم السيطرة على تجارة البحر الأبيض ، ثم إن الإسلام حتى العصر الذي نتحدث عنه لم يكن قد انتشر تماماً في سهول آسيا الوسطى ، تلك البلاد التي أوصدت في وجه المسيحيين ، إذ لم ينتشر الإسلام في هذه الجهات حتى فتحها الغزو المغولي للمسلمين . وعلى هذا الأساس لم يحتكر المسلمون هذه الطرق البرية ولم يمنعوا التجارة فيها ، بل إنها كانت في أيدي قبائل القرغيز Qirghiz والأتراك والأوغر Uigurs وغيرها من القبائل المتعادية المتنافرة التي لم تستطع إحداها أن تخضع القبائل الأخرى لسلطانها كما لم تستطع هذه القبائل جميعاً أن تؤسس نظاماً يرمي إلى تشجيع التجارة عبر أراضيها^(٢) .

وهكذا يرجع ضعف الاتصال البري بين شرق آسيا وغربها إلى ذلك الاضطراب السياسي الذي ساد قلب القارة الآسيوية ، وليس إلى سوء العلاقة التي كانت قائمة بين المسلمين والمسيحيين . ومع هذا فإننا لا نستطيع أن ننكر أن الانقسام السياسي في الشرق

Heyd: Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, (١)
tom. ii. p. 71.

Huzayyin: Arabia & the Far East, pp. 169 — 171. (٢)



قنيتان من الخزف الأبيض
والأزرق من صناعة
إيران في القرن الحادي عشر
المجسري (السابع عشر
الميلادي) ، من مجموعة القسم
الإسلامي في متاحف الدولة
بيرلين وهما تشبهان الخزف
الصيني في المادة والشكل كما
تبدو روح التأثير بالفن الصيني
في روح الزخرفة ولا سيما
رسم الأسد الخيالي الذي
ينبعث اللهب من كتفيه كما
هو واضح في الشكل الأسفل .



(من كتاب الصين وقنون الإسلام للدكتور زكي محمد حسن)

الإسلامي نفسه والفوضى التي سادته بصورة واضحة في عصر السلاجقة ولا سيما بعد عصر ملكشاه حين ظهرت دول الأتابكة التي تكلمنا عنها ، لانستطيع أن ننكر أن ذلك كله قد أدى إلى اضطراب حالة الأمن في الشرق الإسلامي بوجه عام وبالتالي إلى ضعف الاتصال التجاري بين شرق آسيا وغربها ، على الرغم من تلك الجهود الظاهرة التي بذلها السلطان ملكشاه لتأمين هذه الطرق وحفظ الأمن فيها (١).

وقد ظهر المغول على المسرح السياسي كما ذكرنا ظهورا بينا في مستهل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، بعد أن توحدت القبائل المغولية تحت قيادة زعيم واحد ، ثم استولوا على شمال الصين وأخضعوا الجزء الباقي من البلاد الصينية في الفترة التي تقع بين سنتي ٦٥٩ و ٦٨٧ هـ (١٢٦٠ و ١٢٧٩ م) ، وأصبحوا يسيطرون على شرق آسيا. وأهم من ذلك اتجهوا نحو الغرب واكتسحوا أواسط آسيا وسهول روسيا الجنوبية وبولندا ثم وصلوا إلى هنغاريا . وقد صاحب هذا الهجوم الحربي العنيف من ناحية المغول ، اضطراب وفوضى اجتماعية مؤقتة في الأقاليم الآسيوية بلا استثناء ، وتأثرت النواحي الاقتصادية في هذه القارة كما تخربت مبانيها وعمارتها وتفشيت الأمراض وبالأوبئة نتيجة لقتل تلك الأعداد البشرية الغفيرة التي تركها المغول وراءهم بعد الغزو ، حتى إذا ما حلت أواخر القرن السابع من الهجرة (الثالث عشر الميلادي) نرى العاصفة تهدأ ، والحياة تعود تدريجيا إلى سابق عهدها ، والمغول يحكمون الأقاليم الممتدة من شرق آسيا إلى أواسط أوروبا ، ومن جنوب روسيا حتى الخليج الفارسي (٢). وكان طبيعيا أن تضمحل الطرق التجارية البرية في زمن الغزو وفي الفترة التي تلت الغزو مباشرة ، وكان من أثر ذلك أن عظمت أهمية الطريق البحري بين غرب آسيا وشرقها بعد أن انعدمت المواصلات البرية (٣).

تكونت الإمبراطورية المغولية على النحو الذي رأيناه ، ورغم أنها انقسمت فيما بعد إلى أقسام أربعة ، أولها في الصين ، وثانيها في وسط آسيا ، وثالثها في بلاد

(١) Hirth: China & The Roman Orient, pp. 298 — 300.

(٢) Eileen Power: The Guilds & Medieval Commerce, p. 2914. (Universal History of the World, vol. 5.)

(٣) Cahun: Introduction a l'Histoire de l'Asie, Turcs et Mongols, p. 406.

القفقاق ، ورايعها في فارس ، رغم ذلك لم يُتِم هذا التقسيم أية صعوبة في سبيل التجارة بل على العكس من ذلك جعلها سهلة في مأمن من أى خطر ، إذ أن تكوين هذه الوحدات السياسية الكبيرة قد جعل كلا منها يستطيع أن يحافظ على هذه الطرق التجارية في أراضيها^(١) . ولا يفوتنا أن نذكر أن صلة الدم بين حكام هذه الأقسام قد شجعتهم على التعاون فيما بينهم لإيجاد نظام اقتصادي متين يقوم على تسهيل طرق التجارة بين هذه الأقسام .

وكان المغول منذ حستل نهضتهم ، قد عملوا على احترام نظمهم الاقتصادية وتوطيد علاقاتهم التجارية مع جيرانهم بغية الاستفادة منها . وقد حرص چنكيزخان نفسه على حماية القوافل التجارية التي تسير عبر بلاده ، كما حرص على استمرار العلاقات بينه وبين جيرانه ، وليس أدل على ذلك من تلك العلاقات التي قامت بينه وبين علام الدين خوارزم شاه والتي لم يحترقها الخوارجيون مما أدى إلى غضب چنكيزخان ، فأنقض على الدولة الجوارزمية . وقد اهتم چنكيزخان نفسه بالطرق التجارية ، فأقام الحراس على طولها لحماية التجار الأجانب ، وقد أمر چنكيزخان بوجه خاص وحكام المغول بوجه عام أن يعامل التجار الأجانب أحسن معاملة في الأماكن التي يمرون بها^(٢) . وكان المغول - كما ذكرنا - يرمون إلى تحسين علاقاتهم مع المسيحيين لاجتذابهم إلى صفوفهم في حربهم مع المسلمين . بوجه عام والماليك في مصر بوجه خاص ؛ لذلك لا نعجب إذا رأيناهم يسهلون للتجار المسيحيين مهمتهم التجارية في الأراضي المغولية ، مما أدى إلى انتشار هؤلاء التجار في بلاد العراق وفارس وتركستان^(٣) .

والمهم أن الغزو المغولي قد أدى إلى إيجاد طريقين أساسيين للتجارة : الطريق الأول يسير من البحر الأسود ويخترق شمال تركستان إلى أواسط آسيا ثم إلى الصين ، إما عن طريق السهول الشمالية المعروفة باسم سهول زنجاريا Dzungarian Plains ، وإما عن طريق حوض نهر التاريم جنوبي جبال تيان شان T'ian Shan ، وإما عن الطريق الذي يمر بمدينة خوتان في الجنوب . أما الطريق الثاني فهو طريق برى بحرى في نفس

(١) Huzayyin : Arabia & The Far East, p. 172.

(٢) Hélyd: Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, tom. ii. p. 72.

(٣) Ibid, tom. iii. p. 71.

الوقت يسير إما من طرابزون أو خليج الإسكندرونة إلى تبريز ثم إلى هُرمز على الخليج الفارسي ، ثم عن طريق المحيط الهندي إلى بلاد الهند والشرق الأقصى (١) .

وهكذا نرى أن الغزو المغولي قد أدى ، بعد أن هدأت العاصفة الحربية ، إلى اتساع نشاط التجارة بين القارتين الأوربية والآسيوية ، وأصبح أهالي جنوة والبندقية حلقة اتصال بين المغول المتعطشين للتجارة مع أوروبا وبين الأوربيين الذين تنفسوا الصعداء بعد أن زالت العوامل السياسية التي عطلت سير التجارة ، قبل أن يسيطر المغول على القارة الآسيوية (٢) .

وكان من أثر غزوات چنكيزخان وخلفائه أن بدأ أهالي غرب آسيا يكثر من ترددهم على شرقها ، ونجحوا في تكوين جاليات وعصبيات لهم فيها ، وشجعهم ذلك على استيطان هذه الجهات . وقد زادت الهجرة من فارس إلى بلاد الصين منذ حكم هولاكو وأسرته في غرب آسيا (٣) .

وكذلك كان للغزو المغولي أثره في نشأة كثير من المستعمرات والمراكز التجارية في غرب آسيا ، فنرى مثلاً أنه لما قام ذلك الصراع بين إيلخانات المغول في فارس وبين المماليك في مصر واتخذ ذلك الصراع من سوريا مسرحاً له ، تحولت التجارة الأوربية إلى جنوب روسيا ، وشجع مغول القفجاق الإبطاليين على تكوين مستعمرات لهم في كافا Kaffa وفي تانا Tana وفي غيرهما من المدن الواقعة في لُطاق البحر الأسود ، فأنشئت الحركة التجارية في هذه الأقاليم بسبب تشجيع مغول القفجاق التجارة الأجنبية وتأميمهم طرق التجارة في البلاد الواقعة تحت حكمهم .

ونرى أن طريق تبريز وهرمز وهو الطريق البري البحري الذي تكلمنا عنه ، قد عطلت أهميته وعياصته بعد أن امتهنوا هولاكو على بغداد واتخذ من مدينة تبريز حاضرة له ، فبذلت هذه المدينة مدينة بغداد في التجارة وجذبت إليها التجار المسيحيين

(١) Huzayyin : Arabia & The Far East, p. 172.

واظر خريطة «الطرق التجارية عقب غزوات المغول» .

Ibid, p. 173. (٢)

Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, (٣)

vol: i. pp. 269 — 270.

الذين أتوا إليها عن طريق حلب وشمال بلاد ما بين النهرين ، أو عن طريق البحر الأسود وطرايزون ، وكذا عن طريق أرمينية التي كانت في أيدي المسيحيين . كما كانت مدينة تبريز تتصل بشفر هرمز عن طريق نهر دجلة والخليج الفارسي ، وأصبحت هذه المدينة بذلك من أعظم المدن التجارية في غرب المحيط الهندي . وقد عظمت أهمية هذا الطرق في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى أن تجار البحر الأبيض الذين كانوا يضطرون إلى دفع المنكوس الباهظة في أثناء عبورهم أراضي سوريا ومصر ، قد تحولوا إلى هذا الطريق الجديد للوصول إلى بلاد الهند . ورغم المحاولات التي بذلها الممالك في مصر لاجتذاب تجارة الشرق إلى مصر فإن ذلك لم يؤثر مطلقاً في طريق هرمز .

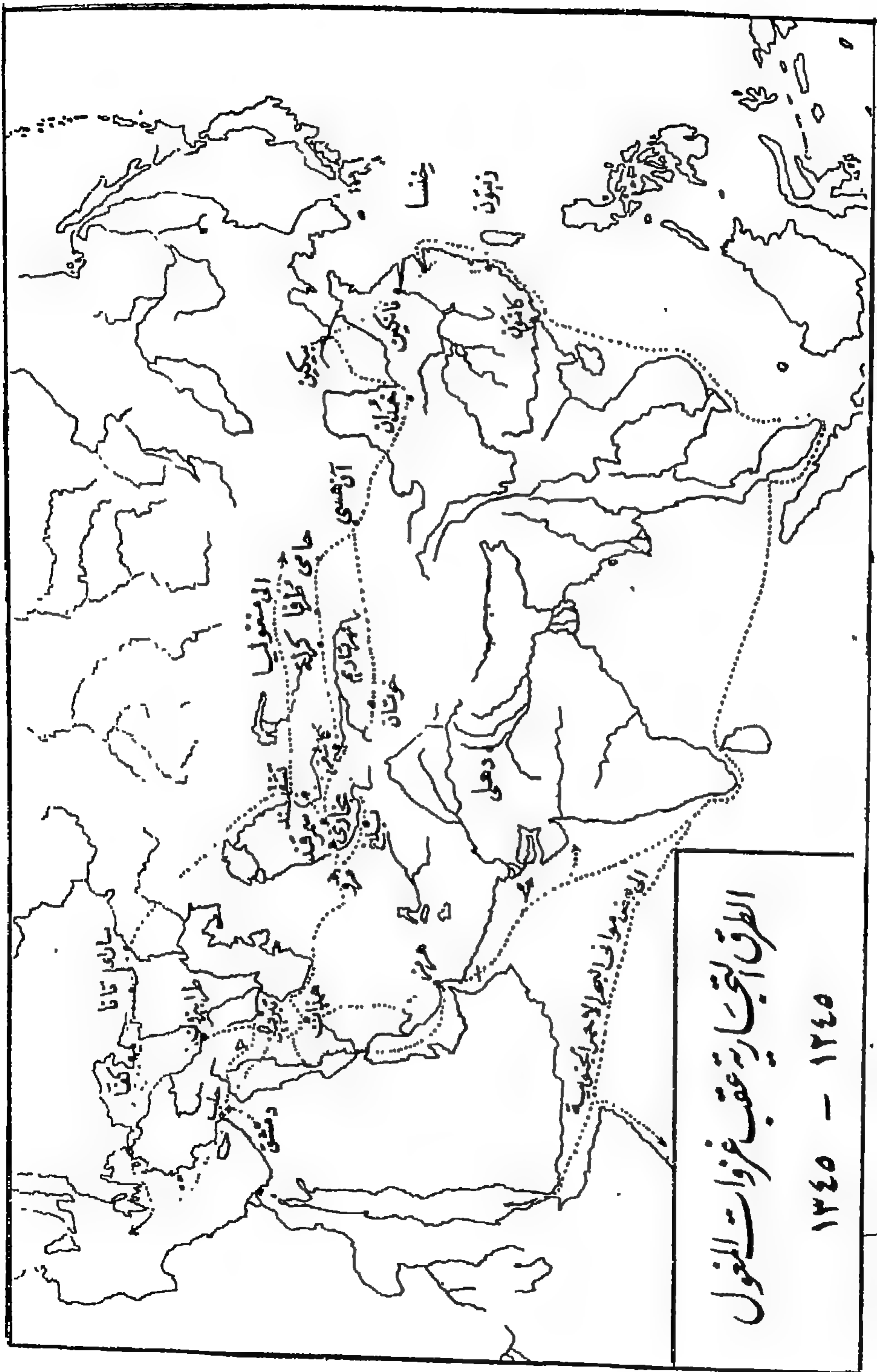
ونلاحظ أن مغول الصين كانوا يسعون دائماً إلى توثيق عرى الروابط الاقتصادية بينهم وبين إيلخانات المغول في فارس ، وساعد البحر على إيجاد هذه الرابطة ، وكان من أثر ذلك أن عظمت الأهمية التجارية لثلاث من الموانئ التجارية في غرب آسيا ، وهي كانتون Canton وزيتون Zaytoun و خينسا Khinsa . وقد استوطن هذه الموانئ كثير من الجاليات الإسلامية التي سكنت هناك بقصد الاشتغال بالتجارة^(١) .

شجعت سهولة الاتصال بين الشرق والغرب كثيراً من الرحالة الأوروبيين على المخاطرة بأنفسهم بغية الوصول إلى هذه الأقاليم التي يجهلون فيها أقصى شرق آسيا . ومن أقرب الأمثلة على هؤلاء «ماركوبولو» الذي اتجه نحو الشرق الأقصى سنة ١٢٧٠م (١٢٧١م) ، عتقاً سهول خراسان ومضبة البامير وصحراء جوبي إلى أن وصل إلى بلاط كوبلاي خان سنة ١٢٧٤م (١٢٧٥م)^(٢) . وقد مكث ماركوبولو في الشرق الأقصى حتى سنة ١٢٩٢م (١٢٩٧م) . وكان في هذه الفترة موضع ثقة المغول ورعايتهم فعملوه برعايتهم واتخذوه كوبلاي خان مستشاراً له ، وكان لثقته فيه يرسله في كثير من من سفاراته الهامة . كذلك نرى المغول يوكلون إليه حكم بعض أقاليم دولتهم ، كما كانوا يضعونه على رأس جيوشهم الغازية في بعض المناسبات^(٣) .

(١) Huzayyin : Arabia & The Far East, pp. 174 — 179.

(٢) Eileen Power : Medieval People, p. 52.

(٣) Atiya, A. S. : The Crusade in the Later Middle Ages, p. 248.



خريطة هـ

والمهم أن ماركو بولو وصف كل البلاد المجهولة التي مر بها وصفا تاما ، وأفاض في الحديث عن ثروتها بنوع خاص^(١) ، كما وصف حالة المغول في عهد كوبلاي وصفا دقيقا . وكان لسكتاباته في وصف ثروات الشرق الأقصى أكبر الأثر في تشجيع الرحالة والرواد والمستكشفين من الأوروبيين على اجتياز مجاهل آسيا ، رغبة منهم في الحصول على بعض ماصوره لهم ماركو بولو من ثروة في البلاد الشرقية ، فبحث المستكشفون الجغرافيون بعد ذلك عن أسهل الطرق وأقصرها للوصول إلى الشرق الأقصى وبلاد الهند ، وكان لهذه الفكرة أثرها في اكتشاف القارة الأمريكية عن غير قصد كما هو معروف . وهكذا نرى أن ماركو بولو كما تقول إيلين مور Eileen Power قد اكتشف بلاد الصين في القرن الثالث عشر وهو على قيد الحياة واكتشف أمريكا في القرن الخامس عشر بعد وفاته^(٢) .

«He discovered China in the Thirteenth century when he was alive, and in the fifteenth, when he was dead, he discovered America.»

كذلك نرى أن البعثات الدينية المسيحية التي كانت ترمى إلى نشر الديانة المسيحية بين المغول قد كثرت في ذلك الوقت كما ذكرنا .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن التبادل التجاري بين شرق آسيا وغربها ، وبين القارتين الأوروبية والآسيوية قد أدى إلى انتشار منتجات آسيا الشرقية بين غرب آسيا وبين أوروبا ، فعرف المسلمون والمسيحيون منتجات بلاد الصين ومن أهمها الحرير الخام والمنسوجات الحريرية المنقوشة التي لم يعرفها المسلمون والمسيحيون من قبل إلا في القليل النادر^(٣) . وما يقال عن انتشار التجارة الصينية في الغرب يمكن أن يقال عن التجارة الإسلامية التي انتشرت في شرق آسيا . ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام أن المسلمين عندما انتقلوا إلى الشرق نقلوا معهم كثيرا من المعلومات عن الحضارة الإسلامية إلى هناك ، وبالمثل فعل المسيحيون الذين ساروا من أوروبا إلى تلك البلاد النائية . وهكذا

(١) Joseph Jacobs : The Story of Geographical Discovery, pp. 71 - 78.

(٢) Eileen Power : Medieval People, p. 67.

(٣) Hirth : China & the Roman Orient, p. 158.

نرى أن الاتصال السياسى والتجارى بين الشرق والغرب قد أدى إلى اتصال الحضارات الصينية والإسلامية والأوربية ، ثم إلى تداخل هذه الحضارات .

٤ - الأثر الثقافى

يعقب الغزوات الكبرى فى التاريخ فترة من الزمن تنتقل فيها حضارة الغالب إلى حضارة المغلوب ، ثم يحدث أن تتقابل الحضارتان وتؤثر إحداهما فى الأخرى وتتأثر بها ، فتظهر حضارة جديدة تكون عبارة عن مزيج من الحضارتين معاً . وإن الحروب مع ما تلحقه بالإنسانية من أضرار ، تقترن بفوائد ثقافية تعوض على البلاد المهزومة بعض ما أصابها من خراب ودمار أثناء الحروب . وإذا نظرنا إلى الغزوات الكبرى فى التاريخ نرى فيها خير شاهد على صدق ما نقول ، فقد انتشرت الحضارة الهلينية فى بلاد المشرق عقب غزو الإسكندر لها ، وامتزجت بحضاراتها القديمة ، وكذلك كانت الحال فى البلاد التى دخلت تحت حكم الإمبراطورية الرومانية . وكانت الحروب الصليبية ، رغم الخسارة المادية التى لحقت بالمسلمين والصليبيين على السواء ، سبباً فى وقوف الغربيين على حضارة الشرقيين ، كما أدت إلى معرفة الشرقيين الشئ الكثير مما كانوا يجهلون عن حضارة الغربيين .

ولا يختلف الحال بالنسبة للمغول الذين أتوا إلى غرب آسيا بعد أن حطموا تلك القوى السياسية المختلفة التى حالت قبل الغزو دون اتصال طرفى القارة ببعضها البعض . وكان المغول - كما رأينا - قبل أن يتجهوا بجيوشهم نحو الغرب ، قد غزوا بلاد الصين واقتبسوا من حضارتها ما غير من طبيعتهم البدائية ثم حملوا ذلك كله إلى غرب آسيا بل إلى أوروبا بعد أن حطموا تلك الحواجز التى حالت دون اتصال القارتين من قبل . حقيقة كانت فترة الغزو المغولى على يد جنكيز خان وخلفائه بلاد غربى آسيا فترة عانى فيها المسلمون آلام القتل والتعذيب والتخريب ، ولكن بعد أن هدأت العاصفة وانتهى الدور الحربى من تاريخ المغول ، جاءت فترة بدأ المسلمون فيها يصلحون ما أفسده المغول ، كما بدأ المغول يكفرون عن سيئاتهم فحاولوا إصلاح ما أفسدته أيديهم ، ثم استغل المسلمون هذه الروح الطيبة من جانب المغول لإصلاح ما تخرب من ديارهم فى أثناء هذه الغزوات .

وكما حمل المغول كنوز الصينيين إلى غرب آسيا ، كذلك نرى أن حضارة المسلمين وثقافتهم لا بد أن تكون قد انعكست على المغول أنفسهم ، فقد كانت إمبراطورية چنكيزخان الأولى تقتصر على بعض أقاليم شرق آسيا ، وسط تلك الصحراوات الشاسعة ، وكانت معلوماتهم عن البلاد الإسلامية محدودة ، فلم يعرفوا عنها إلا ما وصل إليهم عن طريق بعض التجار من المسلمين الذين لا بد أن يكونوا قد ذكروا الكثير عن خيراتها ، فعرف چنكيزخان منهم كما ذكر هورث (١) أنه فيما وراء الحدود الغربية لدولته ، توجد الوديان الخصبة التي لا يكسوها الجليد مطلقاً كما عرف أن المسلمين يعيشون في مدن أقدم من حاضرتهم « قره قورم » ورأى بعين رأسه ما جلبه التجار المسلمون إلى بلادهم من أسلحة معدنية وملابس وجلود وعاج ومطاط . فلا عجب أن يتطلع المغول إلى غزو مدن المسلمين العامرة ، فلما غزوها حملوا معهم إلى بلادهم ما وجدوه من الكنوز التي لا بد أن تكون قد أثارت إعجاب زوجاتهم وبناتهم . كما أن القنص التي حملها هؤلاء الغزاة إلى بلادهم لا بد أن تكون قد وقعت في نفوس أهلهم موقع قصص ألف ليلة وليلة في نفوسنا . ولم يكن الأسرى وأصحاب المهن الذين صحبهم المغول إلى بلادهم بأقل أهمية من تلك الصور والرسوم التي عاد بها المغول والتي تمثل علوم المسلمين ومعارفهم .

وإذا علمنا أن العصر الذي حكم فيه المغول البلاد الصينية ، كان عصر منافسة في الفنون والصناعة ، كما كان عصر ازدهار في الأدب ، فلا ننسى أن عدداً كبيراً ممن كان لهم فضل ازدهار هذه العلوم والفنون كانوا من الفرس والآثراك . ولا يجب أن ننسى أن اندماج حضارتين مختلفتين تمام الاختلاف كحضارتى الفرس والصينيين ، لا بد أن يؤدي إلى ظهور آراء جديدة واكتشافات حديثة لم تكن موجودة من قبل ، ولا بد أن يؤدي اندماج هاتين الحضارتين القديمتين إلى انتعاش عظيم في الحضارة (٢) .

وعلى هذا الأساس كان النصف الثاني من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) عصر ازدهار في الحضارة ، تلاقى فيه ثقافات الشرق والغرب ، وعرف

Howorth : History of the Mongols, part i. p. 99. (١)

Ibid, part i. p. 99. (٢)

فيه المغول ما كان خافيا عليهم من حضارة الغربيين وعاداتهم وعقائدهم ، وبدأ الغربيون بدورهم يؤثرون أو يحاولون أن يؤثروا في المغول وفي عاداتهم وعقائدهم^(١). ولم يكن الاتصال بين الشرق والغرب إلا نتيجة لتحطيم حدود عشرات الدول التي كانت تحول بين هذا الاتصال ، بحيث أنه لمبا زالت هذه الحواجز تمكن الرحالة الأوروبيون من أن يذهبوا إلى الشرق ، ويصفوا ما يرونه من كنوز آسيا ، بعد عودتهم إلى بلادهم^(٢).

وكان للغزو المغولي أثر غير مباشر في قيام النهضة الأوروبية ، وانتزاع العقل البشري من فوضى الجهالة التي أحاطت به طيلة العصور الوسطى ، إذ أن المغول دفعوا أمامهم إلى آسيا الصغرى عشيرة الأتراك التي انحدر منها الأتراك العثمانيون فيما بعد ، فأخذت هذه القبيلة تنمو تدريجيا ويزداد نفوذها السياسي في آسيا الصغرى ثم في بلاد اليونان ، وكان لها فضل فتح القسطنطينية حاضرة الدولة البيزنطية ، فظهر ما كان مدفونا فيها من نفائس علمية كان لها أثرها في تطور العقلية الأوروبية الجامدة ، التي سيطرت على أوروبا طيلة العصور الوسطى^(٣).

ولم يكن إلا الأوروبيون والمسلمون وخدم الذين أفادوا من حركة اتصال الغرب بالشرق ، بل نرى أن الصيغين لم يقلوا عنهم في الاستفادة من ذلك الاتصال ، ففضلا عما سبق ذكره من رحيل المسلمين بحضارتهم وأفكارهم إلى هناك على أثر عودة چنكيزخان ، نرى معلومات الصيغين الجغرافية قد تأثرت من جراء كثرة رحلاتهم البرية والبحرية التي شهدوا فيها أقاليم وسط آسيا وغربها ، وزاروا جزر الهند الشرقية وسواحل آسيا الغربية وسيلان وغيرها^(٤).

إذا تركنا الحديث عن الأثر العام الذي أحدثته الغزوات المغولية ، وانتقلنا إلى الحيز الذي كانت الدولة العباسية تسيطر عليه ، وجدنا أن هذا الحيز قد تأثر تأثرا كبيرا

Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, (١)

tom. ii. p. 70.

Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 442. (٢)

Ibid, vol. ii. p. 442. (٣)

Hirth & Rockhill : Chinese & Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries, pp. 25 — 28. (٤)

بعد الغزو المغولي ، وقد رأينا ما أحدثته غزوات چنكيزخان وقواده وأبنائه واحفاده من تخريب في البلاد الإسلامية بوجه عام ، إذ قضى المغول على الآثار الإسلامية التي تفنن الفنانون المسلمون في إقامتها ، كما أفتى المغول زهرة شباب المسلمين وخيرة عقول شيوخهم ، وذهب بذهب هؤلاء وهؤلاء خيرة علمائهم وفقهائهم . أما العلماء الذين نجوا من القتل فقد فروا إلى بلاد الهند وآسيا الصغرى وغيرها ، فخرموا بلاد فارس والعراق من إنتاجهم العلمي ، ولكن عما يذكر لهم بالخير أنهم نشروا اللغة الفارسية في البلاد التي نزحوا إليها . وقد اضمحل العالم الإسلامي الشرقي اضمحلالا لم يره المسلمون من قبل ، وازدادت حالته سوءا بعد سقوط حاضرة الخلافة العباسية في سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، فانتقل النشاط السياسي والثقافي إلى مصر التي أصبحت قبله أنظار المسلمين^(١) ، وخاصة بعد أن أحيا فيها الظاهر بيبرس الخلافة من جديد . وكان الظاهر يرى من وراء إحياء الخلافة العباسية في مصر أن يمد ملكه ويوسع سلطانه بمساعدة الخليفة له باعتباره حامى الدين^(٢) .

على أن اختلاط المغول بالمسلمين في الشرق قد أدى بطبيعة الحال إلى خلق جيل جديد من العرب والمغول وتبع عن هذا الخليط تجديد في الحياة العقلية ، فظهرت طائفة من العلماء الذين يختلفون في تفكيرهم عن تلك الطائفة التي عرفها العالم الإسلامي قبل تلك الغزوات^(٣) . وقد تبع عن هذا تغيير في الحياة الثقافية الإسلامية بوجه عام ، وخاصة بعد أن طبع المغول المسلمين في هذه البلاد بظاهريهم الخاص وثقافتهم الخاصة التي حملوها معهم من موطنهم الأصلي والتي اقتبسوها عن الصينيين بعد غزوهم بلادهم . ففرى على سبيل المثال أن الغزو المغولي قد أضعف المكانة الأدبية التي امتازت بها بلاد ما وراء النهر ، فبعد أن كان الأهالي في نيسابور ومرو يتنافسون في ميادين الأدب ويتبارون في الشعر والنحو والطب ، نرى أن الغزو المغولي قد وضع حدا للحياة العقلية في هذه البلاد بوجه خاص وفي أواسط آسيا بوجه عام ، وإلى الآن لم تستعد بخارى وسمرقند ما كان لهما من آثار ثقافية قبل الغزو المغولي . ويرجع السبب في ذلك إلى أن

Nicholson : A Literary History of the Arabs, p. 442. (١)

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ٢٣٠

Browne : A Literary History of Persia, vol. i. p. 442. (٣)

المغول قتلوا أهل البلاد الأصليين الذين كانوا نواة الحضارة الإسلامية ثم تركوا البلاد في يد شرذمة من الأتراك لا يعرفون طعماً لحضارة (١). كذلك نرى أن اللغة العربية قد فقدت تلك المكانة التي تمتعت بها قبل الغزو في ميادين الثقافة العلمية والأدبية وخاصة بعد سقوط بغداد (٢). وما يقال عن اللغة العربية يقال أيضاً عن اللغة الفارسية .

على أن الغزو المغولي لم يكن كله غرماً على المسلمين ، فإنه فضلاً عما سبق ذكره من اتصال الشرق والغرب وما ترتب عليه من آثار أدبية ومادية ، نرى أن المسلمين بوجه خاص قد تأثروا بهؤلاء الغزاة وأفادوا مما جاءهم به المغول من بلاد المشرق الأقصى ؛ نعم لقد أفادوا من نظم الحكم الصينية التي اقتبسها المغول وطبقوها في البلاد الإسلامية (٣). كذلك نرى أن بلاد الشرق الإسلامي قد غصت بالموظفين والتراجم وغيرهم من رجال الشرق الأقصى الذين صحبوا المغول إلى ملكهم الجديد (٤) ، ولا بد أن يكونوا قد أثروا ، بطريق مباشر أو غير مباشر في الحياة العقلية في البلاد التي نزحوا إليها وأقاموا بها .

وإذا كان الغزو المغولي قد نتج عنه ذلك الركود العلمي والأدبي ، فقد كان ذلك ركوداً مؤقتاً ، إذ أن النشاط في هذين الميدانين لم يلبث أن عاد بعد أن بدأ المغول يستقرون في البلاد التي فتحوها ، ويرجع ذلك إلى أن بعض المؤلفات العلمية قد نجت اتفاقاً من أيدي المغول وخاصة ما كان منها في المدن الجنوبية من الدولة الخوارزمية . ثم إن المغول بعد أن استقروا في البلاد الإسلامية ، أخذوا يتقبلون آراء المسلمين وأفكارهم ورغبوا تدريجياً في اعتناق المدنية الإسلامية والفارسية ، فبرز الكثيرون من العلماء والأدباء بفضل تشجيع المغول لهم . ومن أشهر هؤلاء في عهد هولاكو نصير الدين الطوسي الذي امتاز بأبحاثه في علم الفلك ، فشجعه المغول وأسسوا له مرصداً كبيراً في مدينة « مراغة » سمي باسم المرصد الإيلخاني (٥) . وقد امتاز نصير الدين الطوسي فوق ما تقدم بمؤلفاته في الحساب والجبر والهندسة والفلك والطبيعة والحكمة والأخلاق

(١) Vambery : History of Bokhara, p. 138.

(٢) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 467.

(٣) Lamb : Genghis - Khan ; The Emperor of All Men, p. 206.

(٤) الدكتور ركن محمد حسن : الصين وفنون الإسلام ، ص ١٦ .

(٥) الدكتور رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي ، ص ١٩٧ — ١٩٨ .

لوحة ١٨



رسم في مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين . وهو يعد من أبلغ
الأمثلة على تأثر المسلمين بالفن الصيني ، إذ تبدو السحنة الصينية ظاهرة
واضحة ، كما يظهر أثر الشرق الأقصى في الملابس والقلنسوات الشبيهة بالصحن
والتي لا حافة لها .

(من كتاب الصين وفنون الإسلام للدكتور زكي محمد حسن)

وآلات الرصد كما اشتهر بترجمة كثير من كتب اليونان في مختلف العلوم (١).

وما يدل على اهتمام المغول برعاية العلماء والأدباء بعد استقرارهم في البلاد الإسلامية ما حبوا به أسرة الجويني وما أسبقوه على أفرادها من عطف ، فكان لهذه الأسرة نصيب السبق في نشر العلوم والمعارف ، إذ برز منهم كثيرون أهمهم علاء الدين عطا ملك الجويني مؤلف كتاب « جهان كشاي » وهو في ثلاثة مجلدات بحث فيها تاريخ المغول منذ نشأتهم حتى سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) أي إلى نهاية عهد مايجو خان . ومن المؤلفين الذين ظهروا في عصر مغول فارس أيضاً ، رشيد الدين فضل الله الهمداني ، وكان من المقربين إلى كل من أبا قحطان وغازان وأولجايتو ، وقد ألف هذا الرجل كتاب « جامع التواريخ » ويقع في مجلدين كبيرين تكلم فيهما عن تاريخ المغول منذ عصر چنگيز خان حتى أولجايتو Euldjaitu . وكانت كتابات كل من الجويني ورشيد الدين في طبعة المراجع التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب .

ومن الأمور الهامة التي نتجت عن غزو المغول للبلاد الإسلامية ، انتشار اللغة الفارسية خارج بلاد فارس ويرجع ذلك إلى تشتت المغول للعلماء والأدباء والشعراء مما أدى إلى هجرتهم إلى بلاد الهند وآسيا الصغرى فنشروا بهذه الوسيلة اللغة الفارسية في هذه البلاد . لما من ناحية الأدب الفارسي نفسه في عصر المغول ، فرى النثر تغلب عليه الصنعة والتكلف ، وشغل عدد من الكتاب بالالفاظ ، وأدوا ما يرغبون في استعارات ومجاز وكناية وإطناب ، وترسموا العبارات الغريبة واستعمال الحشو والتشبيهات المستحيلة والمبالغات التي لا محل لها ، حتى الأسلوب التاريخي نفسه لم ينج من ذلك ، فقد كانوا يؤدون الأفكار اليسيرة في صحائف طويلة بعبارات ثقيلة (٢) أما الشعر فقد ظهرت فيه معاني التصوف وكثر الشعراء الصوفيون ، ويرجع ذلك في الغالب إلى تعسف المغول وجورهم بحيث ساورت الآلام نفوس من انطوت نفوسهم على الحسرة والالام فاتجهوا إلى العالم الروحي وتركوا عالم المحسوسات إلى عالم المعنويات . وكان من نتائج الغزو

(١) انظر مقال الأستاذ قدری حافظ طوقان عن «الأثر العلمي للحضارة الإسلامية وأعظم علمائها» في

عدد أكتوبر سنة ١٩٣٨ من مجلة للفتن ، ص ١٢٢-١٢٣ .

(٢) الدكتور رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي ، ص ٢٣٤ .

المغولي أيضا دخول كثير من الألفاظ المغولية في اللغة الفارسية ، وقد بقي بعضها في هذه اللغة إلى الآن (١) .

وكان تأثير المغول في الفنون الإسلامية عظيما ، فتأثر الفن الإسلامي بالفن الصيني ، وظهر ذلك واضحا جليا في غالبية الفنون الإسلامية . على أن العلاقة الفنية بين الصين وبلاد الشرق الأدنى لم تنشأ بعد الغزو المغولي ، ولكن كانت هذه العلاقة قائمة من قبل ، ويمكن القول إنها ترجع إلى ما قبل فتح العرب هذه البلاد ، فقد وجد كثير من الخزف الصيني في المدن الإسلامية المختلفة بل وصل إلى مصر وعثر عليه بين كتوز الفاطميين . ولكن يمكن القول بأن هذه العلاقة الفنية ازدادت زيادة محسوسة بعد الغزو المغولي (٢) .

ولم يكن المغول في بداية أمرهم بالقوم الذين يستطيعون احترام المدنية بوجه عام والفنون بوجه خاص ، ولذلك حدث ما رأيناه من تخريب في العمائر الإسلامية وتحطيم للتحف الأثرية التي لا تقدر بثمن ، فلما استقروا في البلاد الإسلامية ، استطاعوا أن يتفهموا تدريجيا كنه الحضارات والمدنيات التي وجدوها هناك ، فكان ذلك مدعاة لأن يولوا الفنون والآداب عنايتهم ورعايتهم . وقد ظهر أثر ذلك واضحا جليا بعد أن استقروا في البلاد الإسلامية ، وأسسوا تلك الأسرة التي هرقت بانهم إيلخانات المغول في فارس ، التي تطبع أفرادها بالطابع الإسلامي . وكان أفراد هذه الأسرة يرتبطون في الوقت نفسه بإخوانهم المغول في شرق آسيا برابطة الدم ، وأدى ذلك إلى سهولة تبادل الثقافات بين شرق آسيا وغربها ، كما ساعد على ظهور الطابع الصيني واضحا في الفنون الإسلامية (٣) .

وقد جاء في كتاب جامع التواريخ للوزير رشيد الدين أن كثيرا من المصورين الصينيين قدموا إلى إيران في عهد هولاكو وغازان Ghazan وألجايو Euldjaitu ، كما انتشرت في دولتهم السكتب الموضحة بالصور الصينية . والحق أن هولاكو وخلفاءه كانوا يشملون رجال الفن برعايتهم ، بل كانوا حين يخربون المدن في حروبهم يعنون

(١) الدكتور رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي ، ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٢) الدكتور زكي محمد حسن : الصين وفنون الإسلام ، ص ١٩ — ٢٦ .

(٣) انظر اللوحات : ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

ياقناذ الفنانين وأرباب الصناعات . وكان المغول يرسلون إلى الصين وآسيا الوسطى كثيرا من الفنانين والصناع الذين أبقوا على حياتهم حين كانوا يدمرون المدن في إيران والشرق الأدنى ، ويمعنون في سكانها قتلا . وكان بعض أولئك الصناع يفلح في العودة إلى وطنه بعد العمل مع الصينيين والتأثر بأساليبهم الفنية^(١) ،

ولن نستطيع هنا أن نحصى المظاهر المختلفة التي أدخلها المغول على الفنون الإسلامية المتعددة في هذا العصر الجديد ، ولكن إتماما للبحث نستطيع أن نأتي ببعض الأمثلة التي توضح تأثير المغول في الفنون والآثار دون أن نحصى كل ما جاءوا به إلى البلاد الإسلامية ، فترى مثلا أن السحنة الصينية قد بدت في أوائل عصر المغول ظاهرة على الخزارف^(٢) ، ثم حورها المسلمون فيما بعد بشكل يوافق ميولهم الإسلامية . كذلك انتشر الحرير الصيني في البلاد الإسلامية على أيدي المغول ، ولقد المسلمون ما عليه من بخارف هي عبارة عن حيوانات خرافية وزهور جميلة اشتهر الصينيون برسمها على ملابسهم الحريرية^(٣) .

وكذلك ظهر أثر المغول في النقوش على الصناعات الخزفية^(٤) ، على الرغم من أن الغزو المغولي قضى على أكبر مراكز الصناعة الخزفية في إيران بتدمير مدينتي «الري» و«سنة» ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) و«قاشان» سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) ، ولكن الراجح أن صناعة الخزف نفسها لم تتأثر بذلك إلى حد كبير اللهم إلا في كمية الإنتاج ، وخير دليل على ذلك أن بعض التحف الخزفية الجميلة عليها تواريخ تثبت أنها صنعت بعد الغزو المغولي بزمان غير طويل^(٥) .

ومن الفنون الهامة التي اهتم بها المسلمون صناعة التحف المعدنية ، وصناعة الزجاج والخشب ، وكان لهذه الصناعات جميعها مركز خاص قبل الغزو المغولي ، والواضح أن الغزو المغولي قد أصابها بركود عظيم ، ورغم أن المتخصصين في صناعتها حاولوا أن

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الصين وفنون الإسلام ، ص ٢٢ .

(٢) انظر : اللوحين : ١٤ ، ١٨ .

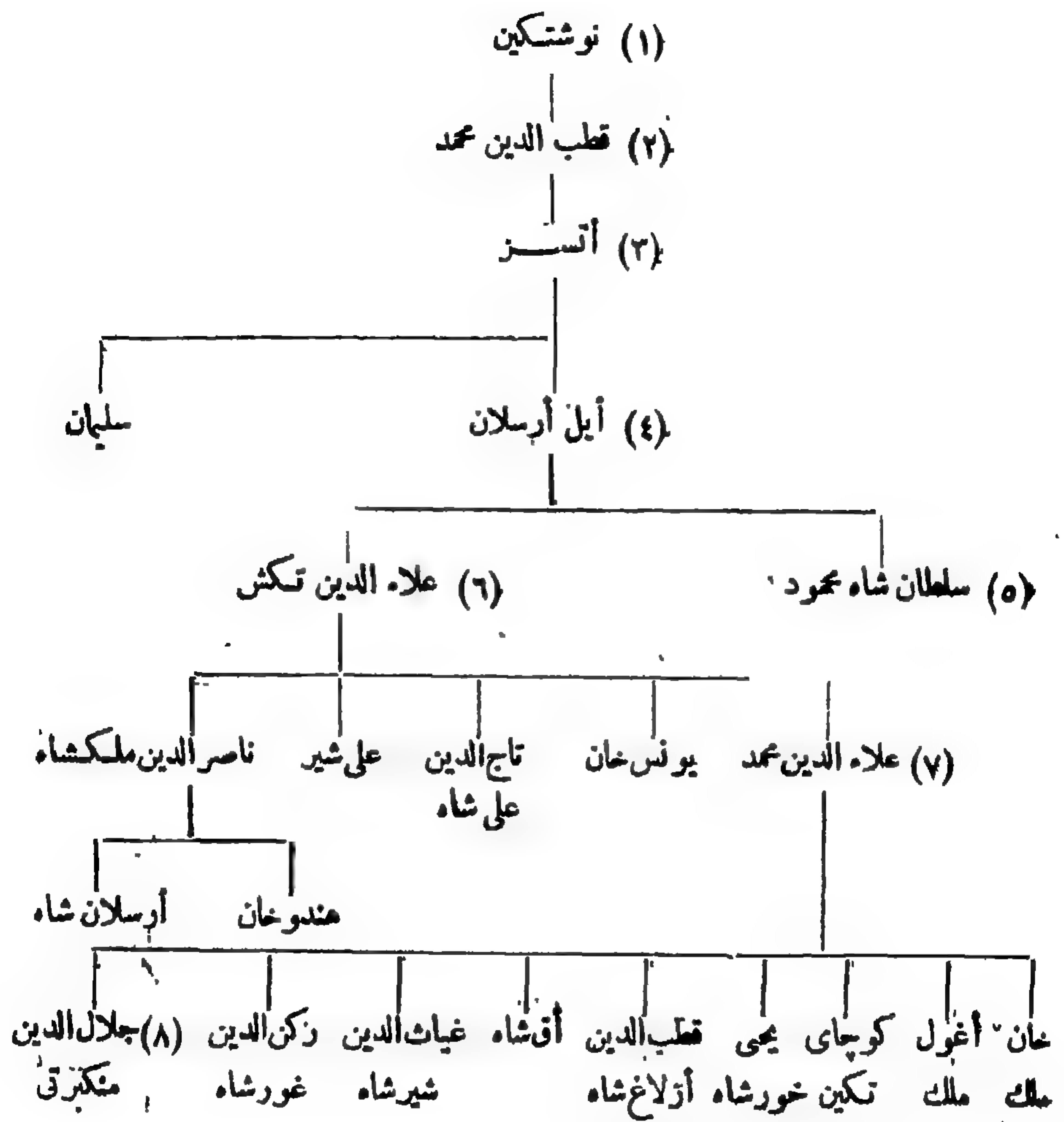
(٣) الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ، ص ٣٣ - ٣٤ .

(٤) انظر : اللوحين : ١٦ ، ١٧ .

(٥) الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ، ص ١٧٦ .

المداول والمصادر والكشاف

الخوارزميون



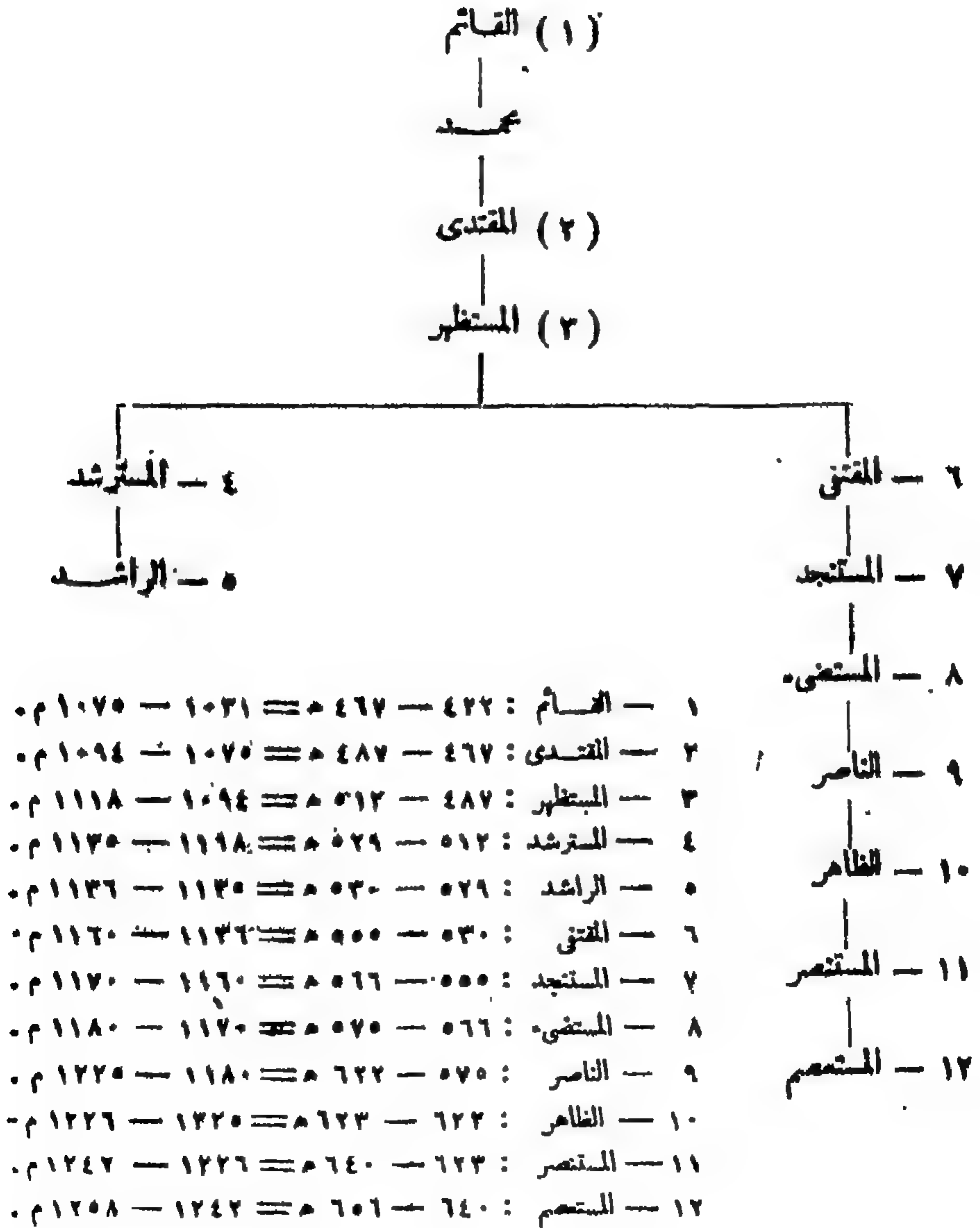
قتلوا علی آیدی الخوار

- ۱ - نوشتکین : ۴۷۰ - ۴۹۰ = ۱۰۷۷ - ۱۰۹۶ م.
- ۲ - قطب الدين محمد : ۴۹۰ - ۵۲۱ = ۱۰۹۶ - ۱۱۲۷ م.
- ۳ - انسز : ۵۲۱ - ۵۵۱ = ۱۱۲۷ - ۱۱۵۶ م.
- ۴ - ایل أرسلان : ۵۵۱ - ۵۶۸ = ۱۱۵۶ - ۱۱۷۲ م.
- ۵ - سلطان شاه محمود : عزل سنة ۵۶۸ = ۱۱۲۷ م. وتوفي سنة ۵۸۹ = ۱۱۹۳ م.
- ۶ - علاء الدين تکش : ۵۶۸ - ۵۹۶ = ۱۱۷۲ - ۱۱۹۹ م.
- ۷ - علاء الدين محمد : ۵۹۶ - ۶۱۷ = ۱۱۹۹ - ۱۲۱۹ م.
- ۸ - جلال الدين منکبرقی : ۶۱۷ - ۶۲۸ = ۱۲۱۹ - ۱۲۳۱ م.

خلفاء الدولة العباسية

منذ العصر الساجوق حتى سقوط بغداد

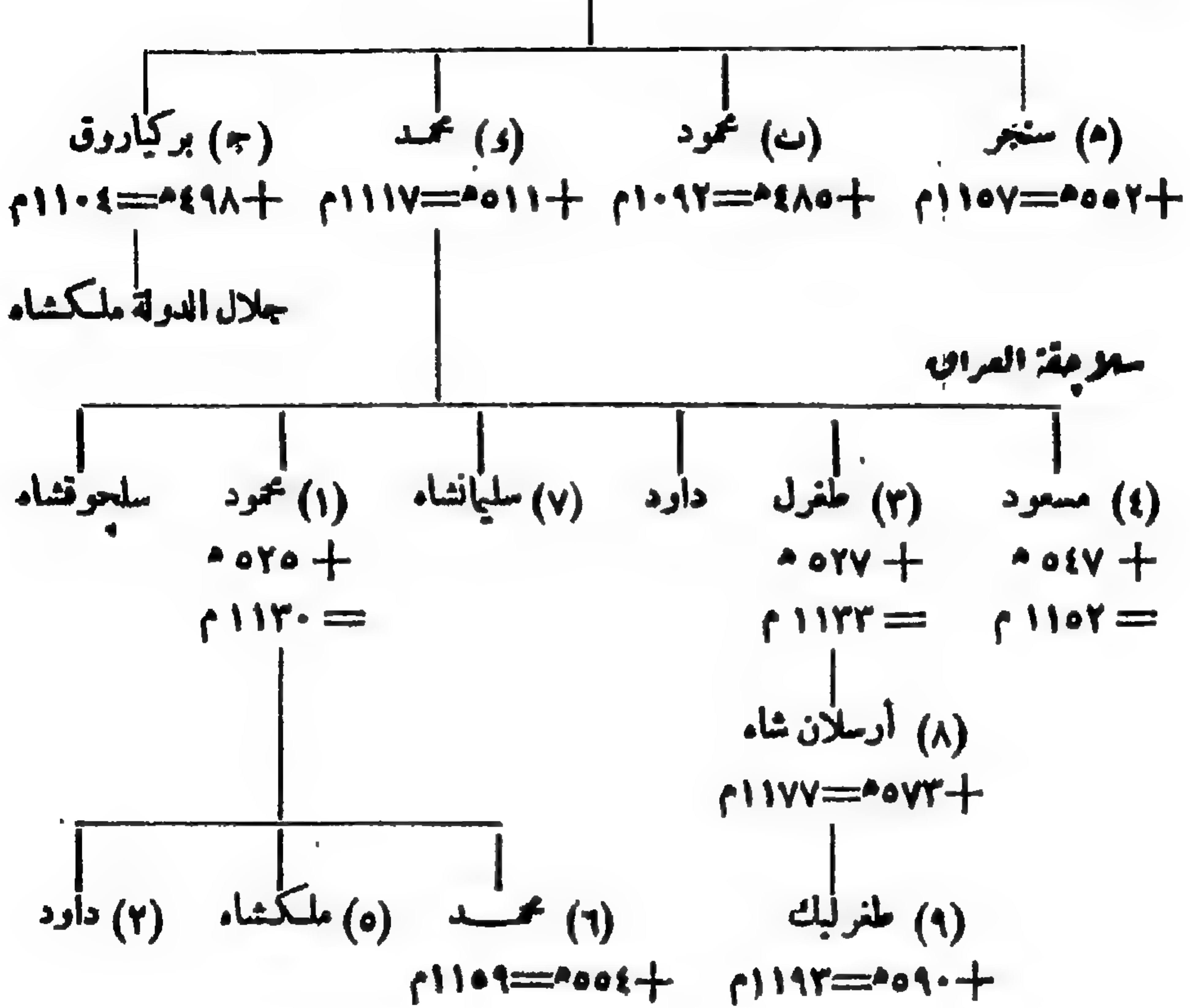
٤٤٧ - ٦٥٦ هـ = ١٠٥٥ - ١٢٥٨ م



سلاطين السلاجقة في العراق وفارس (*)

(١) ملكشاه

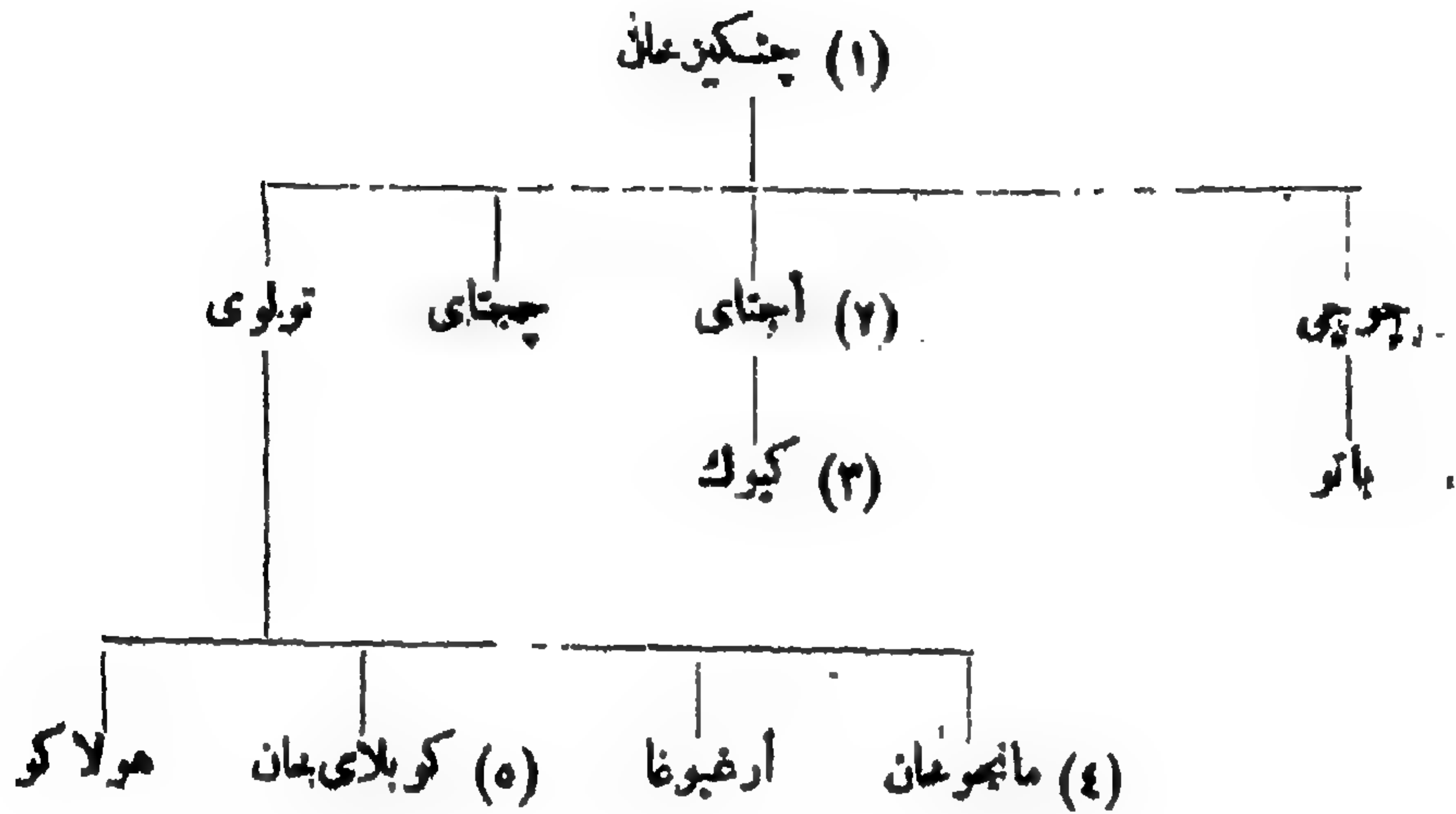
من السلاجقة العظام ٤٦٥ - ٤٨٥ = ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م



(*) تشير علامة (+) إلى السنة التي توفي فيها السلطان السليجوقي. ومما هو جدير باللاحظة أن حواضر سلاطين السلاجقة كانت تختلف من سلطان لآخر، فمثلاً اتخذ طغرل بك الأول مدينة نيسابور حاضرة له، واتخذ ألب أرسلان مدينة مرو، بينما حكم ملكشاه وأبناؤه، محمود وبركياروق وأحمد، في أصفهان؛ أما سنجر فقد اتخذ من مدينة مرو، كبرى مدن خراسان، حاضرة له، انظر Sanauallah : The Decline of the Saljuqid Empire, p.39. وقد ذكر دوسون أن ملكشاه اتخذ من مدينة مرو حاضرة له وربما كان ذلك في بداية عهده، أي عقب وفاة أبيه ألب أرسلان الذي كان يقيم في هذه المدينة. D'ohsson : Histoire des Mongols, tom. i. p. 279

خانات المغول منذ چنكيز خان

حتى كوبلاي خان (*)



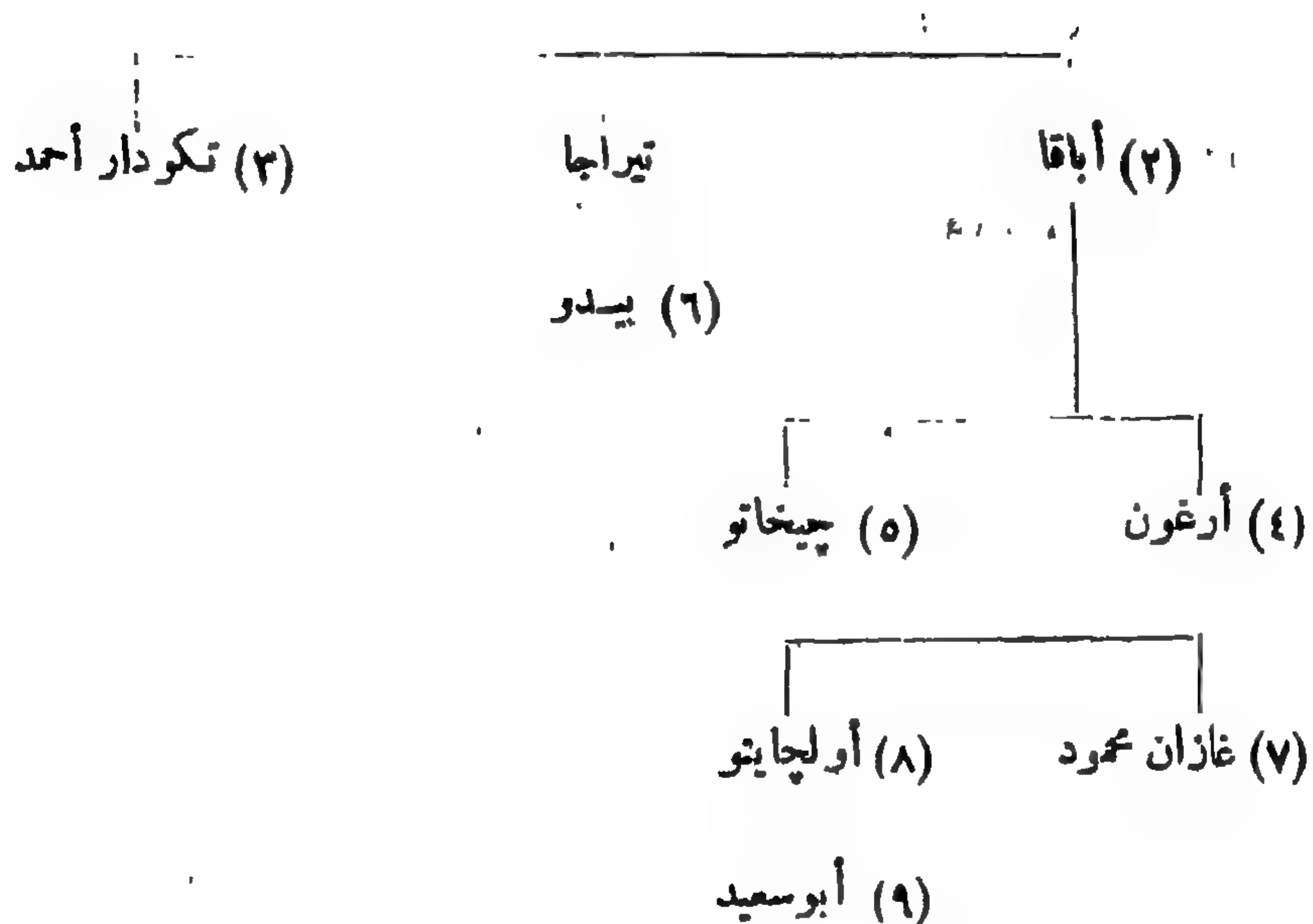
- ١ - چنكيز خان : ٦٠٣ - ٦٢٤ = ١٢٠٦ - ١٢٢٧ م.
- ٢ - اجتاى خان : ٦٢٤ - ٦٣٩ = ١٢٢٧ - ١٢٤١ م.
- ٣ - كيوك خان : ٦٤٤ - ٦٤٦ = ١٢٤٦ - ١٢٤٨ م.
- ٤ - مانجوجان : ٦٤٦ - ٦٥٥ = ١٢٤٨ - ١٢٥٧ م.
- ٥ - كوبلاي خان : ٦٥٨ - ٦٩٣ = ١٢٦٠ - ١٢٩٤ م.

(*) يلاحظ أن خانات المغول كانوا يتولون الحكم في الفترة التي تتحدث عنها بطريق الانتخاب لا بطريق الوراثة ، وذلك كانت تمر فترة من الوقت قبل أن يجتمع كبار القواد والحكام المغول المنتفرون في أطراف الإمبراطورية المغولية لانتخاب الخاقان الجديد ، فإذا ما تكامل عددهم ، أجريت عملية الانتخاب في مجلس عام يقد لهذا الغرض يسمى «الكورلتاي» Kuriltai .

إيلخانات المغول في فارس

حتى عصر أبي سعيد

(١) هولاكو



- ١ - هولاكو : ٦٥٤-٦٦٣ هـ = ١٢٥٦ - ١٢٦٥ م.
- ٢ - أباقا : ٦٦٣-٦٨٠ هـ = ١٢٦٥ - ١٢٨١ م.
- ٣ - نكودار أحمد : ٦٨٠-٦٨٣ هـ = ١٢٨١ - ١٢٨٤ م.
- ٤ - أرغون : ٦٨٣-٦٩٠ هـ = ١٢٨٤ - ١٢٩١ م.
- ٥ - حبيخاتو : ٦٩٠-٦٩٤ هـ = ١٢٩١ - ١٢٩٥ م.
- ٦ - يبدو . حمادى الثانية - ذو الحجة ٦٩٤ هـ
إبريل - أكتوبر ١٢٩٥ م
- ٧ - غازان : ٦٩٤-٧٠٣ هـ = ١٢٩٥ - ١٣٠٤ م.
- ٨ - أولجايتو : ٧٠٣-٧١٦ هـ = ١٣٠٤ - ١٣١٦ م.
- ٩ - أبوسعيد : ٧١٦-٧٣١ هـ = ١٣١٦ - ١٣٢٠ م.

المراجع العربية

ابن الأثير : (+ ٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م)

(١) الكامل في التاريخ (الطبعة الأزهرية ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٤ م)

(٢) تاريخ الدولة الأتابكية — ملوك الموصل . (طبعة Rec. Hist. Or. Cr. t. ii.)

البندارى :

(٣) تاريخ دولة آل سلجوق . (القاهرة ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م)

حسن ابراهيم حسن : دكتور

(٤) النظم الإسلامية ، بالاشتراك مع الدكتور على ابراهيم حسن .

(القاهرة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م)

(٥) تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٢ . (القاهرة ١٣٦٥ هـ = ١٩٤٥ م)

(٦) تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٣ . (القاهرة ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٦ م)

ابن خلدون : (+ ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م)

(٧) العبر وديوان المبتدا والخبر . (١٢٨٤ هـ = ١٨٦٧ م)

ابن خلكان : (+ ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م)

(٨) وفيات الأعيان . (بولاق ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م)

الديار بكري : (+ ٩٦٦ هـ = ١٥٥٨ م)

(٩) تاريخ الخنيس في أحوال أنفـس نفـس . (القاهرة ١٢٨٧ هـ = ١٨٦٦ م)

رضا زاده شفق : دكتور

(١٠) تاريخ الأدب الفارسي . نقله من الفارسية إلى العربية الأستاذ محمد موسى

هنداوى . (القاهرة ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م)

ذكى محمد حسن : دكتور

- (١١) الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي . (القاهرة ١٣٥٥ هـ = ١٩٤٠ م)
(١٢) الصين وفنون الإسلام . (القاهرة ١٣٦٠ هـ = ١٩٤١ م)
(١٣) التصوير في الإسلام عند الفرس . (القاهرة ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م)
(١٤) التصوير وأعلام المصورين في الإسلام ؛ مقال بعدد أكتوبر سنة ١٩٣٨ من مجلة المقتطف .

السيوطي : (+ ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م)

- (١٥) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله . (القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م)

ابن شاكر الكنتي : (+ ٧٦٤ هـ = ١٣٦٢ م)

- (١٦) فوات الوفيات . (القاهرة ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م)

ابن طباطبا :

- (١٧) الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية .

(القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م)

عبد الوهاب عزام : دكتور

- (١٨) الصلات بين العرب والفرس وآدابهما في الجاهلية والإسلام ، مقال بعدد أكتوبر سنة ١٩٣٨ من مجلة المقتطف .

ابن العبري : (+ ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م)

- (١٩) تاريخ مختصر الدول . (بيروت ١٣٠٨ هـ = ١٨٩٠ م)

ابن العميد : (+ ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م)

- (٢٠) تاريخ المسلمين . (لیدن ١٠٣٥ هـ = ١٦٢٥ م)

أبو الفدا : (+ ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م)

- (٢١) المختصر في أخبار البشر . (القاهرة ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ م)

قدري حافظ طوقان :

(٢٢) الأثر العلى للحضارة الإسلامية وأعظم علماءها ؛ مقال بعدد أكتوبر سنة ١٩٣٨ من مجلة المقتطف .

القلقشندى : (+ ٨٢١ = ١٤١٨ م)

صبيح الأعشى فى صناعة الإنشا . (القاهرة ١٣٢٣ = ١٩١٤ م)

ابن - لانسى : (+ ٥٥٥ = ١١٦٠ م)

(٢٤) ذيل تاريخ دمشق . (بيروت ١٣٢٦ = ١٩٠٨ م)

أبو المحاسن : (+ ٨٧٤ = ١٤٩٦ م)

(٢٥) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . (القاهرة ١٣٥٤ = ١٩٣٥ م)

محمد جمال الدين سرور : دكتور

(٢٦) الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره . (القاهرة ١٣٥٧ = ١٩٣٨ م)

المقرئى : (+ ٨٤٥ = ١٤٤١ م)

(٢٧) السلوك لمعرفة دول الملوك . نشره ووضع حواشيه الدكتور محمد مصطفى

زيادة . (القاهرة ١٣٥٣ - ١٣٥٨ = ١٩٣٤ - ١٩٣٩ م)

(٢٨) المواظ والاعتبار فى ذكر الخطوط والآثار . (القاهرة ١٢٧٠ = ١٨٥٣ م)

النسوى : محمد

(٢٩) مسيرة السلطان جلال الدين منكبرتى . (باريس ١٣٠٩ = ١٨٩١ م)

ابن الوردى : (+ ٧٥٠ = ١٣٤٩ م)

(٣٠) تمة المختصر فى أخبار البشر . (القاهرة ١٢٨٥ = ١٨٦٨ م)

المراجع الأجنبية

Abulgazi :

1. **Histoire Généalogique des Tatars.** (Leyde, 1726)

Ameer Ali, Sayed :

2. **A Short History of the Saracens.** (London, 1916)

Arnold, T. W. :

3. **The Preaching of Islam.** (London, 1935)

Atiya, A. S. :

4. **The Crusade in the Later Middle Ages.** (London, 1938)

Barker, E. :

5. **The Crusades.** (London, 1925)

Barthold :

6. **Turkestan down to the Mongol Invasion.** (London, 1928)

Blochot, E. :

7. **Introduction a l'Histoire des Mongols de Fadlallah Rashid Ed Din.** (Leyden, 1910)

Boulger, D. C. :

8. **The Mongols and the Court of Kublai Khan.**
(Universal History of the World, vol. 5. pp. 2847-2860)

Bretschneider, E. :

9. **Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources.** (St. Petersburg, 1887)
10. **Recherches Archéologiques et Historiques sur Pekin et ses Environs.** (Paris 1879)

Browne, E. G. :

11. **A Literary History of Persia.** (London, 1906)
12. **Account of a Rare Manuscript History of Seljuqs.** (London, 1906)

Cahun, L. :

13. **Introduction à L'Histoire de L'Asie, Turcs et Mongols. Des Origines à 1405.** (Paris, 1896)
14. **Gengis-Khan et L'Empire Mongol.** (Lavisse et Rambaud: Histoire Générale, tom. ii. pp. 917-953) Paris, 1893.

Curtin, J. :

15. *The Mongols' History.* (Boston, 1908)

Czaplicka :

16. *The Turks of Central Asia, in History and at the Present Day.* (Oxford, 1918.)

Defremery, M. :

17. *Histoire des Seldjoukides; Extraits du Tarikhi Quzidch, ou Histoire Choisie d'Hamdullah Mustaufi.*
(*Journal Asiatique* : Avril-Mai, 1848, pp. 417-468) *
18. *Histoire des Seldjoukides. (Suite)*
(*Journal Asiatique* : Septembre-Octobre, 1848, pp. 259-376)
19. *Fragments de Géographes et d'Historiens Arabes et Persans Inédits.*
(*Journal Asiatique* : Novembre-Décembre 1849, pp. 447-513)

De Guignes, J. :

20. *Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols et des autres Tartares Occidentaux.* (Paris, 1757)

D'ohsson, M. Le Baron :

21. *Histoire des Mongols depuis Tchinguiz-Khan jusqu'a Timour Bey ou Tamerlan.* (Paris, 1824)

Douglas, R. K. :

22. *The Life of Jenghiz-Khan, Translated from Chinese.* (London 1877).
23. *China, The Story of Nations.* (London, 1912)
24. *Jenghiz-Khan.* (*Encyclopædia Britannica*, vol. 12. pp. 1000-1001)
(New York, 1929)

Duboux, M. L. :

25. *La Perse.* (Paris, 1841)

Elleen Power :

26. *Medieval People.* (London, 1939)
27. *The Guilds and Medieval Commerce.*
(*Universal History of the World*, vol. 5. pp. 2897-2926)

Fitzgerald :

28. *China, A Short Cultural History.* (London, 1935)

Fraser, J. B. :

29. *Historical and Descriptive Account of Persia.* (London, 1833)

Gibbon, E. :

30. **The History of the Decline and Fall of the Roman Empire.**
(New York, 1927)

Giles, A. H. :

31. **The Civilization of China.** (Cambridge, 1911)

Grenard, F. :

32. **Gengis-Khan.** (Paris, 1935)

Hart, B. H. L. :

33. **Mongol Campaigns.**
(Encyclopædia Britannica, vol. 15. pp. 705 — 7.) New York, 1929.

Heyd, W. :

34. **Histoire du Commerce du Levant au Moyen Âge.**
(Leipzig, 1886)

Hirth, J. :

35. **China and the Roman Orient.** (Leipzig, 1885)

Hirth & Rockhill, W. W. :

36. **Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries.**
Translated from Chinese. (St. Petersburg, 1911)

Hitti, Philip :

37. **The History of the Arabs.** (London, 1937)

Howorth, H. H. :

38. **History of the Mongols.** (London, 1876)

Huntington, E. :

39. **The Pulse of Asia.** (Washington, 1919)

Huzayyin, S. A. :

40. **Arabia and the Far East. Their Commercial and Cultural Relations
in Graeco-Roman and Irano-Arabian Times.** (Cairo, 1942)

Jacobs, Joseph :

41. **The Story of Geographical Discovery.**
How the World Became Known. (London)

Lamb, Harold :

42. **Genghis-Khan ; Emperor of All Men.** (London, 1934)
43. **The Crusades . The Flame of Islam.** (London, 1931)

Lane-Poole, Stanley :

- 44. History of Egypt in the Middle Ages. (London, 1925)
- 45. Mediæval India Under Mohammedan Rule. (London, 1917)
- 46. The Mohammadan Dynasties. (Paris, 1925)
- 47. Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library at Cairo. (London, 1897)

Le Strange :

- 48. Baghdad During the Abbasid Caliphate. (Oxford ۱۹۵۵)

Little, A. :

- 49. The Far East. (Oxford, 1905)

Loewe, H. M. J. :

- 50. The Seljuqs.
(Cambridge Medieval History, vol. iv. pp. 299—317). Cambridge, 1927.
- 51. The Mongols.
(Cambridge Medieval History, vol. iv. pp. 627—652). Cambridge, 1927.

Malcolm, J. :

- 52. The History of Persia, from the Most Early Period to the Present Time. (London, 1829)

Marcel, M. J. :

- 53. L'Egypte Depuis la Conquête Des Arabes Jusqu'a la Domination Française. (Paris, 1848)

Muir, Sir William :

- 54. The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall. (Edinburgh, 1924)

Nicholson, Reynold :

- 55. A Literary History of the Arabs. (London, 1923)

Nidhami-l-Arud(-l-Samarquandi :

- 56. The Chahâr Maqala. Translated by Browne, E. G. (London, 1899)

Nizam Al-Mulk :

- 57. Siyâsat Namah. (Paris. 1891.)

Nöldéke, Theodor :

- 58. The Abbasids.
(The Historians' History of the World, vol. viii. pp. 209 — 232)
(New York 1926)

Rashid-Eldin :

59. Histoire des Mongols de la Perse. Edit. par M. Quatremère. (Paris 1833)

Reinard et Favé, M. M. :

60. Du Feu Grégeois, Des Feux De Guerre, et Des Origines De la Poudre a Canon Chez les Arabes, les Persans, et les Chinois.
(Journal Asiatique : Octobre 1849, pp, 257 — 327)

Sanaullah, Mawlawi Fadl :

61. The Decline of the Saljûqid Empire. (Calcutta, 1938)

Ross, E. D. :

62. The Empire of the Seljuk Turks.
(Universal History of the World, vol. 5. pp. 2779 — 96)

Skrine, F. H. & Ross, E. D. :

63. The Heart of of Asia. (London, 1899)

Stevenson, W. B. :

64. The Age of Eastern Imperialism : 1216 — 1303.
(Universal History of the World, vol. 5. pp. 2817 — 2834)

Sykes, Sir Percy :

65. The Quest For Cathay. (London, 1936)
66. A History of Persia. (Oxford, 1922)

Vambéry, A. :

67. History of Bokhara from the Earliest Period down to the Present.
(London, 1873)

Vladimirtsov :

68. The Life of Chingis-Khan. (London, 1930)

Von Hammer :

69. Histoire de L'Ordre des Assassins. (Paris, 1833)

Wells, H. G. :

70. The Outline of History.

Wiet, Gaston :

71. Précis de l'Histoire d'Egypte. (Le Caire, 1932)

Zambour :

72. Manuel de Généalogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam.
(Hanovre, 1927)

كشاف

(١) أسماء الرجال والنساء، والدول، والقبائل، والفرق الدينية.

الأتوري — أوحده الدين محمد : ٨٧ .
الأوريون : ١١٣ ، ١١٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ .
الأوغر (Ugurs) — قبيلة : ٦٤ .
٢٥٦ .
الإيرانيون : ٢٥٤ .
الإيطاليون : ٢٥٩ .
الأيويون — الدولة الأيوبية : ١٠٥ .
أباخان Abaqa Khan — إيلخان فارس : ٩٠ .
٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٧ ، ٢٧٧ .
أبو سعيد — إيلخان المغول في فارس : ٢٧٧ .
أتسر — أحد سلاطين الدولة الخوارزمية :
٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٢ .
٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٨٧ ، ٨٨ .
٢٧٣ .
أجتاي Ogotai — أحد أبناء چنكيزخان :
١١٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ .
١٤٢ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .
١٩١ ، ١٩٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ .
٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ .
٢٢٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ .
٢٥١ ، ٢٧٦ .
أحمد بن طولون : ١٠٢ .
أحمد بن عبد العزيز — إمام مدينة بخارى :
٥٣ .
أرسلان شاه — أحد أمراء البيت الخوارزمي :
٢٧٣ .
أرسلان شاه — أحد سلاطين السلاجقة : ٢٧٥ .

(١)

الأتراك : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٤١ .
٤٥ ، ٥٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٧٦ .
٧٧ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ .
٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١١٧ .
١٢٤ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٠ .
١٦٩ ، ١٧٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ .
٢٣٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ .
الإخشيديون : ١٠٢ ، ١٠٣ .
الإخشيديون — الدولة الأخشيديّة : ١٠٢ .
١٠٣ .
الإسكندر الأكبر : ١٧١ ، ٢٥٥ ، ٢٦٢ .
الإسماعيلية : ٢٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .
٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٨٣ ، ٩٦ ، ٩٧ .
٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١٨٠ ، ١٨٨ .
١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٩ ، ٢٢٨ .
٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ .
الأشرف — أحد أبناء الملك العادل أيوب :
١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٨٠ ، ١٨١ .
١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٤ .
٢٠٩ ، ٢٣٥ .
الأفضل — أحد أبناء صلاح الدين الأيوبي :
١٠٥ .
الأكراد : ٤٥ ، ١٣٤ ، ١٩٤ .
الإمبراطورية الرومانية : ١٠٨ .
الأمويون — الدولة الأموية : ١٧ ، ٨٣ .
٨٤

أيوب — أبو صلاح الدين الأيوبي : ١٠٨ .

(ب)

باتو Batu — حفيد حنكيز خان : ١٦٤ ،

٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

الباطنية : انظر الإسماعيلية

بدر الدين قاضيخان ، قاضي مدينة بخارى :

١٢٢ .

بدر الدين لؤلؤ — صاحب الموصل :

١٨٦ ، ٢٤١ .

براق الحاجب — حاكم كرمان : ١٧١ .

البرامكة : ١٧ ، ٩٠ ، ٩٣ .

بركة خان Baraka Khan : ٢٥١ .

بركياروق — السلطان السلجوقي : ١٩ ،

٢٧٥ .

البساسيري : ٤٢ .

أبو بكر الخوارزمي — الشاعر : ١٦٩ ،

١٧٠ .

أبو بكر بن سعد بن زنكي — أتابك فارس :

٨٩ ، ٢٤١ .

أبو بكر الصديق : ٨٣ .

بلجوش Belgousch — قائد مغولي :

١٤٦ .

البوذية — ديانة : ٥١ ، ٦٦ ، ٢١٢ ،

٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

بوهيند السادس — أمير أنطاكية : ٢٣٧ ،

٢٤٧ .

البويهيون — بتهويه : ١٧ ، ١٨ ، ٣٠ ،

٤١ ، ٨٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ .

بلا Bela — قائد مغولي : ١٦١ .

بلا تاجين Billa Tagin — أحد أمراء

السلجقة : ١٩ .

أرطغرل : ١٥٢ .

أرغبوغا — بن تولوي : ٢٧٦ .

أرغون — إيلخان فارس : ٢٥٠ ، ٢٥٢ ،

٢٧٧ .

أرغون — أحد حكام المغول في البلاد

الإسلامية : ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ .

أزلاغ شاه — أحد أمراء الخوارزميين :

انظر قطب الدين .

أسد الدين شيركوه : ١٠٥ ، ١٠٨ .

إسماعيل بن جعفر الصادق : ٩٧ .

أغلس — نائب الخوارزميين في العراق

العجمي : ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٣ .

أغول ملك — أحد أمراء البيت

الخوارزمي : ٢٧٣ .

أقشاه — أحد أبناء علاء الدين خوارزم شاه :

١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٦٨ ، ٢٧٣ .

أقوش — أحد المماليك في أذربيجان : ١٣٤ .

ألب أرسلان — السلطان السلجوقي : ٩٤ ،

٩٨ ، ١٠٣ ، ٢٧٥ .

ألكسيوس كومنين Alexius Comnenus

الإمبراطور البيزنطي : ١٠٤ .

أمين الدين الهروي — التاجر : ٧٠ .

أندرو Andrew — رسول لويس التاسع

إلى المغول : ٢٤٨ .

إنوسنت الرابع — البابا : ٢٤٥ .

أوزبك بن البهلوان — أتابك أذربيجان :

٢٨ ، ٢٧ ، ٤٤ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٧٦ .

١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٠٩ .

أولجايتو Euldjaitu — إيلخان المغول في

فارس : ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٧ .

إيفان طائيسى — أحد الأمراء الخوارزميين :

١٦٨ .

أيل أرسلان — السلطان الخوارزمي : ٢٢ ،

٢٣ ، ٢٤٠ ، ٢٧٣ .

تولوى Toulouï — أحد أبناء چنگيز خان :

١١٨ ، ١٢١ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ،

١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ،

١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٤ ،

٢٢٥ ، ٢٧٦

تيموچين — اسم چنگيز خان قبل أن يتولى

الحكم : ١١٠

تيمور ملك — حاكم مدينة خجندة وقائد

حاميتها : ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٨ ،

(ج)

چغتاي Tchagataï — أحد أبناء چنگيز خان :

١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٤١ ،

١٤٢ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،

٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٧٦ ،

چنگيز خان Chingiz - Khan : ٢٨ ،

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٤ ،

٥٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ،

٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،

٧٤ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٠٦ ،

١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ،

١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ،

١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،

١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ،

١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،

١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،

١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،

١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،

١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،

١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٣ ،

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ،

١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ،

بيدشو Baidshu — قائد مغولى : ١٩٣ ،

بيدو Baidu — إيلخان المغول فى فارس :

٢٧٧ ،

بيبرس : انظر الظاهر .

البيزنطيون — الدولة البيزنطية : ٩٤ ،

١٥٢ ، ٢٥١ ،

(ت)

تاج الدين على شاه — أحد أمراء البيت

الخوارزمى : ٢٧٣ ،

تايچ Tang — أسرة صينية : ١١١ ،

التانجوت — قبيلة : ٤٨ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ،

تاي تسو T'ai tsu — زعيم قبيلة الخطا : ٤٨ ،

تاي بهادور T'air Behadur — أحد الحكام

المغول فى البلاد الإسلامية : ٢٢٧ ،

التتر — التار : انظر المغول .

تتش — أحد أبناء ملكشاه السلجوقي :

٩٧ ، ١٠٣ ،

الترك : انظر الأتراك .

تركان خاتون — أم علاء الدين خوارزم شاه :

٢٩ ، ٤٤ ، ٧٣ ، ٨١ ، ٨٢ ،

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ،

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٥٩/ ، ١٦٣ ،

٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ ،

تكش — السلطان الخوارزمى : ٢٣ ، ٢٤ ،

٢٥ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ،

٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ،

٧٦ ، ٨٩ ، ١٣٦ ، ٢٠٣ ، ٢٧٣ ،

تكودار أحمد Takudar Ahmad — إيلخان

المغول فى فارس : ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٧٧ ،

توجاشر Togatcher — قائد مغولى : ١٤٦ ،

١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ،

تورتاي Tourtai — قائد مغولى : ١٦١ ،

• ١٨٣ ، ١٨٢ ، ١٨١ ، ١٨٠
• ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٨٥ ، ١٨٤
• ١٩١ ، ١٩٠ ، ١٨٩ ، ١٨٨
• ١٩٥ ، ١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٩٢
• ٢١٠ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ١٩٦
• ٢٧٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ ، ٢٣٥
جینخاتو Gaikhatu — إيلخان المغول
فی فارس : ٢٧٧ .

(ح)

الحسن بن الصباح : ٩٧ ، ٩٨ .
الحشيشية : انظر الإسماعيلية .
الحمال المراغی — التاجر : ٧٠ .
الحمدانيون — الدولة الحمدانية : ١٠٣ .

(خ)

خان ملك — أحد أمراء البيت الخوارزمي :
٢٧٣ .
الخطا — قبائل ، دولة : ١٩ ، ٢٠ .
٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .
٣٠ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .
٤١ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ .
٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ .
٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ .
٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٣ .
١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٦٤ .
١٧١ .

(د)

دانشمند -- حاجب چنگيز خان : ١٣٧ .
داود بن محمد — أحد أمراء السلاجقة :
٢٧٥ .

• ٢١٢ ، ٢١١ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦
• ٢١٧ ، ٢١٥ ، ٢١٤ ، ٢١٣
• ٢٢٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٨
• ٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦
• ٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٣
• ٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٠
• ٢٥٨ ، ٢٥٣ ، ٢٤٩ ، ٢٤٨
• ٢٦٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٢ ، ٢٥٩
٢٧٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٥

چوچی Djoutchi — أحد أبناء چنگيز خان :

• ١٢١ ، ١٢٠ ، ١١٩ ، ١١٨
• ١٤٢ ، ١٤١ ، ١٤٠ ، ١٣٩
• ١٥٣ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢٢٥
• ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٤٥

جون دي بلانو كاريني John De

Plano Carpini : ٢٤٦ .

الجويني — أسرة فارسية :

بهاء الدين الجويني : ٩٠ ، ٢٢٨ .
علام الدين عطا ملك الجويني : ٩٥ ، ٢٢٨ .
شمس الدين محمد الجويني : ٩٠ .
جلال الدولة ملكشاه — أحد الأمراء
السلاجقة : ٢٧٥ .

جلال الدين قشتمر — انظر قشتمر .
جلال الدين منكبرتي — السلطان الخوارزمي :

• ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٩
• ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٠
• ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٣٩
• ١٤٠ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣

• ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧

• ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١

• ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١

• ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥

• ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩

سلطان شاه محمود — أحد الأمراء

الخوارزميين : ٢٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ،

٢٧٣ ، ٥٧

سليمان — أحد الأمراء الخوارزميين : ٢٧٣

سليمانشاه — أحد سلاطين السلاجقة : ٢٧٥

هتجر — السلطان الساجوقى : ١٩ ، ٢٠ ،

٢١ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٧ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٨٧ ، ٨٨ ،

١٠٠ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٧٥

الشهروردى، شهاب الدين — رسول الخليفة

العباسى الناصر لدى الخوارزميين :

٣٥ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٥

سوبوتاي Souboutai — قائد مغولى :

٦٥ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ،

١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٤ ،

٢٣٥ ، ٢٣٦

سونج Sung — إحدى الأسرات الحاكمة

في بلاد الصين : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،

١١١ ، ١١٣ ، ١٦٤ ، ١٩١

السلاجقة (Seldjuqs (Seljuks : ١٧ ، ١٨ ،

١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ،

٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ،

٤٢ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٥ ، ٨٠ ،

٨١ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ،

٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،

١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ،

١١١ ، ١٣٧ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ،

١٧٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ،

٢٥٧ ، ٢٧٥

سلاجقة الروم : ١٠٧ ، ١٥٢ ، ١٨٣ ،

١٨٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٩ ، ٢٣١ ،

٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١

سيف الدولة الحمدانى : ١٠٣

داود بن محمود — أحد سلاطين السلاجقة :

٢٧٥

دقاق — أحد الأمراء السلاجقة : ١٠٤

(ر)

الراشد — الخليفة العباسى : ٩٩ ، ٢٧٤

رستم — بطل من أبطال الفرس : ٨٨

الرسول : ٣٨ ، ٨٣

الرشيد — الخليفة العباسى : ٩٣ ، ١٥١

رشيد الدين محمد بن عبد الجليل البلخى :

انظر الوطواط

رضوان — أحد أمراء السلاجقة : ١٠٤

ركن الدين بن عطاف — رسول الخليفة

العباسى إلى جلال الدين منكبرتى : ١٨٥

ركن الدين غورشاہ — أمير خوارزمى :

٢٩ ، ١٢٧ ، ١٦٨ ، ٢٧٣

رومانوس Romanus — الإمبراطور

البيزنطى : ٩٤

ريتشارد قلب الأسد — ملك إنجلترا : ١٠٥

(ز)

زين الدين أبو إبراهيم إسماعيل بن حسن

الجرجانى — مؤلف كتاب ذخيرة

خوارزم شاه : ٨٦

(س)

سعد الدين الحاجب — رسول الخليفة

العباسى إلى الخوارزميين : ١٨٦

سعد بن زنگى — أتابك فارس : ٢٧

٢٨ ، ٣٧ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٨٩ ،

١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢

سلجوقشاه — أحد أمراء السلاجقة :

٢٧٥

(ش)

الشامى القفال — الشاعر : ٤٥ .
الشامانية — ديانة : ٢١٢ ، ٢٤٣ .
شايح شون Ch'ang Ch'un — أسقف
صيني : ١٢٦
شاهنشاه — أخو صلاح الدين الأيوبي :
١٠٨
شي Tchépé (Chépé) — قائد مغولي :
١٢٧ ، ٦٥ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،
١٣٦ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٤ ،
٢٣٦ ، ٢٣٥

شرف الدين — حامل أختام : ٢٢٨ .
شن تيمور Chin Timur — حاكم الدولة
الخوارزمية من قبل المغول : ٢٢٦ ،
٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
شمس الدين الشمس — سلطان دهلي : ١٧٠ .
شمس الدين محمود — أحد المقرين إلى
علاء الدين خوارزم شاه : ١٣٠ .
شهاب الدين — ملك الدولة الغورية :
٢٧ ، ٢٥
شهاب الدين أبوسعدي بن عمران — من رجال
المذهب الشافعي : ٩٠ .
شهاب الدين الشهروردي — انظر
الشهروردي .

شهاب الدين مسعود — أمير خوارزمي : ٦١ .
شيرماجون Shurmagan — قائد مغولي :
١٩٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،
٢٢٩ ، ٢٣٠

الشيعة — المذهب الشيعي : ٣٧ ، ٣٨ ،
١٧٤

(ص)

الصالح أيوب : ١٠٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ .

صدر الدين الجندى — أحد القضاة في
الدولة الخوارزمية : ٢٠٧ .
الصليبيون — الحروب الصليبية : ٩٥ .
٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،
١٠٧ ، ١٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ ،
٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ .
صلاح الدين الأيوبي : ١٠٥ ، ١٠٦ ،
١٠٨ ، ١١٩ ، ١٩١ .
الصينيون : ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٦ ، ٢٥٣ ،
٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(ط)

طاينكوه .. ملك الخطا : ٦٢ .
طغتكين — أحد أمراء الدولة الأيوبية : ١٠٨ .
طغرل بك الأول — السلطان السلجوقي :
٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ،
٤٢ ، ٥٧ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٣٧ ،
١٧٧ .
طغرل بك بن أرسلان — آخر سلاطين
سلاجقة العراق : ٢٧٥ .
طغرل بن محمد بن ملكشاه — أحد سلاطين
السلاجقة : ٢٧٥ .
طورانشاه — أحد أمراء الأيوبيين : ١٠٦ ،
١٠٨ .
الطولونيون — الدولة الطولونية : ١٠٢ ،
١٠٣

(ظ)

الظاهر — أحد أبناء صلاح الدين الأيوبي :
١٠٥ .
الظاهر — الخليفة العباسي : ٢٨٥ ، ٢٧٤ .

الظاهر بيبرس : ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٢٦٥ .

(ع)

العادل — أخو صلاح الدين الأيوبي :

١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٣٤ ، ١٨٠ ، ١٩١ .

العادل الثاني — أحد سلاطين الدولة الأيوبية : ١٠٦ .

عالي الدين — محتسب خوارزم : ١٤٢ .

عبد الحميد الكاتب — أحد الكتاب في عهد الأمويين : ٨٣ .

العباسيون ، الدولة العباسية ، الخلافة

العباسية : ١٧ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٢٥ ،

٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ،

٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٦٧ ،

٧٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٣ ،

٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ،

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،

١٧٤ ، ١٧٦ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ،

٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٩ ،

٢٥٦ ، ٢٦٤ .

عثمان — سلطان سمرقند وبخارى : ٦٠ .

عثمان — مؤسس الدولة العثمانية : ١٥٢ ،

١٥٣ .

العثمانيون — الدولة العثمانية : ٢٤١ ،

٢٤٢ ، ٢٦٤ .

العرب : ٧٥ ، ٧٧ ، ٩٨ ، ١١٧ ، ٢٠٣ ،

٢٥٤ ، ٢٦٨ .

العزیز — أحد أبناء صلاح الدين الأيوبي :

١٠٥ .

علاء الدين — صاحب يزد : ١٧٢ .

علاء الدين تكش — انظر تكش .

علاء الدين قيقباز — سلطان السلاجقة الروم :

١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٩ .

علاء الدين محمد بن جلال الدين — زعيم

الإسماعيلية : ١٨٩ .

علاء الدين محمد خوارزم شاه : ٢٤ ، ٢٥ ،

٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ،

٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،

٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ،

٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ،

٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ،

٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ،

٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ،

٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ،

٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ،

٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ،

٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،

١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ،

١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،

١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ،

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،

١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،

١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،

١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،

١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،

١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،

١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،

١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،

١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،

قتلغ تسكين — حاكم مدينة غزنة من قبل
الغوريين : ٢٧ .

القراتيت Kara'its — قبيلة : ٢٤٥ .
القرغيز Kirghizès (Qirghiz) ، قبيلة :
٢٥٦ ، ٥٩ .

قره خيطاي Kara Khitai : انظر الخطا .
قشمر ، جلال الدين — قائد عباسي : ١٧٥ ،
١٧٦ .

قطب الدين أزلاغ شاه — الأمير الخوارزمي :
١٦٨ ، ١٣٨ ، ١٣٠ ، ٨١ ، ٢٩ ،
٢٧٣ ، ٢٠٥ .

قطب الدين محمد بن توشكين — مؤسس
الدولة الخوارزمية : ١٩ ، ٥٢ ،
٢٧٣ ، ٨٦ .

القنجاق — قبائل ، إقليم : ٧٦ ، ١٣٦ ،
٢٥٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٢ ، ٢٣٥ ، ١٦٤ ،
٢٥٩ .

(ك)

الكارلوك (الكارلوق) Karluks — قبيلة : ٥٩ .
الكمال — أحد سلاطين الأيوبيين : ١٠٦ ،
١٣٥ .

كانكالي Kankalis — قبيلة : ٧٦ ، ٥٩ ،
٢٢٧ ، ٢٠٣ ، ١٤٠ ، ١٣٨ ، ١٣٦ .
كنبغا — قائد مغولي : ٢٤١ ، ٢٤٢ .

كترما — أحد قواد دولة الخطا : ٥٦ ، ٥٧ ،
كشلوخان — أحد حكام دولة الخطا : ٦٣ ،
٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١١٤ .

ابن كفرج — رسول جنكيز خان لدى
الخوارزميين : ٧٣ ، ٧٤ .
الكنيسة الكاثوليكية : ٢٤٩ .

الكنيسة النسطورية : انظر النسطوريون .
كوبلاي خان Kubilai Khan : ١٦٣ ،
٢٢٩ ، ٢٢٧ ، ٢٤٤ ، ٢٦٠ .

(غ)

غازان محمود Ghazan Mahmud —
أحد إيلخانات المغول في فارس :
٢٥٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٧ .

الغز — الأتراك : ٧٥ ، ١٥٠ ، ٢٠٣ .
غورخان — لقب ملك الخطا : ٦٤ .
الغوريون — الدولة الغورية : ١٩ ، ٢٣ .

٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ،
٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٥٧ ،
٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٥ ، ٨٣ ،

١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٧٠ ،
٢٣٣ .
غياث الدين — أحد حكام الدولة الغورية :

٢٥ ، ٢٤ ، ٥٧ ، ٥٨ .
غياث الدين شليان شاه — أحد أمراء
السلاجقة : ٢٠ .

غياث الدين شيرشاه — الأمير الخوارزمي :
٢٩ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،
١٧٣ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ٢١٠ ،
٢٧٣ .

(ف)

الفاطميون : ٨٥ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١٠٧ ، ٢٦٨ .
فخر الدين الدزكي البخاري — التاجر : ٧٠ .

الفرس : ٧٥ ، ٧٧ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١١٧ ،
١٢٤ ، ١٩١ ، ٢٠٣ ، ٢٣٠ ،
٢٦٣ .

فيليب أغسطس — ملك فرنسا : ١٠٥ .

(ق)

القائم — الخليفة العباسي : ١٠٣ ، ٢٧٤ .

- المركيت Merkits — قبيلة : ٦٥، ٦٤ .
المسترشد — الخليفة العباسي : ٩٦، ٩٥ .
٢٧٤، ٩٩ .
المستغنى — الخليفة العباسي : ٢٧٤ .
المستظفر — الخليفة العباسي : ٢٧٤ .
المستعصم — الخليفة العباسي : ٢٣٩ .
٢٧٤، ٢٤٦ .
المستعلي — بن الخليفة المستنصر الفاطمي : ٩٧ .
المستنجد — الخليفة العباسي : ٢٧٤ .
المستنصر — الخليفة الفاطمي : ١٨٦ .
٢٧٤، ١٩٧ .
المستنصر — الخليفة الفاطمي : ٩٧ .
١٠٣، ٩٨ .
مسعود بن محمد بن ملكشاه — السلطان
الساچوق : ٢٧٥، ٩٩، ١٩ .
المسيحية — المسيحيون : ١٧٧، ٧٣ .
٢٣٨، ٢٣٧، ٢٣٣، ٢١٢ .
٢٤٤، ٢٤٣، ٢٤٢، ٢٤١ .
٢٥٠، ٢٤٩، ٢٤٨، ٢٤٥ .
٢٥٨، ٢٥٦، ٢٥٢، ٢٥١ .
٢٦١، ٢٦٠ .
المصريون : ٢٤٨، ٢٤٢ .
مظفر الدين — حاكم خوزستان : ١٧٥ .
مظفر الدين قطز — أحد سلاطين المماليك
مصر : ٢٤٣ .
مظفر الدين ككري — صاحب إربل : ٢٨٦ .
المعتصم — الخليفة العباسي : ٩٤، ٩٣، ١٧ .
الحزب أيبك : ٢٤٣ .
المعظم عيسى — صاحب دمشق : ٣٦ .
١٨٠، ١٨١، ١٨٤، ١٨٥ .
المقتدى — الخليفة العباسي : ١٠٣، ٢٧٤ .
ابن المقفع — مترجم كتاب كلية ودمنة : ٨٣ .
الملاحدة — انظر الإسماعيلية .

- ٢٧٦، ٢٦١ .
كوچاي تكين — أحد الأمراء الخوارزميين :
٢٧٣ .
كورجوز Kurguz — أحد حكام المغول في
الدولة الخوارزمية : ٢٣٠، ٢٢٩ .
٢٥١، ٢٢١ .
كين Kin — إحدى الأسرات الصينية :
١١٣، ١١٢، ١١١، ٥٠، ٤٩، ٤٨ .
كيوك Kuyuk : ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٢ .
٢٤٦، ٢٤٥، ٢٣٦، ٢٣٣ .
٢٧٦، ٢٥٠، ٢٤٨ .

(ل)

- لويس التاسع — ملك فرنسا : ٢٣٨ .

(م)

- ماركوبولو : ٢٦١، ٢٦٠، ٢٤٤، ٢٢٩ .
ماجهوخان Mangu Khan : ٢٢٨، ٩٠ .
٢٣٨، ٢٣٧، ٢٣٤، ٢٣٣، ٢٣٢ .
٢٧٦، ٢٦٧، ٢٤٨، ٢٤٧ .
محمود الدين عمر بن سعد الخوارزمي — رسول
الخوارزميين إلى بغداد : ١٨٥، ٣٥ .
محمد بن طغج الإخشيد : انظر الإخشيد .
محمد بن قيس — الشاعر ، ومؤلف كتاب
« المعجم في معاني أشعار المعجم » : ٨٩ .
محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه — السلطان
الساچوق : ٢٧٥ .
محمد بن ملكشاه — السلطان الساچوق : ٢٧٥ .
محمود خان — الأمير الساچوق : ٢٢ .
محمود الخوارزمي — التاجر : ٦٩، ٦٨، ٦٧ .
محمود بن محمد بن ملكشاه — السلطان
الساچوق : ٢٧٥ .
محمود بن ملكشاه — السلطان الساچوق :
٢٧٥، ٩٦ .
مدير الملك — حاكم مدينة مرو : ١٤٩ .

الدولة الخوارزمية : ٢٢٩ .
نيمان Naimans — قبيلة : ٦٣ .

(ه)

هارون الرشيد : ٩٠ .
هندوغان — أمير خوارزمي : ٢٧٣ .
هولاكو : ٩٠ ، ١٠٢ ، ١٦٣ ، ٢٢٨ ،
٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،
١٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٩ ،
٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ .
هينون Haython — ملك أرمينية : ٢٣٧ ،
٢٤١ ، ٢٤٧ .

(و)

واي وانج Wai Wang — إمبراطور
أسرة كين الصينية : ١١٢ ، ١١٣ .
الوطواط ، رشيد الدين — الشاعر : ٢٢ ،
٨٧ ، ٨٨ .
وليم روبروك : ٢٣٨ ، ٢٤٨ .

(ي)

يحيى بن خالد البرمكي : ٨٣ ، ٩٠ .
يحيى خورشاه — الأمير الخوارزمي : ٢٧٣ .
أليساك — قانون المغول : ١١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ .
ينال خان — الأمير الخوارزمي :
٧١ ، ٧٣ ، ١١٨ ، ١١٩ .
يوسف كنيكا الأتراري — التاجر : ٦٧ .
يونس خان — الأمير الخوارزمي : ٢٧٣ .
ي لوتاشي Ye-lu Ta-shi ، مؤسس
دولة الخطا في إقليم التركستان : ٥٠ ،
٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ .
ي لوشوتساي Ye-lu Ch'u ts'ai ، وزير
چينكيز خان : ٧١ ، ٢٢٨ .

ملكشاه بن ألب أرسلان — السلطان
الساچوقى : ١٨ ، ١٩ ، ٥٢ ، ٥٤ ،
٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ،
١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ .
١٤٨ ، ٢٥٧ ، ٢٧٥ .
الماليك : ٢٤٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،
٢٦٠ .

ميخائيل باليولوجوس Machael Paleo-
logus — إمبراطور الدولة البيزنطية : ٢٥١ .

(ن)

الناصر — الخليفة العباسي : ٢٣ ، ٢٧ ،
٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ،
٥٧ ، ٨١ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٨٥ ،
٢٣٦ ، ٢٧٤ .

ناصر الدين ملكشاه — الأمير الخوارزمي
٢٧٣ .

النبي — انظر الرسول .
تجيم الدين الرازي — أحد رجال الصوفية : ٢٨٥ .
نزار — بن الخليفة المستنصر الفاطمي :
٩٧ ، ٩٨ .

النسطوريون — الكنيسة النسطورية :
٢٤٥ ، ٢٤٩ .

نصرة الدين حمزة بن محمد — الشاعر : ٨٩ .
نصير الدين الطوسي : ٢٦٦ .

نظام الملك — الوزير الساچوقى : ١٠٠ .
نظام الملك ناصر الدين محمد بن صالح —

الوزير الخوارزمي : ٢٠٤ .
نور الدين محمود بن زنكي : ١٠٤ .
نوشتكين — نعتسب إليه الدولة الخوارزمية :

١٩ ، ١٠٠ ، ٢١٠ ، ٢٧٣ .
نوصال Nussal — أحد حكام المغول في

(٢) أسماء المدن ، والأقاليم ، والأنهار ، والبحار .

٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ،
 ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ،
 ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
 ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ ،
 آسيا الصغرى : ١٥٢ ، ١٨٤ ، ٢٣١ ،
 ٢٤٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ،
 أصفهان ، أصهان : ٢٤ ، ٤١ ، ٧٩ ، ٩٩ ،
 ١٧٢ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ،
 ١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٣ ، ٢٧٥ ،
 ألمانيا : ١٠٥ ،
 الموت — حصن الإسماعيلية : ٣٤ ، ٩٨ ،
 ١٨٨ ، ١٩٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٩ ،
 آمد — مدينة في أعلى نهر دجلة : ٩٤ ،
 أمريكا : ٢٦١ ،
 أموية — مدينة على نهر جيحون : ٥٥ ،
 إنجلترا : ١٠٥ ،
 أنطاكية — إمارة صليبية ، مدينة : ١٠٤ ،
 ١٠٧ ، ٢٣٧ ، ٢٤٧ ،
 أوربا : ٤٨ ، ٨٠ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١٢٦ ،
 ٢٢٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
 ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٤ ،
 أوزكند — مدينة على نهر سيحون : ٦٢ ،
 إيران : ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
 ب
 باب اللوق — أحد أحياء القاهرة : ٢٤٢ ،
 ٢٤٣

(١)

الأفغان : ٢٣٠ ،
 الإمبراطورية الرومانية : ١٠٨ ،
 الأندلس : ٣٣ ،
 أنرار — مدينة على نهر سيحون : ٧٠ ،
 ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١١٤ ،
 ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ،
 ١٢٠ ، ٢٠٦ ،
 أذربيجان : ٢٨ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ،
 ٤٣ ، ٤٤ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠٢ ،
 ١١٧ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ،
 ١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،
 ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٩٣ ،
 ١٩٤ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٩ ،
 ٢١٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ،
 أرنان : ٢٨ ، ٤٤ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ،
 ١٩٧ ، ١٩٨ ،
 إربل — أتابكية ، مدينة : ١٠٢ ، ١٣٥ ،
 ١٣٦ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢٣٦ ،
 أرمينية : ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٥٢ ،
 ١٩٨ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ،
 ٢٥١ ، ٢٦٠ ،
 أرمينية الصغرى : ٢٣١ ،
 آسيا : ١٧ ، ٤٠ ، ٤٧ ، ٥٩ ، ٦٤ ،
 ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ،
 ٧٠ ، ٧١ ، ٩٠ ، ٩٨ ، ١٠٧ ،
 ١١٠ ، ١١١ ، ١١٦ ، ١٤٥ ،
 ١٧٤ ، ٢١٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤

٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،
 ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ،
 بعلبك : ١٠٥ ،
 بكين : ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ٢٥٥ ،
 بلخ : ٢٦ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٨٧ ، ١٢٧ ،
 ١٢٧ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٦٣ ،
 ١٦٤
 بلغاريا : ١٣٦ ، ١٦٤ ، ٢٢٦ ،
 بلاساغون — مدينة ياقليم التركستان : ٥٢ ، ٥١ ،
 بلاد العرب : ١٠٦ ، ٢٥١ ،
 البندقية : ٢٥٦ ، ٢٥٩ ،
 بنكت — مدينة على نهر سيحون : ١١٨ ، ١٢٠ ،
 بودابست : ٢١٥ ،
 بولندا : ١٦٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٥ ، ٢٥٧ ،
 بيروت : ١٠٧ ،
 يروان — مدينة على نهر السند : ١٥٣ ،
 ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
 بيت المقدس : ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ،
 ١٨٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ،

(ت)

تانا Tana : ٢٥٩ ،
 التبت : ٥١ ، ٦٤ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
 ٢٤٤ ،
 تبريز — حاضرة أذربيجان : ١٣٣ ، ١٣٤ ،
 ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٤ ،
 ١٩٧ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠ ،
 قستر — حاضرة خوزستان : ١٧٥ ،
 تفليس — حاضرة جورجيا : ١٣٤ ، ١٧٨ ،
 ١٧٩ ، ١٩٨ ،
 التركستان : ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ،

باميان — مدينة على نهر جيحون : ٢٩ ،
 ١٣٧ ، ١٥٣ ،
 البامير — هضبة : ٢٦٠ ،
 البحر الابيض : ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،
 ٢٦٠ ،
 البحر الاحمر : ٢٥٥ ،
 البحر الاسود : ٧٦ ، ١٣٦ ، ٢٣٥ ،
 ٢٣٦ ، ٢٤٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
 بحر آرال : ٢٨ ، ٣٨ ، ١٦٤ ،
 بحر قزوين : ٢٦ ، ٢٨ ، ٤٠ ، ٧٣ ،
 ١١٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،
 ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،
 ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ،
 ٢٠٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،
 بحر مرمرة : ٩٢ ،
 بحيرة بيكال : ١٩ ، ١٠٩ ، ٢٤٥ ،
 بحيرة وان : ١٨٠ ،
 بخارى : ٢٤ ، ٢٨ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ،
 ٦١ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٩٤ ،
 ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ،
 ١٤٤ ، ١٦٣ ، ٢٠٦ ، ٢٣١ ،
 ٢٥٥ ، ٢٦٥ ،
 بشاور : ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
 البصرة : ١٧٥ ، ٢٥٥ ،
 بغداد : ١٧ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ،
 ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
 ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ،
 ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٨٠ ،
 ٨١ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
 ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٢٩ ، ١٧٥ ،
 ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٥ ،
 ١٨٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ،

١٢٨ ، ١٢٢ ، ١١٧ ، ٩١ ، ٩٠
 ١٤٤ ، ١٤٣ ، ١٣٩ ، ١٣٨ ، ١٣٣
 ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٤٨ ، ١٤٧ ، ١٤٦
 ١٧٣ ، ١٧٢ ، ١٦٨ ، ١٦٤ ، ١٥٢
 ٢٠٥ ، ١٩٢ ، ١٩١ ، ١٨٨ ، ١٧٥
 ٢٣٢ ، ٢٣١ ، ٢٢٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦
 ٢٧٥ ، ٢٦٠ ، ٢٥٥ ، ٢٣٣
 خلاط : ١٨٢ ، ١٨١ ، ١٨٠ ، ١٣٤
 ١٩٥ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٨٤ ، ١٨٣
 ١٩٦ ، ٢٠٩ ، ٢٢٧
 خليج الإسكندرونة : ٢٥٩
 الخليج الفارسي : ٢٥٦ ، ٢٥٤ ، ٢٨ ، ٢٨
 ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠
 خنسا Khinsa — ميناء على ساحل آسيا
 الشرقى : ٢٦٠
 خوارزم — مدينة ، إقليم : ٢٤٠ ، ٢٠٠ ، ١٩
 ٢٥ ، ٢٩ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٢ ، ٨٧ ، ٨٦
 ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١١٧
 ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨
 ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣
 ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٣
 ١٦٤ ، ١٧٣ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠٣
 ٢٠٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣
 خوتان — إحدى مدن تركستان : ٥١ ، ٥٠
 ٦٥ ، ٢٥٨
 خوزستان : ٣٩ ، ٣٢ ، ٩٠ ، ٩٨ ، ١٧٥
 ١٨٩ ، ٢٠٩

(د)

دقوتا — مدينة بأتابكية لإربل : ١٣٥
 ١٣٦ ، ٢٠٩
 دمشق : ٣٦ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥
 ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٤

٢٥٨ ، ٥٩

ترمذ : ١٤٣ ، ١٣٧ ، ٢٨

تيان شان Tian Shan — جبال : ٢٥٨

(ج)

جبلة : ١٠٧ ، ١٩٧ ، ٢٣٦
 بلاد الجزيرة : ١٣٥ ، ١٣٤ ، ١٠٢ ، ٩٤
 ١٨٤ ، ١٩٤
 جند — مدينة على نهر سيحون : ٥٦ ، ٥٥
 ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١
 جوبي — صحراء : ١٠٩ ، ١٠٨ ، ٥١
 ٢٦٠
 جورجيا : ١٣٦ ، ١٣٤ ، ١٣٣ ، ١١٧ ، ٩٤
 ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١
 ١٩٨ ، ٢٠٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨
 ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠
 ٢٤٧
 جنوة : ٢٥٩ ، ٢٥٦
 جوين — مقاطعة بخراسان : ٩٠

(ح)

الحجاز : ١٦٣ ، ١٠٣
 حطين : ١٠٥
 حلب : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦
 ١٠٧ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٦٠
 حلوان — مدينة بالعراق العجمي : ٤٥
 حماه : ١٠٦ ، ١٠٥
 حمير : ١٩٧
 حمص : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨

(خ)

خجندة — مدينة على نهر سيحون : ١١٨
 ١٢٠ ، ١٣٨
 خراسان : ٢٦ ، ٢٥ ، ٢٢ ، ٢١ ، ١٩
 ٢٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٧٩ ، ٨٧

سِنْجَار : ١٩٦ ، ١٠٢ .
 سُهرورد — قرية بإقليم زنجان : ٣٥ .
 سوريا : ٢٤١ ، ٢٣١ ، ١٠٥ ، ١٠٣ ، ٩٤ .
 . ٢٦٠ ، ٢٥٩ .
 سيبيريا : ١٠٨ ، ٥١ .
 سِراف — ميناء على الخليج الفارسي : ٢٥٤ .
 سيلان : ٢٦٤ .
 سِيلِيزِيَا : ٢٣٥ .
 سيواس : مدينة بآسيا الصغرى : ١٨٤ .

(ش)

الشام : ١٠٤ ، ١٠٣ ، ١٠٢ ، ٩٧ ، ٩٣ .
 . ٢٣٨ ، ١٨٤ ، ١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٠٥ .
 . ٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٢ .
 شان سي — إقليم بالصين : ٤٩ .
 شن سي — إقليم بالصين : ٤٩ ، ٥٠ .
 شَنْغُوَاي : ٢٥٥ .
 شيراز — حاضرة أتابكية فارس : ٤٤ ، ١٦٩ .
 . ١٧٢

(ص)

صور : ١٠٧ .
 صيدا : ١٠٧ .
 الصين : ٦٧ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٣٣ ، ٢٨ .
 . ١١١ ، ١١٠ ، ١٠٩ ، ١٠٨ ، ٦٩ ، ٦٨ .
 . ٢١٦ ، ١٧٤ ، ١٦٤ ، ١١٧ ، ١١٢ .
 . ٢٤٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢١ .
 . ٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٣ .
 . ٢٦٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩ .
 . ٢٦٩

(ط)

الطالقان — مدينة على نهر جيحون : ١٣٢ .
 . ١٥٣ ، ١٥٢ ، ١٤١

١٨٥ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢ .
 . ٢٥٥ ، ٢٤٣ .
 حلاشيا : ١٦٤ .
 دمياط : ١٣٥ .
 دهل : ١٧٠ ، ١٦١ ، ١٦٠ .
 ديار بكر : ٢٣١ ، ١٩٦ ، ١٩٤ ، ١٠٢ .

(ر)

الريقة : ١٠٧ .
 الرها : ١٠٧ ، ١٠٤ .
 روسيا : ٢٤٥ ، ٢٣٥ ، ١٦٤ ، ١٣٦ .
 . ٢٥٧ .
 روما : ٢٤٦ .
 الري : ٨٩ ، ٤٤ ، ٣١ ، ٢٧ ، ٢٥ ، ٢٤ .
 ١٧٢ ، ١٣٣ ، ١٣٢ ، ١٣١ ، ١٢٨ .
 . ٢٦٩ ، ١٩٣ ، ١٩٢

(ز)

زنجاريا — سهرل : ٢٥٨ .
 زوزن — مدينة في خراسان : ١٥٤ .
 زيتون Zaytoun — مدينة على ساحل آسيا
 الشرق : ٢٦٠ .

(س)

سامرا : ٢٣٦ ، ١٩٧ ، ٩٤ .
 ساوة : مدينة بالعراق المعجمي : ٢٧ .
 سرخس : مدينة بخراسان : ٥٤ .
 سلطانية : مدينة بفارس : ٢٧٠ .
 سمرقند : ٧١ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٢٨ .
 . ١٢٣ ، ١١٩ ، ١١٨ ، ٩٤ ، ٧٩ .
 ١٣٢ ، ١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٢٤ .
 . ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ١٦٣ ، ١٤٤ ، ١٣٩ .
 . ٢٦٥ ، ٢٥٥ ، ٢٣٨ ، ٢١٩

(ف)

فارس : ١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ،
 ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥٣ ، ٥٥ ،
 ٧٥ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ٩٨ ،
 ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٦٣ ،
 ١٧٩ ، ١٨٤ ، ٢٠٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ،
 ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ،
 ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧٥ ،
 أتابكية فارس : ٢٧ ، ٣٧ ، ٧٩ ، ٨٣ ،
 ٨٤ ، ٨٩ ، ١٠٢ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ،
 ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٩٣ ،
 فرنسا : ١٠٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٨ ،
 فلسطين : ١٠٣ ، ٢٤٨ ،

(ق)

قاشان : ٢٦٩ ،
 قبرص : ١٠٧ ، ٢٤٧ ،
 قره قورم — حاضرة المغول : ٦٦ ، ١١٠ ،
 ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٦ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ،
 ١٧٤ ، ١٩١ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،
 ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٦٣ ،
 قزوين : ٢٧ ، ١٣٢ ،
 القسطنطينية : ١٠٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٦٤ ،
 قم — مدينته بالعراق المعجمي : ٢٧ ،
 قونية : ١٠٧ ،
 قوهستان : ٩٨ ، ٩٩ ،
 قيسارية : ١٠٧ ،

(ك)

كابل — مدينة على نهر السند : ٢٧ ، ١٥٥ ،
 كاشغر — مدينة بتركستان : ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،
 ٦٥ ، ١٦٤ ،

طبرية : ١٨٠ ،
 طرابلس — اماره صايقية ، مدينة : ١٠٤ ،
 ١٠٧ ،
 طرايزون : ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
 طرسوس : ١٠٧ ،
 طوس : ١٤٥ ، ١٥١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،

(ع)

العراق ، العراق العربي : ١٩ ، ٢٣ ، ٢٤ ،
 ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ،
 ٤٢ ، ٥٧ ، ٦٧ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٩٠ ،
 ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ،
 ١٠٥ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٧٧ ، ١٩٧ ،
 ١٩٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ،
 ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٧٥ ،
 العراق المعجمي : ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ،
 ٣١ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٣ ،
 ٤٥ ، ٧٩ ، ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
 ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
 ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٩٢ ،
 ١٩٤ ، ٢٠٨ ، ٢٣٥ ، ٢٧٠ ،
 المريش : ١٠٧ ،
 عسقلان : ١٠٧ ،
 عكا : ١٠٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٨ ،
 عمان : ٢٨ ،
 عين جالوت : ٢٤٢ ،

(غ)

غزنة — حاضرة الدولة الغورية : ٢٦ ، ٢٧ ،
 ٢٩ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٧٥ ، ٩١ ،
 ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ،
 ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٩١ ،
 ١٩٢ ، ٢٠٨ ،
 غزة : ١٠٧ ،

١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .
 ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤ .
 ١٤٨ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٣ ، ١٩٠ .
 ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٨ .
 ٢١٩ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ .
 ٢٦٥ .
 المحيط الهندي : ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .
 المدينة : ١٠٣ .
 مراغة — مدينة في أذربيجان : ٧٠ ، ١٣٤ .
 ١٧٧ ، ٢٦٦ .
 مرج سائغ — قلعة بخراسان : ١٤٧ .
 مرو : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٤٥ ، ٤٠ ، ١٠٨ .
 ١٥٢ ، ٢٣٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٥ .
 مصر : ٢٨ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٣ .
 ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٩ ، ١٣٥ .
 ١٨٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ .
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ .
 مكران : ٢٦ ، ٢٩ .
 ملازكرد — موقعة هزم فيها السلاجقة
 الصليبيين : ٩٤ ، ١٠٤ .
 مكة : ١٠٣ .
 منشوريا : ٤٨ ، ٤٩ ، ١٠٩ ، ١١١ .
 المنصورة : ٢٤٨ .
 مورافيا : ١٦٤ ، ٢٣٥ .
 الموصل : ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٣٥ ، ١٨٤ .
 ١٨٦ ، ٢٣١ ، ٢٤١ .
 موقان — سهل على الساحل الغربي لبحر
 قزوين : ١٣٣ ، ١٩٤ ، ١٩٨ .
 مولتان — مدينة بالهند : ١٦٠ ، ١٦١ .
 ١٦٢ ، ١٧٠ .
 منبج : ٢٠٧ .
 منغوليا : ١٠٨ ، ١١٥ ، ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٦٣ .
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ .
 عسافارقين : ١٨٠ .

كانتون — ميناء بالصين : ٢٥٣ ، ٢٥٤ .
 ٢٦٠ .
 كانسو — مقاطعة بالصين : ٤٩ .
 كرتشي : ١٦٠ .
 كردستان : ١٩٤ ، ٢٤٠ .
 الكرك — حصن بمملكة بيت المقدس : ١٠٧ .
 كرمان : ٢٦ ، ٢٩ ، ٧٩ ، ١٠٢ ، ١٧١ .
 ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٩٣ ، ٢٣٣ .
 كفا Kaffa : ٢٥٩ .
 كنجان — جبل : ١٠٩ .
 كنجة — مدينة في شمال أذربيجان : ١٧٧ .
 ١٨٨ ، ١٩٨ .
 كيش Kesh — مدينة في بلاد ماوراء النهر :
 ٢٣٨ .

(ل)

لللاذقية : ١٠٧ .
 لاهور : ١٦٠ ، ١٦٢ .
 لورستان : ١٠٢ ، ١٦٢ ، ٢٤٠ .
 لياو Liao — إقليم في شرق آسيا : ٤٨ ، ٤٩ ،
 ٥٠ .
 ليون — مدينة بفرنسا : ٢٤٦ .

(م)

ما بين النهرين : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٨٤ ،
 ٢٠٩ ، ٢٤١ ، ٢٦٠ .
 ماردن : ١٩٦ .
 مازندران — إقليم جنوب بحر قزوين : ٢٦ ،
 ٢٩ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٧ .
 — ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٢٠٥ .
 ٢٢٧ .
 ماوراء النهر : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٣٦ ، ٤٥ ،
 ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ .
 ٦٣ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٩١ ، ١١٥ ، ١١٧ .

١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ٢٠٤
٢٢٧ ، ٢٦٥ ، ٢٧٥

(هـ)

هراة : ٢٦ ، ٧٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٧ ،
٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣
هرمز — ميناء عند مدخل الخليج الفارسي :
٢٦ ، ٢٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠
هزارسب — قلعة غربي نهر جيحون :
٨٧ ، ٨٨
همدان : ٢٧ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ١٣٢ ،
١٣٣ ، ١٩٣
الهند : ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٨ ، ٥١ ، ١٢٧ ، ١٥٥ ،
١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ،
١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٥ ،
١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٠٨ ، ٢٤٤ ، ٢٥٤ ،
٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ،
٢٦٧
هنغاريا : ٢٣٥ ، ٢٥٧

(ي)

يافا : ١٠٧
يزد : ٧٩ ، ١٧٢ ، ٢٢٨
يعقوبا — قرية في طريق خراسان : ١٧٥
اليمن : ٢٨
اليونان : ٢٦٤ ، ٢٦٧

(ن)

نابلس : ١٠٧
نسا : ٨٩ ، ١٣٩ ، ١٤٦ ، ١٥٤
نصيبين : ١٩٦
نهر آمور : ٤٩
نهر التاريم : ٢٥٨
نهر جيحون : ٢٩ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
٦١ ، ٨٧ ، ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ٢١٨ ،
٢٢٩ ، ٢٣٩
نهر دجلة : ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ،
١٩٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٦٠
نهر السند : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٦٠ ، ١٥٨ ،
١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٠ ،
٢٣٣
نهر سيحون : ٥١ ، ٦٢ ، ٧١ ، ١١٥ ،
١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٥٣ ،
١٦٣ ، ٢٣٤
نهر الفرات : ١٨٠ ، ٢٢٩
نهر كور : ١٣٣
نهر هوانهو : ٤٩ ، ١١٣
نهر يانج تسي : ٤٩
نيسابور — مدينة بخراسان : ٢١ ، ٢٥ ، ٤٥ ،
٥٤ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٤٧

(٣) الوظائف ، والدواوين

(١)

الأتا بكة : ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١١ ، ٢٠٥ ،

٢٥٧

الاستادار ، أستاذ الدار : ٧٨

(ب)

بيت الركاب : ٧٨

بيت السلاح : ٨٤

بيت الفراش : ٧٧

بيت الملك : ٨٤

(ج)

الماشكير : ٧٨

الجاويز ، الجاروش : ٧٨

(ح)

الحاجب : ٧٩

حامل أختام : ٧١

الحسبة : ٨٥

(خ)

الحازندار ، الحازن : ٨٤

(د)

الدواوين ، معنى كلمة ديوان وتطورها :

٨٣ — ٨٤

ديوان الإنشاء : ٨٣

ديوان الجند : ٨٤

ديوان الجيش : ٨٤

ديوان الخراج : ٨٤

ديوان الرسائل : ٨٣

ديوان المظالم : ٨٦

(ر)

الرختوانية : ٧٨

(س)

الساق : ١٩ ، ٧٨ ، ١٠٠

السلاح دار : ٨٤

السلطان ، قصور السلاطين : ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩

(ش)

الشاويش : انظر الجاويش

(ص)

صاحب الجيش : ٨٤

صاحب ديوان الإنشاء : ٨٣

صاحب ديوان الرسائل ، متولى ديوان الرسائل :

٨٣

صاحب ديوان المكاتبات ، متولى ديوان

المكاتبات : ٨٣

صاحب المظالم : ٨٦

(ط)

الطشت خاتاه : ٧٨

الطشت دليز : ٧٧

الطشت دلرية : ٧٨

(ق)

القراقبة (حراس الطرق) : ٦٩

القصة دار : ٨٦

(ك)

كاتب الإنشاء : ٨٣

الكورتللى Kurilti : ٢٠٧ ، ٢٧٦

(م)

المحتسب : ٨٥

المستحفظون (حراس الطرق) : ٦٩

مشرف المالك : ٧٧

مقدم الفراشية : ٧٧ ، ١٨٣

مهردار ، حامل أختام : ٧١

(ن)

النظام القضائي : ٨٥

(و)

الوزراء ، قصور الوزراء : ٧٩

سلطة الوزراء : ٨٢ ، ٨٣

(ي)

اليساق ، الياسة : ١١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣

استدراك

رغم ما بذل من جهد في إخراج هذا الكتاب ، وقعت بعض الأخطاء الطبعية أعتذر للقارىء عنها
وأرجو أن يفضل بتصحيحها قبل قراءة الكتاب .

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٣	٩	ما لك	ما ليث	٢١٧	١	أمير المؤمنين	أمير المؤمنين :
٦٣	١	اجتماعية	اجتماع	٢٢٠	٢٣	أن تلك	إن تلك
٧٧	٧	انتصرت	انتصرت	٢٢١	٩	وعلى أنه	على أنه
٨٢	١٥	استدعى	استدعى	٢٣٧	١٧	فلاديميرستوف	فلاديميرستوف
٨٦	١٧	السواء	السوداء	٢٣٧	١٧	Vladimirstov	Vladimirstov
٨٦	٢٣	رؤيته	رؤياه	٢٣٨	٩	غزته	غزته
٨٨	١٢	المقول	المقول	٢٦٠	٣	بهي الدين	بهاء الدين
٨٨	٢٠	الاجتماعية	الاجتماعية	٢٦٠	١٤	Ye-lu Ch'u ts'al	Ye-lu Ch'u Ts'al
١٣٨	٤	Ogtai	Ogotai	٢٦١	١٠	Kurguz	Kurguz
١٤٥	٩	بخارا	بخارا	٢٦٩	٨	تهنوتى وتعرضون	تهنوتى به وتعرضون
١٩٢	٦	الرئيسى	الرئيسى	٢٦٩	٨	عيه	عِبه
١٩٧	١٠	كان نشاطه	وكان نشاطه	٢٧٩	٢٢	النوت	لنوسنت
١٩٩	٢	سعد بن نكلا	سعد بن زنى	٣٠٠	١١	غرب آسيا	شرق آسيا
٢٠٩	١٧	١٣٢٦	١٢٢٦				

تطلب جميع منشوراتنا من فروغنا

الفرع الرئيسي:

٦-١ شارع جوارحسنى - القاهرة

ت : ٧٥٠١٦٧

فرع الرقة:

٢٧ شارع عبدالعظيم راشد - متحف من

شارع الدكتور شافيع - بالمجوزة

ت : ٧١٧٤٩٨

فرع مدينة نصر:

٩٤ شارع عباس العقاد - المنطقة السابعة

و من مؤسسه

دار الكتاب الحديث

للطباعة والنشر والتوزيع

المطبع شارع عهد السلام عمارة السرى الكبير

بدرار الجارى الشرى محل رقم ٣٥٠ ارضى

ب - ٢٤١٦٧٦٥ ص ٠ ب ٢٢٧٤٤